مطبوعات ورسائل العشيرة المحمدية

كلمة الرائد

افتتاحية مجلة المسلم لأكثر من خمسين عاما

لفضيلة الأستاذ الإمام السيد

محمد زكي إبراهيم

رائد العشيرة المحمدية

رحمه الله تعالى رحمة واسعة

إعداد

أمانة الدعوة

الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله الذي تقدس بالجلال، وتعزز بالجمال، وتوحد بالكمال. سبحانه من عزيز لا يعده عد، ولا يحده حد، ولا يدركه وهم، ولا يصوره تصور. واحد لا من قلة، وموجود لا من علة. ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

و الصلاة والسلام على سيدنا محمد، صلاة وسلامًا سعة الأزل والأبد، وزنة الغيب والشهادة، وقداسة العرش والسدرة، وإحاطة العلم والقدرة، وكمال الغيب والحضرة، وخلود الذات والصفات. عدد المعلوم والمجهول، والمنظور والمسطور، والشفع والوتر، والسابق واللاحق، وما كان وما يكون إلى يوم الدين، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرًا. أما بعد:

فيمثل هذا السفر الجزء الثاني من «**كلمة الرائد**» للإمام أبي البركات محمد زكي الدين إبراهيم رائد العشيرة المحمدية رضي الله عنه وأرضاه، والتي تحتوي على مجموعة من المقالات والبحوث المتنوعة المتعمقة في مجال التصوف علمًا وعملًا، مقالًا وحالًا، دعوة ومنهجًا، كان يفتتح بها الإمام الرائد رحمه الله مجلة المسلم لسان حال دعوة العشيرة المحمدية، رسالة الوعي الإسلامي الناهض بالدعوة الروحية السلفية الشرعية، على مدى أكثر من خمسين عامًا.

وهي على تنوعها وعمقها تمثل فوق ذلك تسجيلًا تاريخيًا ليس لدعوة العشيرة فحسب، وإنما للدعوة الصوفية عمومًا، ولكثير من العلاقات العلمية والدعوية، والأحوال الدينية والثقافية والفكرية والاجتماعية والأحداث التاريخية الهامة سواء في مصر أم غيرها من بلاد الإسلام عمومًا.

ولا يسعنا في هذه العجالة إلا أن نترك للقارئ أن يتلمس بنفسه نفائس المعارف، ودقائق العلوم وفرائد المعاني ما يغنينا عن التكلف لبيانه، فلطالما استعصت كلمات للإمام الرائد رحمه اللَّه أن تترك للمرء أيما مساحة للتقديم، فهي تتحدث دائمًا عن نفسها بما يعجز الآخرون عن الكلام بشأنها.

أمانه الدعوة والشباب

بعضُ أحكامِ وتقاليدِ الموالد بين الماضي والحاضر والمستقبل [(١)]

كانت قد طلبتْ بعضُ الجهاتِ المهتمة بشئون الموالد وعلاقتها بالتصوف وبالشَّريعة والاجتماع، من السيد الرائد -كتابةَ مذكرةٍ مركزةٍ ملخصةٍ، بتاريخ نشوء الموالد وتطورها، وأحكامها في الإسلام، مع بعض تقاليدها، ووسائل تطويرها وتطهيرها، حتى يمكنَ أن ينتفعَ بها المسلمون، ولا تكون سُبَّةً وعارًا على التَّصوف والصُّوفيين، وكانت المذكرةُ مطلوبةً على سبيل الاستعجال، وكان السيدُ الرائدُ مريضًا؛ فأملى هذه الفصولَ المختصرة، ونحن ننشرُ ما تيسر منها هنا للعلم والتاريخ، قال سيادته:

أولاً: من الوجهة العامة:

كلُّ عملٍ يعودُ على المجتمع الإسلاميِّ بالخير، ولا يخالف نصًّا صريحًا، في الدِّين ولا معلومًا من الدِّين بالضرورة، لا يمنعه الإسلام؛ فإنَّ هدف الإسلام هو صالح البشرية أولاً وأخيرًا.

ولَمَّا كان الأصلُ في إقامة الموالد، هو الاعتبار بسيرة صاحب المولد، والانتفاع بذكراه، وانتهاز فرصة التجمع للتعارف والتعاون على البرِّ والتقوى، والانصراف إلى الله بذكره والتعبد له، والاستماع إلى الوعظ والقرآن وإخراج الصدقات، وتنشيط الحركة الاقتصادية والعلمية والاجتماعية والرُّوحية بصفة عامة -لَمَّا كان ذلك كذلك؛ ندب الإسلامُ

(١) مقال: غرة شعبان (١٣٨٠ هـ)، ١٨ يناير (١٩٦١م)، العدد الأول السنة الحادية عشرة.

إلى هذه الخدمات المباركة، ولكلٍّ منها أدلتها، ولم يُعرف في تاريخه مَن أنكر على مثل هذه الحركة الصالحة الشاملة.

فلمَّا دخلت البدعُ والمناكرُ إلى هذه الأسواق الربانية النافعة، بدأت حركة الإنكار، لا على أصل الفكرة، ولكن على ما اندسَّ فيها ومَسَخَها من أقوالٍ وأعمالٍ وعقائدَ تالفة.

ثانيًا: من الوجهة المدنية:

ومن هنا اهتمت الأممُ على اختلاف أديانها وعقائدها بإحياء ذكريات أبطالها الدينيين والمدنيين، بل وإحياء ذكريات أيامها الخوالد؛ لِمَا في ذلك من التربية النفسية والتوجيه، وتركيز المبادئ والمذاهب التي تؤمن بها الأمم، وقد رأينا الأممَ التي يفتقر تاريخها إلى الذكريات والأبطال تخلق لها ذكرياتٍ وأبطالاً أسطوريين؛ لتشبعَ الرغبةَ الفطرية في الاعتزاز بالسَّلف والقدوة بهم، فإحياءُ هذه الذكريات المباركة سُنَّةٌ إنسانية من أصول طبائع الأمم، وضرورةٌ من ضرورات المجتمع للتنفيس والترويح المحبب، ومناسبةٌ ناجحة من مناسبات الانتعاش الاقتصادي والتجاري والعلمي والروحي والاجتماعي والنفساني وغيره.

ثالثًا: النصوص الدينية:

ويمكن الاستئناس في الندب إلى الاهتمام بهذه الذكريات بقوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ١٥]، ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ٣٣].

فتخصيصُ يوم ولادة النَّبيِّ ﷺ بالذكر وطلب السلام، فيه على لسان الحق، ثم على لسان الخلق، دلالةٌ على كرامة هذا اليوم على الله، فالولادةُ

نفسها حَدَثٌ ضخمٌ يدل على القدرة العُظمىٰ، ويوجه إلىٰ خصائص الألوهية والربوبية، فكيف إذا كانت ولادةَ إنسانٍ سبق في العلم القديم أن يكون له في حياة الناس أثر، قد تتغير بسببه صورة المجتمع في حسيَّاته ومعنوياته؟!

وإذ كانت هذه المنزلة ليوم الولادة، فلا بُدَّ أن يكون ليوم الوفاة منزلته وخطورته بالتالي، وإذا كان هذا بالنسبة للنبيﷺ بوصفه داعية الإصلاح الشامل، فهو كذلك وراثةٌ بالطبع فيمن استنَّ بسنته، وانتهج هديَهُ من عباد الله الصَّالحين.

ولقد كان رسولناﷺ يُحْيِي بشخصه ذكرىٰ مولده في كل أسبوع مرة، لا في كل عام مرة، وذلك أنهﷺ كان يلازمُ صيامَ يومِ الاثنين، فسُئل في هذا فقال: «**هو يومٌ ولدتُ فيه**»، فكان صومُهُﷺ لهذا اليوم -شكرًا لله- نوعًا من إحياء ذكرىٰ مولده، وتوجيهًا إلىٰ منزلة هذا اليوم، وحثًّا على الاهتمام بشأنه، وفي اهتمام النبيﷺ بإحياء «**سُبوع**» المولود توجيهٌ إلىٰ تقدير يوم الولادة كذلك، وعملُ ما يذكِّرُ به، وما يكون شكرًا لله عليه.

رابعًا: صورةُ الموالد الحالية:

ولا بُدَّ من التنبيه إلى الدَّعوىٰ التي تقول: إنَّ هذه الفكرة لم تكن معروفةً بصورتها الحالية في زمن الصحابة والتابعين؛ فليس كلُّ شيءٍ لم يعمله الصحابة يكون حرامًا، وإلا كانت عيشتنا كلها اليوم حرامًا في حرام؛ إذ لم يكن معروفًا منها علىٰ عهد الصحابة واحدٌ علىٰ مائة.

ولا مرية أبدًا في أنَّ أصل الفكرة موجودٌ في الدين كما قدَّمنا، ثم تطور

هذا الأصل مع الزمان؛ بحكم عدم محدوديته في الشريعة.

والمشهورُ أنَّ أول من احتفل بذكرىٰ مولدهﷺ بما يشبه الصورة الحاضرة، أو ما كان أساسًا لها بالفعل، هو الملك المظفر ملك «**أربل**»، وعنه تناقل المسلمون الاحتفال بذكرىٰ المولد النبوي، حتىٰ صارت بتلاحق العصور وتداول الأمم علىٰ صورتها الحالية، جامعةً بين الخير والشر، وكثيرًا ما يكون ضَرُّها أكبر من نفعها.

ونَقَلَ الناسُ هذه الصورةَ الشائهةَ بهيئةٍ مُصغرة إلىٰ ذكريات رجال الله، وما زال الشيطانُ يدُسُّ أنفَهُ فيها، ويزين للناس حبَّ الشهوات وفعلَ المنكرات، حتىٰ أصبحت الموالد بوضعها الحالي أمراضًا اجتماعية ودينية في أخطر الدرجات؛ فقد مُسختْ كلُّ المعاني الكريمة التي تُلتَمسُ في هذه المناسبات، إلىٰ معانٍ لئيمة مدمرة، وأصبحت الموالدُ أسواقَ فساد، وتجارةَ أعراض، ومزرعةً للميسر، ومَبَاءَةً لِلَّهو الحرام، ومصرفًا للممنوعات والمخدِّرات، وشباكًا للصوصية، واستغلالاً للسذج، وتَحوَّلَ خيرُ ما فيها من الذِّكرِ والصدقة والإرشاد، إلىٰ ألوانٍ رخيصة من الرياء والنفاق والمفاخرة والمكاثرة والتهريج، وإرادة غير الله، وبيع الآخرة بالدنيا وشراء الدنيا بالدين، بله الشعوذة والتدجيل والمخرقة.

فإذا أضفنا إلىٰ ذلك ما يُسمى المواكب بمهازلها ومباذلها، وما يُسمَّى الركبة بعارها وشنارها، وما يُسمَّى الجمع والشورة ببدعها وشنعها، وما يتخلل ذلك من طبول وزمور ورقص، ومتالفَ دينية، وكيف يتأثر المجتمع بهذه الأوبئة، وكيف يُصوَّرُ الدِّينُ أمامَ أعدائه، وأمامَ الأجانب بهذه الصور المزرية، التي لا تمتُّ إلى الجدِّ، ولا إلى التصوف النظيف بأي سبب، إذا

أضفنا هذا عرفنا إلىٰ أي حدٍّ كان كفاح هذه الموبقات فرضًا عينيًّا علىٰ كل غيور على الدين وعلىٰ تصوف المسلمين .

في سبيل كفاح هذه الموبقات :

ومنذ ما ظهرت موبقات إدماج اللهو في العبادة باسم التصوف المسكين المظلوم ، وعلماءُ الصوفية وغيرهم علىٰ رأي واحد في كفاحها ؛ حفاظًا علىٰ بيضة الدين ، وصيانةً لسمعة التصوف ورجاله .

والمسلم الصوفي المنصف الذي يطلع علىٰ ما جاء –مثلًا– في «**الزواجر**» ، وما جاء في «**كف الرعاع**» ، وما جاء في «**المدخل**» ، وما جاء في كتب الإمام الشَّعراني ، ومِنْ قبله الإمام السيوطي ، وغيرهم من علماء الصوفية ، يدرك مدىٰ العبث الذي أصاب موالد الصوفية ، ونقلها من أسواقٍ روحانيةٍ يستروح الناس فيها روائحَ الجنة ، ويستشرفون عبيقَ الغيب الأسنىٰ ، ويشحنون قلوبَهم بالطاقات الإيمانية الهائلة ، إلىٰ ساحاتٍ للمخابث ، ومسارحَ للشيطان ، يعرض فيها كبائره الموبقة باسم الدين والتصوف المظلوم .

ولقد تزَّعم كفاحَ هذه الموبقات في العصر الحديث من علماء الصوفية : شيخُ الإسلام **البِشْرِي** ، ومن عاصره من علماء الصوفية أيضًا كالشيخ **بخيت** والشيخ **السيوطي** ، والشيخ **أبو عليان الصعيدي الشاذلي** ، والشيخ **الحصافي الشاذلي** ، والشيخ **خطَّاب السُّبكي** –وهو من كبار الصوفية وإن أنكرَ أتباعه– ، ثم الشيخ **إبراهيم الخليل الشاذلي** ، ثم الشيخ **سلامة العزَّامي النقشبندي** ، والشيخ **أبو العيون الخلوتي** ، والشيخ **أبو الوفا**

الشرقاوي، ومن عاصرهم ممن جمعوا بين العلم والعرفان بالله، ولا داعي لأن نذكر مع هؤلاء آخرين ممن كافحوا في هذا السبيل من غير المتصوفين.

وإذنْ فلم يُقَصِّرْ علماءُ الصوفية فيما أوجبه الله عليهم من النصيحة لله ورسوله، وقد لاقَوا في هذا السبيل ما لاقَوا، حتى آلَ أمرُ كفاح هذه الموبقات إلى «**العشيرة المحمدية**»، إلى طائفة من خيرة صوفية هذا العصر، وعلى رغم ما يجدون من المصاعب والمتاعب، يأخذ الله دائمًا بأيديهم إلى الهدف الشريف.

تحرك الهيئات المختصة:

وفي عهد الثورة المباركة أدرك المسئولون خطورة الأمر تحت إلحاح حركة **العشيرة المحمدية**، فتألفت لجنةٌ لإصلاح التصوف عمومًا والموالد خصوصًا بوصفها أكبر مظهر جماعي للدعوة الصوفية -برياسة وكيل وزارة الداخلية وقتئذٍ- السيد/ **محمود متولي نور**، ومُثِّلت في هذه اللجنة وزارةُ الأوقاف والشئون، والأزهرُ ودارُ الإفتاء، والمشيخةُ الصوفية، وبعضُ الهيئات الصوفية الحرة.

ولكنَّ هذه اللجنة لم تفعل إلا أنها أدخلت بعض التعديلات على لائحة الطرق الصوفية القديمة التي وضعت في عام (١٩٠٣م)، وألحقت بها إحصاءً مفصلاً لما يتعين كفاحه من المناكر المنسوبة إلى الصوفية زورًا وبهتانًا.

وهنا قامت ظروفٌ استوجبت إعادة النظر في هذا التعديل الجديد، منها اعتراض المفتي على بعض المواد، فتألفت في وزارة الأوقاف لجنةٌ أخرى، كان رئيسها الوزير، ومقررها السيد/ **محمود عبد اللطيف** (وكيل

الوزارة حينئذ) ، وكان من أعضائها الأستاذ/ **المشدُّ** (المديرُ الحالي للوعظ والإرشاد) ، وحضر اجتماعاتِها لفيفٌ من كبار المشتغلين بالشئون الإسلامية ، منهم شيخُ الأزهر السابق الشيخ / **عبد الرحمن تاج وآخرون** .

وقد وضعت هذه اللجنة قانونًا صوفيًا مستكملًا تقريبًا ، وكان أساسًا لا بأس به في تطهير الموالد وغيرها من التبدع والنُّكْر ، ومستكرهات الأمور ، ثمَّ جدَّ ما اقتضىٰ إرجاء الأخذ بهذا القانون أيضًا ، فتألفت في وزارة الشئون الاجتماعية لجنة لفحص العادات والتقاليد ، ووضعت هذه اللجنة توصياتٍ لا بأس بها لتطهير الموالد ، ولكن توصياتها لم تأخذ طريق التنفيذ ، فتألفت في الأزهر لجنة للتنظيم الصوفي ، ووضعت هذه اللجنة أيضًا توصياتٍ لا تزال تغطُّ في النوم في أدراج المختصين ، وكانت **العشيرة المحمدية** ، ممثلةً في كل هذه اللجان بوصفها صاحبة الدعوة الأولىٰ لإصلاح التصوف .

جهود مشيخة الطرق :

وكانت حركة التطهير الصوفي ، وبخاصة تطهير الموالد ، علىٰ أشُدِّها - كما يبدو من الإجمال السابق- في عهد المرحوم الشيخ/ **الصاوي** (شيخِ الطُّرق السابق) ، فاجتمع المجلسُ الصُّوفي ، وأصدَر تعليماتٍ يواكبُ بها حركةَ الإصلاح والتطهير ، ومما جاء في هذه التعليمات ، مَنْعُ ما يسمىٰ جمع الجموع ، والشورة والركبة ، وألزمت التعليماتُ الشيخَ أو الخليفةَ ، بألا يركب الدَّابة التقليدية في المواكب ، وأن يكتفي بالسير علىٰ أقدامه كخلق الله بين إخوانه ، علىٰ أن تخلو المواكب من المناكر والمبتدعات كلِّها ، وظلت هذه التعليمات الصريحة تنتظر التنفيذ ، حتىٰ ولي المشيخةَ سماحةُ الشيخ

الحالي، فعزَّز التعليماتِ السابقةَ بتعليماتٍ لاحقة، وألَّفَ لجنةً للإصلاح الصوفي، وضعت مشروعًا للإصلاح من وجهة نظر المشيخة، وقد أُرجِئ النَّظرُ في هذا المشروع كذلك.

وكانت الطريقة **المحمَّديةُ الشَّاذليةُ**، قد تقدمت ـ استجابةً لرغبة المشيخة ـ بمشروع إصلاحيٍّ إلى هذه اللجنة، ولكنْ لم يُلتفت إليه لسببٍ أو لآخر.

لفتة البرلمان والاتحاد القومي:

وتحت صيحاتِ رجال العشيرة والمُصلِحين، وإلحاحِ الرغبة في تطهير الموالد باعتبارها مظهرًا دينيًّا شعبيًّا عامًّا بعيد الأثر في توجيه المجتمع، انتشرت في مجلس الأمة والاتحاد القومي والوزارات، رغباتٌ تلاقت جميعًا عند ضرورة النظر في إصلاح هذه الموالد، وردِّها إلى أصلها الأصيل، وتطويرها تطويرًا عصريًّا جامعًا بين أسباب الثقافة، والترويح المباح، والتمتع بالعبادة المشروعة، والتماس العظة من الذكرى، وانتهاز الفرصة لإقامة معارض محليةٍ زراعيةٍ وصناعية، مع تطهير هذه التجمعات من مباغض الله ومكاره الديانة، ومفاسد المجتمع، وتحديد عدد الموالد، وتقييمها وترتيبها ترتيبًا قانونيًّا، يقضي على أسباب الشكوى، ويهيئ للناس مزيدًا من الانتفاع بهذه المواسم المباركة، والله المسئول أنْ يحقِّقَ هذا الأملَ القديم، الذي تحلم به العشيرة ومِنْ حولها المصلحون والصُّوفيةُ الأبرار.

***

خواطرُ حولَ الصِّيامِ والعيدِ وليلةِ القدر[1]

بين يديَّ كثيرٌ جدًّا من استفساراتِ الإخوانِ واستفتاءاتهم الصُّوفية، أو الفقهية، أو غيرها، غير أنني وجدتني في انتظار رمضانَ - شهر الله - مدفوعًا إلى كتابةِ شيءٍ من محصولِ خواطري عن بعض نواحي الصَّومِ على طريقةِ أهلِ الحديث، عسى أن تكونَ تذكرةً لي ولأمثالي، وتبصرةً لمن شاء أن يهتديَ ويستقيم، وتشبُّهًا بالرجال فيما يأخذون من سُنَّةِ الحبيبِ ﷺ .

عوائدُ الخيرِ في رمضان:

في سُننِ التِّرمذيِّ قال ﷺ : «**أفضلُ الصدقةِ صدقةُ رمضان**» .

وروى ابنُ خزيمةَ عنه ﷺ : «**هو شهرُ الصبر، والصبرُ ثوابه الجنة، وشهرُ المواساة، وشهرٌ يزداد في رزق المؤمن فيه، من فطَّر فيه صائمًا، كان مغفرةً لذنوبه، وعتقَ رقبته من النار، وكان له مثلُ أجره، مِنْ غير أن ينقص من أجره شيء**» .

ثم ردَّ ﷺ على المستفسرين فقال: «**يعطي اللهُ هذا الثوابَ، مَنْ فطَّرَ صائمًا على تمرةٍ، أو شَربة ماءٍ، أو مَذْقةِ[2] لبنٍ، ومَنْ سَقَى صَائمًا، سَقَاهُ اللهُ مِنْ حَوضِي شَرْبةً لا يظمأُ حتى يَدْخلَ الجنَّةَ**» .

---

(١) مقال غرة رمضان (١٣٨٠) - ١٦ فبراير (١٩٦١م)، العدد الثاني السنة الحادية عشرة.

(٢) المذقة: بفتح الميم وإسكان الذال المعجمة: قليل من اللبن الممزوج بالماء.

وفي سُننِ التِّرمذيِّ والنَّسائيِّ عنهﷺ : «**من فطَّر صائمًا ، كان له مثلُ أجره ، غيرَ أنَّهُ لا ينقص من أجرِ الصائمِ شيءٌ**» .

الصَّومُ فرصةٌ لتكفيرِ الذنوب :

أخرجَ الإمامُ أحمدُ بسندٍ صحيحٍ عن النَّبيِّﷺ : «**من صامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ لهُ ما تقدَّمَ من ذنبه وما تأخر**» . ونحوهُ عند الشيخين والنَّسائيِّ بدونِ قوله : «**وما تأخر**» . وإيمانًا واحتسابًا ، معناها : ابتغاء وجه الله لا لثمنٍ ما .

وروى ابنُ حبَّان في صحيحه ، والبيهقيُّ في سننه ، عنهﷺ قال : «**مَنْ صامَ رمضانَ ، وعَرَفَ حدودَهُ وتَحفَّظَ ما ينبغي له أن يتحفظ ، كفَّرَ ما قبله**» .

قالوا : والتكفيرُ هنا للكبائرِ والصغائرِ معًا ، بدليلِ الإطلاقِ في الحديث ، وإلى هذا ذهب ابنُ حجر وابنُ المنذر ، ورجحه الأُبِّي وجماعة ، وقال آخرون : التكفيرُ للصغائر فقط ، وإليه ذهب إمام الحرمين ، ولكنَّ الرجاءَ في الله كبير : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] .

معاني بعض الخصائص :

في الصَّحيحين بألفاظٍ مختلفة أنه : «**إذا جاءَ رمضانُ ، فُتحتْ أبوابُ الجنَّةِ ، وأُغْلقتْ أبوابُ النَّارِ ، وصُفِّدتْ - أو سُلسِلتْ- الشياطين . . . إلخ**» .

ويحتملُ أن يكون معنى فتح هذه الأبواب ، وغلق تلك الأبواب على ظاهره ؛ إعلامًا للملأ الأعلى بكرامةِ هذا الشهرِ على الله ، ويحتمل أن يكونَ المعنى مؤولاً ، أي : إنَّ الله يَصْرِفُ قلوبَ عباده ، ويرزقهم التوفيقَ إلى فعل الخيرات ، التي بسببها يدْخلُونَ الجنَّةَ إنْ تفضَّلَ عليهم ، فيكونُ

معنىٰ فتح أبواب الجنة : تنزُّلَ الرحمة والهداية ، كما يَصْرِفُ قلوبهم عن المعاصي التي تكون سببًا في الرجس ودخول النَّار ، أو ما هو حول هذا المعنىٰ من البُعد عن الأسباب التي تفتح للعبد باب النَّار .

وكذلك تصفيدُ الشياطين ، فقد يكونُ علىٰ حقيقته ، ويكونُ المرادُ ـ كَمَا جاء في النَّسائي ـ تصفيدَ المردة العُتاة الذين يسوقون بقيةَ الشياطين إلىٰ الإفساد ، أو يكون المراد : تصفيدَ عمومِ الشياطين ، فلا يوسوسونَ في صدورِ النَّاس ، وحينئذٍ يكون ما يقع من النَّاس من الشُّرورِ في رمضانَ ، إنَّما هو من نزغات النُّفوس وهوجِ الطِّباعِ السوء ، أو يكون المعنىٰ مؤولاً بأنَّ المرادَ من تصفيد الشياطين ، هو غلبةُ الإنسان علىٰ نوازع الشَّرِّ فيه ، وتسلطه علىٰ النَّفس والهوىٰ ، وتحكمه في المغريات والمكاره والمساخط ، فلا يقارفها ، فكأنَّه سلسل شياطين نفسه .

كلُّ ذلك جائزٌ واللَّه أعلم بحقيقة أمره .

مِنْ أدبِ الصيامِ :

وفي الحديث الثابت عن رسول اللَّهﷺ : «**فإذا كان يومُ صومِ أحدِكُمْ ، فلا يرفثُ – أي لا يتكلم الفحش – ، ولا يجهل – أي لا يسبُّ ولا يشتم ، ولا يصخب – أي لا يصيح ولا يهذر – ، ولا يسخر – أي لا يتلفظ بالهُزء والسخرية – فإنْ سابَّهُ أحدٌ أو مَارَاه – يعني جادله – أو قاتله فليقُلْ : إنِّي صائم**» .

ومعنىٰ «**فليقلْ إنِّي صائم**» : أن يُذَكِّرَ نفسَه بواجبِ الصَّومِ وأدبه وشروط قبوله عند اللَّه ، حتىٰ لا يضيعَ عليه جهدُهُ إنْ هو لم يحتمل مَنْ آذاه ،

ويجوزُ له أن يتلفظَ بها ليطفئَ بمائها نارَ من سفه عليه إذا ذكر حقَّ الصيام وربِّ الصيام .

الدعاءُ عند الإفطار:

روىٰ الطبرانيُّ - في الأوسط والكبير- ، عن أنسٍ وابنِ عباسٍ قالا : كان رسول اللهﷺ إذا أفطر قال : «**بسم الله ، اللهمَّ لك صمتُ وعلىٰ رزقِكَ أفطرتُ ، وبك آمنتُ وعليك توكلتُ ، فتقبلْ منِّي ، إنَّك أنت السميعُ العليمُ**» .

وروىٰ ابنُ السُّنِّي عن معاذِ بنِ زهرة : كان النبيﷺ إذا أفطر قال : «**الحمدُ لله الذي أعانَنِي فصمتُ ، ورزقني فأفطرتُ ، ذهب الظمأُ وابتلتِ العروقُ وثَبتَ الأجرُ إن شاء الله**» ، ثم يدعو بما شاء من الخير ؛ فللصائم عند فطره دعوةٌ لا تُردُّ كما جاء في الحديث الصحيح .

جريمة الفطر في رمضان:

روىٰ أبو داودَ وابنُ ماجه والتِّرمذيُّ ، عن أبي هريرة : أنَّ النَّبيَّﷺ قال : «**مَنْ أفطر يومًا مِنْ رمضان ، في غير رخصةٍ رخَّصَها الله له ، لمْ يَقْضِ عنه صيامُ الدَّهر ، وإنْ صامه**» .

وفي رواية البخاري : «**من أفطر يومًا مِنْ رمضان ، مِنْ غير عذرٍ ولا مرض ، لمْ يقضه صومُ الدَّهر ، وإن صامه**» .

وعن ابن عباسٍ فيما رواهُ أبو يَعْلَىٰ والدَّيلميُّ ، وصححه الذهبيُّ : «**عُرَىٰ الإسلامِ وقواعدُ الدِّين ثلاثةٌ ، عليها أُسِّسَ الإسلام ، من ترك**

واحدةً منهنَّ، فهو كافرٌ حلالُ الدَّم: شهادةُ أن لا إله إلا الله، والصلاةُ المكتوبةُ، وصومُ رمضانَ» .

قال الذهبيُّ: وعند المؤمنين مقررٌ أنَّ من ترك صوم رمضان بلا مرض، أنَّه شرٌّ من الزَّاني ومُدمنِ الخمر.

والإجماعُ على أنَّ متعمدَ الإفطار جحدًا واستهزاءً، خارجٌ عن دينِ الإسلام، مستوجبٌ أنْ يُقامَ عليه حدُّ المرتدِّ -عياذًا بالله- .

القُنُوتُ في رمضانَ وغَيرِه:

أبو حنيفة وأحمدُ - في إحدىٰ روايتيه- قالا: بأنَّ القنوتَ في الوتر مشروعٌ أبدًا، سواءٌ كان وترَ رمضان أو غيره. وقال الشافعيُّ: لا يقنت في الوتر إلا في النِّصف الأخير من رمضان، أو في العشر الأواخر منه، لأحاديثَ في ذلك لكلٍّ منهم.

والمشهور في القنوت دعاءُ الحسن بن عليٍّ: «**اللهمَّ اهدنا فيمَنْ هديت**». وقد حسَّنَهُ التِّرمذيُّ، وصححه النووي.

وللمُصلي أنْ يزيدَ عليه بما شاء؛ فإنَّ المقصود أنْ يُفضي العبدُ إلى ربه بما أهمَّهُ في مناسباتِ فضله، ولم يقتصر رسول اللهﷺ على دعاء واحد في قنوته، بل كان يدعو بما يناسب الأمر الواقع.

والقنوتُ مشروعٌ في الصلواتِ الخمس عند حلول البلايا والنَّوازل الخاصَّةِ والعامَّةِ؛ فقد روىٰ أبو داود وأحمدُ: أنَّ رسولَ اللهﷺ قنتَ شهرًا متتابعًا في الصَّلواتِ الخمس، إذا قال: «**سمع الله لمن حمده**» من الركعة

الأخيرة ، يدعو على قبائل من بني سُلَيم ، غدروا بوفدِ النَّبيِّ ﷺ وقتلوهم ، وكانوا يؤَمِّنُون عليه .

وروى البخاريُّ وأحمدُ : أنَّه ﷺ ، كان إذا أراد أنْ يدعوَ على أحدٍ ، أو أن يدعوَ لأحدٍ ، قنت بعد الركوع .

وفى التزام القنوتِ في صلاةِ الصُّبحِ خلافٌ معروفٌ ، وما لم يكن لنازلة فلا خلاف .

ليلة القدر:

أمَّا ليلةُ القدْرِ فهي : ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣] بنصِّ القرآن ، أي في العمل لله بها والتعبُّدِ لهُ سبحانه فيها ، وهى الليلةُ التي : ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[الدخان:٤] ، بالإجماع مع النَّصِّ ، وفيها أُنزل كتاب الله ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان:٣] ، أي : ليلة القدر ، فلا شكَّ أنَّها درة عِقْدِ ليالي الله في العام كله ، ولا التفات إلى المتمسلفة الذين يقولون : إنَّها كانت مرةً واحدةً في الدهر ، ثمَّ رُفعتْ .

ويكفي في الردِّ على ذلك صيغةُ المضارع في قوله تعالي :

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[الدخان:٤] ، وهو يدل - كما هو معلومٌ للأطفال- على الدوام والاستمرار .

وأكدت السُّنَّةُ الثابتةُ ذلك ؛ ففيما روى أحمدُ وابنُ ماجه والتِّرمذيُّ وصححه ، عن عائشة قالت : يا رسول الله إنْ علمتُ أيَّ ليلةٍ ليلة القدر ، ما أقول فيها ؟ قال : «**قُولي : اللهمَّ إنك عفوٌّ تحبُّ العفوَ فاعْفُ عنِّي**» .

وهذا طبعًا بالإضافةِ إلى الدُّعاءِ بما أهمَّ الإنسان .

وفي الصَّحيحين عن أبي هريرة : أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : «**من قامَ ليلةَ القدرِ إيمانًا واحتسابًا ، غُفِرَ لهُ ما تقدَّم من ذنبه**»

ويُستحبُّ طلبُهَا في ليالي الوتر من العشر الأواخر من رمضان ، فمِنَ العُلماءِ مَنْ يرى أنَّها تنتقل في هذه الليالي وهو الأحوط ، وقد روى مسلم : كان الرسول ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهدُ في غيره .

وإنْ كان الجمهورُ على أنَّها ليلةُ السابعِ والعشرين ؛ فقد روى أحمدُ عن ابنِ عمرَ بسندٍ صحيحٍ قال : «**من كان متحرِّيها ، فليتحرَّها ليلةَ السابع والعشرين**» .

وروى مسلمٌ وأحمدُ وأبو داودَ والترمذيُّ – وصححه- عن أُبي بن كعب رضي الله عنه ، أنَّه قال : «**واللهِ الذي لا إلهَ إلا هو إنَّها – يعني ليلة القدر – في رمضان – يحلف ما يستثني- وواللهِ إنِّي لأعلمُ أيَّ ليلةٍ هي ، هي الليلةُ التي أمرنا رسولُ الله ﷺ بقيامها ، هي ليلة سبعٍ وعشرين**»

وقد أفردها بعض علمائنا بالتأليف والتفصيل .

معلوماتٌ عَنْ صدقَةِ الفطرِ:

أولًا : في الحديثِ الثابتِ عن رسول اللهِ ﷺ : «**صومُ رمضانَ معلقٌ بين السماءِ والأرضِ ، لا يُرفعُ إلا بزكاةِ الفطر**» . قال ابنُ شاهين في الفضائل : حديث غريبٌ جيدُ الإسناد .

وسببُ تعليق الصيامِ واضحٌ فيما أخرجَهُ أبو داود وابن ماجه ، عن

ابن عباسٍ قال : «فرضَ رسولُ اللهِ ﷺ صدقةَ الفطر طُهرةً للصائم من اللغو والرفثِ ، وطعمةً للمساكين ، فمَنْ أدَّاها قبلَ الصَّلاةِ فهي زكاةٌ مقبولةٌ ، ومن أدَّاها بعد الصلاة ، فهي صدقة من الصدقات» .

فتكونُ الحكمةُ في الزَّكاةِ هي جبر ما عسىٰ أن يكون قد أصابَ الصيامَ من خللٍ ونقص ، بسبب اللغو أو الرفث أو نحوه ، والحديثُ دليلٌ لِمَنْ قالوا بأنَّ صدقةَ الفطر فرضٌ أو واجب ؛ فإنَّ ما فَرَضَ رسولُ الله ﷺ كالذي فَرَضَ الله ، وكُلُّ ما كان سببًا في التطهير ، فهو واجبٌ أو فرضٌ ، وأكثرُ الأئمة علي أنَّها سنَّةٌ مؤكدة .

ثانيًا : والجمهورُ علىٰ أنَّ من مَلَكَ زيادةً عن قوتِهِ وقوتِ أهله ، لزمته زكاةُ الفطر ممَّا زاد عن حاجته في هذا اليوم ، خلافًا لأبي حنيفة ، وهي كما روىٰ أحمدُ عن الرسول ﷺ : «**صاعٌ من برٍّ ، علىٰ كُلِّ امرئٍ صغيرٍ أو كبيرٍ ، حرٍّ أو عبدٍ ، ذكرٍ أو أُنثىٰ ، غنيٍّ أو فقير**» . قال ﷺ : «**أمَّا غَنِيُّكم فيزكِّيه اللهُ – أي يطهره – وأمَّا فقيرُكُمْ ، فيردُّ الله عليه أكثرَ ممَّا أعطىٰ**» .

وفي الصَّحيحين : قال ابن عمر : «**فرضَ رسولُ اللهِ ﷺ زكاةَ الفطرِ من رمضان ، صاعًا مِنْ تمرٍ ، أو صاعًا من شعيرٍ ، على العبدِ والحرِّ ، والذَّكرِ والأنثىٰ ، والصغيرِ والكبيرِ من المسلمين**» .

والصَّاعُ عند الشَّافعيَّةِ قَدَحَان ، وعند المالكيَّةِ قَدَحٌ وثلثٌ ، وعند الأحنافِ قَدَحٌ وسُدسٌ ، وتكونُ من أغلبِ طعامِ أهلِ البلد ، والقيمةُ النقديَّةُ أفضلُ عند الأحناف ؛ لتعدد فوائدها للفقير في

هذا اليوم ، وعليه يجوزُ للمرءِ أنْ يُخرجَ عن كُلِّ فردٍ ثمانيةَ قروشٍ تقريبًا بالقرشِ المصريِّ ، أو ما يعادل هذه القيمةَ من النَّقد الخاصِّ بكُلِّ وطن ، ومن شاءَ زاد ، ومن زاد زاده الله .

ثالثًا : ويجوز أنْ تُعطى الزكاة للأقربين الذين لا تلزمك نفقتهم شرعًا ، فيصح للمرأة الغنية أنْ تُعطِيَ زكاتها لزوجها الفقير ؛ لأنَّها غير ملزمة بنفقته ، ولكنْ لا يصح للرجل أنْ يُعطِيَ الزكاة لزوجته الفقيرة ؛ لأنَّ نفقتها تلزمه شرعًا ، وعند أبي حنيفة لا يُخرِجُ الرجل عن ولده الكبير الراشد ، ولا عن زوجته خصوصًا إذا كانت غنية ، إلا إنْ تبرع بذلك .

رابعًا : ويجوزُ إخراجُ الزَّكاةِ من أولِ يومٍ في رمضان ، وقد صحَّ أنَّ ابنَ عمرَ كان يبعثُ بزكاتِهِ قبلَ الفطرِ بيومين أو ثلاثة ، واستحبَّهُ الشَّافعيُّ ومالكٌ ، وروى الطبرانيُّ عن ابنِ عباسٍ : «**كنَّا نأكلُ ونشربُ ونخرجُ صدقةَ الفطر ، ثم نخرج إلى المصلَّى**» وأخرج البخاريُّ : «**أنَّ النَّبيَّ ﷺ أمر بها قبل خروج النَّاسِ إلى الصَّلاة**» .

والجمهورُ على أنَّ يومَ العيد كُلَّهُ وقتٌ لإخراجها ، وقبلَ الصَّلاةِ أفضل ، فإنْ أُخِّرَتْ عن هذا اليوم بغيرِ عذرٍ ، كان حرامًا ، ويخرجها قضاءً ، وهي في ذمته حتى تؤدى .

وقد أجاز بعضُهُم نقلَ الزَّكاةِ أو بعضها ، من مكانٍ إلى مكانٍ للأحوج والأحقِّ ؛ وبخاصَّةٍ إذا جمع إلى الحاجة القرابةَ والتَّقوى ، أو الاعتباراتِ الإنسانيةَ والشرعيَّةَ التي تُرجِّحُ تقديمه على من سواه من أهل البلد المنقول منها الزكاة .

إحياءُ ليلةِ العيد:

روىٰ الطبرانيُّ في معجميه الكبير والأوسط: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**من أحيا ليلةَ الفِطْرِ، وليلةَ الأضْحَىٰ، لمْ يَمُتْ قلبُهُ يومَ تموتُ القُلُوبُ**».

وقالَ الشَّافعيُّ: بلغنا أنَّ الدعاءَ يُستجابُ في ليالٍ، منها ليلةُ الفِطْرِ وليلةُ الأضْحَىٰ، وبهذا أوصى عمرُ بنُ عبد العزيز عامِلَهُ على البصرة، وقال له: «**إنَّ اللَّه يُفرِغُ الرحمةَ في هذه الليالي إفراغًا**».

ويكونُ إحياؤها بأي ألوانِ العبادةِ أحببت، من صلاةٍ أو قراءةِ قرآنٍ أو ذكرِ أسماءِ الله، أو تفكر في ملكوته تعالىٰ... إلخ.

وبعضُ التابعين - ومنهم عبدُ الرحمنِ بنُ يزيدَ بنِ الأسود- كان يَستحبُّ أنْ يحييَها في جماعة؛ لما في ذلك من التشجيعِ على الخيرِ، والتَّعاونِ على التَّقوىٰ، والاجتماعِ على الله، وإظهارِ صورِ السرورِ والرضا عن الله في ليالي البركات، ومواسم النفحات.

التكبيرُ في الأعياد:

ومذهبُ ابنِ حزمٍ، أنَّ التكبيرَ في ليلة الفطرِ فرضٌ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. قال: والتكبير في ليلة الأضحىٰ حسن.

وذهب داودُ الظاهريُّ إلىٰ أنَّ التكبير في ليلة الفطر واجبٌ للآية المذكورة، وهو عند بقية الأئمة مستحبٌّ، وقد كانوا يخرجون إلىٰ التكبير جماعاتٍ وفرادىٰ في ليلة العيد، حتىٰ تتجاوب أصواتهم مع أصوات

المكبرين في البيوت ، فلا يسمع الناسُ إلا التكبيرَ من كُلِّ مكان ، وبابُ التكبير فسيح ، والصِّيغُ الواردةُ كثيرة، والصيغةُ المشهورةُ كُلُّها أوجلُّها واردة، ويجزئ لأداء السنة تكبيرةٌ واحدة .

ويَبدأُ التكبيرُ في الفطر ، منذُ رؤيةِ هلالِ شوَّالٍ إلىٰ صلاةِ العيد ، وكان من شيوخنا من يتجوز فيكبر إلى الضَّحوةِ الكُبرىٰ ، أمَّا في الأضحىٰ فالتكبيرُ من صُبحِ يومِ عرفة إلىٰ عصر اليوم الثالثَ عشرَ من ذي الحجة ، وكان عمر يكبِّرُ في قبَّتِه بمنىٰ ، فيسمعه أهل المسجد فيكبرون بتكبيره ، ويكبر معهم أهل السوق حتىٰ يرتجَّ مِنىً من أصوات المكبرين ، وكُلُّ وقتٍ صالحٌ للتكبير ، في البيت والشارع والسوق ، وعقب الصلوات وحتىٰ في الفراش ، وكان بعضُ السَّلفِ يصحب زملاءه فيمضون بالتكبير في كل مكان .

وكما نُدبَ التكبيرُ للرجال جاز للنِّساء ؛ فقد ثبت : أنَّ النِّساءَ كُنَّ يُكبِّرن خلف أبان بن عثمان ، وعمر بن عبد العزيز ـ مع الرجال في المسجد ، كما ثبت ذلك أيضًا عن ميمونة رضي اللَّه عنها .

صيغة التكبير المشهورة :

وقد رُوي عن ابنِ مسعودٍ وعن عمر ـ رضي اللَّه عنهما ـ في التكبير هـذه الصيغة المشهورة : «**اللَّه أكبر اللَّه أكبر ، لا إله إلا اللَّه ، اللَّه أكبر ، اللَّه أكبر ، وللَّه الحمد**» .

أمَّا «**اللَّه أكبر كبيرًا**» فقد جاءت في رواية عبد الرزاق بسندٍ صحيح ، وقد

ثبت عن النَّبيِّ ﷺ قوله في بعض غزاوته وبعض أدعيته : «**لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعزَّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده**» ، وكذلك : «**لا إله إلا الله ، لا نعبد إلا إياه ، مخلصين له الدين ولوكره الكافرون**» .

وأمَّا الصَّلاةُ على النَّبيِّ ﷺ ، فمطلوبةٌ في السُّنَّة مع كُلِّ دعاء وعبادة ، وبهذا لا تكون في صيغة التكبير المشهورة بدعةٌ ولا ممنوع ، كما يزعم بعض المتمسلفة المتخرصين ، وقد قرر أهلُ العلم أنَّ باب التكبير هنا واسعٌ كباب الدعاء ، والذكر لا نَهْيَ عن شيءٍ فيه .

الدعاءُ في يومِ العيد:

يومُ العيدِ من مواسمِ النَّفحاتِ ، التي أُمرنا بالتعرضِ لها في الحديث الشريف ؛ فيستحبُّ فيه الدُّعاءُ بما أهمَّ الإنسان ، مِنْ أمرِ الدِّين والدُّنيا ، وقد ورد الترغيبُ في الدُّعاءِ بما جاء في الحديث : «**اللهمَّ إنَّا نسألكَ عيشةً نقيةً ، وميتةً سوية ، ومردًّا غيرَ مخزٍ ولا فاضح ، اللهمَّ لا تهلكنا فجأة ، ولا تأخذنا بغتةً ، ولا تعجلنا عن حقٍّ ولا وصية ، اللهمَّ إنَّا نسألك الهُدىٰ والتُّقىٰ والعفافَ والغنىٰ ، وحُسْنَ عاقبة الأُخرىٰ والدُّنيا ، ونعوذُ بكَ من الشكِّ والشِّقاق ، والرياءِ والسُّمعةِ في دينك ، يا مقلبَ القلوبِ لا تُزغْ قلوبنا بعد إذْ هديتنا ، وهبْ لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب**» .

صلاةُ العيدِ للرجالِ والنِّسَاء:

وهي سُنَّةٌ مؤكدةٌ على الرجال ، قال علماؤنا : وعلى النِّساء أيضًا ؛

لثبوتها في الصَّحيحين، عن أُمِّ عطية قالت: «**أُمرنا أنْ نُخرِجَ العواتقَ والحُيَّض - بضمِّ الحاء، وفتح الياء المشددة: أي الأبكار والثيبات متزوجاتٍ وغيرَ متزوجات - في العيدين؛ يشهدنَ الخيرَ ودعوةَ -أو جماعة- المسلمين**».

وروىٰ ابنُ ماجه والبيهقيُّ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يُخْرِجُ نساءَهُ وبناته في العيدين.

وروىٰ البخاريُّ، عن ابن عباسٍ قال: «**خرجتُ مع النَّبيِّ ﷺ يوم فِطرٍ أو أضحىٰ، فصلَّىٰ ثُمَّ خطب ثم أتى النِّساءَ، فوعظهنَّ وذَكَّرهُنَّ وأمرهُنَّ بالصدقة**».

ويَلحقُ بالبنات في الحكم الصِّبيان، وتصح الصَّلاةُ منهم جميعًا، سواءٌ كانوا جماعةً أو منفردين في المسجد أو المنزل، ومن فاتته الصَّلاةُ منهم قضاها ركعتين بتكبيراتها، قلت: والكلامُ في النِّساءِ خاصٌّ باللواتي يمضين علىٰ آثار السلف الصالح مظهرًا ومحضرًا ومخبرًا، وإلا فلا.

الفرحُ واللهو المباحُ في العيد:

قال أنسٌ -فيما رواهُ النَّسائيُّ وابنُ حبان بسندٍ صحيح-: «**قدم النَّبيُّ ﷺ المدينةَ، ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: قد أبدلكم الله تعالىٰ بهما خيرًا منهما، يوم الفطر والأضحىٰ**».

وفي الصحيحين ومسند أحمد: أنَّ النَّبيَّ ﷺ أَذِنَ للحبشة باللعب بالدرق في المسجد في هذا اليوم، وأذن ﷺ لزوجته بالنظر إليهم من خلفه، حتىٰ شبعت وانصرفت.

وروى البخاريُّ ومسلمٌ : أنَّ الرسولَ ﷺ أَذِنَ لجواري عائشة بالغناء بما قيل يوم بُعاث - يوم الملحمة الكبرى بين الأوس والخزرج - وذلك في حضرته ﷺ ، فلمَّا أنكرَ ذلك أبو بكر ، طمأنه الرسول ﷺ إلى أنَّ ذلك غيرُ ممنوع ؛ حتى يعلمَ يهودُ المدينة أنَّ في ديننا فسحة ، وأنني بعثت بالحنيفية السمحة .

وصحَّ عن الرسول ﷺ : أنَّ أيامَ العيد أيامُ أكلٍ وشربٍ وذِكْرٍ ، مع هذا اللهو البريء والغناء المباح والترويح المستحب ، كما ثبت أنهم كانوا إذا لقي بعضُهُم بعضًا في العيد دعَوا ، ثمَّ قالوا : «**تقبل الله منَّا ومنكم**» .

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: من الآية٧٨].

والحمد لله رب العالمين .

***

أملٌ في الأوقافِ والمجلسِ الإسلاميِّ(١)

أولا : حول الجماعات الإسلامية :

كُنَّا منذ شهور قد كتبنا إلى السيد وزير الأوقاف ، نرجوه في أمرٍ نراه من الأهمية بالمكان الأول ، وكان لنا مع سيادته حديثٌ في هذا الأمر ، وخرجنا على موعدٍ من سيادته بأنه سيبحث هذا الأمر شخصيًّا ، وينظر فيه بما هو أهله من عناية ، ووزير الأوقاف اليوم محلُّ أملِ المسلمين جميعًا .

ومضت الشهورُ وتكاثرت الشواغلُ والمسئوليات ، والمطالبُ المتجددة المتلاحقة علينا وعلى الوزير ، فرجحنا أنه نسي ، وإن كنا لم ننسَ بعد ، ومن جانبٍ آخر اتضحت زيادةُ ضرورةِ الاهتمام بالأمر الذي عرضناه على سيادته ، ولا يزال يستجد في كل وقت يمر من الشئون ما يستوجب التذكيرَ والإلحاحَ الكثير ، والإلحاحُ في الله عبادة وإنسانية .

ونحن كبلد إسلامي شرقي عربي ، لا غناء لنا عن القيم الروحية ، والمواريث الأخلاقية ، بوصفها مقومًا أساسيًّا من مقومات وجودنا العام ، وعاملاً إيجابيًّا من عوامل تميُّز شخصيتنا الخاصة ، وطاقة أصيلة من طاقات الدفع ومواكبة الحياة ، ونبعًا -أعمق نبع- للعقيدة والإيمان والعلاقة بالله .

وإذا نحن -لا قدر الله- فقدنا هذه القيم والمواريث والطاقات ، فقد فَقَدْنَا أخصَّ خصائصنا ، وأهدرنا القوى الروحية الحيوية ، التي هي سرُّ

(١) مقال غرة شوال (١٣٨٠ هـ) ، ١٨ مارس (١٩٦١م) ، العدد الثالث - السنة الحادية عشرة .

البقاء وسرُّ التفوق والتوفيق، ونكون في الوقت نفسه قد انسلخنا عن تاريخنا، فأضعنا أندر ثروة يملكها شعب أصيل، وفتحنا أبوابنا للغزو الأجنبي المعنوي، وهو أخطر غزو عرفه تاريخ الإنسان، ثم تعرضنا لسخط الله وما بعده من ويلات لا تُبقي ولا تَذَر.

وقد قامت الهيئات والجمعيات الإسلامية على هذا الثغر لتحميه، وتدفع عنه، وتخدمه، وتدعو إليه، وتذكر به، وتملأ الفراغ الروحي، بما لها من شعبية، وما لها من تحرر من قيود الرسميات، وصورها الصارفة للناس بسبب أو بآخر.

وبالرغم مما قد يكون أحيانًا بين هذه الهيئات من مظاهر الخلاف المذهبي، فإنها جميعًا تلتقي في واقع الأمر على المبادئ والغايات، وإن اختلفت في وجوه الوسائل والأسباب، وهذا الخلاف على حقيقته فرعي هامشي - وإن أوغل به بعضهم تعصبًا إلى الأصول والأعماق - ، فهو من الخلاف الضروري في طبائع الحياة، لا بُدَّ منه، ولا مصرف عنه، ولا عيب فيه؛ فإنما هو اقتضاء ذاتي لاختلاف الفهوم والثقافات والبيئات، وتفاوت معايير الأمور والملابسات.

ثم إذا نحن دققنا النظر، وجدنا كل هيئة من هذه الهيئات تخدم الحقل الديني من جانب مستقل، فإذا بعضها يكمل بعضًا، ولا يستغني بعضها عن بعض، فهي فروع متعددة من شجرة واحدة، فلو صَفَتِ النفوس من الهوى، لتقارب الجميع، وأعاد التاريخ نفسه، فقد مرَّ عهد كان فيه الشافعي مثلا لا يصاهر المالكي، وكان الحنفي لا يعامل الحنبلي، وكانت المعارك الدموية تتكرر مستمرة مسعرة بين أنصار هذا المذهب وذاك، فوق

ما كانوا يترامَون به من التقبيح والتجريح ، بله التكفير والتبديع .

ومرت الأزمان ، وتسامى الوعي ، وخمدت جذوة التعصب الأحمق ، وفهم كلٌّ ما عند صاحبه ، وأصبح كلٌّ يقلد كلاً ، ويستدل بدليله ، ويترضى عليه ، وذلك ما هو مرجو إن شاء الله فيما بين الهيئات المذهبية القائمة اليوم في بلاد الإسلام . فحديثنا عن هذه الجماعات إذن إنما هو حديث عن الإسلام نفسه ، والحديث عن الإسلام فرض عين على كل قادر عليه .

ثانيًا : الأملُ المعقودُ :

والهيئاتُ الإسلامية العاملة في القاهرة ، أو في الإقليم الجنوبي عامة ، قليلةٌ معدودة ، لا تصل إلى عدد أصابع الكفين ، وهي يتيمة مضيعة ، تنتمي أحيانًا إلى غير أمها ، حين يعضّها اليتم ، وتفتقد العطف فلا تهتدي إليه ، وهي ترى مثلا أخواتها اللواتي يخدمن الجانب الاجتماعي أو الثقافي أو الصحي مثلا ، تحتضنها الوزارات المختصة ، وتأخذ بيدها ، وتحميها ، وتغدق عليها ، وتغمرها بالمدد الحسي والمعنوي الكبير ، على حين أنها لا تؤدي رسالتها ، ولا تقوم بمثل وظيفتها .

وقد كان الأمر يهون ، لو لا أن للهيئات الإسلامية أُمًّا طبيعية هي وزارة الأوقاف ، ولها أبٌّ شرعيٌّ هو المجلسُ الإسلاميُّ الأعلى ، فيكون ضَمُّ هذه الهيئات إلى إدارة تُنشأ لها بالوزارة ، عملاً أصيلاً من صميم أعمال الأوقاف ، ولعلَّ في تجميعها تحت لواء واحد ، ما يخفف حدة النفرة بينها ، ويؤكد التعاون في سبيل الهدف العام ، ويدور بها في فلك المتفق عليه أخذًا

وردًّا، ويُمَكِّن لها من التوفر على ملء الفراغ الرُّوحيِّ، وتروية الجفاف الخُلقي، وإخصاب الجدب المعنوي، وفي الوقت نفسه يطمئن المسئولون على استقامة هذه الهيئات على الصراط السوي، وعلى مسايرتها للركب الحثيث ومشاركتها في حركة الدفع والتقدم، مع العصمة من الزلل والانحراف، والانعزالية.

ومن جانب آخر يطمئن الناسُ على موالاة الإقبال على هذه الهيئات والتعاون معها، والاندماج في خدماتها وعقائدها دونما تشكك ولا تخوف ولا اضطراب.

ولا شك أبدًا في أننا بحاجة ماسة إلى الدعوة الروحية لمواجهة المستوطن والوافد من الدعوات الانحلالية والإلحادية، واللادينية والعلمانية، بفلسفاتها المختلفة، وبآثارها المحسوسة في السلوك والمظاهر والمعاملات.

وهذه أمور لا يجدي في كفاحها قانون، ولكنه الرأي يُدفع بالرأي، والحجة تُقرع بالحجة، والدعوة تواجه الدعوة، والعقيدة تغالب العقيدة، فتنهض سدًّا منيعًا أمام الانهيار المعنوي المدمر، الذي يتسلل إلى الشعب في مفاتن التجديد ومغريات الحضارة والتمدن.

إنَّ فكرة تكتيل هذه الهيئات فوق ما قدمنا من فوائده، التي يرخص بجوارها كل ثمن، يُنشئ نوعًا من الوحدة الفكرية بينها، وهي بالتالي تعود بالوحدة الفكرية بين أنصارها، فَتَقِي الأُمَّةَ شَرَّ التفتت الاعتقادي، ويمضي بها إلى الوحدة التي هي شعار الدين والعهد الجديد.

وبهذا تصبح مجلاتُ هذه الهيئات وصحفها قوةً موجهة إلى الخير العام، دون أن تستهلك نفسها وغيرها في تأكيد الفرقة، وتوسيع شقة الخلاف، وإثارة الزوابع العصبية حول السطحيات والقشريات والفروع الاجتهادية.

وبالتالي يصبح للمجلس الإسلامي -بدلَ اللسان الواحد- عددٌ من الألسنة، لها جمهورها المؤمن بها، الواعي لها، المقدس لدعواتها.

ثم إذا لم تتبنَّ الأوقاف والمجلس الأعلى تلك الهيئات وهذه المجلات، فمن ذا الذي يتبناها، ويأخذ بيدها إلى غاياتها، ويحقق مقاصدها، وينتفع بها؟.

ثالثًا: المجلات الإسلامية الحرة:

بل إنني أطمع في أكثر من ذلك، أطمع في ضمِّ المجلات الإسلامية الحرة إلى حظيرة رعاية المجلس الإسلامي الأعلى، فقد تكاتفت عليها عوامل الفناء حتى تَوارى منها الكثيرُ تحت ضغط هذه العوامل، ولم يبقَ إلا القليل الذي يغالب الموت بالجهد الفردي، والتضحية الضخمة، ولولا جهود كبيرة تساند اليوم بعضها، ما صمد شيء منها إطلاقًا في هذا الميدان الجبار.

ومن المحزن المؤسف أن يكون هذا حال المجلات التي تعتبر لسان العقيدة التي يؤمن بها أكثر من خمسة وعشرين مليونًا في الجمهورية العربية المتحدة، فليس لها موارد ولا إعانات، ولا هي معتمدة حتى للإعلانات، ويستحيل أن تكفي اشتراكاتها لاستمرار صدورها، فضلا عن ضرورات تطويرها والنهوض بها، والمقابلة بين المجلات الدينية الإسلامية،

والمجلات الدينية الأخرى تثير الشجن، وتضاعف الحزن؛ لهذا قلنا إن الأمر في رأينا هام، لا يقل عن كُبريات المهام التي تضطلع بها الأوقاف والدولة في عهدها الجديد.

وهكذا نضمن للأوقاف والمجلس الأعلى وللإسلام جميعًا، ألسنةً جديدةً عديدةً، ونضمن لهذه المجلات نفسها حياة رشيدة رغيدة.

رابعًا: شرط النجاح:

ولكي نصل بالفكرة إلى النجاح يجب أن يكون من المُسَلَّمِ به أمران:

أما الأول: فأن تترك لكل هيئة ومجلة حريتها المطلقة في تكييف دعوتها، وتحقيق أهدافها وما وقفت نفسها عليه، وأن يُكتفى بالتخطيط العام في التوجيه والإشراف والرعاية والتعاون بكل أنواعه.

وأما الأمر الثاني: فأن تصبح وزارةُ الأوقاف ومجلسُها الأعلى، حقًّا لجميع المسلمين، بجميع طوائفهم وعلى اختلاف مذاهبهم ومشاربهم، وألا يتحكم فيها مذهب معين، وأن تتكافأ الفرص فيها بين السلفي والصوفي، والسني والمحمدي، سواء كان فردًا أو جماعة، ولعله يكفي الآن في هذا الإشارة عن العبارة.

إنَّ من أخطر الأمور أن تصبح، أو توشك أن تصبح وزارةُ الأوقاف جمعيةً مذهبية، تروج لدعوة معينة باسم الإصلاح والتجديد الديني، فإنما فَقَد الأزهر الآن تقديرَه المأثور في قلوب الجمهور، عندما أصبح هيئةً مذهبيةً، أكثر عصبية لبعض الجمعيات من أعضاء الجمعية أنفسهم، وقد كان الأزهرُ لكلِّ مسلم، فأصبح قاصرًا على من يَدينون بالتمسلف

والتوهب ، الذي تتستر من خلفه دعوةٌ سياسيةٌ غايةً في الخبث والعمق والخطورة ، وهي كبوةٌ يجب أن تتنزه عنها وزارةُ الأوقاف اعتبارًا بما أصاب الأزهر الشريف العزيز على كل مسلم .

نقول هذا هو الأمر الهام والأمل العام الذي نُذَكِّر به السيدَ الوزيرَ المسلم ، والذي نأمل باسم الله والدين أن يعيدَ النظر في بحثه على هذه الأضواء ، فهو بحقٍّ جديد مفيد ، وبحق كبير خطير ، ولا شك أن له أثره الوثيق العميق ، وهذا العهد أجدر العهود بسلوك هذا الطريق ، ومن الله التوفيق .

***

قومياتٌ واجتماعياتٌ ودينياتٌ(١)

أملٌ في أمير الحج :

بمناسبة حلول مَوسم الحجِّ، وتشكيل البعثة العربية، التي ترافق الكسوة المشرفة إلى الكعبة المكرمة، وتحمل معها **الصُّرة المباركة**، وبمناسبة اختيار الأخ الصُّوفيِّ المستنير، وزير الاقتصاد السيد عباس زكي، أميرًا للحج هذا العام، نتوجه إليه باقتراح لوجه الحقِّ تعالىٰ، ونرىٰ أنه جدير بالبحث والنظر.

فقد كان وما يزال التقليد المعمول به، هو ترك اختيار أعضاء البعثة لأمير الحج، علىٰ ما يرجح فيه الخير والمصلحة، دون التقيد بدستور محدود، ولكننا نعتقد أنَّ طبيعة وزراء الأرقام والحساب، تستوجب أنْ تكون أعمالهم محددة واضحة ممنطقة، ولهذا نتوجه بالأمل إلىٰ أخينا في الله الوزير أمير الحج أن يستنَّ سُنَّةً حسنةً في اختيار البعثة، يكون له أجرُها، وأجرُ مَن عمل بها إلىٰ يوم القيامة، فيجعل من أركان تشكيل البعثة تمثيل الأزهر، والأوقاف، والمؤتمر الإسلامي، والطرق الصوفية، والهيئات الإسلامية، والشخصيات العامة، والصحف الدينية بنسب مقررة، وشروط محددة؛ حتىٰ يمكن أن تمثلَ البعثة الجبهة الإسلامية في الجمهورية تمثيلاً صحيحًا مشرفًا، كما نرجو أن يوضع للبعثة منهاجٌ مدروسُ المعالم، والوسائل والأهداف، يلتزم به أفراد البعثة مدة الحج في أداء واجباتهم، ككتلة متضامنة، بعضها يمثل بعضًا، وتصرفات أفرادها كتصرفات مجموعها، وكلها عَلَمٌ على الجمهورية العربية المتحدة.

(١) مقال غرة ذي القعدة (١٣٨٠)ـ ١٦ أبريل (١٩٦١م)، العدد الرابع - السنة الحادية عشرة.

يا أخي السيد الوزير : سألتُ اللّهَ تعالى ألا يفوتك شرفُ استنانِ هذه السُّنة ، وتحويلها إلى دستورٍ مقدسٍ ، واجب الاتباع في كل سَنَةٍ ، واللّه يجزيك عن نهضة هذه الأمة ما أنت أهله وما هو أهله .

وأملٌ في وزير المساجد :

ووزيرنا الحبيبُ دائمًا محل الأمل ، منذ بدأ بدايته الموفقة في خدمة الإسلام والمسلمين ، وكنا مرة قد أشرنا إلى هذا الأمل ، ولكننا نعود فنكرره -والمكررُ أحلى- وهذه نهضتنا العملية والعلمية والدينية تشقُّ طريقَها الوعر الشاق بقوة الإيمان والعزم والتصميم ، فتعنو لها جبهة التاريخ ، وترتفع معها رءُوسنا عزةً وفخارًا ، وإنه ليَعَزُّ علينا ألا تُسَجَّل هذه الحقبة من عهد النهضة ، في أثرٍ إسلامي جديد فريد ، يكون صورةً لمن بعدنا ، وذكرى مجد لنا في مقبل أيامنا .

إننا نأمل ألا يفوتك يا أخي فضلُ إنشاء **مسجد ناصر** ، المسجد النموذجي المثالي في موقعه ، وفي فخامة عمارته ، وجلال مظهره ، وفي تجميعه لكل ما لابد منه للمسجد العصري ، من مكتبة إسلامية جامعة ، وصالة للمحاضرات رائعة ، ودار للضيافة . . .إلخ ، بحيث يكون مسجدًا فريدًا بحق ، ويكون جديرًا بأن يُنسب إلى قائد النهضة ، ورائد العروبة والإسلام الرئيس جمال عبد الناصر .

وإني سائلك باللّه وحبك له ، ثم بِجَمَال وبحبك له ، أن تدرس هذا المقترح ، فهو جدير باهتمامك ، وأنت جدير بتنفيذه ، والقاهرة جديرة بألا يفوتها هذا الشرف التاريخي الكبير .

وما دامت دار الأوبرا سَتُبْنَىٰ في مكان آخر، فيا حبذا لو أُقيم مسجد ناصر في مكان الأوبرا الحالية، على باب القاهرة القديمة، وفي المكان الجدير به، اللائق بنسبته إلى صلاح هذا الزمان.

إنَّ إقامة مثل هذا المسجد الضخم الجامع الذي يمثل نهضة الدين والعمارة في هذه الحقبة، لا ينبغي أن يكون في ضاحية، ولا في منعزل عن الأعين، بل يجب أن يكون في أفخم مكان، بقدر ما يجب أن يُصمم التصميم العظيم، الذي لا تقف أمام تنفيذه عقبة المال.

إنَّ النهضة التي أنشأت الاستاد العالمي والبرج الفارع والسد العالي، لا يجوز أبدًا أن يفوتها بناءُ مسجد ناصر مسجد ثورة (٢٣/ ٧/ ١٩٥٢).

عيد الأسرة لا عيد الأم:

تحدثنا من قبل غير مرة، عن حقوق الأم في الإسلام، وكيف هيأ لها الإسلام منزلة لم تكن لها من قبل في مذهب ولا دين، وقلنا إن الدعوة إلى تقديرها والإحسان إليها خُلُقٌ أصيل في الإسلام، لكنَّ الصورة التي اعتادت الهيئات والمعاهد التعبيرَ بها عن هذا الخُلُقِ صورةٌ ذاتُ حدَّين، تضرُّ من ناحيتين، وتنفع من ناحية واحدة.

فالطفلُ الذي فَقَد أُمَّه يكون الاحتفال بهذا اليوم عنده مأتم، ومحزنة، مهما قيل في محاولة تعويضه عن أُمِّه بأُمٍّ بديلة، ومهما بَذَلَ الناس في محاولة استرضائه، وقد رأت عيونُنا من ذلك ما تستمزق له الأفئدة، ثم إن قصر الاحتفال على الأم وحدها، مما يُبهم منزلة الأب في صدر ولده، وربما تحول هذا الإبهام إلى معنىً غير كريم، ينشأ مع الطفل فيفسد علاقته بأبيه.

وقد أشرنا إلى هذا من قبل وإلى ما هو منه، واهتمَّ به كثيرٌ من القُوَّامُ على فكرة الاحتفال بهذا العيد، ونشأت فكرةُ تسميته **بعيد الأسرة** بدلاً من **عيد الأم**، وعندئذ ينفسح المجال، وتتيسر حلول هذه المشكلات النفسية والخلقية العميقة، فلا يكون العيد قاصرًا على الأم، ولا يكون سببًا في ألم يتيم، ولا إهمال أب.

ثم صمَّمت الأمهاتُ خضوعًا للعاطفة وحدها، على ألا يتغير اسم الاحتفال، وأن يبقى هكذا خنجرًا في صدر يتامى الأمهات، وفي ظهر كل أب كذلك، بغير سبب مقبول أو معقول، فهلا نظرة إنسانية - إنْ لم تكن عائلية - إلى هذا الاحتفال؛ حتى يكون خيرًا لا شرَّ معه ؟! ما دام قد أخذ صورةً دوريةً شبه رسمية.

كراماتُ الأولياءِ مِنْ صَميم الإيمان:

عندما حملنا على من يدَّعون الصَّلاةَ في الكعبة، ويجاهرون بعدم الاستجابة لآذان الجمعة أو غيرها، وهم بجوار المساجد، لم نكن ننكر أبدًا كراماتِ الأولياء، ونحن ندافعُ عنها بالقلم واللّسان، في كل زمان ومكان، ولكننا أردنا:

أولًا: التفريق بين الكرامة والشعوذة.

وثانيًا: بيان الحكم الفقهي، ونحن ملزمون به شرعًا دون أي ترخص فيه، إلا مع مَنْ رُفع عنه القلم، وليس أولئك منهم.

أمَّا مسألةُ مقام **البدلية** فنحن نؤمن به، وكنا نعرف بعض مَنْ أكرمه الله بهذا المقام، ولكنه كان متمسكًا بظاهر الشرع تمامَ التمسك، وكان يحاول التستر على هذه الكرامة عنده بكل الوسائل.

و**مقام البدلية** أفردَ له محدثُ الأمَّة الإمامُ السُّيوطيُّ بحوثًا في تآليفه، واعترف به عِلْمُ الرُّوحيَّةِ الحديث وسمَّاهُ **الطَّرحَ الرُّوحيَّ**، وله رجاله في كل زمان، وشرطُهُم الأول والأخير هو التمسك بالكتاب والسُّنة، وعندما يخالف أحدهم عن هذا، فلم يعد يُسمَّىٰ ما يحصل منه كرامة -إن كان يحصل منه ما يشبهها- ولكنه يكون استدراجًا أو خداعًا أو شيطنةً أو كذبًا أو شعوذةً والعياذ بالله.

فمن حاد عن ظاهر الشرع قيد شعرة فلا كرامة له، ولا ولاية له، وما دام عقله معه فنحن مأمورون بجهاده، وأخذه بكل ما يردُّهُ إلى الكتاب والسُّنَّة، وإن طار في الهواء أو سار على الماء، فالمسيخ الدجال سوف يأتي بالمذهلات من الخوارق، ومع هذا فهو مدع مفترٍ كذاب، يكفرُ مَن آمن به أو صدَّقه أو اعتذر عنه، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

الكرامةُ بعد الموت:

ومن المقررات عند أهل الحق -أهل العلم والمعرفة بالله- أنَّ الله يكرم أحباءَه بعد الموت، كما يكرمهم في حياتهم، بما يشاء من الخوارق، والحديث ثابت في الصحيح بشأن الصحابي الذي عاهد الله ألا يمسَّ مشركًا، فلما استُشهِد أرسل الله إليه ظُلَّةً من الدَّبِر (بفتح الدال المشددة وكسر الباء ـ وهو نوع من النحل الشرس) جعلت تحيط به حتى انتهىٰ أمره، بدون أن تستطيع أن تمسَّه يدُ مشركٍ؛ إكرامًا له من الله بعد مماته، وفي الباب أحاديث أخرىٰ ثابتة.

ولم ينكر أحدٌ من أهل القلوب، ولا أهل الإنصاف العلمي جميعًا، إكرامَ الله تعالىٰ للموتىٰ بفضلٍ كثيرٍ كبيرٍ، والاستقراءُ والاستقصاءُ

والتجربةُ التي لا تُتَّهم ، كل أولئك شاهدٌ ما بعده شاهد ، على صحة وقوع الكرامة بعد الموت ؛ تفضلاً من الله على الميت الصالح ، ولا يزال الله ينفع بها كثيرًا من العباد .

أمَّا إسراعُ النَّعش بحامليه فجائز ، وقد ورد أنَّ الجنازة إذا وُضعت على أعناق الرجال تقول : قدموني قدموني ، إذا كانت سعيدة ؛ وذلك أنَّ الدنيا سجن المؤمن كما جاء في الحديث ، فانظر كيف يهرب أو يسرع السجين من سجنه إذا انطلق إلى البيت الذي يحب ، وللشهود العدول في ذلك أقوالٌ لا تُردُّ في باب التجربة والأخبار الثابتة ، ومن أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ الله لقاءَه .

القراءة بالآيات المختارة في الصلاة :

وأكثر ما ورد عن رسول الله ﷺ أنه كان يقرأُ بالسورة كلها في كل ركعة ، أو يقسِّم السُّورة على ركعتين ، أو يبدأ قراءته في كل ركعة بأول سورة ، بحيث يقف حيث شاء الله ثم يركع ، ولكنه لم يلتزم هذا ، حتى يكون سُنَّةً أكيدة ، لا ينبغي خلافها ؛ فقد شرع لنا غير هذا ، وأجاز لنا القراءة في صلواتنا بآيات مختارة من القرآن ، دون نظر إلى ما ذكرنا من القيود ؛ رفعًا للحرج في دين الله السَّمح الفسيح ، فعن ابن عباس فيما رواه مسلم ، كان رسول الله ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر : ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة : ١٣٦] ، والتي في آل عمران ، ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

وفي رواية أبي داود ، أنه كان يقرأ في الركعة الثانية ، ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾ [آل عمران : ٥٢] .

ومن هنا أخذ علماء الأصول على اختلاف مذاهبهم، جواز القراءة في الصلاة بأية آية مختارة من كتاب الله، ولو ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾[الرحمن: ٦٤]؛ فليس في القرآن شيءٌ مهجورٌ، كما قال الإمام عليٌّ -كرَّم الله وجهه- وعلى ذلك سار جمهور العالم الإسلامي سلفًا وخلفًا، وعليه أجمعت الأمة وتواتر الأمر، فصلاةُ القارئ بالآيات المختارة صحيحة مقبولة إن شاء الله.

التخفيف والتطويل في الصلاة:

والقاعدةُ الأساسية في الصلاة، أن تكون تامّةَ الأركان، فياضةً بالخشوع والتدبر والإتقان، وقد ورَدَ أنَّ النبيﷺ صلَّى بالسور الطويلة، كما صلَّى بالسور الوسطى والسور الخفيفة، آخذًا في الاعتبار مقتضياتِ كل ظرف ومناسبة، وقد غضبﷺ على مُعاذٍ عندما أطال حتى أملَّ الناس، وسمَّىﷺ التطويل الشديد فتنة، وحسبك بها تسمية تفيد معاني لا تغيب عن ذهن المتأمل، والمرءُ يستطيع أن يصلي صلاة تجمع بين الخفة وتمام الأركان، وقد جاء في الحديث: «**ما رأيت أخف ولا أتم صلاة من رسول اللهﷺ**».

وقد كانت مطالب الدنيا في العهد الأول بسيطة قليلة تأذن بالتطويل الشديد، أما في عهدنا هذا فليس كل الناس بمستطيع ذلك؛ لإلحاح المناسبات والمسئوليات والمطالب في عهدنا - عهد جنون السرعة -، وعندما يتهيأ التطويل لجماعة بحكم ظروفهم، فعليهم أن يقيسوا ظروف غيرهم، وهذا ما جعل الأئمة يحكمون بالكراهة على التطويل، ما لم يكن لجماعة ارتضَوا ذلك، وأذنت به حالاتهم، وليس أفضل من المحافظة على الصلاة الوسطى، التي لا هي ثقيلة، ولا هي خفيفة، ولعل عموم آية الصلاة الوسطى، لا يضيق بهذا المعنى.

وعن عائشة فيما رواه أحمد : كان رسول الله ﷺ يصلي الركعتين قبل الغداة فيخففهما ، حتىٰ لأشك أقرأ فيهما بفاتحة الكتاب أم لا؟ ، وعن نافع فيما رواه الشيخان : كان عبد الله بن عمر يفعل ذلك ، وعن حفصة بنت عمر : كان رسول الله ﷺ يصلي ركعتي الفجر قبل الصبح يخففهما جدًّا وكان يقرأ فيهما على الأغلب بالكافرون ، والإخلاص ، كما رواه أحمد وابن ماجه وابن حبان ، ولا دليل علىٰ محدودية الحكم أو تخصيصه هنا ، فالتطويل حَسنٌ في محله ، والتخفيف أحسن في محله ، والأساسُ تمامُ الأركان في التطويل والتخفيف ، مع الخشوع كل في موضعه .

ابتهال المضطر :

كتب إليَّ أحدُ أبنائي في الله يسألني دعاءً أكون قد جربته في النوازل ، أما أنا فقد جربتُ شيئًا كثيرًا ، لكن هذا الدعاء ، وكلُّه أو جلُّه من الكتاب والسنة ، والتوجه المستجاب ، وقد جربته في الشدائد والكروب ، وجربه أحباؤنا كذلك مع اتخاذ الوسائل الظاهرية ، فأخذ الله باليد ، وحقق الآمال ، وهو هدية لله آذنُ به كل ملهوف ، ويستطيع العالمون ردَّ أجزائه إلى الوارد الثابت في الكتاب والسنة ، وقد أجمعت الأمة بالنصوص الصريحة ، أنَّ الدعاء ينفع فيما نزل وما لم ينزل ، وأنه يعالج القضاء ، وقد سُئل النبي عن الدعاء أيرد من قدر الله ؟ قال هو من قدر الله .

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر : ٦٠].

ولو قدَّمَ الإنسانُ بين يديّ الدُّعاءِ بصلاةِ الحاجة ، لكان أرجىٰ وأنجع إن شاء الله ، أمَّا الدُّعاءُ فهو :

بِسْمِ اللهِ ، سُبْحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إله إلا اللهُ ، وتَبارَكَ اللهُ ، وأستغفرُ اللهَ واللهُ أكبرُ ، اللهمَّ لك الحمدُ ، وإليك المُشْتَكىٰ ، ومنك الفرجُ ، وأنتَ المُستعانُ ، وبك المُستغاثُ ، وعليك التكلان ، اللهمَّ صلِّ صلاةً كاملةً ، وسَلِّمْ سلامًا تامًّا ، علىٰ سيدِنا ومولانا محمَّد ، الذي تَنْحَلُّ به العُقَدُ ، وتَنْفَرِجُ به الكُرَبُ ، وتُقْضَىٰ به الحوائجُ ، وتُنَالُ به الرَّغَائبُ ، ويُدْرَكُ به حُسنُ الخواتيم ، ويُستَسْقَى الغَمامُ بوجهِه الكريم ، وعلىٰ آله وصحبه والتابعين ، في كلِّ لمحةٍ ونفس ، بعددِ كلِّ معلومٍ لك يا حيُّ يا قيوم ، يا بديعَ السَّمواتِ والأرضِ ، يا ذا الجلالِ والإكرام ، اللهمَّ بما أنتَ أهلُه ، اجْزِ عنَّا سيِّدَنَا المصطفىٰ بما هو أهله ، واكشفْ عنَّا السُّوءَ ، واجْعَل لنَا مِنْ كلِّ همٍّ فَرَجًا ، ومِنْ كُلِّ ضيقٍ مَخْرَجًا ، اللهمَّ إنِّي أسأَلُك بك ، وأتوسلُ إليك بنبيِّك ، نبيِّ الرحمةِ يا سَيدي يا رسولَ الله ، إنِّي أتوسلُ بكَ إلىٰ ربِّي في حاجتي لِتُقْضَىٰ لي ، اللهمَّ فَشَفِّعْه فيَّ ، وتقبَّلْ بفضلِك شفاعتَه ، وانْصُرْني واسْتُرْني ، واجْبُرْني واحْفَظْني ، ولا تُخْزِني ، ولا تحزِنِّي ، ولا تَفْضَحْني ولا تُذِلَّني ولا تُضِلَّني ، ولا تَضُرَّني ، ولا تَفْجَأْني ولا تَفْجَعْني ، والْطُفْ بِي فيما جَرَتْ بهِ المقَادِير ، اللهمَّ لا تُشْمِتْ بِيَ الأعداء ، ولا تَجْعَلْني مع القومِ الظَّالمين ، يا مَنْ يُجِيبُ المضْطَرَ إِذَا دَعَاه ، يا مَنْ يَكْشِفُ السُّوءَ عَمَّنْ نَادَاه ، أَنْتَ رَبِّي ، وعِلْمُك حَسْبِي ، أَنْتَ وَلِيِّيْ في الدُّنْيَا والآخِرَة ، تَوَفَّني مُسْلِمًا ، وأَلْحِقْني بِالصَّالحِين ، يا صَرِيخَ

المسْتَصْرِخِين، يا غِيَاثَ المسْتَغِيثِين، يا مُنْتَهى رَغْبَةِ العَابِدين، المُفَرِّجَ الكَرْبَ عن المَكْروبين، المُرَوِّحَ الغَمَّ عن المغْمُومِين، مُجِيبَ دعوة المضْطَرين، وكاشفَ السُّوءَ يا إله العالمين، ويا أرحمَ الراحمين (ثلاثًا).

اللهمَّ اقْضِ حَاجَتِي وأنتَ بِهَا أعلمُ (ثلاثًا).

ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ العليِّ العظيم، فَتَعَالَى اللهُ الملكُ الحقُّ، لا إلهَ إلا هو ربُّ العرشِ الكَريم، ومَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إلهًا آخرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُه عِنْدَ رَبِّهِ، إِنَّه لا يُفْلِحُ الكَافرون، وَقُل ربِّ اغْفِرْ وَارْحَم وَأَنْتَ خيرُ الرَّاحِمين، لا إلهَ إلا أنْتَ سبحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالمين (ثلاثًا).

وأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ، إِنَّ اللهَ بصيرٌ بالعبادِ (ثلاثًا).

ربَّنَا اغْفِرْ لنَا ذنُوبنَا وَإسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا، وثَبِّتْ أَقْدَامَنَا، وانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِين، اللهمَّ عِلْمُكَ بِحَالِي حَسْبِي مِن سُؤَالِي (ثلاثًا).

يَا لَطِيفًا قَبْلَ كُلِّ لَطِيف، يا لَطِيفًا بَعْدَ كلِّ لَطِيف، يا لَطِيفًا فَوْق كُلِّ لَطِيف، الْطُفْ بِنَا يا لَطِيفُ يا لَطِيفُ يا لَطِيفُ، اللهمَّ اغْفِرْ ذَنْبِي، واسْتُرْ عَيْبِي، وفَرِّجْ كَرْبِي، وَأَصْلِح قَلْبِي، واشْرَحْ صَدْرِي، ويَسِّرْ أَمْرِي، وارْفَعْ قَدْرِي، وعَامِلْني بِمَا أَنْتَ أَهْلُه، وَلا تُعَامِلْني بِمَا أَنَا أَهْلُه وَاكْشِفْ عَنِّي السُّوءَ، وَاحْفَظْنِي مِمَّا أَخْشَىٰ وَأَتَوَقَّع، اللهمَّ اسْتُرْ عَوْرَتِي، وَآمِن رَوْعَتِي، اللهمَّ ثَبِّتْنِي بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ، اللهمَّ رَضِّنِي بِقَضَائِك وَقَدَرِك، وارْزُقْنِي الصَّبْرَ عَلَيْهِ، وَالْطُفْ بِي فِيه يا أَرْحَمَ الرَّاحِمين (ثلاثًا).

وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِين وَالحَمْدُ للهِ ربِّ العَالِمين .

هذا وفي **رسالة المحمديات** من الأحزاب والأوراد النبوية ما يكفي ويشفي ، وننصح كُلَّ واقف على باب اللَّه ألا يفوته الانتفاع بهذه الرسالة ، واللَّه المستعان .

***

مسائلُ متعددةٌ(١)

المؤتمر الصوفي الإسلامي العالمي :

بمناسبةِ زيارة السيد إبراهيم إيناس الزعيم الصوفي السنغالي للقاهرة ، تجددت فكرةُ الدعوة إلى المؤتمر الصوفي العالمي ، الذي سبق أنْ دعت إليه **العشيرةُ المحمَّديةُ** من قديم ، وللتاريخ يُذكرُ أنه في شهر المحرم عام (١٣٧٥هـ) ، أي منذ أكثر من خمس سنوات ، وجهت **العشيرةُ المحمَّديةُ** دعوتها إلى زعماء العَالم الصُّوفيِّ في محافظات الإقليم السُّوري ، ومحافظات الأردن ، ولبنان ، وفي اليمن ، وعدن ، والإمارات الجنوبية ، وفي المديريات الشَّمالية بالسُّودان ، وفي العراق ، وإيران ، ثم في أفغانستان ، والهند ، وباكستان الشرقية والغربية ، وكذلك المغرب العربي كله ، والنيجر ، ونيجريا ، وإفريقية بأقسامها ـ ما استقل الآن منها ، وما لم يستقل ـ وفي زنجبار ، وسيلان ، وأنديونيسيا ، وتركيا ، والجاليات الإسلامية بفنلندا ، وفرنسا ، وإنجلترا ، وألمانيا ، وسويسرا ، والمهاجر العربية بالأمريكتين . . . إلخ إلخ .

ولقيت الدعوةُ بحمدِ الله استجابةً واعيةً مِن كلِّ مَن وُجهت إليه ؛ لِسُمُوِ الأهداف التي حددتها الدعوة إلى المؤتمر ، وعلى ذلك تألفت اللجنة التنفيذية بإشراف المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين ، وتألفت لجنة الشورى الدينية بإشراف فضيلة الأستاذ الشيخ محمد الأودن ، ولجنة الشورى الإدارية بإشراف السيد عبد الملك حمزة ، واللجنة الصحفية

(١) مقال غرة ذي الحجة (١٣٨٠) – ١٦ مايو (١٩٦١م) ، العدد الخامس – السنة الحادية عشرة .

بإشراف السيد عبد الوارث كبير ، ولجنة العلاقات الخارجية بإشراف السيد محمد صادق المجددي ، واللجنة الثقافية بإشراف السيد الدكتور محمد غلاب ، واللجنة القانونية بإشراف السيد محمود عبد اللطيف ، ولجنة الدعوة بإشراف السيد الرائد . . .إلخ إلخ .

ثم وضعت اللائحة الداخلية ، التي قررت أنَّ **المؤتمر الصوفي العالمي** فرعٌ مستقل حر ، من فروع **العشيرة المحمدية** ، وأنَّ غرضه خدمة التصوف الإسلامي في العالم ، وخدمة العَالم نفسه من طريق التصوف ، بكل ما يسعه هذا المعنىٰ ، وبالتالي خدمة الإسلام والعروبة من طريق التصوف المطهر ، بكل ما يحمله معنىٰ خدمة الإسلام والعروبة عمومًا وخصوصًا ، مع البعد المطلق عن كل ما يتعلق بالسياسة ، والشخصيات ، وأسباب الفتن والخلافات .

وجعلت رياسة المؤتمر رياسة أخوية فخرية مؤقتة ، تتبادلها البلدان المشتركة فيه بنظام دوري ، وكذلك جعلت الانعقادات العامة تنتقل في الأوطان العربية والإسلامية علىٰ نظام مقرر ، علىٰ أن يكون بكل منها مؤتمر صوفي محلي ، كفرع دائم للمؤتمر الصوفي العالمي .

وبعد كل ذلك وفي آخر لحظة ، قامت عقبة المال مع عقبات أخرىٰ طارئة ، حملتنا مضطرين علىٰ أن نصرف النظر مؤقتًا عن سرعة التنفيذ ، حتىٰ تجددت الفكرة الآن لدىٰ المشيخة الصوفية الرسمية بمناسبة زيارة السيد إيناس ، ونحن من كل قلبنا ندعو الله أن يوفق المشيخة إلىٰ تحقيق هذه الفكرة ، الجليلة الشأن ، البعيدة المدىٰ ، العميقة الأثر ، فَلَعَلَّ من إمكانيات المشيخة ووسائلها الرسمية والشعبية ما يذلل أمامها ما قام أمام العشيرة من قبل من عقبات ، والله المستعان .

الحملةُ على تعددِ الزوجاتِ :

من أبرز ما يسمونه مطالب المرأة في هذه الأيام، القضاءُ على ما أباح الله من تعدد الزوجات، رغم أنَّ هذا التعدد في إقليم كمصر يوشك أن يكون معدومًا تقريبًا، فلا يوجد واحد في المائة يجمع بين زوجتين .

ورغم أنَّ التعدد إنما شُرِع لأسباب إنسانية واقتصادية وخلقية وقومية لا تغيب عن منصف، فلا تزال الأصوات ترتفع حول هذا الشأن، والاستفتاءات عنه لا تنقطع، على أننا نرى أحرارَ الزعماء العالميين كانوا ولا يزالون ينظرون إلى التعدد، كعلاج أساسي لا بُدَّ منه للقضاء على كثير من الأوبئة الأخلاقية، والحفاظ على القُوى والطاقات الأصلية والنوعية في الأمم الطامحة .

فمثلاً في (١٣/ ١٢/ ١٩٦٠م) أذاعت **روتر** أنه اكتشفت وثيقة بخط مارتن بورمان نائب هتلر، كان قد كتبها في عام (١٩٤٤م)، يقول فيها : إنَّ هتلر كان يفكر تفكيرًا جديًّا في أنْ يبيح للرجل الألماني الزواج من اثنتين زواجًا شرعيًّا ؛ لضمان مستقبل قوة الشعب الألماني .

ولا يستحي المُطالِباتُ بعدم التعدد من التمثل بالعرف المسيحي، رغم ما يعانيه أهله من أزمات ومتاعب عامة وخاصة، والديانة المسيحية بريئة من دعوى عدم تعدد الزوجات ؛ فإنه من الثابت تاريخيًّا وعلميًّا، أنَّ الدولة أو الكنيسة في أي بلد من البلاد الأوربية، لم تكن تعترض على زواج الرجل بأكثر من زوجة حتى منتصف القرن السابع عشر الميلادي، ثم رُؤِي لسببٍ أو لآخر، ألا يتزوج الرجلُ بأكثر من واحدة، وهنا سُنَّت

عدة تشريعات مدنية، أخذت فيها بعد الصورةَ الدينية في أوربا وأمريكا، تَنُصُّ على حظر تعدد الزوجات، ومِن ثَمَّ يظهر أنَّ منع التعدد في الديانة المسيحية أمرٌ جديدٌ وبدعةٌ سيئةٌ، لا علاقة لها بأصول الشريعة المسيحية، فيما يقرره العلم والتاريخ.

وقد أرسل بعض كبار الألمان إلى بعض المصادر الإسلامية، يطلبون موافاتهم بدراسة وافية عن تعدد الزوجات في الإسلام، وحكمة التشريع، وكذلك طلبت مثل ذلك بعض البلدان الأوربية التي يزيد فيها عدد النساء عن الرجال؛ لمحاولة تلافي التدهور الأخلاقي الرهيب فيها، وتدهور القوى البشرية في قلة عدد الرجال.

فهل آن لحاملي وحاملات لواء هذه الدعوة أن ينصفوا أنفسهم، ودينهم، ووطنهم، وأوقاتهم، وأوقات الناس جميعًا من ترداد هذه النغمة؟!.

ماذا يعمل الرجل يتشهى الولدَ مع المرأة العقيم؟!، وماذا يعمل الرجل الشريف مع الزوجة المريضة؟!، أو مع المرأة الدميمة، أو اللئيمة، التي لا تعصمه؟!، أَيُخالِلُ عليها ويصادق ويُنشئ علاقاتٍ غيرَ شرعية مع أُخريات؟!، أو يطلِّقُها ويَدَعُها تقاسي آلام الطرد والانتظار؟!، أم يلجأ إلى ما أحل الله فيحفظ على الزوجة الأولى عيشها، ويضم إليها أخرى يتحقق بها المعنى الإنساني المنشود؟.

إنَّ دعوى تشريد الأولاد من أثر التعدد، دعوى لا تقوم على أساس ديني أو اجتماعي، إنما هي أثر من آثار التخلف الاقتصادي، والفقر

والجهل ، فمتى ما عُولج الفقر والجهل انتفت هذه الظاهرة التي هي كل ما يملكه خصوم التعدد .

القرآنُ المترجَمُ والمجلسُ الإسلاميُّ :

يزور العشيرةَ الآن شابٌّ ألماني أَسْلَم ، هو السيد علاء الدين شلبي ، وهذا هو اسمه الإسلامي ، وقد جاء القاهرة رجاء تعلم اللغة العربية ؛ حتى يستقي الإسلام من نبعه الأصلي ، وهو القرآن الكريم في لغته الأصيلة ، لكثرة ما وجد من الفوارق الهائلة في معاني الترجمات المنتشرة في العالم الأوربي ، حتى أصبحت هذه الترجمات بما فيها من الخلافات ، تمثل الأناجيل المسيحية بما فيها من الخلافات ، وحتى ليخشى أن يأتيَ يوم من الأيام ، تتحزب كل جماعة لترجمة يحتجون بمعانيها على الترجمة الأخرى ، فيدخل الخلاف بهذه الطريقة إلى الأصول الإسلامية ، التي لم تختلف عليها الأمة من قبل بحمد الله .

والإنجليز الذين يهتمون بالإسلام يقرءون الآن الترجمة الجديدة ، التي أعدها ونشرها المستشرق الإنجليزي جورج أوبرى الأستاذ بجامعة أكسفورد .

وقبل هذه الترجمة أصدر السيد محمد مرمادوك بكنال ترجمته التي أعيد طبعها سبع مرات منذ نشره لأول مرة في (١٩٥٣م) ، وبلغ ما بيع منه أربعمائة ألف نسخة ، بوساطة دار نشر أمريكية يديرها مستر (كورث إبنوك) .

وتعتبر ترجمة مرمادوك في الغالب أَسْلَم ترجمة قرآنية ، ومع هذا فقد أخذ أخونا العالم المحامي السيد محمد عبد الحافظ معوض على هذه الترجمة

عددًا ضخمًا من الأخطاء الأساسية، وقد نسَّق سيادته هذه المآخذ تنسيقًا علميًّا في رسالة سمَّاها: **المستدرك على ترجمة مارمادوك**، ودفع بها إلى الأزهر؛ رجاءَ إذاعتها بطريقة أو بأخرى؛ حتى لا ينخدع الناس بهذه الأخطاء في أكثر تراجم القرآن ذيوعًا، ولكنَّ الأزهر الشريف كعادته الشريفة **!!** لم يهتم بهذا الشأن؛ انشغالاً بما هو أهم من القرآن ... مما لا ندري ماذا؟!.

فهل يطمع مثلي في المجلس الإسلامي الأعلى؟ راجيًا أن يبحث أمر إذاعة هذا المستدرك؛ تصحيحًا لأربعمائة ألف نسخة قرآنية مترجمة، يقرؤها ملايين الناس شئنا أو لم نشأ، وذلك حتى يصدر المجلس ترجمته للمعاني القرآنية التي سوف تعتبر إمامًا ومرجعًا عالميًّا خالدًا في هذا الشأن إن شاء الله.

الشيءُ بالشيءِ يُذكَر:

وقد نشرت الأهرام أنَّ اليابان ستطبع لأندونيسيا خمسة ملايين نسخة من القرآن، تتكلف مليونًا وثمانمائة ألف دولار.

ولم يُشر الخبر إلى أنَّ الطباعة ستكون باللغة العربية أم الأندونيسية، وفي كلتا الحالتين فإن الخبر محل نظر، فنحن نعلم مدى الجهد الإسرائيلي المبذول لتحريف القرآن، سواء في لغته، أو فيما يترجم إليه، ومثل هذه المناسبات فرص متاحة لا نظنُّها تفوت إسرائيل، أليست إسرائيل صاحبة فكرة المصحف المختصر، والمصحف المزيف، والمصحف المحرف؟!.

وإن كان لنا عزاء كبير فيما وفق الله الدولة إليه من تسجيل التلاوة

القرآنية بِلُغَتِهَا العربية ، في قراءاتها السبع الواردة ، إلا أنَّ ذلك لا ينبغي أنْ يصرفنا أبدًا عن الاهتمام الأكبر بالمطبوع مع المسموع ، وبخاصة أنَّ المسموع لن يكون له أثره الكبير في الترجمات التي تأخذ طريق النظر المتيسر لكل الناس .

ولقد أخذت فكرة القرآن المسموع بقلب موسيقار مسيحي شهير يدعىٰ لورانس أوليفيه ، فهو يقوم الآن بتسجيل الكتاب المقدس على اثني عشر أسطوانة ، مدة كل منها ساعة أو ساعة ونصف ، بمرافقة أوركسترا كاملة ، تعزف الألحان الكنسية علىٰ آلات موسيقية تاريخية ، وهذا خبرٌ غنيٌّ على التعليق عليه .

فِلْمٌ عن النَّبيِّ ﷺ :

وهذا خبر خطير جريء ، أو أكثر من جريء ، بل لعله خبر وقح ، ذلك الذي نشرته صحف الدنيا ، تقول : إنَّ شاه إيران وافق علىٰ إخراج فِلْم عن النبيﷺ ، تحت رقابة عَالِم إيرانيٍّ يُسمَّىٰ روحاني ، علىٰ أنْ تكون رقابته بعيدة عن الجانب الفني .

والخبر بهذه الصورة مثيرٌ كل الإثارة ، وخصوصًا أنَّ رقابة العَالِم الإيراني على الفلم رقابة صورية ، ومفهومٌ أنَّ الذي يقوم بشئون الفلم أجانب عن الإسلام ، كانوا قد حاولوا ذلك من قبل في عدة بلاد إسلامية فلم يفلحوا ، وإذا كان عندنا عالم مصري معروف نتهمه بشيء من التهاون في تناول بعض الأمور الدينية ، لم يقبل أن تمثل **السيدة زينب** بنت الإمام عليٍّ في فلم سينمي ، من حيث إنها شخصية مقدسة لم يوجد من الممثلات

من يجوز لها الاجتراء على أخذ وضعها التمثيلي ، رغم أنَّ فلم **السيدة زينب** كتبته أديبة مسلمة متحفظة ، ووضع السيناريو عالم أزهريٌّ برتبة دكتور ، فكيف بتمثيلية عن النبيﷺ كل حظِّ المسلمين فيها رقابة المتن العلمي أو التاريخي بقدر الإمكان؟! .

إنَّ هذه الخطوة التبشيرية الاستعمارية الخطيرة ، يجب أن تكون محل اليقظة المطلقة والاهتمام الكامل من جمهور المسلمين ، ومن علمائهم على وجه الخصوص ، ثم من هيئاتهم الغيورة التي تقوم على هذه الثغور الدقيقة ، إنَّ هذا الخبر يجب ألا يمر كأي خبر ، إنه المِعْوَل الأول في هدم التقليد الإسلامي الذي يمتاز به دين الله .

يا أزهر ، يا مجلس إسلامي أعلى ، يا مجلس صوفي ، يا مؤتمر إسلامي ، يا أوقاف ، يا جمعيات إسلامية ، يا طرق صوفية : شيئًا من اليقظة والعمل قبل فوات الآوان !! .

اعتذارٌ وموعدٌ وبيانٌ :

لدي عشرات من الأسئلة الصوفية والفقهية قديمة وجديدة، أعتذر مؤقتًا إلى إخواني أصحابها، عن تأخيري في الإجابة عليها مضطرًا؛ فإنَّ طوارئ الحوادث الهامة تلزمني أن أعالجها لوقتها، فأضطر إلى تأجيل غيرها مما لا يضر فيه التوقيت، وإني أسأل الله أن يهيء لي سبيل كتابة هذه الإجابات في أقرب الأوقات.

ولقد كتب إليَّ رجل فاضل يعتب عليَّ تقديم الموضوعات العامة على موضوعاتنا الصوفية، وأحبُّ أن أقرر أن كل ما أكتبه إنما هو تصوف، وهو مما لا يجوز أبدًا أن يغيب عن أي متصوف، والتصوف انطلاق إسلامي، وليس من التصوف حبس النفس في حدٍّ محدود، يعطل قواها أو طاقاتها، ويصرفها عن تطورات الأحداث، وطوارق الإسلام، ويعزل ما بين الصوفي والحياة، إنما التصوف هو الإسلام المتحرك الحي، الكامل الشامل الذي لا يغيب عن المؤمن به شيء من حركات الزمان فيما له وما عليه، وفي علاقة ذلك بدينه وربه العظيم .

فكل ما نكتبه وما نعالجه يا سادة تصوف، وتصوف في أرقى مستوياته، وأبرع ألوانه الفعالة فيما نعتقد، وعلى الله قصد السبيل .

***

السيدُ الرائدُ يشكر[1]

بالنسبة لعودة السيد الرائد من الحجِّ مرهقًا، تعبًا من أثر الرحلة نفسها، ثم من أثر إصابته بالأنفلونزا الحادة، ثم لانشغاله الموصول ليلاً ونهارًا بمقابلات زواره ومهنئيه، وتصريف المصالح العاجلة، والتي مضى عليها الوقت، ومواجهة بعض الطوارئ، لم يستطع أن يكتب كلمة هذا الشهر مضطرًا، وأسرة المجلة تعتذر إلى قرائها بالنيابة عنه، وتكتفي بنشر هذا الشكر مع الدعاء والثناء، قال سيادته:

إليك يا إلهي أرفعُ آيَ الشكرِ والولاءِ على ما تفضلتَ به، فيسرتَ ليَ الحجَّ والزيارةَ منحةً مفاجئةً، وهديةً غير منتظَرة، داويتَ بها جِراحي، وغسلتَ بها آلامي، وعوضتَني بها بعضَ ما أفقدني الابتلاءُ الشديدُ الذي ابتليتَني، وجعلتَها جائزتي على نجاحي فيما اختبرتَني به، فصبرتُ عليه، وهو قاسٍ قاتل، ورضيتُ به، وهو مؤلمٌ لئيم، فلك الحمدُ اللهمَّ ولك الشكر.

ثمَّ إنِّي أشكرُ اللّهَ تعالى إلى أخي في اللّه تعالى السيد الوزير أمير الحج، شكرًا صادقًا خالصًا لذات اللّه، كلُّه دعاءٌ بظهرِ الغيب، ووفاءٌ من أعماقِ القلب، وأشكرُ اللّهَ إلى المخلصين المهذبين من رجالِه، أجزلَ اللّهُ لهم العطاء.

ثمَّ إليكم أيها الأخوةُ في اللّه، وأيها الأحبةُ في كلِّ مكان أرفعُ شكري،

---

(١) مقال غرة المحرم (١٣٨١هـ) ـ ١٦ يونية (١٩٦١م)، العدد السادس ـ السنة الحادية عشرة.

وأسألُ اللهَ أن يجزيَكم عنِّي ، عَلَىٰ مجاملاتِكم الكثيرة الوفيرة لي ، خيرَ ما يَجزِي إخوانًا عن أخٍ صدقهم وصدقوه ، وَفِي اللَّه وحده عرفهم وعرفوه ، فأحبَّهم في الله وأحبوه ، ثم أشكرُ السادةَ الأخوةَ المودِّعِينَ والمستقبلين في السويس والقاهرة ، وأشكرُ الزائرين والمهنئين الذين لم ينقطع سيلَ توافدِهم ، والمتفضلين بالسفرِ إلى القاهرة من الأقاليم بصفةٍ خاصة ، كما أشكرُ الله إلى المهنئين بالبرق أو البريد أو التليفون ، وأخصُّ بالشكر أولئك الذين لازمُوني ، وأنفقوا من الجهدِ والمالِ والوقتِ والحبِّ ما اللهُ معوضُهم عنه أفضلَ العِوَض ، والذين أقاموا ليَ الحفلاتِ سواء في الذهاب أو في الإياب ، إنني أكتمُ أسماءَ أهلِ الفضلِ من إخواني وأبنائي ، وكلُّهم كذلك فاضل ، والله هو الذي يتولاهم بما هم أهله وما هو أهله ، يا ربي لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك .

***

قانون تطوير الأزهر(١)

في غير هذا المكان من **المسلم** يطالع القارئ ملخصًا دقيقًا وافيًا لمشروع قانون تطوير الأزهر، الذي أقره مجلس الأمة في آخر جلسة من دورته الماضية، والأزهر للمسلمين جميعًا، فلا بُدَّ من كلمة نقرر فيها رأينا خالصًا لوجه الله، وعندما يكون هذا الرأي مخالفًا لرأي آخر، فإنما هو اجتهاد في سبيل المصلحة، والمصلحة بلا أدنى شك هدف الجميع، وللمجتهد الثواب أخطأ أو أصاب!

إنَّ الذي يهمنا كجماعة إسلامية، والذي يهم أفراد المسلمين جميعًا، هو أن يظل الأزهر الرمز الإسلامي المقدس، وأن يظل هو مركز الإشعاع الديني الأعظم، وأن تحفظ عليه تقاليده ومظاهره وأساليبه العلمية والقرآنية ورسالته الإسلامية العالمية، وأن يبقى لرجاله زيهم الخاص المميز، وسلطانهم الروحي النافذ، وأن يحفظ الأزهر من أدران السفور المحرم والاختلاط بين الجنسين، وأن تحفظ عليه كتبه الخاصة، وأن تيسر له الهيمنة على شئون العقائد والأخلاق في كافة وسائل النشر والإعلام، وأن يتهيأ لرجاله التوسع في الدراسات الدينية وتخصصاتها، وبالذات فيما يتعلق بلغة العرب وتاريخهم العام والخاص ثم بعلوم السنة وعلوم القرآن، والشريعة والأصول، وفلسفة الأديان وتواريخها وتطورها ومقارناتها، وأن يبقى حفظ القرآن شرطًا أساسيًّا في إدراك شرف الالتحاق بمعاهد الأزهر، حتى لا يصيبه ما أصاب دار العلوم ودور

(١) مقال غرة صفر (١٣٨١هـ) ١٤ يولية (١٩٦١م)، العدد السابع - السنة الحادية عشرة .

المعلمين كذلك، وأن يجبر الطالب الأزهري على الاندماج العملي في العبادات والأخلاق الإسلامية، مع التنزه عن الترخص في شيء منها، وأن يحفظ لخريجيه وسائل المعاش المشرف، ودوافع الإنتاج والتجديد والاستقرار، ثم ليكن بعد هذا ما يكون من التجديد والتطوير حسبما يتماشىٰ مع منطق التقدم المدني، ويتساوىٰ مع مقتضى الحال، ومستلزمات كبريات الآمال في هذا المعهد العتيق، الذي يعتبر المرجع الأخير للثقافة الإسلامية في العالم كله.

ولقد وضع المسئولون أمانة ذلك كله في أعناق رجال الأزهر، أعني الذين سوف يشتركون في وضع اللائحة التنفيذية للقانون، وكل ما قرأناه من التصريحات والرد علىٰ بعض الاستفسارات، كان يضع مسئولية الأمل الإسلامي كله في يدي هذه اللجنة، ونحن نبارك كل عمل ينهض بالأزهر إلى الأفق الجدير به وبتاريخه، وبأمل المسلمين فيه، ونحمد الله تعالىٰ إلىٰ كل من أسهم أو يسهم في تطويره تطويرًا يقيله من عثرته، ويرد إليه اعتباره، ويربطه بآفاق الحياة، ويهيئ له الإسهام في خدمة العلم والسلام والإنسانية جمعاء، بالإضافة إلىٰ رسالته الإسلامية والعربية الأصيلة.

إنَّ بعض استفسارات جذرية كان قد أثارها فضيلة الأستاذ الشيخ المدني، وفضيلة الأستاذ الشيخ الشَّرباَصِي في المؤتمر الذي عقد خاصًّا بمناقشة هذا القانون، وقد ردَّ عليهما السيد الوزير الأخ كمال الدين حسين ردًّا مريحًا مطمئنًا، وعندنا من مثل هذه الاستفسارات كثير، خصوصًا فيما يتعلق بالطالب الأزهري الذي سيكلف باستيعاب العلوم المدنية المقررة في المدارس العامة إلىٰ جانب العلوم الدينية التي يكاد ينوء

بها الأزهريون في معاهدهم الآن، ومشكلة طول مدة الدراسة بهذه المعاهد، وأعمار الطلاب، وعلى كل فلا بُدَّ من الانتظار حتى تنتهي لجنة اللائحة من وضعها؛ حتى يمكن النظر والحكم، وإلى أن يتم ذلك نرجو ألا يفوت أعضاء اللجنة وزن ما يجيش في نفوس الناس من آمال ومخاوف، بحيث تحقق هذه اللائحة موازنة كريمة بين واقع الأزهر في ماضيه وحاضره، وبين التطور الذي لا بُدَّ منه للاحتفاظ بالأزهر في مستواه الإسلامي الرفيع، بل نقله إلى المستوى الأعلى.

ونرجو كذلك ألا يغيب عن المسئولين حين تأليف اللجنة أن تتمثل فيها كل العناصر والاتجاهات الأزهرية، وعدم الاكتفاء برجال الإدارة في الأزهر، وأن يُفتح الباب لتلقي الاقتراحات والملاحظات من كل من يهمه أمر الأزهر من مسلمي العالم؛ حتى تتجمع من هذه الملاحظات والمقترحات ثروة تستفيد منها اللجنة في وضع لائحة تأخذ باليد إلى الغاية الكبرى بإذن الله.

إنَّ الأزهر ليس هو رجال الإدارة فيه، ولكن الأزهر هو مجموعة علمائه وطلابه وخريجيه، والمنتفعين به ومحبيه، ولكل أولئك حق في توجيه اللجنة والتعاون معها في هذا العمل التاريخي الخالد ولن يغيب عن المسئولين كذلك، أنَّ أزهرًا جديدًا أسسوه فعلا في ليبيا، وأنَّ أزهرًا آخر أسسوه في الحجاز، وأن أزهرًا ثالثًا يُبحث أمر تأسيسه في الباكستان، وأنَّ أزهرًا رابعًا آخر موديل الإفرانسية، يبحث أمر تأسيسه في تونس، ولا يستبعد أن يكون هناك تفكير في أزهر بالعراق أيضًا بجوار جامعة النجف، ولكل ناحية من هذه النواحي منطقها الخاص في سبب تأسيس

أزهر جديد بها ، فلا ينبغي قط أن ندع ثغرة واحدة في لائحتنا يعتمد عليها أزهر من هذه **الأزاهر أو الأزهرات** المستحدثة لأسباب سليمة أو سقيمة ، مذهبية أو سياسية!!

ولا يفوتني وأنا أختم هذه الكلمة المجملة الهادفة ، أنْ أُشير إلى أنَّ إيطاليا قررت إنشاء جامعة كاثوليكية لشباب إفريقيا ، ردًّا على جامعة صداقة الشعوب التي أنشأها السوفييت في موسكو والإشارة هنا تغني عن العبارة .

إنَّ الكنيسة الإسبانية وحدها تخرج في كل عام (ثلاثين ألف قسيس) . . .!! ينتشرون للخدمة التبشيرية في كافة أنحاء العالم .

ولعل أنْ يكون لنا عودة تفصيلية في هذا المجال عندما يحين وقتها ، ونعود فندعو الله من كل قلبنا لكل من أسهم أو يسهم في النهضة بالأزهر ، نهضة تعود على الإسلام والعروبة بكل ما هو خير وأبقى بقدر ما ندعوه للجنة اللائحة بالتوفيق والتسديد والنجاح ، حتى تحقق فيها وفي الأزهر آمال المسلمين أجمعين .

عود إلى الاعتذار:

والله إني لخجل كل الخجل من العودة إلى الاعتذار لإخواننا أصحاب الأسئلةَ والاستفتاءات، الذين يطلبون أن تكون الإجابة مني بالذات، شكر الله لهم حبهم وثقتهم، وجعلني أهلاً لهذا الحب وهذه الثقة.

وإني لأسأل الله تعالى، أن يهيئ لي من الوقت والصحة ما أحقق به أملهم عاجلاً إما بالردود الشخصية أو النشر بمجلتهم الحبيبة، ولكم يا أحبابي وأبنائي، أبرك دعائي، وأصدق ثنائي، وعلى حب الله، حتى نلتقي بإذن الله.

***

مفرقـاتٌ مجمَّعـاتٌ[(١)]

خطورةُ تطويرِ الأزهرِ والدعوةِ إلى إهمالِ القرآنِ :

في العدد الماضي من **المسلم**، سجلنا رأينا الإجماليَّ في تطوير الأزهر، ووضعنا الأمانة -كلَّ الأمانة- في أعناق السادة المختارين لوضع اللائحة التنفيذية، التي سوف توجه الأمور في الأزهر إلى وجهتها العملية الواقعية، وبيَّنا أنه سيكون لهذه اللائحة شأنٌ أخطر من القانون نفسه؛ ولهذا رجونا ألا يقتصر وضع اللائحة على نفرٍ مخصوصٍ من الإداريين بالأزهر، ولكنْ يجب أن يشترك فيها بصفة خاصة، كلُّ شخصية إسلامية تهتم بشئون الأزهر، أو بالدعوة إلى الله، حتى تكون اللائحة نابعةً عن إجماع أو شبه إجماع من الشخصيات والهيئات الإسلامية في إقليمي الجمهورية على الأقل، إن لم يكن من كل علماء المسلمين في العالم.

وبهذا نستفيد عدة فوائد منها :

- احتكاكُ الأفكار ومقارعة الآراء.
- ومنها اتقاءُ الاعتراضات، وسدُّ أكثر الثغرات.
- ومنها القضاءُ على الانفراد بالرأي، واكتساب حكم التاريخ، وسد الباب على من يبحثون على الأسباب لخلق **أزهرات** جديدة.

(١) مقال غرة ربيع الأول ١٣٨١هـ- العدد الثامن من السنة الحادية عشرة -١٢ أغسطس ١٩٦١م.

وليست فكرةُ تطوير الأزهر كما قررنا فكرةً جديدة، إنَّما هي فكرةٌ قديمةٌ أخذت صورًا شتَّى، وألوانًا متعددة، وقد سجل المرحوم **الشيخ الظواهري** في رسالته شيئًا منها، في كثير من البراءة والرغبة في خدمة الأزهر والإسلام.

والذي جعلنا نعود إلى الكتابة في هذا الموضوع، هو ما كتبه أحدُ السَّادة مدرسي الأزهر - مع الأسف- مطالبًا بعدم اشتراط حفظ القرآن في طالب الالتحاق بالأزهر، وهو يقول بالنَّص : إنَّ اشتراط حفظ القرآن للطالب الصغير، لم يأتِ به قرآنٌ ولا سُنَّةٌ، وليس واجبًا لا يتمُّ تعلم الدِّين إلا به، إنَّ حفظ القرآن قد يكون للتعبد، وهذا ما لا شأن لنا به، وإنَّما نتناول حفظ القرآن للتعليم. انتهى كلام الأستاذ الكبير جدًّا المدرس بالأزهر، بعُجَرِهِ وبُجَرِهِ وفَصِّهِ ونَصِّهِ !! .

والأستاذُ -المذكور أعلاه- يحمل عدةَ شهادات جامعية، ومع هذا لم يصلْ إلى علمه أنَّ حفظ القرآن جاء به الإسلامُ عمومًا وخصوصًا، وأنَّ من الآيات ومما صح رفعه إلى رسول الله ﷺ من أحاديث الترغيب في حفظ القرآن، والترهيب من تركه أو نسيانه، ما يكفي لتأديب أي قلم جريء، يدعو إلى إهمال كتاب الله بمثل هذا المنطق الأعوج الكفيف.

ولقد عُرفت مصرُ بأنها حَرَمُ القرآن، وليس في العالم كله وطنٌ سكن القرآن إلى قلوب أهله وحفظهم ولسانهم كمصر، حتى أصبح ذلك من خصائصها وميزاتها العالمية.

فما لم يُشترط حفظ القرآن في الملتحق بأزهرها ففيمن يُشترط؟ أيشترط فيمن يَلتحق بالجامعات المدنية ومعاهدها؟!

كيف لا يُعفى الطالبُ من حفظ نصوص الشعر والنثر، ثم يُعفىٰ من حفظ كتاب الله الذي هو مادة البلاغة وحصن اللغة، وأصل الإيمان ؟!

وما لم يَحفظ طالبُ الدين كتابَ الدين، فمن أين يستمدُّ استشهاده علىٰ أصول دينه؟ كيف يستدل ويستنبط ويرجح ويقارن، وهو لا يدري مواقع الآيات ولا يدري كيف ينطق بها صحيحة، عربية خالصة من العُجمة والأُمِّية والسُّوقية والعامية، فضلاً عما ينبغي له من العلم باللُّزوميات القرآنية الأخرىٰ؟ .

وما لم يحفظ الطلبة القرآن، فما هو موجب الإبقاء علىٰ علومه الشرعية واللغوية وغيرها، ومعنىٰ هذا أننا نخطو الخطوة الكُبرىٰ في القضاء على الإسلام قضاءً مبرمًا مجرمًا، بإهمال المادة الأساسية في بنائه العقيدي والتشريعي والثقافي واللغوي، وتصبح دراسةُ الإسلام بعد هذا واحدةً من الدراسات العامة، تتساوىٰ مع دراسة الجغرافيا والحساب، أو ما هو أدنىٰ من قشريات العلوم .

إنَّها دعوة مُجرمةٌ في حقِّ الإسلام، وحقِّ اللغة، وحقِّ العروبة، التي لم يُعرف لها قيمة إلا بالقرآن، والتي تقف الدولة كلَّ طاقاتها ومواردها لخدمتها، خدمة القومية العربية، التي لم يسمع بها مدرس الأزهر الجامعي الكبير .

فاليوم، وبعد اقتراح مدرس الأزهر، أريحي نفسك يا وزارة الأوقاف من تعهد القرآن ومدارسِهِ؛ فقد أفتاك مدرسُ الأزهر بأنَّ القرآن إنما أنزل للتعبد -وهذا ما لا شأن له به كما قال- ولم يصل إلى علم الأستاذ الأزهري الجامعي، ما هي خطورة حفظ القرآن التي يعرفها المستشرقون، ويضطرب من هولها المبشرون والمستعمرون، ولا ما هي آثاره الثقافية والعلمية والإيمانية والإنسانية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والرَّبانية، التي فَرضت على المسلمين وغير المسلمين حفظَهُ، والتخصصَ في خدمته وخدمة علومه، إنَّ مدرس الأزهر يطلب تحقيق الأُمنية الكُبرى لأعداء الإسلام، بإهمال كتابه الأعظم، فَيُحْيي سنة «**غلادستون**» ومَن ورثه مِن خصوم الإسلام.

واليوم، وبعد اقتراح مدرس الأزهر، أرحْ نفسك أيها الأزهر من أن تكون لك في مدارس المرحلة الأولى روافدُ ذات خصيصة إسلامية مستقلة هي حفظ القرآن، ويكفي أن تتلقى طلبتك من أشباه الأميين، الذين تدفعهم إليك مدارس التعليم الإلزامي، مسخًا مُشوهًا، لا هم من المتعلمين ولاهم من العوام، وحسبك أن تقرر شهاداتُ الميلاد أنَّهم مسلمون.

ثم أرح نفسك أيها الأزهر من معهدك الذي تسميه **معهد القراءات**؛ للإبقاء على اللهجات والحروف التي نزل بها القرآن؛ فإنه ما لم يكن حفظُ القرآن في كتاب ولا سنة، كان تعهدُ قراءاته وما يتعلق به عبثًا ولغوًا وضياعًا ينبغي القضاءُ عليه.

ثم أنتم أيها المسئولون عن جمعيات تحفيظ القرآن، أنذروا هذه الجمعيات بتصفية مدارسها، ثم أغلقوا أبوابها وحلُّوا مجالسها، وسرِّحوا

تلاميذها؛ فإنَّ حفظ القرآن للتعليم لم يرد في كتاب ولا سنة، كذلك أفتاكم الأستاذ الجامعيُّ المدرس بالأزهر **الدكتور فتحي عثمان**، فيما كتبه عن تطوير الأزهر في الأهرام.

عفا الله عنك يا دكتور فتحي، لِمَ لم تدع لنا أزهرنا بقرآنه الثقيل عليك؟ ثم تذهب فتبحث لنفسك عن أزهر آخر، يؤمنُ بأنَّ حفظ القرآن بدعة، لم تأت في كتاب ولا سنة!! ثمَّ يا ويلَ الأزهر من الدُّخلاء على الأزهر، ويا ويله الويلَ كلَّه حين يكون أمثال هؤلاء من موجهيه، والمشتركين في تطويره وإصلاحه.

أمَّا نحن، فلا نزال نؤكدُ ضرورةَ بقاء شرط حفظ القرآن وتجويده، فيمن يريد الالتحاق بالأزهر الشريف، وهي ضرورة عن رغبة واعية إجماعية من أهل القبلة -أفرادًا وهيئاتٍ ومذاهبَ- فليرضَ الدكتور فتحي، أو ليسخط وأمامه البحر الكبير . . .

ولعلَّ الدكتور المذكور، لم يبلغه أنَّ في القاهرة والعالم كلِّه مدارسَ تُسمَّى المدارس الإنجيلية، وظيفتها خدمة الإنجيل... قبل كل شيء !!.

إننا نطالب بحرارة بتطوير الأزهر، وربطه بالفكر العالمي في كل المجالات، وإدماجه في الحياة العامة بكل طاقاتها وحرارتها، ولكنْ مع حفظ لونه الديني واللغوي، والإبقاء على خصائصه العلمية ومظاهره التاريخية الأساسية، وتمكينه من أن يمثل الإسلام الأصيل أصدقَ التمثيل، وفي هذه الحدود فليكثر عبدٌ أو يُقِل.

وأخيرًا أين أنت أيها الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ؟ أين أنت من كلام مرءوسك . . . كلامه الصغير الخطير ؟!! .

ثم هل القرآن إنما نزل للتعبد ، لا للتعليم ، ولا للتشريع ، ولا للتربية ، ولا للتوجيه ، ولا للحياة؟!! .

حول كلمة : ارفعوا أصواتكم :

قرأتُ الكلمة المؤمنة المباركة ، التي كتبها بهذا العنوان الأخ الأستاذ/ حسين يوسف ، بمجلة «**صوت الإسلام**» ووقفت كثيرًا عند تعقيبه ، فقد أذكرني مجلسًا كبيرًا دُعيت إليه ، في دار أحد كبار المسئولين بمناسبة عودتي من الحج ، وكان بالمجلس بعضُ أشياخنا السَّادة علماء الأزهر الأتقياء ، وجرىٰ الحديثُ إلىٰ أشياء يتعين إنكارُها ، ولابدَّ من طلب العون علي إنكارها ، أو تغييرها بقوة السلطان ، فقال المسئول المسلم : وهل طلب علماؤنا ذلك رسميًّا؟ أنتم تتهامسون فيما بينكم ، لا يسمع بكم سامع ، ولا يحسُّ بكم مسئول ، وتكتمون ما أوجب الله عليكم أن تعلنوه ، ثم تجارووننا على اجتهادنا صوابًا أو خطأً ، وما نحن بملائكة ولا أنبياء ، ثم تعودون باللائمة بعد هذا علينا ، ما هذا شأن العلماء ، ولا تلك وظيفتهم في الإسلام .

قال بعضهم : بل قد نقول ، فلا يسمع لكلامنا بعدُ ، وكم قلنا؟ .

قال : وهل كررتم المقال ، ودأبتم على البيان ، وواصلتم المطالبة ، ووزنتم الأمور ، وألحفتم في طَرْقِ الأبواب ، وتنويع الوسائل ، والتزام ذلك بوصفه الوظيفة الكبرىٰ لعلماء المسلمين؟

ثم أولًا وأخيرًا، هل ضربتم لنا المَثَلَ العمليَّ، والقدوةَ الفعلية، بأنفسكم في أولادكم وفي بيوتكم وأعمالكم ومعاملاتكم، حتى نلتزم بها، ويلتزم بها الناس، وتحملوننا على الاستماع إليكم والأخذ بتوجيهاتكم؟

وهنا ساد صمتٌ بليغ، قطعه صوتُ قارئ القرآن مستفتحًا بآيات من «**براءة**».

وأنا أسوق هذا الكلام على مسئوليتي إلى علمائنا الرسميين، ونسألهم عليه الإجابة إن كان لمثل هذا الكلام المُسكت من جواب.

الهجرة النبوية كانت في ربيع الأول :

أحدُ أبنائي في الله، من العلماء الموظفين بالمساجد الكبرى بالقاهرة، رجلٌ محبوبٌ ناجح في عمله، على تُقى وورع، سمع الحديث التليفزيوني الذي كنت ألقيته بمناسبة الهجرة، فسألني مُلحفًا باسم طائفة من إخوانه، أن أكتب لهم مُلخصًا لهذا الحديث، وبخاصة أنَّ مناسبته لازالت قائمةً في ربيع الأول قيامَهَا في المحرم.

واستجابة لرغبته أتذكرُ أنني قررت في هذا الحديث التلفزيوني أمورًا منها :

١- أنَّ الهجرة النبوية لم تكنْ في أول يوم من المحرم، كما هو الشائع حتى بين كثير جدًّا من المثقفين، كما أنها لم تكن في أي يوم من هذا الشهر، ولا الشهر الذي بعده، أي لا في المحرم ولا في صفر على الإطلاق.

٢- أنَّ الهجرة النبوية حدثت فعلاً في صدر شهر ربيع الأول، كما كانت ولادته ووفاتهﷺ في يوم الاثنين من صدر شهر ربيع الأول، على

اختلاف سطحيٍّ في نوع الأيام العددي ، وكما وقعت أحداثٌ إسلامية أخرىٰ ذات قيمة خاصة في هذا الشهر الكريم ، منها الإجماع في خلافة عمر على اختيار هذا التاريخ .

٣- لم يكن المسلمون قبلاً يؤرخون مكتوباتهم بالأيام والشهور والسنين ، وكانوا يعرفون السنين بأَشهر الأحداث فيها ، كما أطلقوا علىٰ عام ولادته ﷺ عام الفيل مثلاً .

٤- فلمَّا كانت خلافة أمير المؤمنين عمر ، أبلغه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه عاملُهُ على البصرة ، أنه تأتيه مكاتيب الخليفة ، لا يدري أيها سابق ولا أيها لاحق ، مما يضطرب معه أمر الولاية وتنفيذ القرارات .

٥- واتفق أن جاء من اليمن صحابي ، أبلغ الخليفة أنه رآهم هناك يؤرخون مكاتيبهم باليوم والشهر والعام ، وجاءت كتب يعلىٰ بن أمية من اليمن علىٰ هذه الصورة ، فاستحسن عمرُ ذلك ، وصمم علىٰ إدخاله في تنظيماته وإصلاحاته التي وطَّنَ بها لحضارة الإسلام ، وهو الرجل المرن القوي البعيد الأهداف .

٦- جمع الخليفةُ حوله الراشدين من الصحابة ، واستشارهم في أي الأحداث يبدأ به التاريخ الإسلامي ، أيكون المولد النبوي ؟ أم المبعث والرسالة ؟ أم وفاته ﷺ أم هجرته؟ ولكلٍّ حادث منها خطورته ، وبعدَ البحث والترجيح اختيرت الهجرة ؛ لأنها كانت الفيصل بين الإشراك والتوحيد ، ومن يومها أشرق نورُ الإسلام على الآفاق ، وكان صاحب هذا الاقتراح هو سيدنا عليًّا رضي الله عنه .

٧- ثم نوقشت مسألة بداية العام الهجري، أيجعلون بدايته شهر ربيع الأول لمناسبة الميلاد المحمدي؟ أم يجعلون بدايته في رجب الفرد الحرام لميزته بين الشهور الحلال؟ أم يجعلون البداية من رمضان لخصوصيته بالصوم وزكاة الفطر؟

٨- لكنَّ سيدنا عثمان رضي الله عنه اختار شهر المحرم، وعلل اختياره بأنَّه آخر الثلاثة السَّرد الحرم، وهو مُنْصَرَفُ الناس من الحج، ولأنَّ البيعة الكبرىٰ حدثت في ذي الحجة، وكان أول هلال بعدها هو المحرم، وفيه بدأ التفكير في الهجرة والإعداد لتنفيذها، والعزم عليها، وانتظار إذن الله فيها، فوافق علىٰ ذلك الصحابة، ونفَّذه عمرُ رضي الله عنه .

٩- وبهذا يُعرف :

أولًا : أنَّ العزم على الهجرة والإعداد لها كان في المحرم، ولهذا وغيره اختير مبدأ للتاريخ الإسلامي .

ثانيًا : أنَّ تنفيذ الهجرة فعلاً تم في أوائل شهر ربيع الأول .

ثالثًا : أنَّ الذي اختار حادثَ الهجرة للتاريخ هو سيدنا عليٌّ رضي الله عنه .

رابعًا : أنَّ الذي اختار المحرم لبداية العام الهجري هو سيدنا عثمان رضي الله عنه .

خامسًا : أنَّ الخليفة سيدنا عمر رضي الله عنه ومعه الخاصة المستشارون من الصحابة، وافقوا علىٰ ذلك بعد بحث كافة الوجوه، وأنَّ ما أقروه كان عينَ الصواب .

سادسًا : أنَّ ذلك الاختيار تم في شهر ربيع الأول أيضًا، بعد أن مضىٰ على الهجرة نحو سبعةَ عشرَ عامًا .

١٠- وهناك أقوال أسقطناها من حسابنا، كالقولِ بأنَّ النبيﷺ لما قدم إلى المدينة أمر بالتاريخ من ربيع الأول أو غيره، كما في شرح البخاري نقلاً عن إكليل الحاكم، فإنما هو من مراسيل الزهري، وهي ليست بشيء عند علماء الحديث، ومنهم الشافعي ويحيى بن سعيد القطان، ثم هي لا تناهض الثابت الصحيح الذي قررناه، وقد اعتمدتُ على ما رواه ابن أبي خيثمة من طريق محمد بن سيرين، وما جاء عن ابن المسيب من الطريق المعتمد، وما نقله الحافظ السخاوي وغيره من الأثبات الثقات، ولعلني بهذا أكون قد أجملت الموضوع من أهم أطرافه بإذن الله وقدَّمت مادة يجب أن يحيط بها كل مثقف.

الصُّوفيُّ الدَّاعيةُ رينيه : عبد الواحد يحيى:

في ربيعٍ الأول من سنين ليست بعيدة جدًّا، انتقل إلى رحمة الله تعالى، العالمُ الفيلسوفُ الصوفيُّ المسلم «**جينو رينيه**» الذي عُرف فيها بعد باسم الشيخ **عبدالواحد يحيى** رحمة الله عليه، كان الرجل عالمًا فيلسوفًا مسيحيًّا معروفًا في بلدته فرنسا، وكان أستاذًا جامعيًّا كبيرًا، وكان يبحث عن الحقيقة، حتى جاء مصر واتصل بالأزهر، وحُبب إليه الإسلامُ فأسلم، وتعمَّقَ في طلب الله، فتصوف وزهد وتقشف، وتاقت نفسه إلى السلوك، فتلقى البيعة بالطريقة الشاذلية عن المرحوم الشيخ **محمد عليش**، وبهره نورُ التصوف والإسلام، فعكف على دراسته وخدمته، والدعوة إليه، حتى كوَّن مدرسة فكرية، لا يزال تلاميذها في فرنسا وسويسرا يتابعون خطاه، ويتأثرون منهجه، فيدعون غيرهم إلى الله والإسلام، كما دعاهم

شيخهم ، ويخدمون التصوف الإسلاميَّ النقيَّ ، دراسةً وتطبيقًا كما عودهم ذلك أستاذُهم العظيم ، ومنهم غيرُ واحد على صلة كريمة بالعشيرة .

ترك الشيخ **عبد الواحد** مركزه الجامعي في فرنسا وأقام بالقاهرة ، وخلع الزي الأوربي ، واتشح بأزياء شيوخ الأزهر ، وداس راتب وظيفته الأولى على إغرائه ، وجعل يأكل من عمل يده وإنتاج قلمه ، وما يؤلف من رسائل ، وما يكتب في الصحف الفرنسية وغيرها ، خادمًا للإسلام وتصوفه ، وسكن في الحي الحُسينيِّ المتواضع ، واتخذ من مجلة **المعرفة** ، التي كان يصدرها الأخ الأستاذ عبد العزيز الإسلامبولي ميدانًا لقلمه كذلك ، وتزوج كريمة أحد العلماء المصريين ، وأنجب منها بنين وبنات ، رعاهم الله ورباهم ، ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى ، ودُفن بمدافن القاهرة ، بعد أنْ أدى رسالة روحية وعلمية قولية وعملية وخطية ، لم يسبقه بها فرنسيٌّ مسلم في التاريخ الحديث .

ثم نسي الناسُ الفيلسوفَ العالم الصوفيَّ المسلم الفرنسيَّ الشيخ **عبد الواحد يحيى** ، الذي أحب الإسلام وخدم التصوف ، وضحّى فيهما بكل ما يملك ، نسيه الناس رغم انفراده بميزات وخصائص وخدمات ، لم تُتح لكثير من أصحاب الشُّهرة والتاريخ المُذاع ، لو لا أنْ قيض الله له نفحة من نفحاته ، فكانت لفتةً من الأخ الصالح الوفي العالم الدكتور **عبد الحليم محمود** ، فكتب رسالته اليتيمة للتعريف بهذا الرجل العظيم ، فحفظ بعضَ حقه على التاريخ .

وإذا كان لهذا الرجل حقٌّ في إحياء ذكراه ، فعلى الصوفية المستنيرين وحدهم ، وإنه لمن إكرام الله تعالى لروحه ، أن يجري ذكرُهُ منذ قريب في مجلس وزير صوفي معروف ، فيحبذ الوزير ضرورة إحياء ذكراه بما

يتناسب معها، وها قد آن أوانها، ولم يبق إلا أن نأخذ بإذن الله في التنفيذ، فليس يكفي أن تقوم العشيرة في هذا العام بإقامة حفل صغير كالذي أقامته في العام الماضي لهذه المناسبة .

ضاعت الأندلسُ في ربيع الأول :

اقترحت **العشيرة المحمدية** في العام الماضي، على هيئات المسلمين وطوائفهم في بقاع الأرض، إحياءَ ذكرى ضياع الأندلس، فردوسِ الإسلام المفقود، واقترحت على الصحف الإسلامية ألا تُغفلَ ذكرى أعظمِ حادث إسلامي في تاريخ دين الله، وربطت العشيرة في العام الماضي بين إحياء ذكرى المولد النبوي، وإحياء هذه الذكرى الحزينة، التي لا يعرف عنها جيلنا ولا الجيل الحديث قليلاً أو كثيرًا، كأثر كان من آثار سيطرة الكفر والاستعمار على مقدرات الوطن وثقافاته .

وإذا كان اليهود ما يزالون يتخذون المَبْكَى عند جدار خَرِبٍ في أرض فلسطين حتى احتلوها، فنحن لا نطلب من المسلمين إلا أن يتذكروا أضخم عبرة مرت بدولتهم، وأكبر حادث هزَّ تاريخهم، ليكون منه قوة دافعة لهم إلى الأمام، فيما هم بسبيله من زعامة وقيادة وإمامة وجهاد، نريد أن نأخذ من محنة المسلمين في الأندلس عبرة، فلا تتكرر التمثيلية في فلسطين والجزائر مثلاً .

لنتذكر محاكم التفتيش، وأنها أول ما أُقيمت للمسلمين في أسبانيا، لنتذكر المحارق البشرية، وأنَّ هذه الأفران أول ما بُنيت في الدنيا، بُنيت ليخبز فيها من يبقى على دينه الإسلامي في أسبانيا، لنتذكر قنواتِ الدَّمِ التي كانت تُحفر لتجري فيها دماء من تظهر عليه علامات

الإسلام هناك ، لنتذكر السَّحلَ العِرْقِيَّ ، وأنه نُقل[1] على أحسن صوره التي كانت تستخدم لمن يُتهم بمجرد الإيمان في أسبانيا ، أو الولاء للمسلمين ، ثم لنتذكر حضارتنا هناك والمجد الغاليَ العاليَ المضاع ، ولمَّا تزل آثاره بعد كل تلك القرون شامخةَ الآناف ، رفيعةَ الأقدار ، رهيبةَ الماضي المجيد ، ولا ننسى يوم دقت جيوشنا قلبَ فرنسا وسويسرا ، ولولا كلمة من الله سبقت لكان لنا اليوم شأن غير هذا الشأن .

وعندما نذكر أنَّ آخر ملوك بني الأحمر سلم مفاتيح الأندلس إلى «**إيزابلا وفرديناند**» في اليوم الثاني من ربيع الأول عام (٨٩٧ هجرية) ، فلنذكر بجوار الأندلس مما ضاع من الإسلام جزائرَ صقلية ، ومالطة ، وقبرص ، وغيرها ، ولنعقد العزم على ألا تفلت من أيدينا بعد ذلك قطعةٌ من أرض الإسلام ، فضلاً عن الأرض التي جمعت بين الإسلام والعروبة .

وإنها لأمانةٌ في عنق كلِّ مسلم ، وكلِّ هيئة مسلمة ، وكلِّ صحيفة مسلمة ، أن تكرر ذكرى ضياع الأندلس ، وتستخلص منها العبرة والذكرى ، وتعتصر منها أسباب القوة والنهضة ، واستعادةِ السيادة والمجد السليب .

اللهم قد بلغت ، اللهم فاشهد .

الدستور والإسلام :

ما من أدنى شك في أننا أمة مسلمة ، كلُّ مجدها من مجد الإسلام ، وأننا بموقعنا الجغرافيِّ ، وبموضعنا الدينيِّ ، وبتاريخنا في الحاضر والماضي ،

(١) في الأصل : السحل العراقي وأنه نفل . . . ، والسياق يقتضي ما أثبتناه .

وبدورنا الثوريِّ القياديِّ وبنظرة العالم كلِّهِ إلينا، ثم بما يترصدنا به خصومُنَا في الداخل والخارج، بكل ذلك، وما يتصل به من قريب أو بعيد، محتمٌ علينا الحتمَ اللازم أن يكون دستورنا مستمدًّا من القرآن، وأنه ينصُّ على أنَّ ديننا الرسميَّ هو الإسلام، ولسنا في ذلك رجعيين كما يحلو لبعض الدَّسَّاسين المُضلِلين أن يتهمونا به، مع فريق من المندفعين، وأنصاف المثقفين، والجهلة المتعالمين.

إنَّ في دول أوروبا الكُبرىٰ دولاً ينصُّ دستورها على أنَّ دينها الرسميَّ هو المسيحية -كإيطاليا مثلًا- ومن لم ينصَّ منها على ذلك صراحةً، نصَّ عليه عملاً؛ فأقام الأحزاب الدينية وقوَّمَها، وأمَدَّها بكلِّ وسائل القوة والنفوذ والخلود، سواء في ذلك فرنسا وإنجلترا وألمانيا، ففيها جميعًا الأحزابُ المسيحيةُ السَّافرة، التي تسيطر على مقررات الدولة ومقدَّرَاتِها، بأسمائها وتقاليدها الدينية المثيرة، وليس هناك من يسمي هذا رجعيةً أو تخلفًا.

حتىٰ أمريكا نفسها، وهي الدولة التي ترصد للتبشير في ميزانيتها الرسمية ما بين خُمس وعُشر الدخل الرسمي، ففيها الأحزاب الكاثوليكية والبروتستانتية التي تشتغل بالسياسة الظاهرية، وبالحركة الدينية أصلاً وبالذات، حتى اليابان فأحزابها الدينية معترف بها، مقدس وجودُها، وهذه إسرائيل الحقيرة، تنصُّ على أنَّ دينها الرسمي هو اليهودية، وأنها دولة دينية تخدم الدعوة الصهيونية، دون أي اعتراض.

فليس بدعًا بعد هذا أن نطالب بإصرار وإلحاح مع كل محب لهذا الوطن، ألا يَفُوتَ لجنةَ الدستور، استقاءُ تشريعاتها من القرآن، والنصُّ على أنَّ دين الدولة هو الإسلام، ولسنا بحاجة إلى تذكير اللجنة بالآيات،

والأحاديث والآثار وأحداث التاريخ، فأعضاء اللجنة بحمد الله على أرقى مستوى ثقافي، وليس بمنسي أن كثيرًا من الناس يجمعون لنا الهنوات، ويتسقطون منا الهفوات، ويتخذونها سلاحًا يرموننا به، والذكرى تنفع المؤمنين.

***

خواطرُ خطيرةٌ مهداةٌ إلى لجانِ تطويرِ الأزهرِ الشَّريفِ إبراءً للذمةِ وقيامًا بالواجبِ(١)

إليكُمْ يا أعضاءَ لجانِ التَّطويرِ الأزهريِّ :

يحتلُّ تطويرُ الأزهر المكانَ الأول من تفكير كلِّ مسلم غيور ، لا لمبانيه ، ولا لأشخاصه ، ولكن للمعنى العالي الذي أصبح هو رمزًا له ، رَضِيَ النَّاسُ أو أبَوا ، وما من شكٍّ في أنَّ كل مشترِك في هذا التطوير إنما يطلب الخير ، أخطأ أم أصاب ، ولا شكَّ أنَّ لكل مسلم حقًّا في أنْ يقول ما يراه خيرًا ، فذلك واجبه ومسئوليته أمام اللَّه والناس .

وكنَّا قد أجملنا فيما أسلفنا من كلمات في أعداد **المسلم** السابقة ما اعتقدناه الصواب ، والآن وقد اجتمعت لجان التطوير ، فإننا نذكرها بمسئوليتها التاريخية الكُبرىٰ ، المسئولية التي قد لا تتكرر ، فلا نزال نضرع إلى اللَّه أنْ يوجهَهَا إلىٰ ما هو الخير ؛ فإنَّ في يديها الآن ما لم يكن من قبل في يد المشرِّع الذي وضع القانون .

وإنَّ وظيفةَ هذه اللجان لأخطرُ بكثيرٍ من وظيفة المخطط الأول ؛ فهي التي سوف تُصَوِّرُ الشخصيةَ الجديدةَ للأزهر ، وتشكِّلُهُ في القالب والإطار العام الذي وضعه له القانون ، وهي التي تستطيع أن تَسُدَّ الثغرات ، وتتدارك الهنوات ، وتستقيم بالمشروع على الخط الأقوم ، فتحفظ على الأزهر كلَّ ما يجبُ حفظُهُ عليه من القيم ، والمثل الإسلامية والعربية ، في

(١) مقال غرة ربيع الآخر (١٣٨١هـ) ، ١٢ سبتمبر ١٩٦١م ، العدد التاسع من السنة الحادية عشرة .

عمومها وخصوصها، وأصولها وفروعها، مع تطعيمه بالجديد السديد الرشيد، الذي يحقق الأمل ولا يفسد العمل إن شاء الله .

وطبعًا ليس من حقِّنا، ولا من حقِّ غيرنا، أن يَتَسَوَّرَ على هذه اللجان محاريبَهَا الآن، غير أنه لا بأس مِنْ إشارةٍ إلى بعض الأماني التنظيمية السطحية أو الأساسية، بالإضافة إلى ما قدمناه من قبل، هنا وهناك، فلعلها أن تكون محلَّ اعتبار، فيما هو بين يدي اللجان من أعمال كِثار .

الزيُّ الأزهريُّ يجبُ أنْ يُصَانَ :

فمثلاً مسألةُ الزيِّ الأزهريِّ؛ إذ هو الآن في طريق الانقراض الفعليِّ العاجل؛ فإنه يجب أن يكون محل بحث ونظر جذري عميق، وكان لنا اقتراح سابق، يتلخص في أن يصبح الزيُّ الأزهريُّ للطلبة، جامعًا بين القديم والجديد، فتكون الكاكولة و العمامة فوق البنطلون والقميص، وهذا هو زيُّ رجال الدين الشائع في الشَّام والعراق والأردن والأفغان والتُّرك والباكستان، وكثيرٍ من البلاد الإسلامية الأخرى، وقد اختاره كثيرٌ من رجال الأزهر الحاليين من الجَامِعِين بين الثقافتين؛ لِجَمْعِه بين الفائدتين، ثم إذا حصل الطالب على درجة علمية دينية، جاز له أن يلبس القفطان ـ مثلاً ـ أو الجُبَّةَ أو العباءة، كدلالة على مركزه الدينيِّ، بدلاً من الرُّوب الجامعي، بشرط أن يُصَانَ هذا الزيُّ الدينيُّ عن التقليد والعبث والفوضى .

فليس من المقبول ولا المعقول، أن تظل الأزياءُ في الأزهر أمْشَاجًا فوضى لا ضابطَ لها، وألا يتميز طالبُ الأزهر عن غيره من الطلبة،

والناظر الآن إلى أزياء الطلبة الأزهريين يناله من الحسرة والألم والاشمئزاز من هذا الكرنفال ما لم يكن يخطر له على بال .

وإذا صح أن نُعفيَ طلبة القسم الابتدائي أو الإعدادي -مثلًا- من لبس العمامة؛ صيانةً لها، وحفظًا لكرامتها، وارتفاعًا بمنزلتها في نظر الطالب والجمهور، فلم يعد من المفهوم إعفاءُ طلبة الأقسام الأزهرية الأخرى منها تحت أي عذر، ديني أو قومي أو تقدمي، فلكل عذر منها ردُّهُ المسكت المقنع الرادع .

وبهذه المناسبة نهنيءُ مِنْ قلوبنا الأخ المحمديَّ الصُّوفيَّ الدكتور عبد الحليم محمود، أستاذ الدراسات العُليا بالأزهر؛ بعودته إلى الزيِّ الأزهريِّ، في الوقت الذي يتخلص فيه زملاؤه كبارُ الأساتذة بالأزهر من هذا الزيِّ - مع الأسف- سواء منهم من بُعِثَ إلى الخارج، ومن لم يغادر أسوار القاهرة !! وقد كنت أحسبني الأزهريَّ الوحيدَ الذي خالف الناس فترك الزيَّ الإفرنجيَّ إلى الزيِّ الأزهريِّ منذ نحو عشرين عامًا أو أكثر، حتى هيأ الله لي اليوم زميلاً نهج النهج نفسَهُ، هو الأخُ الحبيب الدكتور عبد الحليم محمود، وهناك لنا ثالثٌ قد أحبَّ عِلمَ الأزهر، وإن لم يكن من طلابه، هو الأخ الدكتور سعيد الطبيب بالمحلة؛ فهو الآن يزاول عمله الرسمي وهو بزي الشيوخ عمامة وكاكولة، بعد أن خاصم الزي الأفرنجي مخاصمةً أبديةً، تقبل الله منا أجمعين .

البُعوثُ والبُحوثُ والأَداءُ والذَّوقُ :

يُرادُ أنْ يُطلق على **المجمع العلمي الإسلامي** الذي نصَّ عليه قانونُ التطوير الأزهري اسم **مجمع البحوث الإسلامية**، وهو اسمٌ ساذج كسلان لا يعطي القوة ولا الهدف الذي من أجله أنشئ المجمع، وفي الأزهر معهدٌ يُسمَّىٰ **معهد البعوث الإسلامية**.

ومنذ اليوم يتحير الناس في الفهم والأداء بين (البحوث والبعوث)، ويختلط الأمر منذ اليوم على الجمهور وعلى الخاصة، وليس كذلك الذوق في الاختيار، ولا وزن الاعتبارات المختلفة شعبية كانت أو خصوصية، وعلمية كانت أو عامية، ولا ينسى العلماء العلاقة بين التسميات والمستويات الاجتماعية، والموجات النفسية، وأثر الجرس اللفظي ورنينه ويسره وهادفيته، في صميم الموضوع ونفس الأمر، فبالله يا لجان التطوير، أنقذي الأزهر والجماهير من هذا الخلط والحيرة، ولا تنسي اعتبارات الذوق في الاختيار والأداء، ويسر تداول اللفظ وقوته وشخصيته قبل وبعد كل اعتبار.

النِّجَادُ والوِهَادُ (١) والبرجُ الأعمى :

وهذه الأبنيةُ الكبيرة التي أُسست حول الأزهر، لتصبح كليات مختلفة، لا تزال تحل عليها لغة الإهمال المؤسف؛ بل المبكي، فلا تزال من

(١) النجد من الأَرض: قِفافُها وصَلابَتها وما غلظ منها وأَشرف وارتَفَعَ واستَوىٰ، والجمع: نَجْدٌ وأَنجادٌ ونِجاد ونُجُودٌ ونُجُدٌ. والوَهْدُ والوَهْدَةُ: المطمئنُّ من الأَرض والمكان المنخفض كأَنه حفرة ا.هـ من لسان العرب لابن منظور مادتي نجد ووهد.

حواليها الوِهَادُ والنِّجَادُ والكُثْبانُ من الأتربة والأحجار والحفر والأكوام والأخاديد، ولا تزال تكتنفها القمامة والقاذورات والخراب، حتى عيادتها الطبية، فلا يكاد يصدق الإنسان أنها بوضعها الحالي إلا مخزنًا للأمراض، أو مستودعًا للجراثيم، أو طريقًا إلى الموت.

وهذا البرج الأعمى، وقد صمم على صور أبراج أجراس الكنائس؛ فهو نسخة من برج الكنيسة الألمانية واليونانية بشارع الجلاء، رغم اتساع الفن الإسلامي ورقته وجماله، وبَقِيتْ محاجرُ عيونه حُفَرًا خربة، منذ نحو ربع قرن، فلم يتهيأ لها طبيبٌ واحدٌ يركِّب لها ولو عيونًا مستعارة من أشباه ساعات الأطفال؛ حتى لا تظل كذلك نمطًا من الصراخ الدائم الملفت إلى شناعة الإهمال والغفلة . .

ومسكينٌ هذا البرجُ الأعمى، ما كفاه أنه كفيفٌ مكفوفٌ بإهمال أهله، حتى نُصبتْ من حواليه بحيرة صناعية من مياه المجاري، كلما نضبت عادت تفيض عليه وعلى الكليات والإدارة الأزهرية المباركة بالجراثيم والحشرات، وبأبغض الروائح عند الله وعند الناس، فيا لجان التطوير: هل من نظرة إلى مباني الكليات الأزهرية؟ ثم إلى مباني ظَهْرِ الأزهر من ناحية كلياته؛ فهو سُبَّةٌ وعارٌ في جبين الدولة كلها.

صلاةُ الظُّهرِ في الأَزْهَرِ:

ويا طالما خجلنا من أنفسنا ومن غيرنا، ونحن نستمع إلى نداء الله ينطلق أن: **(حي على الصلاة)** من فوق مآذن الأزهر والمساجد من حوله، آذانًا بعد آذان، ثم نستمع في الوقت نفسه إلى نواقيس كليات الأزهر، تدق في مواجهة الآذان، أن: **(حي على الدروس)**، فبالله ما لم يستجب الأزهريون إلى دعوة

اللَّه للصلاة، فمن الذي يستجيب؟! وإذا كان الأزهريون لا يقيمون وزنًا للآذان فمَن الذي يقيم وزنه؟! بل مَنْ الذي يقيم لهم هم أنفسهم وزنًا؟ ومن الذي يجيب داعيَ اللَّه، ما لم يجبْه طلبة الأزهر وعلماؤه؟ أيُّ أسفٍ هذا الذي تتقطع منه الأكباد، وأنت تدخل الأزهر لصلاة الظهر فلا تقع عينك على طالب ولا عالم غير إمام المسجد؟!

لقد كنت أتصور أن يُنادىٰ للصلاة، فينصرف الإمام الأكبر من الإدارة، ومن خلفه موظفوها جميعًا في موكب روحي رائع، قاصدين إلى المسجد يؤدون الصلاة لأول وقتها، خاشعة مطمئنة، ثم يكون من خلف الإمام الأكبر طلبةُ الكليات وأساتذتها مع موظفي الإدارة، يُعَلِّمُون الناسَ تعليمًا عمليًّا كيف تكون المسارعة استجابة لدعوته تعالىٰ، وكيف تكون الصلاة في أول الوقت، وكيف يكون أداؤها أداءً ينقل المصلِّيَ إلىٰ رفرف الخُلد في الملأ الأعلىٰ.

ما أروع وما أجمل الإمامَ الأكبر والطلبةَ والعلماءَ والموظفين جميعًا يؤدون صلاة الظُّهر في حفل روحاني وموكب رباني، إنَّ هذا ليفعل في الجماهير فعل السحر الأعظم في الإقبال على اللَّه.

إنَّ الكنائس لتجعل من الأصول الأساسية الجذرية التزامَ أداء جميع رجال الأكليروس والطلبة الشمامسة للصلاة في جماعةٍ عامةٍ يوميًّا، سواء مدارسها، أو ملاجئها، أو معابدها، أو إداراتها، أو ما تشرف عليه.

فيجب إذن وجوبًا لا رخصةَ فيه، أن تُهيَّأَ جداولُ الدراسة في الأزهر، بحيث يؤدِّي العلماءُ والطلبةُ صلاةَ الظُّهر، أداءً إلزاميًّا إجباريًّا إجماعيًّا،

يترتب على إهماله عقوبة رادعة ، وكل عذر أو ترخص في ذلك فشيءٌ غيرُ الإسلام .

ويجب وجوبًا لا رخصةَ فيه ، أن يُكَلَّفَ رجالُ الإدارة الأزهرية بأداء هذه الصلاة أداءً إجباريًّا إجماعيًّا ، يترتب على إهماله عقوبةٌ رادعةٌ .

ويجبُ أن يَؤُمَّ هذا الموكبَ اليوميَّ الإمامُ الأكبرُ ، كلما كان ذلك ممكنًا ، ويجب ألا يُقبلَ في هذا السبيل رخصة ولا فتوىٰ ، وكفانا نقدًا من الناس ، وخجلاً من أنفسنا ومن اللَّه ، وكفانا تفريطًا في جنب اللَّه ، وصَغَارًا بالتماس المعاذير .

واللَّه لقد شكا إليَّ بعضُ شيوخ المعاهد الأزهرية من أنه كان يجمع الطلبة على هذه الصلاة كأنه يجمع أهل الكتاب! فيتعين النَّصُّ على عقوبة إهمال هذه الصلاة عقوبةً إداريةً مجزيةً ـ كما قدمنا ـ في الأزهر ومعاهده وإداراته كلها على حد سواء .

الأغاني المنحرفةُ أمامَ الأزهرِ :

وأمام باب الإدارة العامة للجامع الأزهر ، قد نصبت آلة إذاعة ضخمة ، لا لتذيع المثاليات الإسلاميات ولا العُروبيات ، ولكن لتذيع الترفيه الرخيص والأغانيَ المنحرفة ، نقلاً عن الإذاعات العامة ، وحين يرىٰ الناس هذه الآلة ، وقد شمخت بأنفها بين الأزهر وإدارته ، ويرونها وهي تستمد التيار الكهربائي من الإدارة الأزهرية ، يتخذون من ذلك دليلاً على استحباب العكوف على هذه الألوان من الأغاني المنحلة ، والترفيه الكريه ، ولا ندري كيف لا يُحترمُ الحرمُ الأزهريُّ وما حوله ، من

كل ما يُفهم منه إجازة الدين للانحراف ودواعي التلف والانحلال ، ومن ثَمَّ يتعين أن ننظر بعين الاعتبار إلى كل ما يصون على الأزهر حرمته وكرامته الدينية والعلمية والتوجيهية ، في مبناه وما حوله .

أين تكون الأبنية الأزهرية الجديدة :

والأزهرُ في وضعيه القديم والجديد ، محتاج إلى أبنية شتَّى ، للمجمع العلمي والكليات والإدارات والمدرجات المختلفة ، ومعامل الكليات العملية ، والاستاد الرياضي ، وغير ذلك .

وكلما كانت هذه العمارةُ قريبةً من الجامع الأزهر ، كلما كان في ذلك خيرٌ وأثرٌ لا يُنْكَر ، ويوجد الآن بمنطقة الدَّرَّاسة -شرقي سور القاهرة القديم ، وجنوبي بلوكات الأساس- أرضٌ شاسعة قابلة للإصلاح والبناء ، وهي جديرة بأن تُستغل للعمارة الأزهرية الجديدة ، وذلك للميزات العديدة التي لا تتوفر في سواها ، وإذا كان البناء عليها قد تزيد تكاليفه بعض الشيء لبعض الأسباب الهندسية ، فإنَّ هذه الزيادة ليست بشيء أبدًا في جانب منافعها الكُبرى ، التي لا تُقَدَّر بمال ، ولستُ بحاجة إلى تفصيل هذه الميزات والمنافع ، ولو لم يكن منها إلا قربها من الأزهر ومن المواصلات ، وقربها من مدينة البعوث لكفى ، وقد دلت تجربة مدينة البعوث ، على أنه كلما كانت الأبنيةُ متقاربةً مع أُمِّها -أبنية الأزهر نفسه- كلما كان ذلك أجدى من كل الوجوه .

هَلِ الأزهرُ جمعيةٌ مذهبيةٌ :

وقد انقضى من عمر الأزهر بعد العهد الفاطمي ما انقضى ، وهو قِبلةٌ علمية دينية للمسلمين جميعًا ، على اختلاف أوطانهم ومذاهبهم

ومشاربهم ، وكان للأزهر القديم الفضلُ كلُّهُ في القضاء على العصبية المذهبية ، التي بلغت يومًا ألا يتزوج الحنفيُّ بالشَّافعيةِ مثلاً ، ولا يصلي المالكيُّ وراء إمام ينطق بالبسملة ، حتىٰ لقد كانت تسيل الدماء في معارك الخلاف المذهبي ، في مثل مسائل القبض والإرسال والتأمين ، ورفع اليدين مع الركوع ، والتسليمة الثانية .

ثم بمعرفة علماء المذاهب وجهات نظر إخوانهم ، وأدلتهم وترجيحاتهم ، ومآخذ أحكامهم ، ثم بسماحة الفهم العلمي ، وسعة الأفق الفكري ، ورحابة الإسلام ، تصالح العلماء وتصافحوا على اختلاف مذاهبهم ، وذلك مع استمساك كل منهم بفرعياته الخلافية ، وفهومهم لها ، فتصالحت من بعدهم الجماهير وتصافحت ، وبمضي الأيام انعدم أثر الخلاف المذهبي نهائيًا ، وكادت أن تندمج المذاهب بتقليد بعضها البعض ، وأخذ بعضها عن البعض ، ورضا البعض منها عن البعض ، فلا توشك أن تجد -بحمد الله- موجدة في صدر شافعي على مالكي مثلاً ولا عكس .

وبقي الأزهر كذلك حتىٰ ذر قرن ما تُسمَّىٰ **السلفية** في صورتها الأخيرة منذ الفتح السعودي لبلاد الحجاز ، ومعروفٌ أنَّ الصورة السياسية لهذا الفتح كانت تأخذ اللون الديني ، وتخضع لدعوىٰ تقسيم المسلمين من أهل القبلة ، إلىٰ موحدين هم الوهابية ومن والاهم ، وأولئك معصوم دمهم بالتوحيد ، وإلىٰ مشركين ، وهم غير أولئك ، ودمهم حلال هدر ، وقتالهم فرض عين .

وتولى الشيخ رشيد -غفر الله له- الدعوة لهذا المذهب ، بجريدة الأهرام في مصر لهذا العهد ، ووطَّن له ووصل بين كثير من أهل مصر

والوهابيين، وبُذلتْ في ذلك تضحيات ضخمة ذات ألوان، ولا تزال تُبذل في سبيل نشر هذا المذهب الوهابيِّ تحت ستار السلفية، وذلك للمعاني والأهداف السياسية العميقة البعيدة الأغوار.

وانساق في هذا التيار طائفةٌ من الشباب الأزهري، تحت اسم التحرر المذهبي، أو تحت طلب المنفعة باسم الدين، وتأسست الجمعيات الانتهازية لخدمة هذه الدعوة السياسية الباطن، السلفية الظاهر.

وانقسم الناسُ إلى فريقين : قلةٍ مدفوعة بالعقيدة الساذجة أو بالهوى أو بالنفعية، وكثرةٍ مدفوعة بالإيمان وسعة الأفق، وإدراك ما وراء الأستار، وللأسف الشديد انحازت الإدارة الأزهرية أو نفرٌ منها أخيرًا إلى المذهب الوهابي، بحسن نية ـ فيما نتمنى ـ انحيازًا واضحًا مكشوفًا، كاد أن ينزع ثقة كثرة الأمة من أزهرها، لولا بقية باقية في كثير من علمائه الأعلام.

وبهذا أصبح الأزهرُ أو كاد أن يصبح في أيامه الأخيرة، فرعًا من جمعية مذهبية تسخره وتستغله، وهو يدري أو لا يدري، وكلتاهما مصيبةٌ عند عقلاء المسلمين.

فأما ونحن في حركة وحدة وتطور، وقد قضت الحكومة على أكثر أسباب الفرقة في صفوف هذه الأمة، فما ينبغي للأزهر أن يقف في جانب واحد، فالأزهرُ للمسلمين كلهم بلا مفاضلة، وعلى لجان التطوير ملاحظة أن يبقى الأزهر لكل أهل القبلة، وألا يظل كما هو الآن فرعًا من جمعية مذهبية ذات أهداف، وذات روافد عميقة بعيدة الأغوار.

الأزهرُ بين الصُّوفيةِ والجمعياتِ الإسلاميةِ :

ولا مرية أبدًا في أنَّ الجمهور الأغلب في جمهوريتنا، ثُمَّ في العالم الإسلامي كله صوفيٌّ، والتصوفُ مذهبٌ روحيٌّ فكريٌّ عقيديٌّ تعبديٌّ إسلاميٌّ أصيلٌ، وهو مذهبٌ له قدره، وله خطره، وله تاريخه، وله ضرورته وأهميته الكُبرىٰ، فاعلية وانفعالية، وشأن التصوف شأن كل مذهب علمي إسلامي، شابه الدخيلُ والمدسوس، وناله الانحرافُ في كثير من المراحل، فهو جديرٌ بأن يُدرَّسَ كعلم مستقل، غير منماع في تيارات علوم الفلسفة أو نحوها.

فشخصيةُ المذهب الصُّوفي شخصية ذاتية مستكملة علميًّا ودينيًّا وفكريًّا واجتماعيًّا وتاريخيًّا ونفسيًّا، ودراسته دراسة الإنصاف العلمي استقلالاً، تخدم هذا الجمهور الكاثر من مسلمي المشارق والمغارب، وتخدم كذلك التقريب الفكري والعلمي بين التصوف والتسلف، فيذوب كثير من الفوارق المسببة للتصدع في جبهة هذه الأُمة، وخصوصًا إذا اعتنينا بتطهير التصوف مما ليس منه، وبتخفيف حدة التعصب السَّلفي وغلوائه وهوجه وشططه.

ولقد سبق أن تقدمنا بهذه الرغبة مفصلة إلى المختصين غير مرة، ونحن بمناسبة التطوير الجديد نعود فنعرضها لما لها من الأثر الاعتقادي والاجتماعي والنفساني في أهل لا اله إلا اللَّه، وما دام الأزهر قد أذن بدراسة المذهب الجعفري في سبيل تكتيل الصف الإسلامي، فقد آن له أن يأذن بتدريس المذهب الصُّوفيِّ دراسة مستقلة؛ لخدمته وخدمة معتنقيه، وخدمة الإسلام جميعًا.

أما الجمعياتُ الإسلامية فهي جديرة بأن يكون لها أُمٌّ أو أَبٌ في هذا

العهد الجديد؛ إذ هي اليوم كما كانت من قبل يتيمة لطيمة، لا تذوق حنانَ أمٍّ ولا عطفَ أبٍ .

وقد سبق لنا أن توجهنا إلى وزارة الأوقاف برغبةِ تَبَنِّي هذه الهيئات المجاهدة، التي تكمل رسالة الدعوة الإسلامية على الأزهر وعلى الأوقاف معًا، وفصَّلنا رأينا تفصيلاً، وقدَّمنا من البراهين ما يتعين معه وضع هذا الاقتراح موضع الاعتبار، ولعله قد آن اليوم أن تجد هذه الجمعيات أبًا أو أمًّا، فلا تظل هكذا مُضَيَّعَةً مهجورةً، رغم قُدسية رسالاتها، وخطورة مسئولياتها، وأثرها الشَّعبي الهائل المحسوس في مختلف الجماهير .

ولكن قبل أن ينظر الأزهر في تبني هذا الجيش العصامي الحر المجاهد، يجب أن يتخلص من مذهبيته الجديدة، وخضوعه لفكرة معينة تُملَىٰ عليه، ويحسب أنه هو الذي يمليها على الناس، فمن العار أن يصبح الأزهر بوقًا لدعوة معينة، يجب أن يكون قد آن الآوان لأن يعود إلى الناس إحساسُهم بأنَّ الأزهر لهم جميعًا .

وإذا كانت بعض الجهات المسئولة تبحث اليوم مسألة اتحاد الهيئات الإسلامية، فإنَّ على الأزهر والأوقاف، أن يَتَبَنَّيَا هذه الهيئات المكملة لرسالتهما، والتي قد تقدر على ما لم يقدرا عليه من خدمات في الحقل الإلهي .

الفتياتُ في الأزهر :

ونحن لا نمانع أبدًا في أن يلتحق الفتياتُ بالأزهر ليتعلمن الدين، ويعملن به، وينهضن بالدعوة إليه في الأوساط النسائية، التي هي أحوج

شيء إلى العلم بدين الله، ولكنَّ الذي نخشاه وتضطرب قلوبنا في صدورنا خوفًا منه، أن يُصاب الأزهر بمثل ما أُصيبت به دار العلوم من قبل، فإذا الأمرُ سُفورٌ مُستَقبَحٌ واختلاطٌ شائنٌ تحميه التقدمية المفتونة، وتدفعه إلى مهاوي التلف والانحلال يومًا بعد يوم.

إنَّ التحاق الفتيات بالأزهر ليس جديدًا؛ فقد شهد الأزهرُ هذا التقليد من قبل على أكرم صوره الإسلامية، وكان أخيرًا في المعهد الأحمديِّ وحده نحو سبع فتيات بلغن من العلم مبلغ أساتذتهن، لولا أنه لم يكن من عادة الأزهر أن يمنح النساء **إجازة العالمية**.

وممن تلقى عنهن شيوخُ الإسلام من السَّلف، نساءٌ تقيات نقيات عشرات وعشرات، فليس غريبًا أن يلتحق النساءُ بالأزهر، ولكن المخافة كل المخافة أن يصير الأمر يومًا كما أسلفنا إلى السفور المحرم والاختلاط المشين، ويصبح الأزهر قدوة سوء، فهل لنا أن نرجو الحزم في معالجة هذا الأمر، ومراقبة الله في تقديره وتسييره.

وهل لنا أن نطمع في أمور ثلاثة نرجو أن تلاحظها اللجنة المختصة:

أولًا: تحديدُ زي خاص بالفتيات الأزهريات، تكون مخالفته ذنبا يستوجب العقوبة، التي تنتهي بالطرد من الأزهر عند الإصرار، ولا بأس أن يجمع الزيُّ بين الحشمة والمدنية؛ ليماشي الماضيَ والحاضر، على ألا تُتركَ فيه أية ثغرة لوضعٍ أو انفلاتٍ أو ترخصٍ غيرِ مشروع.

ثانيًا: أن يكون للفتيات الأزهريات بناءٌ مستقل منفصل كل الانفصال

عن أبنية الفتيان، وأن تقطع العلائق والأسباب التي تهيء الاتصال والاختلاط بين الفتى والفتاة بالأزهر تحت أي عذر.

ثالثًا: أن يُختار مدرسو ومدرسات قسم البنات من صنف فيه غيرة وورع وتقوى؛ حتى لا يكون الأساتذة هم سبب الفتنة وتخطي الحدود، ولو بما يلقنونه للبنات من مبادئ وآراء، تحول الأزهر إلى عش غرام وعبث شباب.

وبعد: فمن أراد دليلاً على مخافتنا، فليقف ساعة الصباح في شارع **البعوث الإسلامية** أثناء مرور الفتيات إلى مدارسهن من هذا الطريق، ثم ليقطع، فإننا إنما نتحدث عن واقع وتجربة، وأننا لسنا رجعيين بل عمليين.

تيسيرُ طلبِ العُلومِ الأزهريةِ:

وقد كان الأزهرُ أولَ معهد عالمي جعل العلم فيه مباحًا كالماء والهواء، لكل منتفع به أو راغب فيه، ولم يكن في شروط الالتحاق به شرطٌ واحد يمنع من النهل من مَعِينِه، وهذه تواريخ رجاله وخريجيه من القديم تشهد بذلك، حتى أُلغيَ منه القسم العالي وأنشئ القسم العام، ثم وضعت العراقيل والسدود أمام بقية طلابه، ثم أُلغيَ هذا القسم، وبإلغائه حُجب عِلْمُ الأزهر عمَّنْ كان يتلقاه حُبًّا واحتسابًا، ومُنع كثير من المسلمين من الفائدة، وأصبح العِلمُ الأزهريُّ لونًا من الكهنوت لا يباح إلا بشروط.

ونحن نعاني الآن طغيان المادة، وتحكم الانحلال، نرجو مزيد عناية بتيسير طلب العِلم الأزهري والترغيب فيه، وخصوصًا علوم الإسلام واللغة العربية، إن تعذر تيسير كل العلوم النظرية، وأن يباح الانتساب

والاستماع لكل راغب فيه، دون شروط أو قيود، بل أرجو أنْ تُبتكر لذلك ألوانٌ من التشجيع الكريم، وأن ييسر دخول الامتحان لنيل الشهادات الأزهرية من الخارج، شأنه في الشهادات المدنية العامة؛ فإنَّ الفائدة الأكيدة من ذلك كله تجعله في أول مراتب الاعتبار.

حاشية :

وقد قَبِلَ الأزهرُ منذ نحو عام في مجموع طلبته طالبًا مسيحيًّا مارونيًّا لبنانيًّا، ثم في هذا العام في طلبته طالبتان مسيحيتان؛ إحداهما بولندية والأخرى ألمانية.

وقد أثبتت التجربة في معهد الدراسات الإسلامية، أن قبول غير المسلمين يسبب الحرج لطرفي الطلبة والأساتذة، ويمهد للاحتكاك، ويستوقد نار العصبية الدينية، ويحجب الفائدة بحكم المجاملة، والكلام هنا كثير تكفى فيه الإشارة.

والى هنا نعتقد أننا قد أبرأنا ذمتنا بعض الشيء، والله يشهد أننا ما خَطَطْنَا خطًّا واحدًا إلا ونحن نقصد وجه الله والدار الآخرة، ونتحرَّى صالح الإسلام والأزهر والوطن جميعًا، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

***

حولَ قَضيةِ الوَسيلةِ ومَسْألةِ القُبورِ
تعليقاتٌ وتحقيقاتٌ خِتامية (١)

بعد نشرنا فتوانا بشأن القباب، والمساجد الملحقة بالقبور، وما يتعلق بذلك في العدد الأسبق من **المسلم** تلقينا عدة تعليقات واستفسارات، ستعرفها من ردِّنا عليها فيما يأتي إن شاء الله .

ولكنْ لا بُدَّ من كلمة بين يَدي الردِّ على هذه التعليقات؛ إذ لا بُدَّ من أن يتأكد بعضُ أصحاب هذه التعليقات أنَّ عِلْمَ الدين شيءٌ غيرُ علمِ الوقاحة، وأنَّ الخلطَ بينهما عجزٌ وحماقةٌ، ونحن لا نجبر أحدًا على اعتقاد ما نعتقد، كما لا نحبُّ أن يجبرَنا أحدٌ على اعتقادِ ما يعتقد، وهؤلاء وغيرهم يعلمون أنَّ هذا القلم إذا شاء أن يجارِيَهم على أساليب الشتم والسب -وهذه لا علاقة لها بموضوعية البرهان- لأحاطهم من واقع حياتهم بعاصفة مدمرة، لا يُرفع بعدها لواحد منهم رأسٌ، ولا يَنْتَصِبُ له كيان، ولكننا نزال نكرر ترحيبنا بكل تعليق أو نقد أو توجيه خالص لله .

عودةٌ إلى قضية التوسل :

وأنا لم أتعرض في كلمتي السابقة لموضوع التوسل، فقد سبق لي أن بَيَّنْتُ وجهَ الحقِّ فيه غيرَ مرة، بيد أنهم وقد أقحموه في تعليقاتهم إليَّ، فهذا هو الوجه عندنا -جمهور المسلمين- نقدمه على الإجمال :

---

(١) مقال غرة جمادى الأولى (١٣٨١هـ)، ١١ أكتوبر (١٩٦١م)، العدد العاشر من السنة الحادية عشرة .

١- إذا تحدثنا في أمر الوسيلة أو القبور مثلًا ، فإننا إنما نتحدث في أمر فرعي ، حسبك وغيرك فيه الدليل الظني ؛ إذ إنَّ كل ما انسحب عليه حكمُ الجواز ، فمَحِلُّه الفروع ، والفروع محلها الخطأ والصواب ، والحلال والحرام ، فَنَقْلُها إلى حكم الكفر والإيمان أو الشرك والتوحيد ، ظلمٌ للعِلم وللدين ، والاستدلالُ فيها بآيات أُنزلت في الكفار تلبيسٌ أو تدليسٌ ، واستدلالٌ بما هو غريب عن موطن النزاع ، ثم إنَّ الأمر الواحد قد يكون في نظر رجل صوابًا بدليله ، وفي نظر رجل آخر خطأً بدليله ، والإنسانُ مختارٌ شرعًا وعقلًا فيما تساوى فيه الدليلان ، وله ترجيح ما يرتاح إليه من غير تحكم فيما سواه ، وهذه هي سماحة العلم وميزة الإسلام .

وقد وضع أبو حنيفة في ذلك قاعدته الذهبية حين قال ما معناه: إنني أرى أنني على صواب قد يحتمل الخطأ، وأنَّ غيري على خطأ قد يحتمل الصواب.

نقول: وحسب امرئ أن يتحرى ويختار، ثم هو بعد ذلك معذورٌ أمام مخالفه بحجته ودليله، فلو أننا أخذنا بهذه القاعدة، ثم تعاونَّا على ما اتفقنا عليه، وعذرنا بعضَنَا فيما اختلفنا فيه، وتناصحنا على أساس أنَّ الخلاف بين مسلم ومسلم، لا بين مسلم وكافر أو مشرك، لما تفرقت الأمة ولما تمزقت هذا التمزيق الشنيع، ولما ضاع منَّا كلُّ هذا الوقت والجهد الثمين.

ولم يقل عاقل قط: إنَّ الخلافَ على الفروع يُسْقِطُ الإيمان أو يخرج من الملة، فهذا الخلافُ الفرعيُّ ضرورةٌ بشريةٌ، كنتيجة لما حمل كل صحابي من عِلم مستقل، وما نشره كل منهم من مفاهيم، فضلًا عن حكم البيئة والاستجابة الوراثية، وحجم التحصيل العلميِّ، وصفاء مادة الإيمان، وطاقة الإدراك،

وقد أقرَّ النبيُّ ﷺ هذا الخلافَ الفرعيَّ بين الصحابة وهو حيٌّ، والوحيُ ينزل، وتلقاه صحابتُهُ من بعده، بعضٌ مِنْ بعضٍ دون نكير، وعليه أَبى مالكٌ رضي الله عنه أن يحملَ الخليفةُ العباسيُّ الناسَ على ما جاء في الموطأ وحده .

وهذا كتاب الله يَحسمُ فيما بين الكفر كله، والإسلام كله، فيقول: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وليس من مقدماتِ علومِ الإسلامِ إكراهُ الناسِ على تركِ ما اقتنعوا به إلى ما لم يقتنعوا به، بل إنَّ الإسلامَ يُلزِمُ المسلمَ بالوقوف عند ما اقتنع به، حتى يتبينَ له الخطأُ فيه، فكل هذا الهرج والمرج، ومحاولة نصب المعارك الدينية، والنفخ في بوق الفتنة، وإثارة الغبار الخانق، كل ذلك ليس من دين الله، ولا من مصلحة الأمة، ومن العسير الاقتناع بحسن الظن فيه، وإنه لَيَضعُ علاماتِ استفهامٍ على كثير من الوجوه والعمائم !!

٢- وقد سَبَقَ أنْ قررتُ أنني أُفَرِّقُ بين الوسيلة والوساطة ، فالوساطةُ – فيما أفهم- هي طلبُ الشيء من الوسيط مباشرة من دون الله ، اعتقادًا بأنَّ الوسيط على كل شيءٍ قدير ، وذلك كما عَبَدَ الكفارُ أوثانَهم ، وطلبوا منها الحياة والموت ، والرزق والخلق ، تقديسًا لها ، وإيمانًا بأنها تفعل من دون الله ما تشاء استقلالًا ، شاء الله أو لم يشأ ، ولذلك قالوا : ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ﴾ [الزمر: ٣] لا إنما نحبهم أو نزورهم أو نتوسل بهم كبشر مثلنا . وهذه دقيقة جدًا ، فتأمل!!

وليست الوسيلة كذلك قط، فهي طلبٌ من الله مباشرة مع الاستشفاع إليه بخاصته أو بعمل صالح يرضاه؛ تأكيدًا في الاعتراف بالضعف والتقصير في جنب وحدانيته، وخشيةَ ألا يكون العبد مقبولًا، فلا يُستجاب له، ورهبةً من جلال الألوهية أن يتقحم عليه عبدٌ بطلب، لم يقدم من قبله سببًا يرضاه

الله[١]، فما لم يكن العبد أهلًا للاستجابة ربما عطف الحق عليه إكرامًا لحبيب شفع له، فَفَرْقٌ كبير جدًا بين هذه الوسيلة وتلك الوساطة، هذه إيمان وزيادة، وتلك شرك وزيادة .

وفي هذا الإطار، مَنْ شاء توسل ولا شيء عليه، ومن شاء ترك ولا شيء عليه، والوسيلةُ من حيث هي، جزءٌ أصيلٌ من دين الله، بِنَصِّ الكتاب والسُّنة وعمل السلف والخلف، والخلافُ عليها في النوع، ولا كذلك الوساطة قط .

وعندما يُخطئ مسلمٌ في أسلوبِ توسله، فيقال أخطأ أو جهل، ولا يقال كفر ولا أشرك، ثم نذهب فنغسل جهله أو خطأ لسانه بما وقر في قلبه من إيمان؛ ذلك أنَّ المتوسِّلَ - عالمًا كان أو جاهلًا- لا يعتقد أبدًا في استقلال المتوسَّلِ به في الفعل أو الترك، من دون الله، وإنما يتوجه إلى الله تعالى، بما يرضى الله عنه في المتوسَّل به حيًّا كان أو ميتًا، ومراضي الله من خلقه معانٍ رفيعةٌ ثابتةٌ باقيةٌ معهم في حياتهم الأولى والآخرة؛ إذ إنَّ الروح خالدةٌ بعد الموت مع معانيها، بكل خصائصها، وليس للجسم في الحياتين نصيب من هذه الخصائص.

٣- والتوسل بالعمل الصالح -بوصفه من المعاني الكريمة- جائزٌ عندنا وعندهم، والتوسل بالحي الصالح -بوصفه من أصحاب المعاني الكريمة - جائز عندنا وعندهم، فمحل النزاع بيننا وبينهم بسيط،

(١) وذلك مقرر في ترتيب الآية «إياك نعبد وإياك نستعين» قال العلماء : وفيه تقديم الوسائل بين يدي المسائل. (المسلم).

هو التوسل بالميت الصالح ، فنحن نجيزه للسبب الذي قدمناه ، وهم يمنعونه بدعوىٰ أن التوسل بالميت معناه -على الأقل- طلب الدعاء منه للمتوسل ، وتلك عبادة له فيما يزعمون .

والأصولُ العلميةُ تقول: إنَّ الدعاء من حيث هو دعاءٌ يعتبر وظيفة عبودية، لا وظيفة ربوبية، سواء فيه الحي والميت، كلاهما عاجز ضارع إلى الله طالب منه .

ومُسَمَّى العبادةِ واحدٌ، سواءٌ وجَّهنَاه إلى الحي، أو وجهناه إلى الميت، ولا تعرف المقاييس العلمية في الإسلام شيئًا إذا وجهناه إلى الحي لم يكن عبادة، فإذا وجهناه إلى الميت كان عبادة، وأنف العلم والإسلام مع الأسف... راغم !!

وبعدُ: فإنَّ طلب الدعاء ممن يملكه وممن لا يملكه ـ على شر الفروض ـ لا يترتب عليه خروج من الملة بالكفر أو الشرك، وليس من حق أحد أن يشرِّعَ ما لم يأذن به الله من أحكام، ثم يفرضها بالمغالطة على العلم والدين.

وأظنني بهذا قد حسمت الأمر من الوجهة العلمية العقلية، وليس في نفسي التعرض هنا للجانب النقلي، فإنَّ أحدًا من أصحاب التعقيبات لم يعرج عليه، ومن شاء مزيدًا من هذا الباب فليرجع إلى رسائل المحدثين، ولعل من خيرها رسالة **مَحْقُ التَّقَوُّلِ** للكوثري .

وعودٌ إلى مسألةِ القبور والمساجد :

وهنا سَأَرُدُّ إجمالًا كذلك على السَّادة المعلقين والمستفسرين، ولسوف تعرف السؤال من جوابه إن شاء الله .

٤- حديثُ الشَّيخين : «**أَلا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ أَلا فَلا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**» ، وحديثُ مالك في الموطأ : «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَىٰ قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**» ، وحديثُ البخاري ، أنه لماَ ذُكر لهﷺ كنيسة بالحبشة ، ذات تماثيل أو تصاوير ، قالﷺ : «**أُولَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنَوْا عَلَىٰ قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِيكَ الصُّوَرَ أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» .

أقول : إنني لم أترك التعرض لهذه الأحاديث ؛ فإنني في كلمتي السابقة ، قدمتُ موازين ومقاييس للتطبيق العلمي ، وجعلتُ ما ذكرتُه هناك من الأحاديث أمثلةً للتدريب فقط ، وما يُقال هناك ، يقال هنا ، سواء منه القول بالنسخ بعد تمكين التوحيد من القلوب ، أو بحملها علىٰ عبادتهم من دون الله ، واتخاذها آلهة جديدة يسوونها بالله ، أو بتأويلها بغير ذلك مما لا يتعارض مع أصول الأحكام .

قال الإمامُ البيضاويُّ ما ملخصه : إنهم لما كانوا يسجدون للقبور ، ويجعلونها قبلة ، واتخذوها أوثانًا تُعبَدُ من دون الله ، لعنها ومنع المسلمين من ذلك ، ثمَّ قال : وأمَّا مَنِ اتخذ مسجدًا في جوار رجل صالح ، وقصد التبرك بالقرب منه ، لا للتعظيم ولا للسجود له ، ولا للتوجه إليه من دون الله ، فلا يدخل في ذلك الوعيد .

وقد نقل الحافظُ ابنُ حجر هذا النصَّ في فتح الباري واعتمده ، وهكذا يكون تأوُّلُ هذه الأحاديث ، وفهمها فهمًا إسلاميًا في هذا الإطار

الإيـماني ، متعينًا من كل وجه ، وهذا هو سبيل أهل العلم خلفًا عن سلف .

أما القول هنا بسدِّ الذرائع ، فهذا مما ألغى الشارع اعتباره هنا ؛ لما فيه من نقل الأحكام وفساد المقاييس ، و إلا فقد كان أولى سدًّا للذريعة ألا نطوف بأحجار الكعبة ، ولا نُقَبِّل الحجر الأسود ، ولا نسعى بين الصفا والمروة ، ولا نصلي عند مقام إبراهيم ، بدعوى أنَّ هذا مفض إلى الشرك ؛ لأنه تعظيمٌ لغير الله ، وإذن فقانون سد الذرائع لا ينسحب هنا على الإطلاق ، بل لك أن تقول إنَّ بناءَ القبور بجوار المساجد سنةٌ صحابيةٌ عمليةٌ وإقراريةٌ ؛ فإنه لما وسَّع ثالثُ الخلفاء الراشدين ، عثمانُ بن عفان المسجد النبوي ، وجدَّد فيه ما شاء الله ، لم يحاول فصله عن الحجرة النبوية ، وبها القبور الثلاثة ، وعثمان ممن أمرنا رسول الله باتِّباعِ سُنَّتِهم مِن بعده ؛ لأنهم أعلم بدين الله : «**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**» .

وبهذا يُصبح بناءُ المسجد بجوار القبر سنةً صحابية مكررة ، ومنه يتعين فهمُ أحاديث النهي على فهمنا لها ، ويتعين تأويلها كما أوَّلناها ، فهو الحقُّ الأبلجُ في دين الله ، وهو الأرجح الأوثق في باب معقولية الأحكام .

قلنا : وقد فتح الصحابةُ بلادَ الشَّام ، وفيها البناءُ على قبر الخليل وولديه إسحق ويعقوب وغيرهما ، وفي بيت المقدس البناءُ على قبر داود ومَن معه مِن السَّابقين . ولم يأمر عمرُ ﵁ ولا أحدٌ من الصحابة بهدم هذه المباني ، ولا هذه المساجد ، ولا نبش هذه القبور ؛ إذ إنهم فهموا الإسلام وما جاء من أحاديث هذا الباب كما فهمناها ، وبها تتأكد سنيةُ جوازِ بناء المساجد في جوار القبور .

وقد روى البخاريُّ تعليقًا على وجه الجزم: **أنَّ فاطمة (الكبرى) بنت الحسين ضربت قُبَّةً على قبر زوجها الحسن بن الحسن، أقامت بها عامًا كاملًا**. وكانت بالطبع تصلي فيها، ومعها مَن معها مِن آل البيت وأنصارهم، والإسلام نضر، والغيرة عليه قائمة، وحَمَلَةُ الدين وحماته في كل مكان، ولم ينكر عليها أحد، ولا رماها واحد منهم بالكفر أو الشرك بالله، أو حتى بمخالفة السنة، وكل ذلك قاطع في جواز اتخاذ المساجد في جوار القبور بلا تحريم ولا نكير، بل هو سنة صحابية متبعة كما قدمنا، ولا نظر إلى التهويل والتشغيب والتشويش الذي يحترفه طلاب الدنيا باسم الدين.

أما مسألةُ تعليق جواز البناء حول القبر على الملكية، فليس قول الفقهاء عامة وإنما قلنا به في كلمتنا السابقة؛ أخذًا بالاحتياط والعزيمة، و إلا فإنَّ من العلماء المعتد بهم، مَنْ خالف في ذلك، واحتج بدفن الصَّاحبين مع النبيﷺ في القبر المبني حوله الجدران، وليس هذا القبر من أملاكهما، بل إنه ليس من ملكهﷺ؛ لأنَّ الأنبياء لا يورثون؛ لأنهم لا يملكون، ودفنهﷺ بإجماع الصحابة وبإشارتهﷺ في البناء فيه معنى الإذن منهﷺ بالبناء على القبر، سواء كان في المِلك أو غيره، وإجماع الصحابة على دفن الخليفتين معهﷺ فيه تأكيدُ هذا المعنى وتأييدُه، ويزداد هذا المعنى تأكيدًا وتأييدًا بتصميم الصحابة والتابعين وتابعيهم على تجديد ما يتهدم من الحجرة المشرفة، كما حدث ذلك في عهد عمر بن الخطاب ﷺ وعبد الله بن الزبير، وعمر بن عبد العزيز، ومَن بعدهم ومَن قبلهم، ثم بدفن الخليفتين الراشدين في الحجرة المشرفة انتفت دعوى الخصوصية، فجاز لنا بهذا أن نبني حول قبور الصَّالحين لنفس الأسباب والمقاصد التي لوحظت

في بناء الحجرة المشرفة على القبور الثلاثة المطهرة ، سواء في الملك أو غيره .

وبعدُ فهذا ما نذهب إليه ، ونعتقد مِن أعماقنا صوابَه ، ولا علينا آمن به مَن آمن أو كفر مَن كفر ، فالعلم أمانة نرجو أن نكون قد أدَّينا منها ما شاء اللَّه على اليسر والسماحة ، وحسن الظن بأهل القبلة ، وسعة الأمل في فضل اللَّه ، نقرر هذا مستغفرين منيبين .

***

بعضُ نشاطِ العشيرةِ في عَام(١)

أيها الإخوة :

على اسمِ الله ، وابتغاء رضوانه اجتمعنا الليلة ، وفي سبيل القيام بما أمر تعالى به ، وما نهى عنه ، تلاقينا ، وقد طهَّر الحقُّ قلوبنا من إرادة غير وجهه تعالى ، فلا الدنيا والجاه ، ولا السُّلطان ، ولا المال ، ولا الترف ، ولا الاستعلاء ، ولا ما يسيل عليه اللعاب ، ولا المشقات ، ولا الصعاب ، ولا غير ذلك من الأسباب ، ولا كل ما يشغل الناس بشاغلنا عن الله ، ولا بصارفنا عن خدمة الحق بالحق للحق ، ولا عن طلب الأنس بالحضرة العلية ، وتبليغ الدعوة المحمدية ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن :١١] .

خدمة الدعوة عامة :

ولقد ظللنا بتوفيقه تعالى ، ندفعُ هذه الدعوةَ المطهرة إلى الأمام ، فتندفع بطبعها بحمد الله ، ويستبق إليها المصطفَون الأخيار ، من كل جانب ، رغم ما تجد من الجحود والحقد والتألب ، ورغم ما تعاني من الضيق المالي القاتل والجهد الشديد ، وإلا فهل يصدق أحد أن وزارة الأوقاف مثلا ، لا تُعين العشيرة بمليم واحد!!! .

ولقد تألفت للعشيرة بفضل الله فروعٌ وحلقات جديدة ، في كثير من المناطق والجهات ، مما كنتم تطالعون أخباره لوقته بمجلتكم المباركة ، وقد

(١) مقال غرة جمادى الآخرة (١٣٨١هـ)– ٩ نوفمبر (١٩٦١م) ، العدد التاسع من السنة الحادية عشرة ، وهذا المقال : ملخص للبيان الذي ارتجله السيد الرائد الأستاذ محمد زكي إبراهيم في الاجتماع السنوي العام للعشيرة ، وتعريف بإجمالي مجهودها في حدود طاقتها في السنة الماضية على المقال (٦٠–٦١) ، نسأل الله أن يتقبلَ منَّا ، ويهديَنا سواء الصراط . (المسلم) .

نشطت هذه الفروعُ نشاطَها المشكورَ المقدور، وفي مقدمتها فرعُ السويس، والمنصورة، والإسكندرية، والحلقات التابعة لهذه الفروع.

شيءٌ من أثر الدعوة:

وكان لذلك كله أثرُهُ في الرأي العام، فنبتت بذورُ الدعوة الرُّوحية الربانية النقية، وهي في سبيل أن تستويَ على سوقها، وتُؤتي أُكُلَها -إن شاء الله- وحسبكم أن أَصْبَحَ قولُكم الذي تقولون به في بيئاتكم الخاصة، مأخوذًا عنكم، مُذَاعًا في كل مكان، وما كان يحاربه بعضهم من مشروعاتكم ومبادئكم، أصبح يدعو له ويؤمن به، ويدعيه لنفسه ثم يدافع عنه.

وهذه مكافحتكم للانحلال، والتبذل، والخلاعة، والتهتك في السلوك العام، ووسائل الإعلام، وهذه مقاومتكم للمذاهب اللادينية، والاتجاهات المادية والإلحادية، قد وجدت طريقها إلى القلوب والعقول والأقلام والصحف. تَلَقيًا عنكم، وتَلْقِينًا منكم، واقتداءً بكم. بعد أن كنتم تقفون وحدكم غرباء، ليس معكم إلا الله.

وكذلك الشأن في تلكم الدعوات الدينية الخدَّاعة المتمسلفة، التي تطوي الاتجاهَ السياسيَّ في الإطار الديني، وتفرّق بين الأمة باسم التوحيد المظلوم، فتمهد للمستعمر، وتخدم المبشر، وتوجه إلى خدمة دولة أجنبية، وتقضي على بقية أمجاد الإسلام، هذه الدعوات بعد أن كشفتم عورتها، لَفَظَها الجمهورُ ونبذها، وعلم من أين يأتيها المدد الذي تشمخ بأنفها على أساسه، ولو لم يكن لكم إلا هذا جهاد لكفاكم.

المهتدون إلى الإسلام :

وقد عُرفت العشيرة بأنها قِبلةٌ لكل من أراد الدخول إلى الإسلام من أصحاب الديانات الأخرى، وأنها ملاذهم المختار المفضل، سواء كانوا مصريين أو أجانب، فَدَخَلَ هذا العام في دين الله من طريق العشيرة قسيسٌ كبير، وأستاذٌ للاهوت، ومدير مؤسسة كبرى، وطالب بالفنون الجميلة، وآخرون من الكافة، وأظنكم لم تنسَوا الأفراد والأسر التي دخلت الإسلام من قبل عن طريق هذه العشيرة، سواء كانوا من العرب أو من الأوربيين، وكيف كانوا يأتون من بلادهم البعيدة قاصدين حرم العشيرة، وقد قامت العشيرة نحو كل هؤلاء بكل ما يفرضه الواجب الإسلامي تربويًّا، وتوجيهيًّا، وإنسانيًّا، وأدبيًّا، وماديًّا بكل ما في طاقتها المتواضعة.

الخدمات الاجتماعية :

وَوَالينا بعون الله تعالى خدماتنا الاجتماعية بتوسع ملحوظ، فلم نبخل على طالب أو طالبة ممن ترعاهم العشيرة من اليتامى والفقراء، بأي عون مادي أو معنوي، في الظروف والمناسبات المدرسية وغيرها، كما لم نقصر في الشفاعة المشروعة لكل ذي حاجة عند من بيدهم حاجات الناس، فأدخلنا الطلاب المدارس وألحقنا العمال بالأعمال، وفرَّجنا كرب كثير من المكروبين، وأخذنا بيد كثير من العاثرين، ورحَّلنا عددًا غير قليل من المغتربين، وعَاوَنَّا المحتاجين إلى العون، في طوارئ الولادة، والوفاة، والمفاجآت المختلفة، ووضعنا تحت تصرف الفقراء مقبرة العشيرة للدفن، وأصلحنا ذاتَ بَيْنِ كثيرٍ من الأفراد والعائلات بالمدن والقرى، كما جَمَعْنَا

ووَزَّعْنا-بحمد اللَّه- شيئًا كثيرًا جدًّا من الأكْسِيَةِ الجديدة والمستعملة، وكذلك الأغطية والأحذية، ووزعنا الدقيق واللبن الجاف، وغير ذلك في المناسبات المتعددة، وقُمنا على رعاية الأسر المحسوبة علينا، في حدود مستطاعنا بما يحفظ كرامة الإنسان، ويحقق الهدف المنشود على أحدث الأساليب الاجتماعية والعلمية والإسلامية.

النشاط الثقافي:

أما النشاط الثقافي، فلله الحمد والمِنَّة، كان سلسلة موصولة من الجهاد سواء في مساجد العشيرة. أو الدروس والمحاضرات في قسمي الرجال والسيدات، وفي حلقات الفتيان والفتيات، وسواء في الأحفال الكبرى بأشهر المساجد، أو الأحفال العادية المحمدية بدار العشيرة، والدار العامة، والنوادي، ودور المحمديين في الجهات المختلفة، وسواء في رحلات الدعوة لزيارة الفروع والحلقات، أو رحلات القيام بالواجبات الأخوية والإنسانية، أو حفلات استقبال كبار زوار العشيرة من رجال العروبة والإسلام في العالم، أو حفلات التكريم في مناسباتها الأخوية، التي لا يتنبه إليها كثير من الناس.

وقد ضوعف بحمد اللَّه عدد المطبوع من مجلتكم (المسلم)، وتقررت في بعض الوزارات، وأخذت طريقها إلى بيوت المسلمين وبيئاتهم وجالياتهم حتى في الصين وفرموزا، فضلاً عن مسلمي أوربا وأمريكا، وذلك بالإضافة إلى المشتركين بالأوطان الإسلامية والعربية، مما لم يتهيأ للأكثرية الغالبة من المجلات الدينية، التي تستنفد ألوف الألوف من الأموال وجهود الرجال، وكذلك زادت حركة الاستفتاء زيادة كبيرة،

تبعًا لانتشار الدعوة وانتشار المجلة، وثقة الناس بالدعاة المحمديين سواء منها ما يرسل بالبريد الخاص أو ما ينشر بالمجلة.

ومارست العشيرة مزيدًا من التعاون مع الهيئات العاملة في الحقل الإسلامي، وشاركتها مشاركة إيجابية، ويسَّرت العشيرة كذلك سبيل الاستعارة الخارجية من مكتبتها العامة ومن مكتبة الطلبة، بجوار الاستفادة المعتادة من المطالعة الداخلية، ولم تنسَ العشيرة خدمتها الفريدة في فكرة (قاعات الاستذكار)، التي ترجو أن تتهيأ لها ظروف تكوينها، على الصورة الأصيلة المخططة لها بعون الله.

الاستقامة على الصراط :

ولقد حافظنا - بحمد الله- على تنفيذ حرفية قانوننا وروحه، فلم نسمح - كما هي عادتنا- لكائن من كان مِنَّا، بأي انحراف من أي لون، أو انعطاف بأية ذريعة إلى غير الحد الإسلامي الروحي المحدود في قانوننا، فاكتسبنا بحمد الله ثقة الحاكم والمحكوم، وحفظنا مركز العشيرة واسمها مصونًا في كل عهد وفي كل عصر، وفي كل زمان وكل مكان، وفي هذا الإطار الواضح النظيف أَدَيْنَا رسالتنا الرفيعة في تربية الجيل، والتوجيه إلى الله، وكفاح مكارهِه ومغاضبه، واستحداث الطاقة الدافعة للخدمة الإسلامية العامة، في أمن وسكينة، وفي يُمن وأمل.

فعلى الأخوة الذين ينظرون إلى التجربة الماضية، فيخافون من انحراف الجماعات فيتباعدون عنها، أن يطمئنوا إلى أن في الدولة جماعة تعمل لوجه الله وحده، متسامية على كل فتنة، متحوطة من كل انزلاق، تلك هي العشيرة المحمدية.

محنة الأخلاق :

أيها الأخوة : إنَّ محنة الناس في عصرنا محنة أخلاق ، وإن وظيفتنا الأولى في مواجهة هذه المحنة ، هي خدمة الدين والفضيلة ، والدعوة إليهما بالمعنى الأوسع والأسلوب الأيسر ، والأخذ بالأرفق ، والتدرج في العلاج ، والاعتدال في التذكير والإقناع والتربية ، ومن باب الفرد ندخل إلى الأسرة ، فإلى البيئة ، فإلى المجتمع ، وهكذا حتى يكثر الصلاح ، فيَقِلُّ في مقابِلِهِ الفسادُ ، وهي نظرية طبيعية غاية في البساطة ، والمسألة مسألة الباطن أولا وقبل كل شيء ، وإلا غلبت المحنة وهلك الناس .

رسالة العشيرة :

ومنهجنا في هذا هو التصوفُ الإسلاميُّ على أرقى مستوياته ، نقيًّا مُصَفًّى ، قويًّا أَبيًّا متطورًا عميقًا ، دائرًا في فلك الكتاب والسنة ، ومندمجًا في الحياة ، فاعلية وانفعالية ، لا عصبية فيه لطريق معين ، ولا لشيخ بالذات ، فكل أخ وما اختار لنفسه من مذهب ومشرب ، ومالنا عليه إلا أن يعتصم على ما هو عليه بالمحمدية الكاملة ، المحمدية الشاملة لكل اتجاهات المسلمين الجامعة لكل وظائف أهل القبلة والتزاماتهم في تحقيق الخلافة الكبرى على أرض الله .

فهي رسالة كما ترون ، كبيرة ، فسيحة خطيرة ، تدور في فلكها كل الخدمات الدينية ، والروحية ، والاجتماعية والثقافية ، وغيرها في أصولها وفروعها ، وهي في نفس الوقت ، بعيدة بنعمة الله عن التهم ، مبرأة من الشُّبه ، مطهرة من المظاهر ، ذاتية التكوين ، لا تتشابه مع غيرها من الدعوات ، خالصة لله ، ولكل مسلم منها نصيب يشبع رغبته ، فلا يتخلف

عنها من تبلغه دعوتها ، فلعل أن المحروم من شرف النسبة إليها قد فاته الخير الكثير .

المسلم والمحمدي :

إنَّ كل من نطق بالشهادتين مسلم ، سواء أدَّىٰ واجب الإسلام أو أهمله ، أما المحمديُّ فهو الرجل الذي يسير علىٰ قدم رسول الله ﷺ إيجابًا وسلبًا ، وفعلاً وتركًا ، تدرجًا في مقامات القُرب فيما بينه وبين الله ، إلىٰ مقامات الرسالة فيما بينه وبين الناس ، ومن هنا يظهر الفرق الكبير بين التعبير بالمسلم والتعبير بالمحمدي ، فكُلُّ محمديٍّ مسلمٌ ، وليس كُلُّ مسلمٍ محمديًّا .

وإنْ شئتَ فالمحمديُّ هو المسلمُ النموذجي ، ومثله الأختُ المحمديةُ . . . إن شاء الله .

المشروعات المختلفة والختام :

أيها الإخوة ، لقد أجملتُ لكم طرفًا من نشاط عشيرتكم المباركة ورسالتها إجمالاً ، فالمقام لا يحتمل التفاصيل ، ومن أراد تفصيلاً فليرجع إلىٰ هذه السجلات ، وإلى الجدول الإحصائي ، وإلى القائمين بالأعمال في هذه الدار ، التي سيذكرها التاريخ بالإجلال ، وستكون دعوتها ، وآثارها محل بحث أجيال مقبلة إن شاء الله .

ولابد قبل إنهاء هذا الحديث أن أشير إلىٰ أن لدينا طائفة من مخططات المشروعات الدينية والاجتماعية والثقافية الكبرىٰ ، وإنما يعجزنا عن تنفيذها قلةُ المال ، والاحتياط في طلبه إلا من طريق يرضي الله ويحفظ كرامة الدعوة وأهلها ، وهذا هو سر تأخرنا المظهري ، وتخلفنا عن تحقيق

كثير من الأهداف، حتىٰ يأذن الله بنفحة من عنده، فيهيئ الأسباب، ويشرح صدور الأنصار والأحباب، وختامًا أسأل الله أن يزيدنا ثباتًا ويقينًا، وأن يزيدَنا فيضًا ومددًا، وأن يزيدنا فقهًا وعلمًا، وأن يأخذ بيدنا إلىٰ ما يُحب ويرضىٰ، وأن يغفرَ لنا ما يعلم وما لا نعلم، وأن يتقبل منا ويرزقنا حسنَ الخواتيم.

***

رَجِيعُ كَلِمَاتِ المُسْلِمِ فِي بَعْضِ الدَّوَائِرِ وَآمَالٌ كُبْرَى فِي وَزِيرِ الأَوْقَافِ(١)

رجيعُ كلماتِ المسلمِ في الأزهر :

يذكر قُرَّاءُ **المسلم** هذه المقترحاتِ والتوجهيات ، التي كُنَّا كتبناها بمناسبة تطوير الأزهر ، ولا علينا من التعالي الأجوف الذي قابل بعضُهم به هذه الكلمات العميقة الدسمة ، فقد كان من رجيعها ما قد يبشر بالخير ؛ فقد صرَّحَ الدكتور البهي ، بأنَّ نظام الانتساب إلى كليات الأزهر سيُباح مستقبلًا ، وأنَّ التفكير متجه إلى اتخاذ روب جامعي أزهري ، على صورة **الجبة** ، الروب الذي أُهدي قبلًا إلى الدكتور سوكارنو ، وأنَّ شَارة الأزهر الجامعية ستحمل صورة مئذنتيه الشهيرتين ، كما صرَّحَ بعض المسئولين بأنَّ أبنية الجامعة الأزهرية الجديدة ستُنشأ في فراغ تلال الدَّرَّاسَة ، وما سوف يُزال من حي الباطنية ، وكل هذا مما كنا قد اقترحناه ، فعسى أن تجد باقي المقترحات طريقها إلى البحث والتنفيذ ، فإنها أولًا وأخيرًا ثمرة الخبرة الطويلة ، وحُبِّ الأزهر والوطن والدين ؛ حُبًّا لله .

غير أنه لا بُدَّ لنا من تعقيبٍ على تصريح حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد المدني عميد كلية الشريعة ، عن الزيّ في كلية البنات الأزهرية ؛ فقد قال سيادته : سيشترط أن يميل زيُّها إلى الاحتشام .

وهذا التعبيرُ الفقهيُّ يبعث الخوفَ في كل قلب يحب الإسلام والأزهر ؛

(١) مقال غرة رجب (١٣٨١) - ٩ ديسمبر (١٩٦١م) ، العدد الثاني عشر - السنة الحادية عشرة .

فلماذا يُشترط أن يميل الزيُّ إلى الاحتشام ، ولا يُشترط الاحتشام نفسه ؟! ، بل الاحتشام بكل ما في الكلمة من معانٍ وحقائق ، وما لم يكن الاحتشامُ زيَّ بنات الأزهر ، فلمن يكون يا شيخ يا مدني ؟! .

إنَّ من باب يميل التي صرّح بها الشيخ يدخل الانحرافُ كله ، ويدخل الخوفُ كله ، وتضيع الثقةُ والميزة التي كنا نرجوها في كلية الأزهر للبنات ، ولعل الشيخ المدني يتذكر أنَّ الإسلام كره الميل ، ولعن المائلات المميلات .

وإنَّا نعتقد تمامًا أنَّ الميل لم يكن ملحوظًا في تطوير الأزهر عمومًا ، فإنَّ أخشى ما نخشاه الميل في كلية البنات ، بنات الأزهر الشريف !!!

وكذلك لا بُدَّ من تعقيبٍ ثانٍ على تصريح السيد محمد عبد العزيز عميد كلية المعاملات الأزهرية ، فإنه لا يرى أن تُوضع قيود على زيِّ الطلبة ، بل يُترك الأمر لاختيار الطالب نفسه ، وهذه مسألة خطيرة للغاية ؛ فإننا نرى ضرورة توحيد الزي للطلبة في القسمين الابتدائي والإعدادي ، ولو بما هو متعارف عليه في المدارس العامة ، فإذا ارتقى الطالب إلى القسم الثانوي وجب أن يندمج ظاهرُهُ وباطنه فيما هو مُعَدٌّ له من مسئوليات دينية ، وما هو مختصٌّ به من أزهرية ذات طابع وتاريخ ولون مصطلح عليه ، وقد يجوز أن نُدخل على الزيِّ الأزهري تطويرًا يحفظ عليه صورته ، ويجاري في الوقت نفسه مقتضيات العصر ، كزي علماء الشَّام مثلًا ، ولكننا لا ندع الأمر على ما هو عليه الآن أمشاجًا كرنفالية ، لا تُهدِي ، ولا تُميِّزُ ، ولا تُوجِّه ، ولا تدل على دنيا ولا دين!!

وقد كنا شرحنا هذا الموضوع بإفاضة ، فيكفينا أن نشير إليه الآن في

انتظار رجيعٍ جديد لما كتبناه عن الأزهر ؛ ابتغاء رضوان الله .

ورجيع كلمات المسلم في الجامعة :

وأخيرًا تحركت الجامعة ، تحت ضغط حملة النقد الشريف التي تزعمتها مجلة المسلم ، وعنها أخذت بعض الصحف ، والأقلام الفاضلة ، فصدرت القرارات في جامعة القاهرة بضرورة اختفاء (الديكولتيه) والشباشب المفضضة والمذهبة (والجونلات) الضيقة ، كما أصدر السيد محمد مرسي أحمد وكيل جامعة القاهرة قرارًا بتحديد الزي الجامعي للفتيات ، بحيث يكون (جونلة بليسيه) رمادي واسعة (وبلوزة) كحلي ، عَلَىٰ قميص أبيض (تريكولين) وكرافته بلون عَلم الكلية التي تتبعها الفتاة ، ثم الشارة .

وقد تنفَّس أولياءُ أمور الطالبات الصعداء ، في انتظار تنفيذ هذا القرار تنفيذًا رفيقًا رحيمًا بجيوب الآباء والأمهات ؛ حتىٰ تختفي الطبقية الشنيعة التي تمثلها الأزياء في الجامعات ، وحتىٰ يكون اختفاءُ هذه الطبقية تمشيًّا مع الدعوة الاشتراكية الديمقراطية ، ويكون في هذا وذاك علاجٌ للعُقد والأزمات النفسية التي تعانيها الطالبات ، اللواتي لا تساعفهن ظروفهن علىٰ مجاراة زميلاتهن الثريات في ميدان الأزياء علىٰ تحررهن أو تحللهن ، وحتىٰ يكون كل ذلك خطوةً في سبيل الفضيلة والتسامي ، وصدِّ تيار الانحلال الذي يغزو الجامعة ، من كل الأطراف .

لكنَّ بعضَ دُعاة التميع والتهتك من كُتَّاب هذه الأيام ، أخذ يكافح هذا الاتجاهَ ويتهكم به ، ويرىٰ أنه باب للدخول إلىٰ عهد الحريم والظلام ، وهؤلاء الكُتَّاب لو استيقظ فيهم الضمير ، ونظروا إلىٰ الأمور كما هي في واقعها دون سفسطتها أو فلسفتها النظرية ، لاستيقنوا أنهم بمقاومتهم

لأسباب الفضائل إنما يهدمون هذا الوطن ، وهذا الدين ، وهذه الثورة من الأساس ، شأن الدُّبِّ مع صاحبه في القصة المعروفة سواء بسواء .

ورجيع كلمات المسلم في الأوقاف :

ولقد كان مما اقترحته مجلة **المسلم** باسم العشيرة على وزارة الأوقاف ، أن تفكر في أن تُنشئَ باسم الرئيس الموفق بالله مسجدًا فخمًا نادرًا ، تتمثل فيه عظمةُ الفنِّ الإسلامي ونهضة العمارة في الوقت الحاضر ، بكل ما يحمله هذا المعنى ، ويكون المسجد جامعًا لكل مقتضيات حال المسلم ، فتُلحق به مكتبة دينية جامعة ، وصالة كبرى للمحاضرات ، تستغلها الهيئات الإسلامية والشعبية ، ودار للضيافة لكبار علماء العالم الزائرين لهذه الديار ، وقاعة لاستذكار الطلبة دروسهم ، بالإضافة إلى المرافق الكافية على أحدث أنماطها ، بحيث يكون هذا المسجد رمزًا يدل على منزلة الدين من هذه الثورة ، ويظل حافظًا تاريخها مذكرًا بها ، وبالسيد الرئيس عبر الأجيال والقرون .

ولهذا رأينا أن يُختار للمسجد مكان الأوبرا الحالية بوسط القاهرة ما دام قد تقرر بناء أوبرا غيرها ، أو يختار له ميدان محطة القاهرة ، حتى يكون أول ما يقع عليه نظر الناس عند نزولهم إلى هذا البلد العربي المسلم ، ثم جعلت هذه الفكرة تتعثر ، حتى قيَّض الله لها السيد الشافعي نائب الرئيس ، فأخذ في درسها ، والعمل على إحلالها محل التنفيذ بإذن الله ، ولا ننسى للأوقاف أنها أخذت باقتراحنا السابق الذي كنا نرجوها فيه أن تنشئ دائرة معارف شاملة للحديث النبوي ، يستغني بها الطالبُ والعالم والباحث عن كل ما عداها ، فأخرجت موسوعة الحديث النبوي ، تنفيذًا لبعض هذه الفكرة ، والله

المسئول أن يحقق بقية المأمول، وكانت قد استجابت الأوقاف قبل هذا إلى بعض توجيهاتنا في مسائل أخرى، كبعض المسائل القرآنية التي نرجو أن يبلغ الاهتمام بها ذروته في هذا العهد بإذن الله.

ودعنا الآن من شبه الاستجابة لرجيع كلماتنا الخاصة بالإذاعة والتلفزيون والسينما والمسرح، فلابد من عودة مفصلة إليها إن شاء الله.

آمال في وزير الأوقاف وزير الإسلام:

وبهذه المناسبة -ووزير الأوقاف دائمًا محل أمل المسلمين- نرجو أن نكرر على سمع سيادته بعضَ ما كنا قد عرضناه من قبل، من آمال في هذه الوزارة، عسى أن تأخذ طريقها إلى البحث الجِدِّيِّ؛ فإنها بعد ذلك ستأخذ بإذن الله طريقها إلى التنفيذ، فهي به جديرة بالطبع والفطرة، ومن هذه الآمال مثلًا:

أولًا: الإذن بمراجعة ما سبق أن اقترحناه في مناسبة تطوير الأزهر، وما كنا نقدناه من شأنه نقدًا شريفًا هادفًا، ففيه إن رُوجع على أساس النية البيضاء خيرٌ كثير، ينتظره الشعب المسلم في كل بلد مسلم، وعهد الشافعي به أولى.

ثانيًا: الإذن بمراجعة مقترحاتنا السابقة في أن تتبنى الأوقاف كافة الجمعيات الإسلامية التي تتوفر على الخدمات الدينية، وأن تُنشئ لها بالوزارة إدارةً خاصة ترجع إليها، فتتعاون معها على استكمال رسالة المسجد، بما لهذه الهيئات من شعبية نفاذة، ومناهج لا يصد عنها لونها الرسمي، وروتينها المقيد، وبما لها من أنصار في العقيدة، وأتباع في المذهب والاتجاه، وهذه طاقة دافعة لا تدانيها طاقة.

ثالثًا : بحث وسيلة إنشاء اتحاد عام للهيئات الإسلامية ، يهيئ لها وسائل الإنتاج وأداء الرسالة ، ويأخذ بأيديها إلى العمل المنظم المستقر ، وفي الوقت نفسه يقرب ما بين رجالها ، ويخفف حدة الخلاف المذهبي بينها ، ويجعل منها وحدة قوية نافعة غير منحرفة ، ولا جامدة ، على أن تحتفظ معه كل جماعة بطابعها ومبادئها .

رابعًا : تَبَنِّي حركة الصحف الإسلامية ، وهي في أشدّ الحاجة إلى أُمٍّ تأوي إليها ، وتستمد منها ، وتستعينها ، وتسترشد بها ، ولا شك أبدًا في جلال الرسالة التي تؤديها هذه الصحف ، وفي خطورتها ، مهما قلَّ عددها ، أو خف وزنها ، أو صغر حجمها ، فإنَّ لها جمهورًا قد لا يخطر على بال مَنْ لم يكن يعرف حقيقتها ، وإنَّ من بعض هذه الصحف الصغيرة ما يؤدي من الخدمات الكبرى ما لم تصل إلى مثله كبريات الصحف والمجلات ، بكل ما لها من أموال وإمكانيات ، فوق أنها أيضًا تكمل رسالة المسجد في الإسلام ، ولا غنى عنها أبدًا في الجمهور المتدين .

خامسًا : لعل من الخير أن تمثل في المجلس الإسلامي الأعلى هذه الهيئات وهذه الصحف الإسلامية ، فهي أَوْلَى من أن تُمثَل فيه الأفراد وتستقل به أسماء وألقاب .

ولعل من الخير كذلك أن يكون لدى القوَّامين على الثقافة والمطبوعات في الأوقاف أمر صريح بألا تغفل الهيئات الدينية والصحف الإسلامية من إهداء المطبوعات المختلفة إليها فهي بها أولى ، وهي لديها أنفع ، فإنه من الغريب حقًّا أن تنشر الصحف

مثلًا، أن الأوقاف وزعت (٢٥٠) ألف نسخة من موسوعات الفقه والحديث والتفسير، ثم لا يكون للهيئات التي تخدم الفقه والحديث والتفسير في هذه الألوف من الموسوعات نصيب، وأغرب منه ألا يكون هناك مبادلة بين مجلة الأوقاف ومجلات الهيئات التي تخدم الدين، أمر في غاية العجب !!!

كذلك كان شأن إغفال هذه الهيئات في توزيع اسطوانات المصحف المرتل، بل كان هذا هو الشأن في توزيع الرسائل الدورية، ورسائل الجيب التي تصدر عن الأوقاف ومجلسها الأعلى وإدارة ثقافتها، وربما اكتفى المختصون بالعطف على بعض الهيئات فأتخموها بمطبوعات الأوقاف، في الوقت الذي كانت تطلب فيه هيئات أخرى، حتى بضعة أجزاء من القرآن، فتهمل كل الإهمال!!!

والمشاع أنَّ للمذهبية دخلاً ضخمًا في هذا الموضوع، وذلك -إنْ صحَّ - ما لا ينبغي أن يتحكم في ديوان أوقاف المسلمين في عهد الشافعي، فأهل القبلة في الحقوق سواء.

سادسًا : كيف لا تُدْعَى الهيئات الإسلامية إلى حفلات وزارة الأوقاف بالمساجد وغيرها ؟! ولماذا يُكتفى بتوجيه الدعوة إلى الأفراد وحدهم ؟ ولهذه الهيئات الحق الأول في الاشتراك ـ ولو سلبيًا ـ في هذا المجال، بما لها من نشاط ديني ومشاركة في خدمة الإسلام، لا يرتفع إلى مستواها نشاط الأفراد.

سابعًا : هناك رجاء له قيمته الخاصة والعامة ، وهو استبقاء شيء من التوجيه والإشراف للهيئات ذات المساجد علىٰ مساجدها التي ترىٰ الوزارة أن تضمها إليها ، ما دامت هذه المساجد قد أُنشئت ، أو جددت ، أو خدمت بمجهود هذه الهيئات ، بل إن العدالة تستوجب أن تظل الهيئة مسئولة عن مسجدها أمام الوزارة ، وأن تكتفي الوزارة بالإشراف علىٰ تنفيذ تعليماتها بواسطة الهيئة نفسها ، وأن تصرف إعانة المسجد باسم الهيئة كذلك ، وفي ذلك ما فيه من العدالة والتشجيع والتعاون والاحتفاظ بالهمم دون التثبيط ، ودون صرف القلوب إلى اللامبالاة ، وانقلاب الجماعات بالأسف والألم بما يشبه طردها من مؤسساتها .

ثامنًا : كانت لنا آراءٌ في مدارس القرآن التابعة للأزهر والأوقاف ، وضمها في وحدة ذات شخصية مستقلة ، وإعادة مدارس الأوقاف التي أُغلقت والتي ضُمت إلىٰ وزارة التربية والتعليم ؛ لتعود إلى الخدمة التي شرطها الواقفُ بشرط الله ، وأن تتميز مدارس القرآن بألوان إيجابية من التشجيع المنظم ، كصرف الإعانات المادية ، مع منح بعض الميزات الأدبية ، كتخفيض أجور التعليم أو مجانيته ، والنظر في اعتبار حامل القرآن كحامل المؤهل في حالة التجنيد ، فيعامَل كلاهما معاملة واحدة ، وأعتقد أنَّ هذه الفكرة وحدها كافية إذا هي نفذت بإحداث حركة من الرضاء الإلهي والشعبي لا تعدلها حركة ، وتكون في الوقت نفسه من أكبر الدعايات الدينية الخالدة .

وبعد فهذه رءوس مسائل ، من وراء كل منها شرح وتفصيل ، ليس

هذا مكانه، ولكننا نبرئ ذمتنا، ونضع الأمور بين يدي مَن يُقَدِّرُهَا ويَقْدِرُ عليها، وخصوصًا بعد أن توحدت الأوقاف والشئون والأزهر والمؤتمر الإسلامي في يد واحدة، وهنا نُحَيي السيد نائب الرئيس ووزير الأزهر والأوقاف والشئون والمؤتمر، وندعو له بالتأييد والتوفيق إلى ما يحب الله ويرضى.

***

عَودٌ إلى قصةِ فضل ليلةِ النِّصفِ إعلامٌ، وإفهامٌ، وإفحامٌ (١)

حكايةُ كُلِّ عام :

بالنسبة للعادة المعتادة من السَّادة المتمسلفة ، الذين لا يطيب عيشُهم إلا إذا خالفوا الناس وشغلوهم بالتوافه عن خطير أمورهم ، أذكر أنني كتبت بـ (المسلم) في العام الماضي ، عن فضائل ليلة النصف ، وثبوتها من الوجهة العلمية والعقلية ، ومن الصناعة الحديثية ، بما لا يدع مجالاً أبدًا للشك في أنها ليلة ذات فضل عند الله عظيم .

ولا حاجة بنا اليوم إلى تَكرار ما قررناه ؛ فالقائلون بعد بأنها ليلة ككل الليالي قومٌ لا نتهمهم بالجهل ، ولكننا نقول إنهم معذورون بأعذار ثلاثة على الأقل :

الأول : ما في نفوسهم من حُبِّ المخالفة ابتغاء الظهور والشهرة .

الثاني : عدم استعدادهم النفسي للرجوع إلى الحق ، بعدما عُرفوا بين الناس برأي يخالفه .

الثالث : الكبرياء الوافد على بعضهم من زهو المنصب ، والحقد الذاتي على كل من يخالفهم في المذهب ، أو يستقل برأي يرجحه بحجة ثابتة في فرع ديني لا يؤدي علاجه إلى كفر ولا فسوق .

---

(١) مقال غرة شعبان (١٣٨١هـ)- ١٤ يناير (١٩٦٢م) ، العدد الأول- السنة الثانية عشرة .

وهذه أعذار كما تراها من الأمراض المستعصية التي لا تقبل العلاج، فنحن إذ نكتب إنما نكتب لطلاب الحقيقة، من أصحاء العقول والقلوب السليمة، لا هؤلاء الذين لا أمل في إصلاح شأنهم، وحسبنا وقاية من لديه استعداد للوقاية.

ولقد تلقيتُ في بريد هذا الشهر أسئلة شتَّى عن هذا الموضوع، وللاختصار أترك الأسئلة، ستعرف هذه الأسئلة من السياق، وتتلخص إجابتها فيما يلي:

مسألةُ الدعاءِ المشهور:

وهو الذي تعوَّد الناس قراءته في ليلة النصف من شهر شعبان؛ فقد أخرج ابنُ أبي شيبة في المصنف، وابن أبي الدنيا في الدعاء، عن عبد الله ابن مسعود قال: ما دعا عبد قط بهذه الدعوات، إلا وسع الله له في معيشته: «**يا ذا المنِّ ولا يُمَنُّ عليه** ... إلى قوله: **وعنده أُمُّ الكتاب**». مع اختلاف يسير جدًّا في بعض الكلمات، ثم زاد العلامة العارف بالله الشيخ **ماء العينين الشنقيطي** في كتاب «**نعت البدايات**» الدعاءَ بالعبارات المعروفة: إلهي بالتجلي الأعظم... إلى آخر الدعاء المشهور.

فإذا أصرَّ المخالفون على ضعف الرواية، قلنا: إنَّ الإجماع ثابتٌ على جواز العمل بالضعيف في الفضائل، ومنها الدعاء، وبهذا تنقطع اللجاجة.

مسألة المحو والإثبات عقلاً :

فإذا استعصموا بقصة المحو والإثبات، قلنا :

أولًا : من الوجهة العقلية، كُلُّ دعاء من كل إنسان في حادث أيـًّا كان شأنه، إنـما هو طلب من اللَّه أن يمحوه من ديوان الشقاوة، ليثبته في ديوان السعادة، سواء في ذلك ما ورد ثابتًا عن رسول اللَّهﷺ ومن ولاه، وما جاء على ألسنة الصَّالحين من أهل اللَّه .

فالقائلُ : اللَّهُمَّ استرني أو اشفني أو اهدني، معناه : أن امح يا رب فضيحتي ومرضي وعصياني، والقائل : اللَّهُمَّ لا تُشمت بي الأعداء، ولا تجعلني مع القوم الظَّالمين، معناه : أثبتني يا رب في المنصورين والمنصَفين .

وهكذا كُلُّ دعاء أتى كان شأنه يتلخص في طلب أن يُمحى قضاء الإنسان من سجل الذين شقوا، وأن يثبت قضاؤه في سجل الذين سعدوا، هذا هو منطقُ العقل والحقيقة المحسوسة والواقع الذي لا مراء عليه، وإلا لم يكن هناك معنى لقوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر : ٦٠] وقوله : ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

وهل يدعو الداعي إلا بأنْ يمحوَ اللَّه قدره من صحائف الشَّرِّ على ألوانه ومراتبه، ويثبته في صحائف الخير على ألوانه ومراتبه؟ وما لم يكن هناك محوٌ وإثباتٌ فلماذا يطلب اللَّه منا أن ندعوه بأن يغير حالنا إلى ما هو خير؟ وكيف يعدنا بالاستجابة ما دام أنَّ الأمور ثابتة لا تحتمل التغيير ؟ تعالى اللَّه عن العبث بعباده، إنَّ اللَّه لا يخلف الميعاد .

مسألة المحو والإثبات نقلا :

هذا من الوجهة العقلية ، أمَّا من الوجهة النقلية ، فالله تعالى في سورة الأنبياء مثلاً ذكر عددًا من الأنبياء نادوه فاستجاب لهم ، أي محا عنهم ما كانوا يخافون ، وأثبت لهم ما كانوا يبتغون ، وعلى ذلك ما جاء في الصحيح من قوله ﷺ : «**إنني لأعلم في القرآن آية ، ما دعا بها مسلمٌ إلا استجيب له ، دعوة أخي يونس**» : ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٧] .

وقوله ﷺ في الحديث الثابت عن أواخر سورة «**المؤمنون**» إنه : «**لو قرأ بها رجل موقن على جبل لزال**» .

والأحاديث الثابتة عنه ﷺ في الرُّقية ، وطلب العفو والعافية ، وطلب الجنة ، والنجاة من النار ، وجوامع الخير ، والاستعاذة من درك الشقاء وجهد البلاء وطوائف الشر والبرحاء ، ففيها الدليل على أنَّ الله يغير ويبدل ويفعل ما يشاء ، وفي رواية أحمد عنه ﷺ : «**لا يرد القضاء إلا الدعاء**» .

وروى ابن كثير في تفسيره : «**إنَّ الدُّعَاءَ والقَضَاءَ ليعتلجانِ بينَ السَّماءِ والأرضِ**» .

وفي الصحاح قيل لرسول الله : «**أرأيت رقى نسترقيها ، وأدوية نتداوى بها ، أترد من قدر الله ؟ قال : هي من قدر الله**» . ولابن القيم والغزالي وغيرهما في هذا المجال تحقيق كبير .

فهذا وغيره -وهو كثير كثير- يدل أكبر الدلالة على أنَّ المحو والإثبات بمعناه الفسيح حقيقة فعلية ، وأما تكَلُّفُ بعضهم القولَ بأنَّ المحو

والإثبات في الآية خاصٌّ بالشرائع والآيات فقط أو نحو ذلك، فلا دليل من العلم إطلاقًا على هذا التخصيص والحصر، اللَّهُمَّ إلا شهوة التحكُّم، وهو تقنيط للعباد، وتيئيس من رحمة الله، وحكمٌ على الله بما لم يكتبه على نفسه فضلاً منه ورحمة.

وقد استظهر القرطبيُّ في تفسيره أنَّ الآية عامة في جميع الأشياء: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]، وقال: يروى معناه عن عمر ابن الخطاب، وابن مسعود وأبي وائل، وهو قول الكلبي وآخرين.

وقد روى أبو عثمان النهدي: أنَّ عمر بن الخطاب كان يطوف بالبيت باكيًا يقول: اللهم إن كنت كتبتني من أهل السعادة فأثبتني فيها، وإن كنت كتبتني من أهل الشقاوة فامحني، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أُمُّ الكتاب.

وقد ورد نحو هذا عن ابن مسعود، وهكذا ذكر أبو حيان في «**البحر**» أنَّ المحو والإثبات عَامٌّ في الرزق والأجل والسعادة والشقاوة، وإليه ذهب خاتمة المحدثين الشيخ حبيب الله الشنقيطي عليه الرضوان في كتابه «**هداية الرحمن**» وهو ما سبقه إليه طائفةٌ من المحققين من أهل العقول والقلوب.

الله غالب على أمره:

وأخيرًا قضية المحو والإثبات قضية من المستوى الإمكاني مستوى الجواز، وهذا المستوى من متعلقات الإرادة والقدرة الإلهية، فهو مما لا جدال عليه من الوجهة الكلامية الأصولية، وقد قرر القرآن أنَّ الله تعالى غالب على أمره، أي أنه تعالى غير مقيد حتى ولا بقيد الإطلاق - إن صحَّ

هذا التعبير - فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا يُسأل عما يفعل، ولا معقب لحكمه، وهو القاهر فوق عباده، له الخلق والأمر، فبأي عقل وبأي نقل وبأي دين يريد هؤلاء الناس أن يُخضِعوا الله - أستغفره - ويتحكموا في إرادته وسر غيبه، بإلزامه - سبحانه - بتنفيذ مكتوب حادث أو قديم على مفاهيم العقول القاصرة؟ ومعنى هذا أنه تعالى محكومٌ بمخلوق هو اللوح أو أُمُّ الكتاب، فمن ذا الذي قال بأنَّ المخلوق يحكم الخالق؟!! وأنَّ الحادث يتحكم في القديم؟ وأنَّ الله مألوهٌ لسواه؟!! بعض الحياء أيها المتمسلفة، الربُّ ربٌّ والعبدُ عبدٌ، وجلَّ الذي بيده ملكوت كلِّ شيء وإليه يُرجع الأمر كله.

مثالٌ من الأحاديث الثابتة في فضل هذه الليلة:

وعلى سبيل المثال والبركة نذكر شيئًا مما ورد في فضل هذه الليلة، ولعل من أمثل ما ورد في فضلها وبركتها:

ما أخرجه أحمدُ والدارقطنيُّ بسندهما عن عائشة، وفيه: **أنَّ الله ﷻ ينزل إلى سماء الدنيا - يعني برحمته وتجليه وفضله - ليلةَ النصف من شعبان، فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم بني كلب**. وخرَّجه ابنُ ماجه في «**سننه**» بنحوه، وخرَّجه الترمذي، وخرَّجه ابن حبان في صحيحه.

وأخرج الدارقطنيُّ عن عائشة من حديث بكر بن سهل، وفيه: **ليلة النصف من شعبان ينزل الله تعالى إلى السماء الدنيا، فيغفر لعباده إلا لمشرك أو مشاحن**. وأخرج نحوه الإمام أحمد في مسنده من حديث ابن لهيعة.

وروى أبو نعيم بسنده عن أنس بن مالك أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أربع**

ليال لياليهن كأيامهن، وأيامهن كلياليهن، يبر الله فيهن القسم، ويعتق النَّسم، ويعطي فيهنَّ الجزيل، ليلة القدر وصباحها، وليلة عرفة وصباحها، وليلة العيد وصباحها، وليلة النصف وصباحها» .

وروى الأصبهانيُّ في الترغيب عن مُعاذ قال: قالﷺ: «**من أحيا الليالي الخمس وجبت له الجنة**» . وذكر فيها ليلة النصف من شعبان، إلى آخر ما ورد على كثرته .

شيء من علم أحكام الحديث :

نقول: وحديثٌ واحدٌ مما أسلفنا كافٍ لإثبات هذا الفضل، فكيف بما لا حصر له من الأحاديث المثبتة في مظانها ومؤلفاتها ؟

هذا وقد قررتُ غير مرة في أكثر من كلمة، أنَّ تضعيف بعض أحاديث فضل هذه الليلة من بعض الحفَّاظ، لا يقدح في تصحيحها من البعض الآخر، وخذ أنت بما شئت، وهذه قاعدة حديثية متفق عليها، وعند التسليم جدلاً بأنها أحاديث ضعيفة، فقد جاءت من طرق متعددة فهي بها معتضدة، وبهذا ترتقي إلى درجة الحسن، وهو قسم من الصحيح .

ونحن نأخذ بالحديث الحسن في العقائد والعبادات، والحلال والحرام، فأولى بنا أن نخجل من الجدال فيه حين نأخذ به في الفضائل، وعلى الأخذ بالضعيف في الفضائل أجمعت الأمة، ومن الفضائل ما نحن بصدده من شئون ليلة النصف من شعبان، فماذا بعد كل هذا أيها الناس؟

اتركونا كما تركناكم :

وقد فصَّلت في كلمتي في العام الماضي أسماء الكتب، وأسماء المحدثين والعلماء الذين ألفوها مع ذكر أمكنة وجودها، وفيها إثبات فضل هذه الليلة بيقين، وهؤلاء هم سادة هذا الفن وأهله، فتورُّكُ بعض التافهين عليهم توقحٌ وبطلانٌ مذهلٌ.

واحتجاجُهُم بقول أبي بكر بن العربي الأندلسي : إنه ليس في فضل هذا الليلة حديث يساوي سماعه احتجاج مردود؛ فابنُ العربي فقيهٌ مالكيٌّ كما قلنا غير مرة، والموضوعُ من صناعة المحدثين، لا من صناعة الفقهاء، وقد أسلفنا لك رأي المحدثين في العمل بالضعيف، وفي كيفية رفع الضعيف إلى الحسن.

ونحن نحسن الظنَّ بابن العربي، ونقول : عسى أنه لم يبلغه في هذا الباب إلا الأحاديث الضعيفة، أما لو بلغته الأحاديث القوية التي بلغت غيره لما قال كلمته تلك، ولما تردد في الأخذ بهذه الأحاديث.

ثم يا هؤلاء أفلا يقاس الإمام أحمد، والدارقطني، وابن ماجه، والترمذي، وابن حبان، وأبو نعيم الأصبهاني، ومن قالوا بقوله أو قال بقولهم، من الأئمة والمحدثين المؤكدين فضل هذه الليلة سلفًا وخلفًا، أفلا يقاس كل هؤلاء مجتمعين بابن العربي منفردًا ؟! إنَّ هذا لهو الباطل المتبجح اللئيم، يا هؤلاء دعونا نختار لأنفسنا كما اخترتم لأنفسكم بلا تشغيب.

إنَّ الحكم هنا حكم النوافل، أصله الاختيار، فدعوا الناس وما اختاروا لأنفسهم فيما رجح عندهم من أحكام الفروع، ثم تعلموا شيئًا

من الجرأة على الباطل الهائل السائد في كل مكان، فكافحوه، ولو مرةً واحدة بمثل هذا التوقح على الحق المبين، أم إلى هنا وأنتم صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ؟ فليس إلا علينا يستنسر البغاث، وتستأسد الهرر.

وأخيرًا: فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيم:

وقد أسلفنا أنَّ الشيخ ماء العينين الشنقيطي قال في توجهه: إنَّ هذه الليلة: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[الدخان:٤]، ونقرر أنَّ مما ورد من الأحاديث والآثار في هذه الليلة قدرًا مشتركا يفيد هذا المعنى، وقد جمع العلماء بينه وبين الآية الصريحة في أنَّ ليلة الفَرْقِ هي ليلة القدر بسورة الدخان، بأنَّ الأمر يفرق على إجماله في الملأ الأعلى في ليلة النصف، ثم ينزل تفصيله في ليلة القدر . . . إلخ، ومع هذا فللخروج من الخلاف نترك هذه الفقرة من هذا الدعاء لمن شاء أن يدعو به، وقد وردت أدعيةٌ شتَّى عن رسول اللهﷺ وللمرء أن يختار منها ما يلائم ظروفه وملابساته وحاجته، ولا داعي للارتباط بدعاء ماء العينين أو غيره.

وبعد، فهذا هو الحكمُ الجلي في هذا الأمر، لا يختلف عليه إلا جاهل أو مغالط أو مكابر أو مغرض. ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾[الحجر:١٤-١٥].

***

مسامراتٌ رمضانيةٌ (١)

تقديم للمسامرة :

أظنُّ أنَّ ما نُشر عن رمضان فِي هذا العدد من **المسلم** على قِلته يشكل وحدةً يكمل بعضُها بعضًا ، بحيث تكفي إن شاء الله قُرَّاءَ هذه المجلة المباركة ، في أهمِّ ما قد يَعرض لهم من قضايا الصَّوم ، ولهم أن يعودوا إلى أعداد **المسلم** السابقة ، ففيها من ذلك غناء وكفاء إن شاء الله .

وفي مثل هذا الشهر من كل عام ، يوشك أنْ يُجْمِعَ كُلُّ الكُتَّاب في كل المجلات ، وكلُّ المتحدثين عن الإسلام في كلِّ المجالات ، على الكلام عن أحكام الصيام وصدَقَةِ الفطر ، وصلاة التراويح ، والتهجد والاعتكاف ، وليلة القدر ، وغزوة بدر ، وقصة الفتح ، وشئون الأعياد ، وأذكرُ أنني كتبت في رمضان العام الماضي بحثًا إجماليًّا حول أكثر هذه الموضوعات ، غير أنني أرجو أن أكتفي في هذه المرة ببعض ما تدور حوله الأسئلةُ غالبًا من شئون هذه الشهر المبارك ، وفي بعضها أسئلة بالفعل أمامي الآن ، والله الموفق المستعان .

ما هو الصَّومُ :

الصَّومُ عن شهوة البطن والفرج صومُ العامة ، وهو صوم الغافلين ، وهذا الصوم - أي صوم العامة - مع كفِّ الجوارح عن محارمها هو صومُ السَّالكين ، وهذا الصوم - أي صوم السَّالكين - مع حفظ القلب عما

---

(١) مقال غرة رمضان سنة (١٣٨١هـ) -٦ فبراير (١٩٦٢م) ، العدد الثاني - السنة الثانية عشرة .

سوىٰ اللَّه من شئون الدنيا هو صومُ العارفين ، فالأولُ صومُ العموم ، والثاني صومُ الخصوص ، والثالث صومُ الأخصّ .

والفِطْرُ في صوم العامة بالأكل والشرب ، وفي صوم السَّالكين باقتراف الصغائر ، وفي صوم العارفين بالفكر فيما سوىٰ اللَّه .

ثبت عن أبي هريرة مرفوعًا : «**ليس الصِّيامُ من الأكل والشرب ، وإنما الصيامُ من اللَّغو والرفث**» .

وروىٰ البخاريُّ مرفوعًا أيضًا : «**مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ ، فَلَيْسَ لله حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ**» .

قلنا : وكل ما عدا اللَّه أو ما دلَّ عليه أو ذكَّرَ به ، فهو لَغْوٌ ورفثٌ وزورٌ وباطلٌ .

مِنْ فوائدِ الصِّيامِ الصِّحيَّةِ والنفسيَّةِ :

من فوائده أنه يهذب أجهزة الجسم ويريحها من العمل المتواصل ، حتىٰ إنَّ مرضى القلب والذبحة الصدرية ، لا يُصَابون بنوباتهم أثناء الصيام غالبًا ، وكذلك مرضى الضغط والبول السكري ، يجدون الصحة كل الصحة في الصوم ، وبالتالي مرضى الروماتزم المفصلي والنقرس والكلىٰ والكبد ، وأمراض أخرىٰ يعرفها الأطباء .

والصيام مؤكدُ النفع في أمراض الجلد والحساسية ، حتىٰ أمراض قشر الرأس وحَبِّ الشباب والإكزيما والأرتكاريا ، كما أنه مؤكد النفع في صحة السِّمَان وطلاب النحافة والرشاقة بشروطه المشروطة في دين اللَّه ،

من عدم التخمة في الإفطار والسحور، ومراعاة قانون شرب الماء والرياضة ونحوها . . . إلخ .

وأمَّا أثرُهُ على الصحة النفسية والروحية وتقوية الإرادة - وهي أُمُّ الفضائل في الإنسان- وحل العقد والأزمات والأمراض الفكرية والعصبية، وبالتالي أثره على الأخلاق والآداب العامة واستشعار رقابة الضمير، وتعود المعاملة المباشرة مع الله، فكلُّ ذلك من المحسوسات المكررة التي لا يشك فيها أحد .

الصَّومُ في السَّفر :

والمسافرُ كالمريض، مخير عند الطاقة بين الصوم والفطر، وعليه القضاء، وليس من البرِّ الصيامُ في السَّفر، لكنَّ الأبر والأفضل الصوم ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة :١٨٤] .

وقد روى مسلمٌ عن رجل سأل رسولَ اللهﷺ: أأصومُ في السفر؟ قالﷺ: «**هي رخصة، من أخذ بها فحسن، ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه**» .

ومعلومٌ أنَّ الرخص هدية الله إلى عباده، والله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه، ففي الأمر سعة وتخيير مطلق .

وبعض العلماء يرى أنَّ رخصة الفطر في السفر لا تتوقف على نوع السفر، فعندهم يستوي السفر سيرًا على الأقدام، أو ركوبًا على الدواب، أو من طريق السيارات أو الطائرات أو غير ذلك، وإن كنا نرجح أنَّ رخصة الفطر كانت في مقابل مشقة السفر، الذي كان قطعة من

العذاب فيما مضىٰ . وفي **دليل المسافر** أنَّ مسافة السفر المباح الفطر فيه نحو ستة كيلو مترات إلا ربعًا تقريبًا عند أهل الظاهر ، وعند الأئمة الثلاثة نحو تسعة وثمانين كيلو مترًا وربعًا ، أي من القاهرة إلىٰ ما بعد الزقازيق بنحو عشرة كيلو مترات ، وعند أبي حنيفة نحو واحد وثمانين كيلو مترًا أي من القاهرة إلىٰ ما قبل طنطا بنحو اثني عشر كيلو مترًا ، ويرىٰ بعضهم أنَّ السفر هو السفر ، قلَّ ذلك أو كثر .

الجمعُ في السَّفر :

وبمناسبة الكلام على الصيام في السفر ، لا بُدَّ من الكلام علىٰ جمع الصلاة فيه .

روىٰ أحمد عن ابن عباس أنه قال : «**أَلا أُحَدِّثُكُمْ عَنْ صَلاةِ رَسُولِ اللهِﷺ فِي السَّفَرِ ، قَالَ : قُلْنَا : بَلَىٰ . قَالَ : كَانَ إِذَا زَاغَتِ الشَّمْسُ فِي مَنْزِلِهِ جَمَعَ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ قَبْلَ أَنْ يَرْكَبَ – يعني جمع تقديم – وَإِذَا لَمْ تَزِغْ لَهُ فِي مَنْزِلِهِ سَارَ حَتَّىٰ إِذَا حَانَتِ الْعَصْرُ نَزَلَ فَجَمَعَ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ – يعني جمع تأخير – وَإِذَا حَانَتِ الْمَغْرِبُ فِي مَنْزِلِهِ جَمَعَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْعِشَاءِ – تقديما – وَإِذَا لَمْ تَحِنْ فِي مَنْزِلِهِ رَكِبَ حَتَّىٰ إِذَا حَانَتِ الْعِشَاءُ نَزَلَ فَجَمَعَ بَيْنَهُمَا**» . تأخيرًا .

ومثل هذا الحديث ونحوه معتضد بما رواه الشَّافعيُّ في مسنده ، وما رواه مالكٌ في الموطأ من جمعهﷺ بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء في غزوة تبوك . ورواه كذلك مسلم وأبو داود والترمذي ، وفيه عدمُ الاختصاص بحالة السير ؛ فإنه كانﷺ في خبائه يخرج فيجمع بين الظهر والعصر ، وبين المغرب والعشاء ، فيكون النبيُّ ﷺ قد سَنَّ لنا الجمع في

السفر - مع القصر طبعًا - سواء كنا في سير أو إقامة مؤقتة .

ولا يجوز الجمع بين الصبح والظهر ، ولا بين العصر والمغرب لا تقديمًا ولا تأخيرًا بالإجماع ؛ إذ الجمع يكون بين الظهر والعصر ، وبين المغرب والعشاء فقط .

الجمعُ في الحضر :

وقد أجاز أحمدُ وبعضُ الشَّافعية الجمعَ في غير السفر - أي للمقيم في بلده - تقديمًا وتأخيرًا بعذر المرض ، إذا كان يلحقه بالصلاة في وقتها مشقة أو أذى ، بل أجاز الحنابلة هذا الجمع لكل صاحب عذر - والمرء أمينُ حاله - وللمرضع والمستحاضة ، وصاحب السَّلس والريح ونحوه ، وللخائف على نفسه أو ماله أو عِرضه ، وللخائف على معاشه من التلف كالطباخ والخباز ، وللعامل الخائف على ضياع عمله منه ما دام ليس له طريق للرزق سواه .

قال ابن تيمية : وأوسع المذاهب في الجمع مذهبُ أحمد ؛ فإنه جوز الجمع - إذا كان شغل - كما روى النسائي .

وروى مسلمٌ عن ابن عباس قال : «**جَمَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ وَالْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ بِالْمَدِينَةِ فِي غَيْرِ خَوْفٍ وَلا مَطَرٍ فِي حَدِيثِ وَكِيعٍ قَالَ قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ لِمَ فَعَلَ ذَلِكَ قَالَ كَيْ لَا يُحْرِجَ أُمَّتَهُ**» ، وفي البخاريِّ نحوه كذلك .

وينبغي العلم بأنَّ للجمع في كل هذه الحالات أسبابه ، أما جمع الكسل والإهمال والاستهانة فلا مكان له في الدين ، وويل لصاحبه .

مسألة الحقن والكحل والقطرة :

قال في كتاب الفتاوىٰ : المبطلُ للصوم ما دخل إلى المعدة بخصوصها ، سواء كان مغذيا أو غير مغذ . ولا بُدَّ أن يكون من المنفذ المعتاد ، ومن أجل هذا ، فما دخل الجوف ، ولكنْ لم يصل إليها - أي المعدة - لا يفسد الصوم .

فالحقنة الشرجية ، يدخل بها الماء في الجوف ، ولكن لا يصل إليها - أي المعدة - فلا تفطر - أي عند ابن تيمية خلافًا للجمهور - والحقنة الجلدية أو العرقية - أي تحت الجلد أو في الوريد - يسري أثرها في العروق ، ولا تدخل محل الطعام أو الشراب - أي المعدة - فلا تفطر ومثلها حقنة العضل .

نعم قد يُحْدِثُ بعضُها نشاطًا في الجسم ، وقوةً عامة ، ولكن لا تدفع جوعًا ، ولا عطشًا ، ومن هنا لا تأخذ حكم الأكل والشرب ، وإن أدت شيئًا من مهمته .

وإذا كان هذا هو الأصل في الإفطار ، وكانت الحقنُ بجميع أنواعها لا تفطر الصائم ، فإنَّ أقماع البواسير ومراهمها ، أو الاكتحال ، أو التقطير في العين أو مسها ، كل ذلك لا تأثير بشيء منه على الصوم ، فهو ليس بأكل في صورته ولا معناه ، وهو بَعدُ لا يصل إلى المعدة التي هي محل الطعام والشراب . ا . هـ .

أصحابُ الأعذار الدائمة :

المريض المستعصي مرضه ، والمستمر الدائم علاجه ، والشيخ الهرم الكبير سِنُّهُ ، والضعيف الذي يمرض بالصوم في العادة ، والمرأة التي لا تكف عن الحمل والرضاع ، فلا تكاد تنفك من هذه الحالة إلا إلى تلك الحالة ، والعمال الذين ارتبطت حياتهم كلها بالأعمال الشاقة والمهن

الخطيرة كعمال المناجم والمحاجر، والفرَّانين والحمَّالين ونحوهم، كلُّ أولئك - على خلاف يسير بين المذاهب - يفطرون ويقدمون الفدية عن كل يوم طعام مسكين، أو قيمة الطعام بالنقد، وليس عليهم قضاءٌ لعدم وجود فرصة لهم في أعمالهم، ومن الأفضل تبييتهم النية على الصيام، والامتناع عن الطعام والشراب، حتى إذا أحسوا المشقة أفطروا مستغفرين غير مجاهرين لما يترتب على المجاهرة من مفاسد شتى.

أصحاب الأعذار المؤقتة:

أما أصحابُ الأعذار المؤقتة كالحصَّادين، والقائمين فعلاً بالتدريبات العسكرية العنيفة، والناقهُ الذي يخشى نكسة المرض -ولو بغلبة الظن- والمريض بمرض طارئ مرجو الزوال، والحامل والمرضع التي تجد فرصة القضاء، والحائض والنفساء، والمشتغلين بأعمال البناء الشاقة كالفعلة والعمال الذين يشتد عليهم الجوع أو العطش بطريقة يخشون معها التلف أو التعطل عند مواصلة الصيام، كل أولئك ونحوهم يفطرون، وعليهم القضاء بلا كفارة، والأدب التستر في الإفطار مع الأسف والاستغفار.

القضاءُ والكفارةُ:

وقد أجمع الفقهاءُ على أنَّ القضاء والكفارة واجبٌ على من أتى أهله عامدًا في نهار رمضان، ثم اختلفوا فيمن أكل أو شرب عامدًا من غير عذر شرعي، ومع العلم بحرمة الشهر، فقال الأحناف والمالكية: بأنَّ عليه القضاء والكفارة كذلك، وللشافعية في ذلك قولان، أنفعهما ما وافق الأحناف والمالكية، تعظيمًا لحرمات الله وتربيةً للنفوس المستهترة.

والكفارةُ عتقُ رقبة، فإنْ لم يجد فصيامُ شهرين متتابعين، غير يوم

القضاء، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينًا من أوسط طعام أمثاله على الأصح، ويرى بعضُ أشياخنا أن يُقدر ثمنُ الرقبة على فرض وجودها في عصرنا، وأن يخرج ثمنها لمصارف الزكاة، أو للمساكين عامة، كلما كان قادرًا على ذلك تأديبًا له.

الصِّيامُ مع ترك الصَّلاة:

الصَّلاةُ أولُ فرض في الإسلام بعد الشَّهادتين، وقد فُرضت في كل يوم خمس مرات لأهميتها، لأنها فرق ما بين المسلم وغير المسلم، كما جاء في الحديث، ولهذا لم تسقط عن أحد في صحة ولا مرض، ولا سفر ولا حضر، فمن صام ولم يُصلِّ، معتقدًا عدم أهمية الصلاة، فلا صوم له، لأنه استهان بأعظم أركان الإسلام، فإن هو جحد الصلاة فقد كفر، ولم ينفعه صلاة ولا صيام، نعم هذا ركن قائم بذاته، وذلك ركن قائم بذاته، ولكنهما متلازمان في بناء الإيمان، وربُّ الصلاة والصيام واحد، والإسلام كلٌّ لا يتجزأ، فالاستهانةُ بركن منه استهانةٌ بكل الأركان، ومن أهمل بعضه لا يقبل منه البعض الآخر، ولو أنَّ حدود الإسلام قائمة لنال فاعل هذا شر الجزاء.

ثلاثُ طُرفٍ رمضانية:

الأولى: عن عدي بن حاتم ﵁ قال: «**لما نزلت آية** ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧] **عَمَدْتُ إِلَىٰ عِقَالٍ أَسْوَدَ وَإِلَىٰ عِقَالٍ أَبْيَض فَجَعَلْتُهُمَا تَحْتَ وِسَادَتِي فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ فِي اللَّيْلِ فَلَا يَسْتَبِينُ لِي فَغَدَوْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرْتُ**

لَهُ ذَلِكَ فقَالَ ﷺ : إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار» .

الثانية : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «**بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ هَلَكْتُ قَالَ ﷺ : مَا لَكَ؟ قَالَ وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي وَأَنَا صَائِمٌ فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تُعْتِقُهَا قَالَ لَا قَالَ فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ قَالَ لَا فقَالَ فَهَلْ تَجِدُ إِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا قَالَ لَا قَالَ فَمَكَثَ النَّبِيُّ ﷺ فبينما نحن على ذلك أُتِيَ النبي ﷺ بِعَرَقٍ فِيهَا تَمْرٌ وَالْعَرَقُ الْمِكْتَلُ -يعني وعاء به تمر- قَالَ ﷺ أَيْنَ السَّائِلُ ؟ فقَالَ أَنَا . قال ﷺ : خُذْهَا - يعني التمر - فَتَصَدَّقْ بِهِ فقَالَ الرَّجُلُ أَعَلَى أَفْقَرَ مِنِّي يَا رَسُولَ اللهِ فَوَاللهِ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا - يعني طرفي المدينة- يُرِيدُ الْحَرَّتَيْنِ أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حتى بدت نواجذه ، ثم قال : أطعمه أهلك»** .

الثالثة : عن أبي أيوب الأنصاري أنَّ رسول الله ﷺ قال : «**مَنْ صَامَ رمضانَ وأتبعَهُ ستًّا من شوال ، كان كصيام الدهر أو كمن صام السنة كلها»** .

ومعنى هذا أنَّ الحسنة بعشر أمثالها ، فيكون صيام رمضان كصيام عشرة أشهر ، ثم يكون صيام ستة أيام من شوال مضروبًا في عشرة بستين يومًا ، أي بشهرين ، فهذه اثنا عشر شهرًا بعام كامل ، فإذا هو واظب عمره على صيام كل رمضان مع ست من شوال كان كمن صام الدهر ، يعني طول عمره المطالب فيه بالصيام .

الدعاءُ عند رؤية الهلال :

مما أخرجه الترمذيُّ وابنُ حبان والطبراني في الكبير والأوسط وأبو داود عنهﷺ ، نستخرج الدعاء الآتي جامعًا لألفاظهم المتعددة في رواياتهم المختلفة ، ولعله يكون من أجمع ما يدعو به المسلم عند رؤية الهلال بعامة ، وهلال رمضان بخاصة يقول :

«اللهمَّ أهِلَهُ وأدخله علينا بالأمنِ واليُمنِ والإيمان ، والسَّلامةِ والإسلام ، ورضوانٍ من الله ، وحَذارٍ من الشَّيطان ، والتوفيق لما تحبُّ وترضى ، هلالُ خيرٍ ورُشدٍ ربي وربك الله ، آمنتُ بالذي خلقك ، الحمدُ لله بدأكَ ثم يعيدك ، اللهمَّ إني أسألك من خير هذا الشَّهر ، وأعوذُ بكَ من شرِّهِ ، وأعوذُ بك من شرِّ القَدَرِ ، ومن سُوء المحشر ، الحمدُ لله الذي ذهب بشهر . . . وجاء بشهر . . . الله أكبر ولا حول ولا قوة إلا باللهﷺ » .

الدعاءُ عندَ الإفطار :

ومما أخرجه أبو داود ، والنَّسائيُّ ، والحاكمُ ، وابنُ السُّنيِّ ، وابنُ ماجه ، عنهﷺ ، نستخلص الدعاء الآتي عند الإفطار ، ولعله يكون كذلك من أجمع الأدعية في هذا المقام ، يقول :

«اللهمَّ لك صُمْتُ ، وعلى رزقك أفطرتُ ، وبك آمنتُ ، وعليك توكلتُ ، فتقبلْ منِّي ، إنك أنت السميعُ العليمُ ، الحمدُ لله الذي أعانني فصمتُ ، ورزقني فأفطرتُ ، ذهب الظمأُ ، وابتلت العروقُ ، وثبت الأجرُ إن شاء الله ، اللهمَّ إني أسألك برحمتك التي وسعت كلَّ شيء أن تغفر لي ذنوبي» .

الدعاءُ لمن أفطر عندهم :

أخرج أبو داود، وابن ماجه، وابن حبان : أنَّ رسول اللهﷺ أفطر يومًا عند سعد بن معاذ فقال : «**أفطرَ عندكُمُ الصَّائمون، وأكلَ طعامَكُمُ الأبرارُ، وصَلَّتْ عليكم الملائكةُ الأخيار، [وذكركم الله فيمن عنده، اللهمَّ أطعمْ مَنْ أطعمنا، واسقِ مَنْ سقانا، اللهمَّ باركْ لهم فيما رزقتهم، واغفر لهم وارحمهم]**» .

الدعاء في ليلة القدر :

أخرج الترمذيُّ، والنسائيُّ، وابنُ ماجه، عن عائشة قالت : يا رسول الله إنْ علمتُ ليلة القدر ما أقول فيها ؟ قال : **قولي** : «**اللهمَّ إنك عَفُوٌّ تحبُّ العفو، فاعفُ عنِّي**» .

قال أبو بكر بن العربي : ينبغي لمن ظفر بليلة القدر، أن يسأل إجابة الدعاء ؛ ليظفر بكنز ينفق منه أبد الآباد .

وقال الشَّافعيُّ : يُستحبُّ أن يُكثرَ فيها من الدعوات بمهمات المسلمين .

وفقنا الله . .

***

إجاباتٌ إجماليةٌ هامةٌ على أسئلةٍ صوفيةٍ عامةٌ[(١)]

التَّصَوفُ جَاءَ بِهِ الوحيُ السَّماويُّ [(٢)]:

القائلون بأنَّ التصوف بدعة، أو منكر مفتعل في الدين، أظنهم لا يعنون أبدًا تصوفَ المسلمين، وإنما يعنون هذا الرُّكامَ المتنافر من الفلسفات الإلحادية، والمذاهب الانحلالية بما فيها من النزوات والنزغات التي وفدت مع التبطن والشُّعوبية، والقرمطة، والتسلل الانحرافي بمختلف مستوياته، ثم اندست في خضم هذا العلم، وليس هذا بمنطبق أبدًا على التصوف الإسلامي النقي، ولا على الصفوة من رجاله بحمد الله.

ولا نحبُّ أنْ ندافع هنا عن أشخاص بالذات، ولكننا نحبُّ أن نُحسنَ الظنَّ بالناس، وأنْ نتأول المنسوب إليهم، ما دام إلى ذلك سبيلٌ من معقول أو منقول، ونرى أنَّ التحوط في مثل ذلك هو مقتضى الأدب والعلم والحكمة.

وحين لا يكون إلى تأول من سبيل فهم بَشَرٌ يجتهدون، فيخطئون أو

---

(١) مقال غرة شوال سنة (١٣٨١هـ)- ٧مارس (١٩٦٢م)، العدد الثالث -السنة الثانية عشرة.

(٢) كثرت الأسئلةُ الصُّوفيةُ على السيد الرائد، رغم ما يتولى الإجابةَ عليه بصفة شخصية، وقد وعد غير مرة بالعودة إلى نشر الإجابات التي يرى أنَّ في نشرها نفعًا عامًّا، وهذه دفعة أولى من هذه الإجابات، ومن قراءتها تعرف الأسئلة نفسها، وسنوالي إن شاء الله نشر بقية الإجابات بترتيب ورود الأسئلة، فليطمئن الإخوان. ا.هـ (المسلم).

يصيبون ، وحسابهم على الله ، والخطأُ لا يخرج المخطئَ من دين الله ، ولا يحرمه فضل الله ، وكونه أخطأ في جانب ، لا يمنع أنه أصاب في جوانب .

وفي الحديث المشهور بالبخاري ومسلم : أنَّ جبريل جاء يعلم الناس مراتب الدين الثلاثة : الإسلام ، والإيمان ، والإحسان . وقد اتفق السلف والخلف على تسمية مقام الإحسان باسم التصوف ، فيكون معنى هذا أنَّ التصوف مؤَسَّسٌ بالوحي ، وأنَّ الطريقة الصوفية الشرعية مما نزل به وحي السماء من هذه الوجهة .

ثم إذا عرفنا أنَّ موضوع التصوف هو تصحيح العبودية للرحمن بالتحقق بأوصاف عباده **عِبَادِ الرَّحْمَنِ** ، مع معاناة الإيمان بالغيب ، وممارسة ما أمر به الله في كتابه من نحو الذكر ، والصبر ، والمحبة ، والتوكل ، والتوبة ، والإيثار ، والمجاهدة المرتبطة بأحوال النفس ، والتطهر من نقائص الحسد والمكر ، ومختلف الرذائل ، ودراسة أحوال الولاية والصديقية ، ورعاية الأنفاس ، وحفظ القلوب ، وما إلى ذلك مما يتعلق إجمالاً وتفصيلاً بالفضائل والعبادة ، والسلوك ، وقدس الغيب ، وحقوق الألوهية .

إذا عرفنا أنَّ هذا جميعًا من القرآن الكريم ، قلنا أيضًا : بأنَّ التصوف أو الطرق الشرعية قد أسسها الوحي السماوي مرتين ، مرةً بالقرآن ، ومرةً بالحديث كما رأيت ، وما أسسه الوحي فهو دين الله .

والوحيُ لا يؤسس الأمور لتُهمَلَ وتتهم ، ولكن لتُمارس وتحترم ، ولا علينا من تسمية هذا المستوى الإسلامي الأعلى بالتصوف أو الطريقة أو

غير ذلك ؛ فهذه اصطلاحات ، لا تتأثر بها حقائق المسميات وماهياتها .

ثم إنَّ مراتب الدين التي فصَّلها الوحي في الحديث المتفق عليه كما قلنا ثلاث :

أولها : الإسلام وقد تكفل بخدمته علماءُ الفقه في مسائل العبادات والمعاملات .

وثانيها : الإيمان وقد تكفل بخدمته علماء العقائد في مسائل التوحيد والسمعيات .

وثالثها : الإحسان ، وقد تكفل بخدمته علماء التصوف في مسائل السلوك والآداب العامة والخاصة ، وأحوال القلوب .

ومرجع ثلاثتها بالضرورة الفطرية إلى علوم التفسير والحديث ، ومقتضاهما من العلوم الأخرى أي إلى الكتاب والسنة وعلومهما ، وبهذا يثبت ثبوتا علميًّا قاطعًا أنَّ البدعة كل البدعة ، وأنَّ المعصية كل المعصية إنما هي في ترك التصوف ، وفي الدعوة إلى تركه وفي الحملة الآثمة عليه وعلى رجاله الأبرار ، من حيث إنه عبادة وخُلُقٌ وسلوكٌ جاء بها الكتاب والسنة كما رأيت .

الحقيقةُ والشريعةُ أيضًا :

وكلاهما شيءٌ واحدٌ ، فالشريعة نظامُ ظاهر الشرع ، والحقيقة إدراك التزامات أسراره وحكمه ، وممارسة أهدافه وآثاره ، وقد قلنا : إنَّ نسبة الحقيقة إلى الشريعة كنسبة الروح إلى الجسد ، وهي نسبة الماء في العود ، ونسبة الثمرة إلى الشجرة .

قال السيوطي : نسبة الحقيقة إلى الشريعة ، نسبة علم المعاني والبيان إلى علم النحو ، فهو لَطَائفُهُ ومتعُهُ وسِرُّهُ ولذائذُهُ وجمالُهُ، فالنَّحويُّ يحكم بصحة قول الشاعر :

«وليس قرب قبر حرب قبر»

ولكنَّ علماء البلاغة يرون هذا الكلام فاسدًا لا جمال فيه ولا قوة .

وقال العِزُّ بنُ عبد السلام : معرفةُ أحكام الظواهر معرفةٌ لجلِّ الشرع ، ومعرفة أحكام البواطن معرفة لِدِقِّ الشرع ، ولا ينكر شيئًا منهما إلا كافر أو فاجر .

وقال الغزالي -يضرب المثل- ما جملته : إنَّ المتشرع يحكم بصحة الصلاة بمجرد أداء هيكلها الظاهري ، أما المتحققُ فلا يحكم بصحتها إلا مع الخشوع والتدبر والحضور ، وإلا فهي عنده فاسدة ، وإن كان ظاهرها سليمًا .

وإذن فلنعد إلى القول بأنَّ الدين شيءٌ واحد، هيكله وظاهره هو الشريعة ، ولبُّهُ وباطنُهُ هو الحقيقة ، فلا قيام لشريعة بغير حقيقة ، ولا قيام لحقيقة بغير شريعة ، فهما متلازمان أبدًا ، ولا تنافيَ ولا اختلافَ بينهما على الإطلاق ، ولا غنى لأحدهما عن الأخرى . وبهذا قال الشيخ شلتوت أخيرًا فيما نقلناه عنه بهذا العدد .

والقائلُ بغير هذا ليس صوفيا مسلمًا، وإن تمسلم، والاحتجاج بقصة الخضر هنا مغالطة خبيثة قد تصل إلى الزندقة، فليس كل متشرع هو موسىٰ، وليس كل متحقق هو الخضر، فكونوا كما كان الخضر، نصبر معكم كما صبر موسىٰ معه.

والاحتجاج بهذه القصة احتجاج بالأخصِّ على الأعمِّ وهو باطل، أو احتجاج علىٰ شريعة الإسلام بشريعة الخضر التي نسخها الإسلام، وهو أشدُّ بطلانًا.

وكلُّ ما يؤخذ من هذه القصة أنَّ لكل حق حقيقة، ولكل ظاهر باطنًا، ومن وراء كل أمر سرًّا، وأنَّ العقل أصغر من أن تكون له الإحاطة، وأنَّ لكلِّ صاحب مقام علمًا لا ينبغي لصاحب المقام الآخر، هذا هو تصوف المسلمين، وإنما إثمه على الذين يبدلونه.

الأخيارُ والأبدالُ والنُّجباءُ:

أخرج الطبرانيُّ، وأبو نعيم، وابنُ عساكر عن ابن عمر ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «**خيارُ أمتي في كُلِّ قرنٍ خمسمائة، والأبدالُ أربعون، فلا الخمسمائةُ ينقصون، ولا الأربعون، كلما مات رجلٌ أبدلَ من الخمسمائة مكانه. قالوا: يا رسول الله: دلنا علىٰ أعمالهم. قال: يعفُون عمن ظلمهم، ويحسنون إلىٰ من أساء إليهم، ويتواسون فيما آتاهم الله ﷻ**».

قلنا: والأخيار الخمسمائة، هم المتفق علىٰ تسميتهم عند الصُّوفية بالأقطاب يعني صفوة الأولياء.

وأخرج أحمد في مسنده عن شُريح قال عليُّ بن أبي طالب ﵁: سمعت

رسول الله ﷺ يقول : «**الأبدالُ بالشَّام، وهم أربعون رجلاً، كلما مات رجلٌ أبدلَ الله مكانه رجلاً، يُسقى بهم الغيثُ، ويُنتصرُ بهم على الأعداء، ويُصرف عن أهل الشَّام بهم العذاب**» .

وأخرج الطبرانيُّ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**لا يزال أربعون رجلاً من أمتي قلوبهم على قلب إبراهيم ؛ يدفع الله بهم عن أهل الأرض، يُقال لهم الأبدال، إنهم لم يدركوها بصلاة ولا صوم ولا صدقة. قالوا : يا رسول الله فبم أدركوها. قال : بالسخاء والنصيحة للمسلمين**» .

وأخرج الطبرانيُّ في الأوسط عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**لن تخلو الأرض من أربعين رجلاً، فبهم تُسقون، وبهم تُنصرون، ما مات رجلٌ إلا أبدل الله مكانه آخر**» .

وأخرج أحمد في المسند بسند رجاله رجال الصحيح عن عبادة بن الصامت قال : «**الأبدال من هذه الأمة ثلاثون، مثل إبراهيم خليل الرحمن، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلًا آخر**» .

وأخرج ابن عساكر عن علي بن أبي طالب قال : «**الأبدالُ من الشَّام، والنُّجَبَاءُ من أهل مصر، والأخيار من أهل العراق**» .

ومن مجموع هذه النصوص التي يعتضد بعضها ببعض، فتأخذ الرتبة التي تستعلي عن الطعن والتجريح في مثل موضوعها يتبين أن :

أولًا : من عامة الصُّوفية الصَّادقين يختار الله السَّادةَ وهم المفردون، الذين يأتون يوم القيامة خفافًا كالغمام لا يحصيهم عدد، كما جاء في

الجامع الصغير وغيره، وأولئك هم الأولياء.

ثانيًا: من المفردين يختار الله الأخيار الخمسمائة، ولفظ الأخيار فيه معنى الاختيار والاصطفاء، وهؤلاء الأخيار هم أقطاب الأمة، فهم خلاصة الأولياء المفردين.

ثالثًا: من الأخيار الخمسمائة وهم الأقطاب يختار الله الأبدال وهم بين ثلاثين أو أربعين رجلًا، كلما مات منهم رجل بدّله الله برجل آخر من الخمسمائة.

رابعًا: من الأبدال يختار الله النجباء، وهم الأربعة الخواص من أهل القطبانية العظمى.

خامسًا: من الأربعة الخواصِّ يختار الله الغوث، الذي هو وارثُ المقام المحمديِّ حالاً وفِعَالًا ومقالًا، ويُسمَّى الغوث؛ لأنَّ الله يغيث العباد ببركته وتوجهاته، ولأنَّ المستغيث به إلى الله مستجابُ الوسيلة.

وكما أنَّ هذا الغوث عندهم هو وارث المقام المحمدي الأعظم فهم يقولون: إنَّ الأقطاب الأربعة كل منهم وارث للمقام الروحي لواحد من الخلفاء الأربعة: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ - رضي الله عنهم أجمعين - كما أنهم يقولون: إنَّ بقية الأقطاب على أقدام بقية الخيرة من الصحابة رضي الله عنهم جميعًا، وإنَّ هؤلاء الصفوة كانوا على أقدام الأنبياء والمرسلين.

ثم إنَّ طبيعة التفاضل تقتضي أنه لا بُدَّ من رجل يكون على منزلة هي أفضل منازل أهل عصره، فهو سيد هذا العصر، وصاحب وقته، وهو

الذي يسميه الصُّوفية القطب الأعظم أو الغوث، ولا يعنينا التسميات، بقدر ما تعنينا الحقيقة الفعلية الواقعة.

وليس أحد ملزمًا باعتقاد هذا الترتيب؛ فبعضُ السَّادة يخالف عنه بحسب ذوقه وحاله، وكشفه ومقامه، كما لا يكون اعتقاده إثما كذلك، ولكنه أمر متسق مع السُّنن الكونية، ومؤيد بالخبر النبوي، والإدراك الصحيح، وكل امرئ حرٌّ فيما اختار لنفسه فيه إلا في إنكاره نهائيا، فتلك مجازفة علمية وواقعية لا تنبغي لأهل الحق، ولا تكون من العلماء بأية حال، وإنما هي من التعصب والجمود العقلي، والتخلف العلمي والروحي، ومن عمى البصائر والقلوب.

وقتُ الوردِ الأسبوعيِّ:

وأما أنَّ بعض الشَّاذلية والتجانية يلازمون الورد الأسبوعي بعد عصر الجمعة بصفة خاصة، فدليلهم ما نقله المنذري عن أحمد قال: أكثرُ الحديث في الساعة التي ترجى فيها إجابة الدعوة أنها بعد صلاة العصر، وثمت آثار ثابتة تدل أيضًا على أنها بين العصر والمغرب.

وأفضل الدعاء الذِّكر، أخرج الترمذيُّ وغيره: «**يَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ**».

وهكذا يختم هؤلاء المتعبدون أسبوعَهم السابق بعبادة، وفي الوقت نفسه يستقبلون الأسبوع الجديد بنفس العبادة رجاء غفران ما مضى، وإصلاح ما بقي.

ومعروف أن أوثق الأحاديث في الصلاة الوسطى أنها صلاة العصر،

فهذا الوقت من الأوقات المشهودة في أيام الأسبوع بعامة ، وفي يوم الجمعة بخاصة .

ثم إن هذا الوقت وقت الأصيل ، الذي كلفنا الله تعالى بذكره فيه حيث يقول عزَّ شأنه : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الإنسان :٢٥] وقد تكرر في القرآن هذا المعنى على صور متعددة .

وليس الناس ملزمين بإدراك الصواب ، ولكنهم ملزمون بتحري الصواب ، ومن هنا لم يكن قول مجتهد مفروضًا على مجتهد آخر ، وهذا هو السرُّ في أنَّ شيئًا يكون مندوبًا في مذهب ثم يكون هو هو مكروهًا في مذهب آخر . واختيار وقت الورد الأسبوعي من هذا الباب .

ولو لم يكن فيه إلا صرف العبد عن اللهو ، مع الركون إلى الله في هذا الوقت لكفى وشفى .

أصلُ السُّبحة عند الصوفية :

جاء في صحاح الأحاديث تَكرارُ الندب وتكرار الحثِّ على الذكر والتسبيح والتحميد وغيره بأعداد مخصوصة ، ثلاثة أو سبعة أو عشر ، أو أحد عشرة ، أو ثلاثة وثلاثين ، أو سبعين أو مائة . . . إلخ كما هو ثابت في أحاديث متعددة صحيحة كلها ، وما زاد على ذلك فهو مأخوذ عن الصحابة والتابعين والسَّلف بأدلتهم الثابتة .

وليس كل الناس قادرًا على أن يسبح التسبيحات الكثيرة ، بالقدر المطلوب عدًّا على أصابعه ؛ لاختلاف القدرات والاستعدادات ، وبعض الناس لو ذهب يعدُّ على أصابعه لصرفه ذلك عن الأصل في الذِّكر ، وهو

التأمل والاستغراق والتحقق بما يقول حتىٰ يندمج في أنوار الفيض والمدد. فكان لا بد من وسيلة للجمع بين الحصر وبين التأمل والتحقق والانتفاع بالعبادة.

وقد ثبت أنَّ النبيﷺ دخل علىٰ بعض نسائه، وبين يديها حصىً تعدُّ به الذكر فسألها: هل لا زلت على الحال التي تركتك عليه؟ ومعنىٰ هذا أنه رأىٰ بين يديها الحصى الذي تعد به، وهو خارج من داره، ثم رآه وقد عاد إلىٰ داره مرة أخرىٰ ولم ينكر عليها ذاك ﷺ.

ثم علمها رسول اللهﷺ صيغة تتعبد بها فيجتمع لها الخير الكثير، وليس في هذا الحديث سندًا أو متنًا طعن لطاعن، وجاء نحوه من طرق متعددة، وألفاظ مختلفة، فكان هذا هو أصل السُّبحة في الإسلام.

وقد أخرج الإمام أحمد في الزهد عن القاسم بن عبد الرحمن قال: كان لأبي الدرداء نوىً من نوىٰ العجوة في كيس، فكان إذا صلى الغداة أخرجهن واحدة واحدة، يسبح بهن حتىٰ ينفدن.

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري: أنه كان يسبح بالحصىٰ.

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وأخرج أبو نعيم في الحلية: أنه كان لأبي هريرة خيط عقد فيه ألفا عقدة، فلا ينام حتىٰ يسبح به.

وفي مسند الفردوس عن عليٍّ مرفوعًا: **نعم المذكرُ السُّبحة**.

وللسيوطي رسالة خاصة في هذا الباب سماها المنحة في اتخاذ السبحة.

ومن هذه الأحاديث نستخلص :

أولًا : أنَّ السنة الثابتة جاءت بعبادة محصورة في عدد خاص ، يجب أن تؤدىٰ كما جاء بها الإذن ، لما في ذلك من أدب الطاعة وسرِّ العدد .

ثانيًا : ليس كل الناس قادرًا على العدِّ علىٰ يديه ، مع استجماع الهمة والاستحضار ، فكان مما لا يتمُّ الواجب إلا به اتخاذ سبب ووسيلة يتحقق بها الجمع بين العدد وفقه القلب ، فكانت السبحة .

ثالثًا : كان ممن اتخذ هذه الوسيلة بعض زوجات النبيﷺ التي كانت تعد ذكرها على الحصىٰ ، وقد رآها النبيﷺ غير مرة فلم يمنعها ، فأصبح اتخاذ وسيلة العدِّ سنةً إقرارية مستحسنة الاتباع .

رابعًا : فَهِم الصحابة - وعنهم أخذنا الدين بعد رسول اللهﷺ - أنَّ الباب واسعٌ فاتخذ بعضهم للعدِّ كيس النوىٰ ، واتخذ البعض الآخر الخيط المعقد ، حتىٰ لا ينشغل بالعدد عن المدد الذي هو هدف الذكر والعبادة .

ثم تطورت الوسائل إلى السُّبحة المعروفة الآن ، وربما اتخذها بعضهم من خامة غالية الثمن ، فإن كان يريد بذلك تمجيد العبادة وتذكير نفسه بها ، فلا نعلم بذلك بأسًا والأعمال بالنيات ، وإن كان يريد بذلك شهرة ورياء ولفتا لنظر الناس وعبثا بأداة العبادة ، فإثمه عليه ، ولكل امرئ ما نوىٰ .

وقد كان من وصايا أشياخنا أن يجعل الرجل يده وسبحته في جيبه ، ويذكر بقلبه أو لسانه ، ويعدُّ ، لا يراه أحد ، ولا يحسُّ به حتىٰ مَنْ معه ، اللهم إلا إذا كان في محارمه وإخوانه فلا عليه أن يخرج مسبحته ليؤدي

عليها راتب العبادة ؛ منعًا من أن يحبط عمله بالرياء ، وعبث الشيطان .

ومن المضحك المبكي أن تُنصب الآن المعارك القلمية في بعض الصحف من الفارغين والجامدين والحمقىٰ ، ليشغلوا الناس بـها إذا كان استخدام السبحة جائزًا أو غير جائز ، وحولهم الدنيا تمور وتفور بمتلاحق الفواجع والبلاء المحيق بالدين والوطن ، ثم لا تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا .

الإنشادُ الصوفيُّ سُنَّةٌ نبويةٌ :

أخرج الشيخان في صحيحيهما عن البراء بن عازب : أنَّ النبيﷺ كان ينشد يوم الخندق من شعر عبد الله بن رواحة :

والله لــولا الله مــا اهتــدينا ولا تــصدَّقنا ولا صــلَّينا
فــأنزلنْ سكينـــةً علينـــا وثبــتِ الأقــدامَ إنْ لاقينــا

روىٰ البخاريُّ : أنَّ النبيﷺ كان يمدُّ صوته بالكلمات الأخيرة من المقطع فيقول : لاقينا . أبينا . وكان الصحابة يرددون عليه إنشادهﷺ فتأمل وتأمل .

وفي هذا الحديث وحده غناء – أي غناء – وكفاية – أي كفاية – وإقناع – أي إقناع – في بيان جواز الإنشاد الفردي كما كان يفعل النبيﷺ ، والإنشادِ الجماعيِّ كما كان يردد عليه الصحابة .

ومعنىٰ هذا أنَّ الإنشاد الفردي بالتلحين والإنشاد الجماعي به ، كلاهما سنة نبوية فعلية ثابتة ، وأنَّ رسول اللهﷺ هو إمامُ المنشدين المسلمين ، أفرادًا كانوا أو جماعات ، ولعل وراثة هذا المقام هي السبب في النجاح

الأكبر الذي كان يصادفه المنشدون الدعاة، من أمثال ذي النون المصري ورابعة وأضرابهما، وممن كان يدعو إلى الله بجهاده وإنشاده .

والحديث المذكور متفق عليه بين الشيخين البخاري ومسلم، وهما صاحبا أصحِّ كتابين نأخذ عنهما ديننا بعد كتاب الله ﷻ، فالحديث في أعلى مراتب الصحة، ولا حاجة بعده إلى دليل في هذا الباب .

ومع ذلك فقد ثبت أنَّ ابن رواحة كان يغني حاديا للعيس بين يدي النبيﷺ وقصة غنائه عند منصرفه من خيبر، وقول النبي له إعجابا وتدليلًا : رفقا بالقوارير . يريد بالقوارير النساء المصاحبات للركب؛ فإنهن أضعف من احتمال هزات البعران، وهي تنتشي مأخوذة بجمال الإنشاد لحنا وصوتا .

كل ذلك ثابت، وثابت معه غناء أنس وإنشاده مما يمنح مزيدًا من القطع بسُنية الإنشاد الفردي بحده الشرعي .

وإلى جانب ذلك ما ثبت من تغني جماعة الصحابة وإنشادهم أثناء إقامة المسجد النبوي بقولهم :

اللهم إن العيش عيش الآخره فبارك الأنصار والمهاجره

أو كما كانوا يقولون .

ثم ما ثبت من استقبال أهل المدينة لهﷺ بالنشيد المشهور :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

ففي هذا وذاك جديد من تعزيز الدليل على سُنية الإنشاد الجماعي شأن

الإنشاد الفردي سواء بسواء، كلاهما سنة نبوية فعلية أو إقرارية.

وبجوار ذلك مسألة جمال الصوت بالتلحين، فإنها ثابتة في الصحاح من قصة ابن مسعود في التلاوة، وقصة بلال وأبي محذورة في الأذان، وقصة ابن رواحة وأنس في الحداء والإنشاد، ولا أحسبني بعد هذا بحاجة إلى تفريع الكلام في هذا المقام، وما جاء به في باب الإنشاد والسماع من كلام.

حُكْمُ الشِّعرِ الصُّوفيِّ في الإسلام:

ولم يقلْ أحدٌ بحرمة الشِّعر في الإسلام، حتى يُقال: إنَّ تعاطي الصوفية للشعر خروج على مبادئ الإسلام، بل إنَّ قول الشعر وسماعه سنة نبوية محققة؛ فقد استشهد الرسول ﷺ بالشعر، وأجراه الله على لسانه غير مقصود في مثل قوله ﷺ:

أنــا النبــيُّ لا كــذبْ أنا ابنُ عبــدِ المطلــبْ

ومثل قوله ﷺ:

إنْ أنتِ إلا أصبعٌ دميت وفي سـبيل الله مـا لَقيـتِ

فلو كان الشعر رجسًا ما أجراه الله على لسان النبي ﷺ، وهذه إجازته ﷺ كعبًا على شعره ببردته التاريخية المشهورة، ثم نصبه المنبر لحسان في المسجد ليلقي الشعر من فوقه مع دعائه ﷺ لحسان، وتأييده وتشجيعه له ﷺ، وقوله: **إنَّ من الشعر لحكمة**... إلخ.

فكل ذلك دليل على سنية سماع الشعر وقوله، والشعر كلام من الكلام حسنه حسن، وقبيحه قبيح.

أما الآية ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء :٢٢٤] ففيها التنديد بنوع خاص من الشعراء الآثمين الذين يناوءون دعوة الله، وليس فيها أي مساس بالشعر نفسه، وبجوار التنديد بهؤلاء الشعراء الذين يتبعهم الغاوون، والذين هم في كل واد يهيمون، والذين يقولون ما لا يفعلون، فيها التمجيد بالاستثناء للشعراء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذكروا الله كثيرًا، مدافعين عن دعوته في شعرهم، وانتصروا لدينهم ولرسولهم بشعرهم ذاك من بعد ما ظُلموا من الشعراء وغير الشعراء، وبجوار التنديد والتمجيد تهديدٌ ووعيدٌ يرفع رتبة التنديد والتمجيد في قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء :٢٢٧].

هذا هو صريحُ الآية تنديدٌ بالشُّعراء الذين لا تقيدهم قِيَمٌ ولا مُثُلٌ ولا مبادئ ولا دعوات، وتمجيد للسالكين المجاهدين منهم، حتى لقد قال ابن كثير: إنَّ المراد بالشعراء في هذه الآية هم الكفار بالذات، وهو رأي عليٍّ بن طلحة عن ابن عباس، ومجاهد، وعبد الرحمن بن زيد وجماعة.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس :٦٩] فليس فيه المساس بالشعر كقيمة أدبية أو فنية، بل فيه ارتفاع به يجعل مستواه أعلى مستوى تستطيعه البشرية، ثم يجعل القرآن فوق هذا المستوى الأعلى حيث ﴿نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل :١٠٢] وليس سواءً ما يصعد من الأرض، وما ينزل من السماء.

ومـا يقال هنا، يقال في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾[الحاقة :٤١] ونفيُ الشاعرية عن النبيﷺ هنا ضرورية؛ لإثبات أنَّ ما يقوله إنما هو من عند الله، على عكس ما يقوله الشاعر، فإنه من أثر العبقرية والذكاء

والتوفيق، وفرق هائل بين العبقرية والنبوة، وأظنُّ الأمر قد وضح بعدُ، فسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

***

هَدِيَّتان إلَى وزيرِ الشئونِ الدينيةِ ثمَّ إلى المسئولين، وجماهيرِ الصَّوفيةِ المسلمين(١)

أولا : المجمع الصوفي العلمي الإسلامي :

هَديةُ المسلم التي يُهديها بهذا العدد لوجه الله وحده ، إلى السيد وزير الشئون الدينية ، ثم إلى السادة المسئولين عن التصوف الإسلامي السليم ، ثم إلى جماهير الصوفية المسلمين الغيورين على هذا التراث الأعزِّ الأغلى ، بل يهديها المسلم كذلك خالصة لوجه الله إلى خصوم التصوف أنفسهم ، هي فكرة إنشاء **المجمع الصوفي العلمي الإسلامي** ، الذي يُرجى الإسراع في بحث فكرته ، والإسراع بتنفيذ تشكيله ، ولكن من صفوة أعلام علماء الصوفية العاملين .

وهنا نضع كلمة (العاملين) بكل ما تشمله من معانٍ قريبةٍ وبعيدة ، وخاصة وعامة ، بين عشرات الأقواس ، ونضع فوقها وتحتها عشرات الخطوط ، فلعل بلاء التصوف بالدخيل والدعي والمدسوس فيه من الآراء كمذهب ، أيسر خطرًا من بلائِه بالدخيل والدعي والمدسوس فيه من الناس كمجتمع .

فالتصوف كدعوة ونية وعقيدة ، وعمل وممارسة ، وغيرة وصدق ، وإيمان وإحساس ، غير التصوف كعلم وكتابة ، وكلام وخطابة ، وحرفة وتجارة ، ومظاهر وقشريات لا خير فيها على الإطلاق .

---

(١) مقال غرة ذي القعدة (١٣٨١هـ) -٦ أبريل (١٩٦٢م) ، العددالرابع - السنة الثانية عشرة .

إنني أشرط لو أنَّ هذه الفكرة أخذت طريقها إلى الوجود، ألا يكون للعامل فيها أي مقابل مادي ولا معنوي، ولا حتى الشكر، ولا حتى التقدير، وحسب العاملين فيها ثواب الله، إن كانوا مؤمنين، حتى يتميز - طوق الجهد- طلاب الدنيا من طلاب الآخرة، ولا بأس من أن يتورط بعض الناس، فيدعي نفاقًا أنه من طلاب الآخرة، وحسابه على الله.

إنَّ فكرة **المجمع العلمي الصوفي** هي آخر صيحة توجهها العشيرة إلى الصوفية المسلمين؛ لإنقاذ البقية الباقية من التصوف الإسلامي، بالوسائل العلمية المنهجية، والعملية الواقعية، فيكون المجمع هو الحصن الذي يحمي هذا الحِمَى، ويدلُّ عليه، ويرفعُ لواءَه، ويكشفُ كنوزَه، ويَنفِي خبثَه، ويُحِقُّ حقَّه، ويحطمُ ما يقيمه المغرضون، وما يبنيه الجهلةُ من حواجزَ بين التصوف ومبادئ الإسلام.

لقد همَّت العشيرةُ بأن تحوّل مجلس الفتوى فيها إلى المجمع الصوفي، وأن تدخل عليه من التجديد والتعديل ما يجعله أهلا للقيام بهذه الأمانة الكبرى، ولكنَّ العشيرة تذكرت سابق تجربتيها الخطيرتين، تجربة المؤتمر الصوفي العالمي، وتجربة الجامعة الصوفية العالمية، وما جرى في شأنهما من الوقائع المخجلة المؤسفة، التي عادت على التصوف وحده بالخسارة والضعف، حتى اجترأت عليه الفئران والصراصير.

ولهذا رأينا أن نعرض فكرة المجمع العلمي الصوفي أولاً على كل غيور على التصوف، في هذا الوقت الذي ينتهز فيه خصومُه حالةَ الاستخذاء والضعف التي تمر به، فيهاجمونه بحقدٍ وشَرَهٍ وغلٍّ وعصبيةٍ حيوانية، وبين يدي الآن آخر عدد من مجلة تصدرها الطائفة المصابة بسعار الفتك

بالتصوف ، فيوشك ألا تجد صحيفة واحدة ليس بها ضراوة الوحشية الظالمة ، تجنيًا على هذه الدعوة الإسلامية المعظمة ، شأن كل عدد من أعداد مجلة هؤلاء المتَّجِرين بمحاولات تشويه التصوف ومسخه ونسخه ، والقضاء عليه تمسكًا بمناكر مخالفات أدعيائه ، ومبتدع طقوسهم ، وألوان ترفهم ، وتمسكهم بها يرديهم ، وما يُمَكِّن خصوم التصوف ظلمًا من مقاتله ومقاتلهم ، وهم في غمرة ساهون .

والذي تَتَفَطَّرُ له نفسُ المؤمن حسرةً وضنىً ، أنك لا تجد من يتصدَّى لتحطيم هذه العوادي ، الروائح الغوادي ، إلا العشيرة المحمدية ، التي تقف في الميدان وحدها ، تصدُّ وتدافع ، وتتحدى القواصم بالحجة والإيمان .

ثم إننا قد نرى بعض السادة ينظر إليها من أعلى برجه العاجي ، أو جحره الداجي ، مستحسنًا أو مستهجنًا ، وكفى الله التصوف والعشيرة القتال .

وقد تكاد تسمع أحيانًا من غير العشيرة ، في الرد على كل هذا الخوار ، والرغاء والنهيق ، والثغاء والنباح والعواء ، الذي يلتف بالتصوف من كل جانب ، أقول تكاد تسمع أحيانًا في دفع كل ذلك الهول المزعج ، همسَ أغنيةٍ خفرة ، حالمة رقراقة ، تنطلق من بعض الأقلام كشذا العَرف ونفح الطيب ، ومنذ كم كان شذا العرف ونفح الطيب سبيلاً إلى صدِّ العواصف القاصفة الهوج ؟!

وليس أخطر على الواقع والحقيقة من تجاهل الواقع والحقيقة ، ولا من التعلق بالأمل في أنَّ قوة الحصن الصوفي وسموقه وشموخه وأصالته تمنعه من كل خطر ، هذا وهم ، هو عين الخطر ، وليس أخطر من تسليم الحصن

لأعدائه، يدافع بنفسه عن نفسه، ثم ينام خلفه أهله يحلمون بمعجزة النصر، وبغتة الخوارق، فاليقظةَ اليقظةَ، والجدَّ الجدَّ، ومن شاء فليرضَ، ومن شاء فليغضب، اللهم اشهد.

ثانيا: المعهد الصوفي الإسلامي:

أما الهدية الثانية التي تهديها مجلة المسلم إلى السيد وزير الشئون الدينية، ثم إلى المسئولين عن التصوف النقي، ثم إلى جماهيره المؤمنة، هي فكرة إنشاء المعهد الصوفي الإسلامي الأكبر، ولن يكلفَ إنشاءُ هذا المعهد جيوبَ المسئولين شيئًا، ولن يكلفَ كذلك بيتَ مال الدولة شيئًا، إنَّ التصوف نفسه هو الذي سيقوم بإنشاء معهده الأكبر، وصيانته والإنفاق عليه.

لقد بلغت حصيلة صندوق نذور السيد البدوي ﵁ وحده نحو ثلاثين ألفًا من الجنيهات خلال عام (١٩٦١م)، فإذا أُضيفت هذه الحصيلة إلى حصيلة نذور الإمام الحسين، والسيدة زينب، والإمام الشافعي، والدسوقي، والقنائي... وغيرهم، بلغت الحصيلة السنوية لهذه الصناديق أكثر من مائة ألف جنيه.

فإذا جُمدت هذه الحصيلة لثلاثة أعوام مثلاً، بلغت نحو ربع مليون من الجنيهات، وبهذا المبلغ الهائل يمكن إنشاء المعهد الصوفي الأكبر، وتأثيثه بملحقاته، ومن هذا الدخل الدائم من هذه الصناديق، يمكن الإنفاق على المعهد كما أسلفنا، وعلى صيانته وتجديداته، خصوصًا إذا نُسِّق الدخلُ تنسيقًا اقتصاديًّا، واستُثْمِر استثمارًا فنيًّا، يضمن له النموَ والاستمرارَ والاستقرار.

ولسوف يمكن الحصول على أرض المعهد تبرعًا من الدولة ، ولسوف يمكن الحصول على معوناتها الإيجابية المتعددة في هذا الجانب ، بل على معونات العالم الإسلامي .

ولسوف يمكن أن يلحق بالمعهد الصوفي بيت للصوفية ، يَلجأ إليه عاجزُهم ومريضُهم ، وذو الحاجة المضطر منهم ، فيجد المأوى ويجد العلاج ، ويجد الإعانة المنظمة ، ويجد الرعاية والكرامة والتقدير ، كما يلجأ إليه الطالب ، فيجد العلم المقرون بالعمل التنفيذي ، والممارسة الفعلية ، كما يلجأ إليه المستفتي والباحث ، فيجد الإفتاء العلمي والمكتبة الجامعة ، كما يلجأ إليه الضيف المسلم الصوفي ، فيجد قِرَاهُ الحسي والمعنوي جميعًا ، كما يُرجى أن يكون به قسم لتبليغ الإسلام والتبشير به على أسلوب السَّادة رضي الله عنهم ، كما يكون المعهد مقرًّا للمجمع الصوفي ، والرياسة الصوفية المباركة ، وعندئذ يكون رمزًا على النهضة الصحيحة ، وثورةً عمليةً في سبيل المجد والحياة والتطهير ، وتبليغ رسالة الله ودعوة الحب والسلام ، والنور المقدس .

إنَّ الفكرةَ إيجابيةٌ عمليةٌ محددةٌ ، لا سبيل فيها إلى الطعن أو الاستبعاد ، وليس للمتمطِّي أو المتجشِّي القاعد الناقد عليها اعتراض ، إلا مع ضعف الهمة ، وقصور الإيمان ، وضيق الأمل ، والغض من كل عمل عن طريق سواه .

ولقد فكر المسئولون غير مرة في شأن حصيلة صناديق النذور ، فها هو ذا الحل العملي الأصيل ، لوضع هذه الحصيلة في موضعها الديني والعلمي ، والإنساني والاجتماعي والثقافي .

لقد كانت العشيرةُ أولَ مَن وضع فكرةَ المعهد الصوفي، أيام أن أَنْشَأَت الكليةَ الصوفية ووضعت مناهجها وبرامجها، على أحدث الأساليب والتقاليد الجامعية، والتحق بالكلية عددٌ كبيرٌ مِن الطلبة، شبابًا، وكهولاً، وشيوخًا، وعَمِلَت الكليةُ سنةً دراسيةً، عملاً ناجحًا مبرورًا، ثم قامت عقبة المال بجوار عقبات أخرىٰ - يغفر الله لمن وضعها - مِن المنتسبين إلى التصوف، فكانت حركة جرَّدُوها من البركة، ورقص الشيطان فيها رقصته، فتعطل في هذه الكلية العمل إلى أجل، أو غير أجل.

وها هي ذه فكرة المعهد، كامتداد لفكرة الكلية، هدية خير هدية، يمكن بدؤها باستغلال بعض الأربطة الصوفية الأثرية، ثم تحويلها تدريجيًّا إلى الصورة العصرية، ويمكن ويمكن . . . إلخ إلخ.

وبما أن هذه الفكرة لو نُفِّذَت كانت الأولى من نوعها بالعالم الإسلامي في العصر الحديث، فإنها ستكون بالإضافة إلى مقاصدها الأولى من أكبر الدعايات العالمية لمصر الإسلامية، والجمهورية العربية المتحدة، وستكون صفعة قاتلة على أقفية الذين يحلو لهم اتهام بلدنا بإغفال النواحي الدينية والروحية، كل ذلك دون أن تكلف أحدًا من المال شيئًا، فهل إلى عمل مِن سبيل؟

توفيقًا يا رب، وهيا على اليُمن والبركة.

التَّداوي بالقرآن شريعةٌ إسلاميةٌ مقررةٌ(١)

خَالِفْ تُعرَفْ :

مما أمامي الآن من الأسئلة ، سؤالٌ من أخ من بلد إسلامي شقيق ، يستصرخ فيه الإنصافَ العلمي ، وقولةَ الحقِّ في حكم التداوي بالقرآن ، وذلك كأثر لما أحدثته كلمةٌ إذاعية لعالم مسلم مشهور ، نفى فيها نفيا باتا ، أنَّ في كتاب الله ما يتوسل به إلى الله في شفاء الأجسام والأرواح ، وقال : إنَّ القرآن كتابُ هداية ، لا كتاب علاج ، أو كما قال .

والذي نعرفه أنها شِنْشنةٌ مألوفة من كل من يدَّعي التجديد في هذه الأمة ، وشذوذٌ يتعمده كُلُّ راغب في التسلق إلى القمة من السُّلم الخلفي .

وقد جرَّبَ هؤلاء وأمثالُهُم قاعدةَ : (خَالِفْ تُعْرَفْ) ، وتأكدوا بالتجربة أنها أقرب الوسائل إلى الشهرة ، وبلوغ المآرب ، مع شيء من التملق والنفاق ومسايرة الركب وإنْ ضل ، فلم لا يبتغون هذه الوسيلة اليسيرة ، وقد ضُربت لهم الأمثال ؟

فليست المسألة هنا مسألة دين ، أو أمانة علمية ، أو إنصاف للحقيقة ، ولكنها مسألة مرض نفسي ، وشهوة فوارة مطلوب تحقيقها من أيسر الأبواب ، ونحن للدين وللعلم وللإنصاف نجمل هذا الموضوع هنا

---

(١) مقال غرة ذي الحجة (١٣٨١هـ) - ٥ مايو (١٩٦٢م)- العدد الخامس السنة الثانية عشرة .

إجمالاً فيما يأتي على اعتقادنا، وعلى ما ثبت لدينا عقلاً ونقلاً وتجربةً واقعية مكررة، ومن الله المدد.

العلاجُ البدنيُّ والرُّوحيُّ:

الطِّبُّ طِبَّان: بدنيٌّ ورُوحيٌّ، اتفقت الدنيا عليهما، علمًا ودينًا، سلفًا وخلفًا، فما من سبيل إلى إنكارهما، أو إنكار أحدهما إلا مكابرة، أو مغالطة، أو عصبية مجردة، إن لم تكن جهالة أو حماقة أو هوىً غير بريء.

ولطالما كان - ولا يزال، وسوف يبقى - الطبُّ البدنيُّ عاجزًا كل العجز أمام أمراض لا شفاء منها إلا بالطريق الروحاني، قولاً واحدًا، وكثير أولئك الأطباء الذين مرضوا - فضلا عن الكافة - فعجزوا وعجز كبار زملائهم عن علاجهم بكل ما في الطب من كفاية، ثم وجدوا -وهم الأطباء العصريون المثقفون- الدواءَ والشِّفاءَ في العلاج الروحاني وحده، ومنهم كثرة تعيش بيننا، تعترف بهذا، وتدل عليه، وتوجه إليه.

وقد آمن العلمُ الحديثُ بالطبِّ النفسانيِّ والعصبيِّ، وقرره واعتمده، وإنما الطبُّ النفسيُّ والعصبيُّ وجه من وجوه العلاج الرُّوحي ما لم ينحرف.

الإنسانُ بدنٌ ورُوحٌ:

والمسألة بسيطة للغاية؛ فالإنسانُ بدنٌ ورُوحٌ، فإذا حدث المرض، تعين أن يتلقى الجسدُ علاجَهُ المادي، وأن تتلقى الرُّوحُ علاجَهَا الرباني، ولما كانت الروح أغلبَ كان العلاج الروحي كثيرًا ما يغني عن العلاج البدني، لكنَّ الفطرة تقتضي أنْ يتلازم هذا وذاك، وتلك هي السُّنة النبوية، فقد روى ابن ماجه والحاكم، وصححه على شرط الشيخين

وسلَّمَهُ الذهبي، وجوَّده ابنُ كثير، عن ابن مسعود قالﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِالشِّفَاءَيْنِ الْعَسَلِ وَالْقُرْآنِ**».

فكان ذِكرُ العسل إشارةً إلىٰ ممارسة الدواء البدني، وذكر القرآن إشارة إلىٰ أن يجمع معه الدواء الروحاني، وفيما ورد من الطب النبوي أنماط شتىٰ من التداوي بالعلاجين البدني والروحي، يرجع إليها في كتب الحديث.

العلاج الروحاني فطرة:

وطلب الدواء الروحاني أصل من أصول الفطرة، ألا ترىٰ إلى الإنسان أي إنسان، عندما يتناول جرعة الدواء البدني ينطلق لسانه قبلها وبعدها عفوًا، كما ينطلق لسان من حوله كذلك بالدعاء له بالشفاء؟ هذا الدعاء هو العلاج الروحاني مع العلاج البدني، فإنَّ الشافي على الحقيقة هو الله لا الدواء، وما الدواء إلا سبب مجرد، تقع عنده إرادة الله بالشفاء، وكذلك الدعاء أو القرآن سبب تقع عنده إرادة الله بالشفاء، ما دام قد سبق هذا في العلم القديم.

التداوي بالقرآن توسل:

ثم إنَّ الاستشفاء أو التداوي بالقرآن لا يعدو أن يكون دعاء يبتهل به المريض أو يبتهل به لأجله غيره توسلاً إلى الشافي الأعظم سبحانه؛ رجاء أن يبرئه الله من مرضه الذي يعانيه، ولا خلاف بين المسلمين علىٰ جواز التوسل بكتاب الله، وسواء كان الدعاء منطوقًا أو مكتوبًا، أو غير ذلك، فإنما العبرة أولاً وأخيرًا بالتوجه القلبي والنية، فمتىٰ ما صحَّ هذا التوجه وصدقت النية، كان أمر الحروف منطوقة أو مفهومة أو مرقومة، أمرًا ثانويًا غير ذي بال،

فالذي نتوجه إليه بالقول هو العليم الذي نتوجه إليه بالكتابة، وهو في الحالين إنما ينظر إلى قلوب الناس لا إلى مقولهم، ولا إلى مكتوبهم.

التداوي بالقرآن سنة نبوية :

وقد روى الثعلبي بسنده عن أبي رجاء الغنوي يقول قال رسول الله ﷺ : «**من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله**» .

وروى السجزي في الإبانة والقضاعي في مسند الشهاب بإسناد حسن عنه ﷺ قال : «**القرآنُ هو الدواءُ**» .

وروى ابن ماجه بإسناد حسن في باب الاستشفاء بالقرآن عنه ﷺ قال : «**خَيْرُ الدَّوَاءِ الْقُرْآن**» .

أي في الطبِّ الحسِّيِّ والطبِّ النفسيِّ جميعًا .

ولا موجب أبدًا إلى التكلف التعسفي لصرف معنى الدواء هنا إلى الدواء المعنوي بمعنى الهداية والإرشاد، أو قصر المعنى على هذا الوجه وحده، فلا دليل عليه قط، بل إنَّ المتعين أن يكون الدواء هنا بمعنى الاستشفاء من الأمراض الحسية البدنية بالذات، أما غيرها فبالإضافة إليها، ودليله ما جاء نصًّا في رواية البخاري ومسلم وغيرهما من قصة رقية اللديغ بالفاتحة حتى برأ، وقوله ﷺ للراقي إذ استأذنه في تناول ما عرضوه عليه أجرًا للرقية بالقرآن : «**إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللَّه**» .

ثم إنه ﷺ طلب لنفسه سهمًا من أجر هذا العلاج القرآني؛ مبالغة في تأكيد شرعية هذا العلاج وتحقيق نفعه، وتسجيل سنيته والتنصيص عليه .

بعضُ آيات التداوي :

وهكذا روىٰ الدَّارميُّ والبيهقيُّ بسند رجاله ثقات قالﷺ : «**فِي فَاتِحَةِ الْكِتَابِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ**» .

وقد ورد غير ذلك في فضل الاستشفاء بآيات شتىٰ من القرآن ، كما جاء في خبر ابن مسعود حين قرأ في أُذنِ رجل مبتلىٰ أواخر سورة المؤمنون فشفي فقالﷺ : «**لو قرأ بها رجلٌ موقن علىٰ جبل لزال**» .

وكذلك وردت أحاديث صحاح ثوابت مسلَّمةٌ عند المحدثين في فضل التداوي بالإخلاص ، والمعوذتين ، والكافرون ، والآيات الأربع من أول سورة البقرة ، وآية الكرسي ، والآيات الثلاث من خواتيم البقرة ، وآية آل عمران ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾[آل عمران :١٨] وآية الأعراف ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾[الأعراف :٥٤] وآية الجنِّ ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾[الجن :٣] والآيات العشر من أول الصافات ، والآيات الثلاث من أواخر الحشر . . . إلخ ، وقد بين العلماء أنواع الأمراض الصالحة لها ، وكيفية ممارسة علاجها ، فيطلب ذلك من مظانه ، وأبوابه من كتب الحديث والسيرة المشرفة .

تخريج أحاديث التداوي بالقرآن :

ثم إنَّ أحاديث التداوي بالقرآن على المعنى الذي بيناه ، قد وردت مخرجة في جمهرة كتب السنة ، فأنت واجد ذلك مثلاً في موطأ مالك ، ومسند أحمد ، وصحيحي البخاري ومسلم ، وسنن أبي داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وصحيح ابن حبان ، ومستدرك الحاكم ، وسنن الدارقطني والبيهقي ، ومعاجم الطبراني ، ومسانيد البزار وأبي يعلي ، وزوائد الهيثمي وعبد الله بن

أحمد ، وغير ذلك مما لا موجب لتعداده ، وبعضه مما يعز وجوده أو الوصول إليه من غير أهله ، فلا يحكم عليه جاهل به .

الصحابة الذين رووا أحاديث التداوي :

وقد روىٰ أحاديث التداوي بالقرآن ، أكثر من أربعة عشر صحابيا ، منهم الراشدون كعثمان وعليٍّ ، ومنهم الفقهاء كابن مسعود وابن عباس وأُبَيٍّ ، ومنهم الحفاظ كجابر وأبي سعيد ، فلم يبق أدنىٰ شك في جواز هذا التداوي من الوجهة الفنية في الحديث النبوي ، ولا في أنه سنة قولية وعملية وإقرارية ، كما لم يبق أدنىٰ شك في حصول الفائدة به من التجربة الأكيدة المكررة ، حسيًّا ونفسيًّا .

من كيفيات العلاج القرآني

وقد ورد في السنة كيفيات وصور متعددة لهذا التداوي :

فمنها القراءة والنفث في اليد ، والمرور بها علىٰ مكان المرض ، وهو في أكثر الصحاح .

ومنها القراءة بلا نفث مع وضع اليد علىٰ موضع المرض أيضًا .

ومنها القراءة علىٰ ماء يشربه المريض ، كما نقله الحافظ ابن الجوزي وغيره عن أحمد وغير أحمد .

ومنها كتابة الآيات ومحوها بماء يشربه المريض ، كما رواه الحافظ ابن كثير عن علي بن أبي طالب ، ونقله في زاد المعاد عن جماعة من ثقات السلف ، منهم مجاهد ، وأبو قلابة ، وابن عباس وابن المسيب .

ومنها الاغتسال أو الادِّهان بالماء المبارك بقراءة القرآن عليه، كما في مناقب الإمام أحمد عن ولده صالح، تأسيسًا على ما ورد من أنَّ عائشة - رضي الله عنها- كانت تقرأ بالمعوذتين على إناء الماء، ثم تأمر به فيصب على المريض.

ومنها الاغتسال أو الادهان بالماء المبارك، بأن محيت فيه آيات كانت مكتوبة، كما جاء عن سعيد بن المسيب، وعن مجاهد في إحدى روايتيه.

قال القرطبيُّ في الأذكار في باب الآداب: ومنها إذا اغتسل بكتابته - أي كتابة القرآن- مستشفيا من سقم، ألا يصبَّهُ - يعني الماء الذي يغتسل به - على كناسة، أو في موضع نجاسة، ولا على موضع يوطأ. ا.هـ

ومنها حمل ما يكتب للمريض من آيات القرآن، كما ورد عن ابن عباس: أنه كان يكتب لذات الطلق بعض الآي والأدعية.

وقد روى أحمدُ، والترمذيُّ - وحسنه - والنسائيُّ، والحاكمُ - وصححه - عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أنه كان يعلم الكبير من أبنائه دعاءً للفزع سمعه من رسول الله ﷺ أما الصغير منهم، فكان يكتب له هذا الدعاء ويعلقه عليه.

كتب أخرى ورجال آخرون :

وكل هذه الأخبار مسندة كذلك بالإضافة إلى من ذكرنا في كتب أحمد ، وابن أبي شيبة ، ومصنف عبد الرزاق ، وكتب ابن جرير ، والخلال وغيرهم ، فلا يحاول التعليقَ على صحة إسنادها إلا متعصب ، أو مغالط ، أو مكابر ، أو ذو هوىً مغتمز ، أو جاهل متمكن .

وحسبك أن يؤكد سنيتها ومشروعية ممارستها الأئمةُ الأربعةُ ، وداودُ ، وإسحاقٌ ، وأبو ثور ، ومجاهدٌ ، وابنُ جريرٍ ، والخطابيُّ ، والمَازريُّ ، وعياضٌ ، والقرطبيُّ ، والأُبِّيُّ ، وابنُ حزمٍ ، والشَّعبيُّ ، والثَّعلبيُّ ، وابنُ أبي الدنيا ، وابنُ كثير ، والشَّوكانيُّ ، وأبو نعيم ، وابنُ الجوزي ، وابنُ القيم ، وابنُ حجر ، والنَّوويُّ ، والقسطلانيُّ ، والعسقلانيُّ ، وغيرهم من كبار الفقهاء والمحدثين والمفسرين ، والأئمة الذين لا يحصيهم عدد .

النُّشْرَةُ المنوعةُ والمشروعةُ :

وهنا يبرز ما يستشكل به بعضهم من أنَّ بعض السلف كره أن يُكتب القرآن فيمحى بماء ، فيشرب أو يغتسل به أو يدَّهن ، لأنه يشبه النُّشْرَةَ – بضم النون – وهي كلمات تكتب للمربوط عن نسائه ، فتمحى بماء يشرب أو يدَّهن به أو يغتسل ، وحديث أبي داود يقول : سُئلﷺ عن النشرة ، فقال : «**من عمل الشيطان**» .

وقد رد على ذلك الحافظ ابن عبد البر وغيره بما ملخصه :

أولًا : أن في الحديث لينًا يعني ضعفًا .

وثانيًا : أنَّ الحديث محمول على ما خرج من المكتوبات عن الكتاب والسنة ؛ إذ يستحيل أن يكون التداوي ببركة القرآن من عمل الشيطان .

وثالثًا : النُّشْرَةُ بالآيات والأدعية من جنس الطبِّ ، فهي ماء فيه فضل بركة ، كماء وضوء الرسولﷺ الذي صبَّهُ على جابر وهو مريض فشفي .

ورابعًا : أنها من جنس الرقية المرخص بها شرعًا .

وخامسًا : أنها نفع للناس ، وقد ثبت عن النبيﷺ قوله في هذا الباب : «**من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل**» .

وعلى هذا الأساس ينسحب ما ورد عن عائشة ، وابن عباس ، وابن المسيب ، وأحمد وغيرهم من جواز كتابة القرآن ومحوه وشرب مائه أو الادهان به ، أو الاغتسال بشروطه ، استشفاءً ببركته ، وإليه ذهب الجمهور ، وهو مذهب الطبريِّ ، والحافظ ، والمستغفريِّ ، وعبد الرزاق ، وابن بطال ، والمُزني وغيرهم .

تعاويذُ الإسلامِ وتعاويذُ الجاهلية :

ثم يبرز استشكالٌ آخر ، وهو ثبوت النهي عن حمل أو تعليق التمائم والخرزات والقلائد والرقى الشركية والودع والحروز وغيرها .

نقول : وهذا صحيح كل الصحة ، وهو من بقايا الشرك ، ومن الحرام ما دام من عمل الجاهلية ، اللهم إلا إذا كان المعلَّقُ أو المحمولُ شيئًا من كتاب الله ، فإنه لا يمكن التسوية بين القرآن وبين تمائم الجاهلية ، وعليه ورد حديثُ عبدالله بن عمرو هذا الصحابي الذي كان يعلق على أولاده أدعية رسول اللهﷺ دون أي نكير ؛ لأنه أدرك الفرق بين تمائم الشرك والتبرك بالقرآن ، كما أدركه مَنْ ذكرنا من السلف .

وروى أبو نعيم في الطب عن عائشة قالت : لا بأس بتعليق التعويذ من القرآن ، قبل نزول البلاء وبعده .

وثبت عن الضحاك أنه لم يكن يرى بأسا أن يعلق الرجل الشيء من كتاب الله .

وثبت مثله عن ابن سيرين ، وابن المسيب ، وأبي جعفر محمد الباقر ، فيما رواه ابن جرير ، ونقله القرطبي عن مالك ، وهو مذهب جمهور أهل العلم ، فلا ينسحب الحكم على معلقات القرآن والرقى النبوية .

وهذا ابن مسعود الذي قطع التميمة الجاهلية من عنق المرأة ثبت أنه أمرها بأن تنضح رأسها ووجها بالماء وتقرأ بسورة الإخلاص ، أي أنه أرشدها إلى الاستشفاء بالقرآن ، فلو كانت قد علقت شيئًا من كتاب الله ما قطعه ابن مسعود .

والخلاصة أنَّ تعليق التمائم الجاهلية بأنواعها حرام ، وإليها يتوجه النهي ، أما شيء من كتاب الله يحمل تبركًا واستشفاءً فحلالٌ مشروعٌ ، وهو من عمل الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم السلف الصالح التقي العالم بدينه ، المبلغ لرسالته .

رقيةُ الحقِّ ورقيةُ الباطلِ :

وقد أخرج أحمدُ ، وأبو داود ، والترمذيُّ ، والنَّسائيُّ ، والدَّارقطنيُّ بإسنادٍ صحيح في قصة عمٍّ خارجة بن الصَّلت ، حين رقى المجنون بسورة الفاتحة ، فبرأ فأعطوه مائتي شاة ، فأخبر النبيﷺ فقال : «**خذها ، فلعمري من أكل برقية باطل ، لقد أكلت برقية حق**» .

قال الشوكاني : وعلى رقية الباطل تحمل الأحاديث الواردة في النهي عن الرقى ، وعلى رقية الحق تحمل الأحاديث الواردة بالإذن فيها . ا .هـ

وصحَّ عنه ﷺ أنه قال : لا بأس بالرقى ، ما لم يكن فيه شرك ، ومن استطاع أن ينفع أخاه فليفعل .

وروى أبو بكر بن الأثرم في السنن عن سعيد المسيب موصولاً من طريقين عن قتادة قال : إنما نهى اللَّه عما يضرُّ ، ولم ينه اللَّه عما ينفع .

وأخرج القرطبي هذا الأثر في التهذيب ورفعه أبو داود في «**المراسيل**» عن الحسن .

وقد سُئل أحمدُ عمَّن يطلق السحر عن المسحور ، فقال : لا بأس به .

وثبت أنَّ النبي رقى الحسن والحسين ، ورقى المرضى ، ومن بهم المسُّ وغيرهم .

فيؤخذ من مجموع هذه الآثار وأمثالها أنَّ الاستشفاء والرقى بما جاء في القرآن والحديث مرخص به ومحثوث عليه ، وهو سنة ، لما يترتب عليه من منافع للناس .

وأما النهي الذي جاء عن الرقى والتمائم ، فإنما هو خاص بمواريث الشرك والجاهلية ، وفرق بين رقية الحق من قول اللَّه ورسوله ، وبين رقية الباطل من قول الشيطان ، ووحي الوثنية .

فالحلالُ هنا حلال سواء كان مقروءًا أو مكتوبًا ، محمولاً أو مشروبًا أو غيره ، والحرامُ حرامٌ هناك سواء كان مقروءًا أو مكتوبًا ، محمولاً أو مشروبًا ، أو غيره ، فلم يبق باب بعد للتغليط أو التخليط بحمد اللَّه .

القرآنُ شفاءٌ ورحمةٌ :

وبعد الذي قدمنا لم يبق شكٌّ في فضل مشروعية التداوي بالقرآن حسًّا ونفسًا، وعليه تحمل آياتُ الشِّفاء في القرآن، وآثارها العلاجية الواقعية المشهودة، وتلك خصيصة من خصائص القرآن، فهو شفاء للحسيات والمعنويات، ورحمة كذلك في الحسِّ والمعنىٰ، وقد أجمع السَّلفُ والخلف من المفسرين، علىٰ أنَّ في القرآن الشفاءين والدواءين والبركتين، والقول بغير ذلك تكلف سخيف، وتحكم مردود.

وليس معنىٰ هذا أننا جعلنا من القرآن كتاب تمائم ؛ فإنما هو دستور البشرية الخالد، ومرشدها الأقدس، وهديها الخاتم إلىٰ كل خير، عرف أو لم يعرف ؛ فكونه هداية بلفظه لا يتعارض قط مع كونه علاجًا ببركته.

فإنَّ مما اجتمع للقرآن من خصائص الخير والبركة هذا اللون من الاستشفاء والتداوي، والخصيصة في جانب لا تتعارض مع الخصيصة في جانب آخر، ألا وإنَّ في كتاب الله لأسرارًا - أي أسرار- حسبنا أن نشير إليها هنا، وما يعقلها إلا العالمون ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٌ﴾[ص:٢٩] ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾[الأنبياء:٥٠].

من شروط الانتفاع بالقرآن :

وإنَّ من شروط الانتفاع بالتداوي بالقرآن، والرقى النبوية أن يكون المداوي غير محترف، أهلاً للعلاج بالتقوىٰ والورع وصدق الهمة ووفرة اليقين، وحُسنِ العلاقة بالله، وإرادة وجهه.

وأن يكون المريض صادق الإيمان بفائدة هذا العلاج، كامل العقيدة

في الله مستكمل الأمل والثقة في طبيبه ، وفي الحديث : ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة . والله لا يقبل من قلب غافل عنه لاهٍ .

ويجب أن يُلاحظ الفرق الهائل بين التداوي بالقرآن والتداوي بالعزائم وخواصِّ الأعداد والحروف ، والخواتم والرياضات ، والأوفاق والطلسمات ، فهذا عالَم وهذا عالَم آخر ، وشتَّان ما هما .

ولقد جربنا ، واختبرنا ، وبحثنا ، وتعبنا فلم نجد في شيء من تلك الأشياء ما وجدناه من الخير التام العام الكامل الشامل النافع الواسع في أسرار القرآن ، وعجائب بركاته ، فمن لم يستغن بالقرآن فلا أغناه الله ، ومن لم يكتف به فلا كفاه الله ، ومن لم يستشف به حسًّا ونفسًا فلا شفاه الله ، جعلنا الله من أهل القرآن وخدمه ، والمؤمنين بأسراره وبركاته وخصائصه .

***

إجاباتٌ وفتاوى صُوفِية(١)

عُدتُ إلى بريدي، وهو في كلِّ يومٍ يزيد جديدًا من الاستفتاء، وأجد مزيدًا من الأسئلة، فأختار ما هو أعجل وأنفع لأكتب عنه، وأستأذن السادة الإخوان فيما يمكن أن يؤجَّل، فلا يتأثر موضوعُهُ بالوقت، ولا ينصرف أثره بالتأجيل، ولازلتُ أردُّ على بعض الأسئلة بكتابات شخصية.

وفيما يأتي إجابة على بعض هذه الأسئلة والاستفتاءات، وإذا مدَّ الله تعالى في الأجل أجبنا على كل ما لدينا، وما قد يَسْتَجِدُّ مِن هذا الباب، والله المستعان.

زوبعة حول رابعة :

أصدرت إحدى الجمعيات المذهبية أخيرًا بضعةَ أعداد من مجلتها، وقفًا على محاولة هدم التصوف وأهله، تحقيقًا لتكليفها ووظيفتها المعروفة، ويسألني في ذلك بعضُ أبنائي في الله، وقد قلت: إنه إفلاسٌ من معالجة الموضوعات الهامة، وفقرٌ في كفاية اختيار الأنسب والأنفع للناس، وقد كان في كل هذه الأعداد كلامٌ مكرورٌ مملولٌ عن رابعة، وعن موقف الأستاذ العقاد من الدفاع عنها، وقد كانت الزوبعة في كستبان كما يقولون، حول قضيتين صغيرتين شكلاً وموضوعًا، فهما لا تتحملان كل هذا اللتِّ والعجن، ولا كل هذا التهويل، واستهلاك الوقت الطويل.

أما القضية الأولى : فكيف كانت تصلي رابعة ألف ركعة في الليلة؟

---

(١) مقال غرة المحرم سنة (١٣٨٢هـ)، ٤ يونية سنة (١٩٦٢م) العدد السادس السنة الثانية عشرة.

وأما القضية الثانية : فكيف كانت لا تطلب بعبادتها دخول الجنة أو البعد عن النار؟

فأمَّا عن القضية الأولى : فقد حلَّها الأستاذُ العقاد – من وجهة نظره – مقررًا أن الألف ركعة قد تستغرق نحو (١٦) ساعة ، وهو وقت غير كثير على محبٍّ مشغوف بعبادةِ حبيبه ، منقطع لطلبه وتَرَضِّيه .

وكان للآخرين على هذا التوجيه اعتراضٌ بِلَغْوٍ كثير ، ولغط منحل ، وعندنا أنَّ المسألةَ على علاتها ، أمرٌ هيِّن ، غاية في البساطة ، شأن كل بسائط الأمور ، التي تدور أمثال هذه الجماعة حولها وتمور ، وتفور وتثور ، وتمور وتخور . . . فإنَّ الذي نَقَلَ أنَّ رابعةَ كانت تصلي ألف ركعة في الليلة لم يُرِد أبدًا التحديد النصيَّ بالمئات العشرة ، التي تشكِّل الألف العدديَّ بالتمام والكمال ، وإنما أراد الإخبار بمطلق الكثرة المطاقة لإنسان متعود وَلْهَان ، يَتَعشَّقُ طولَ مناجاة الحبيب ، والتمتع بتكرار الضراعة إليه ، وهو في عبارته هذه يجري على مقتضى لغة العرب ، وعلى ما يتفاهم به الناس عادة عند إرادة المبالغة ، فهم يذكرون في مثل هذا المقام عددًا كبيرًا ، ولا يريدون أبدًا مفهومه الواقعي محددًا بالتنصيص العددي .

ولهذا التعبير أصل قرآني ، فضلاً عن شواهد الشعر والنثر الوفيرة ، ومن أمثاله في القرآن قوله تعالى : ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[التوبة :٨٠] ، فليس المراد الاستغفار محصورًا بالعدد الحسابي ، الذي تدلُّ عليه السبعات العشر ، ولكن المراد هو الكثرة المطلقة ، سواء وصلت إلى السبعين أو زادت أو نقصت ، وهكذا يكون قول القائل إن رابعة كانت تصلِّي ألف ركعة في الليلة محمولاً على تصوير الكثرة ،

حتىٰ ليظن الظان مثلاً أنها تصلي ألف ركعة أو تكاد .

ثم إنه قد ورد النص على الترغيب في القيام من الليل ، ولم يَرِدْ نص بتحديد عدد الركعات لا أمرًا ولا نهيًا ، فالأمر واسع لا التزام فيه بعدد محدد ، وبهذا ينحسم اللجاج التافه حول هذه القضية .

ثم إن هناك ردًّا آخر يؤمن به أهل القلوب في هذا الباب ، فقد يكرم الله القادرُ عبدَه بالنَّشرِ والطي الروحي ، حتىٰ يتسع وقته لما لا يتسع له وقت الناس في العادة ، وتقريب ذلك يكون بمثل ما يراه الإنسان في سِنَةٍ من النوم لا تزيد علىٰ لحظات ، ولو كان ما رآه في هذه السِّنَةِ ماثلا قي الواقع الحسي ما كفته أيام ، وهذه من شئون الغيب ، وما يكرم الله به أهله من الخوارق ، ولا أحب الدفع بهذا اللون الروحي في هذا المقام ، وبخاصة مع من لا يسلم لله بقدرة في غير المحسوس .

هذه واحدة ، وأما القضية الثانية : فأهون من الأولىٰ ؛ فإن التعبد ابتغاء رضوان الله منصوص عليه ، مكرر في الكتاب والسنة ، ومتىٰ ما أدرك العبد مقام الرضا الإلهي فقد ضمن الجنة ، ونجا من النار ، مِن أَسْلَمِ الأبواب ، فاسترضاء رب الجنة والنار أقرب سبيل إلى التمتع بالجنة ، والنجاة من النار ، والعبد المؤدب العبد المبصر لا يشترط علىٰ مولاه عوضًا بعوض ، ولا يتاجر معه بعبادته : عملا بجزاء ، وشيئًا بشيء ، ولكنه يطيعه تعالىٰ ، لأنه أهل للطاعة ، فطاعته واجبة لذاته ، دون نظر إلىٰ ثمن ومعاوضة ، فتلك ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النحل :٦٠] ، معاملة الأنداد عرض وطلب ، وأخذ وعطاء ، وما كذلك يكون أدب المعاملة بين عبد ومعبود ، وإله ومألوه ، فإذا كانت رابعة تعبد الله ، لأنه أهل العبادة ولأنه لا

تنصرف العبادة إلا إليه بالاقتضاء الذاتي، ثم هي لا ترىٰ من الأدب مع العبادة أنها أهل للجزاء شعورًا منها بالنقص، ومخافة أن تكون عبادتها معلولة أو مدخولة، فهي إنما تقوم بالواجب كما تطيق، والله يفعل ما يشاء، عبدٌ ومسئوليته، وربٌّ ومراده عدلاً وفضلاً، لا وجوبَ قط عليه.

إذا كان ذلك فأي مأخذ يؤخذ علىٰ رابعة ؟ اللهم إلا إذا كان الإدراك العالي والملحظ الدقيق، وتجريد العبودية، وإخلاص العبادة، والتنزه عن المعابثة في مقامات العزة، واطِّراح الوثنية العقلية، والتسامي على القشرية والسطحية، إلا إذا كان كل ذلك عيبًا في دين الله، وما هو بذاك، فإنما هو مستوىٰ الأصفياء والخاصة بحمد الله .

يا إخواننا: نظرة إنصاف، إنصاف لأنفسكم من أنفسكم، أما إنصاف التصوف منكم فعلى الله وحده، أفرأيتم لو أن رابعة الصوفية كانت راقصة أو ممثلة أو مغنية من عصركم هذا، بالله أفكان أحدكم يستطيع أن يسود كل هذه الصفحات في نقد ما تأتيه هذه الراقصة من آثام وخبائث يتقذرها إبليس، ويعجز العد عن حصرها ؟

يا ناس: استأسدوا على الفواجر الدواعر، ممن تسمعون وتبصرون من حولكم، ودعوا امرأة أفضت إلىٰ ربها، وكل ذنبها عندكم أنها كانت عابدة، أتحداكم أن تواجهوا واحدة من منحلات هذا العصر ببعض ما تواجهون به عابدة العصر الغابر، وأعود فأتحداكم يا سباع المقابر .

الزوايا الصوفية وخصائصها:

أما أن الصوفية يتخذون من زواياهم معبدًا ونزلاً - فندقًا - إلخ،

فلأمور :

أولًا : أنها السنة النبوية ، فقد جعل رسول اللهﷺ الصُّفة المعروفة للفقراء في المسجد ، وفي أهل الصُّفة نزل التكريم القرآني المعروف ، وإقامة هؤلاء في الصُّفة معناه أنهم كانوا فيها يأكلون ويشربون وينامون ، ونحو ذلك بجوار أنهم كانوا يتعلمون ويتعبدون استعدادًا للبلاغ والدعوة ، والصفة جزء من المسجد ، وللجزء حكم الكل في القاعدة .

ثانيًا : هذا اللون من الإقامة بمقدار ما فيه من ضرورات الاقتصاد فيه عمارة لبيت الله ، وفيه تذكير للمقيم هناك بحقوق الله ، وفيه ربط بين أمور الدنيا والدين ، فالمراد بها جميعًا وجه الله ، وفيه تربية وتوجيه وتدريب على التواضع والتقشف ، وفيه دلالة على ما يحمله معنى «**جامع**» من تيسير جميع أعمال الخير وتجميعها فيه .

ثالثًا : يؤيد كل ذلك ما في البخاري عن ابن عمر من : أنه كان ينام في مسجد رسول الله ﷺ وهو شاب عزب ، وجاء نحوه عن كثير من الصحابة .

وما في البخاري أيضًا عن أبي قلابة عن أنس من : أن رهطًا قدموا على رسول اللهﷺ من قبيلة «**عكل**» فنزلوا ضيوفا في الصفة بالمسجد .

وفي ابن ماجه عن عبد الله بن الحارث قال : كنا نأكل على عهد رسول اللهﷺ في المسجد الخبز واللحم . طبعًا وغير ذلك .

رابعًا : هذه الزوايا أقامها الصوفية لأنفسهم ، مآوي شاملة كاملة لكافة أغراضهم ، فهي أشبه بالأسكنة الخاصة ، فهي تقبل بعلاتها على ما هي عليه ، فهم إنما هربوا إليها ليؤدون فيها عباداتهم وغيرها ، على ما صح عندهم دون التعرض للدعاوى وإثارة الخلافات ، فالزاوية عندهم رباط في سبيل الله ، ومسجد للصلاة ، ومدرسة للعلم والقرآن ، وخلوة للعبادة والذكر ، ونُزُلٌ للطالب والفقير والضيف ، وليس في شيء من كل ذلك مخالفة لوارد أو مسنون كما رأيت ، بل هو الدين والحكمة كل الحكمة ، والسنة كل السنة ، ولهذا نجحت كل النجاح .

المواكب الصالحة والطالحة :

أولًا : أما مسألة المواكب الصوفية ، فنحن لا ننكرها على إطلاقها ، ولكننا إنما ننكر ونصر على إنكار هذا اللون الخرف المشعوذ المسمى «**بالركبة**» أو «**ركبة الخليفة**» وفيها يركب إنسان حيوانًا ، وتنشر على رأسه رايات ، وتدق بين يديه الطبول والمزامير ، وتتعدد أمامه وخلفه الرقصات والبهلوانيات ، ويذهب هو يمثل دور المجذوب الفاني الكذاب ، فيتمايل ذات اليمين وذات الشمال زورًا وخديعة ، وطلبًا للسمعة والظهور ، وقد تستأجر له النساء لإطلاق الزغاريد ، وقد يُستأجر له طبقة من العطلة والبطلة والغفلة ، يحملون «**النبابيت**» ويتصايحون من حوله بالهراء والتفه ، ويتصاخبون باللغو واللغوب ، وآخرون من بقر البشر يختلقون له الكرامات ، ويؤلفون له الروايات ، ويذيعون عن

مناقصه ورذائله كمالات وفضائل لا وجود لها إلا في زوايا عقول البله، وتصورات المخرفين .

نحن ننكر ونصر على إنكار هذه الصورة وما ماثلها من نحو «**جمع الجموع**» كما يسمونه، وما فيه من تقاليد ومهازل وصور ألعبانية، لا علاقة بينها وبين إسلام المسلمين، ولا بينها وبين تصوفهم وعباداتهم على الإطلاق .

هذه الصورة التي أضرت بالعقيدة الإسلامية وبالدعوة الصوفية، ونقلتها إلى «**كرنفال**» هزلي لا يشترك فيه رجل يحس لنفسه بكرامة، أو يعرف لدينه حقًّا ومنزلة، ولا يرضى عنه غيور على أعز تراث روحاني في الدين .

إنه لم يتمكن خصوم التصوف، وخصوم الإسلام منه إلا من طريق هذه المخرقة المستنكرة، التي لا تنبثق عن مبدأ منه، ولا ترجع إلى فكرة فيه، ولا ترتبط بهدف من أهدافه .

ثانيًا : نعم هناك مواكب إسلامية صوفية يباركها الله، ويرضى عنها رسوله، تلك التي يُراد بها شهود الخير وجماعة المسلمين، وإعلان الدعوة، والتذكير بأيام الله .

ومن الثابت أن رسول الله ﷺ أذن لعمر وحمزة ـ رضي الله عنهما ـ في قيادة أول موكب علني في الإسلام بمكة، وكان المسلمون فيه صفوفًا، يعلنون بالتكبير، ويهتفون باسم الله، وهو من أدلة عقد المواكب، والإعلان بالذكر .

ومن الثابت كذلك أن المسلمين كانوا يعلنون باسم الله إذا عَلَوا شرفًا ، أو هبطوا واديًا ، يذكرون الله عند كل حجر وشجر ، كما جاء في حديث أبي ذر .

وروى الحاكم عن ابن عمر قالﷺ : من دخل السوق ، فنادى لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير . كَتَبَ الله له كذا حسنة ، ومحا عنه كذا سيئة ، ورفع له كذا درجة ، وبنى له بيتًا في الجنة . إن هذا الحديث يؤخذ به الإعلان بالذكر والاحتفال به .

وكان بعض الوفود يَصِلُون إلى مسجد رسول اللهﷺ أو ينصرفون منه مهللين مكبرين ، وفي حديث أحمد ، وأبي داود ، والترمذي قال رسول اللهﷺ : «**جاءني جبريل فقال : مُرْ أصحابَك يرفعوا أصواتهم بالتكبير**» . ومن ثم كانوا يخرجون إلى صلاة العيد ، وفي ليلة العيد جماعات جماعات ، يهتفون بهتاف الأعياد وتكبيرها ، وقد دخل جيش المسلمين مكة فاتحًا فرقًا ومواكب تهتف باسم الله .

وفي حديث أبي داود : كانوا يعلنون بالذكر عقب الصلوات بالمساجد ، فهذا وأمثاله مما لا يخطر ببال جهلاء المواكب البدعية ، هو الأصل في مشروعية المواكب الصوفية الوقورة الجادة الداعية إلى الله ، والإعلان فيها بألوان الذكر جماعة ، في غير خرف ولا رياء ولا مخرفة ، ولا إهدار للآدمية .

أما غير ذلك فمما يتعين كفاحه بقوة من كل ذي غيرة على الدين والتصوف ، بل من كل غيور على المعاني الكريمة في الإنسان المسلم .

مخلفات السيد البدوي :

ومن الأشياء التي لا يعرفها التصوف الإسلامي أن يدَّعي بعضهم أن لبعض أولياء الله مخلفات شاذة تختلف عما ألفه الناس من مثلها ، وقد جاء هذا من مبالغات جهلة الأتباع ، وانتحالات بعض الماكرين المبطلين ، الذين يندسون في غمار طوائف الصالحين لغرض أو لآخر يعلمه الله .

ولا شك أن هذه التصرفات والنسب مما لا يقبله عقل ولا شريعة ولا تصوف ، ولا يرضاه حي ولا ميت ، وإنما إثمه على من ابتدعه .

ففي المخلفات المنسوبة كذبًا وزورًا إلى السيد البدوي – والله يشهد أن السيد البدوي منها بريء كل البراءة – هذا الدلق المرقع الذي يزن مئات الأرطال ، ولو كان هذا مما يلبسه رضي الله عنه ما استطاع أن يقوم إلى صلاة ، ولا أن يلقي درس علم ، ولا أن يذهب إلى جهاد في الله يحارب الصليبيين .

وهذه المسبحة الضخمة يبرأ منها السيد البدوي كل البراءة ، ولا أعرف إلا أنها مدسوسة عليه شأن مجموعة الأحجبة الخرافية المنتحلة عليه سواء بسواء ، وإن العالم بسيرة السيد البدوي وفقهه بدينه وأدبه وترفعه ، واعتداده بنفسه لا يطيق أبدًا أن تنسب هذه القمامات إلى هذا الإمام ، يُتَّهم بها في علمه وفي دعوته وفي دينه وفي عقله ، ثم يعود أثرها زورًا على التصوف المظلوم .

وإن أنكد المناكد ، وأنكر المناكر أن يُتهم هذا الإمام العظيم بالقذر والتوسخ حتى يكون له «**مهراش**» في مخلفاته ، يدعي الجهلة والبله – بل الخبثاء– أنه كان يحك به جلده ، الأمر الذي تأباه نظافة الإسلام ، وتأباه

الإنسانية الصوفية ، والأمر الذي لا يجري في عقل عاقل ، ولا يسلم به عالم بتاريخ هذا الإمام النظيف المحتاط .

ويلحق بهذا المنكر تلك العمامة الهائلة المدعاة عليه ، حتى كأنه لم يكن إنسانًا في عالم الحقيقة ، وإنما كان أسطورة خرافية من أساطير خيال شهرزاد في إحدى ليالي ألف ليلة .

يا ولدي : لقد كان الإمام أحمد البدوي داعية عالمًا عارفًا زعيمًا وطنيًّا وروحيًّا وعسكريًّا ، وكان الملوك الأيوبيون يذهبون إلى زيارته تبركًا به ، وكانت له مشاركات فعلية في حروب الصليبيين ، شأنه شأن الإمام أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنهما ، وشأن بقية علماء العصر من الصوفية ، كالعز ابن عبد السلام ، ومكين الدين ، وابن الرفعة ، وابن الصلاح ، ومن غير الصوفيين كابن تيمية ومن والاه ، ولم يكن العهد نفسه يسمح بالتخريف ولا بالمخرقة ، ولا بتغفيل خلق الله ، ولم يكن في الوقت سعة للهزل والألعبانية .

والذين ادعوا زورًا وكذبًا ، أو خبثًا ولؤمًا ، أو بلاهة وخرفًا ، أن هذا الشيخ كان يأكل في الوجبة عجلا أو بقرة ، مع المعروف من زهده وتقشفه ، لا يبعد عليهم أن يمعنوا فيما هم فيه ، فيدسون هذه المخلفات المضحكة ، وينسبونها - افتراءً على الله - إلى هذا الإمام العظيم .

فمتى يتنبه المسئولون إلى هذه المخابث ، ويعملون على إزالتها وإظهار الحقيقة فيها ، وتبرئة الأئمة مما يرميهم به المضللون ، حتى لا يجد خصوم أولياء الله طريقًا إلى اغتمازهم ، ولا مذهبًا إلى طعنهم ، وهم من كل هذه

الصغائر براء، فاليقظة اليقظة يا سادة، اليقظة قبل أن تغرقوا في النوم، وإذا غرقتم فلن ينشلكم أحد، وأيضا بلغت، اللهم فاشهد .

***

حدودُ حقوقِ المرأةِ في الإسلام

الرأيُ المحمَّديُّ في مشكلةٍ من أكبرِ مُشكلاتِ السَّاعةِ [(١)]

تقديمٌ :

في فَورة الحركة التي أشعلتها النساء والصحافة ضد رأي الإسلام بالمؤتمر الوطني، في مواجهة الأخ الشيخ محمد الغزالي، جَمَعَنِي مجلس كبير بطائفة من أهل الفكر وحملة الأقلام، وبعض زعيمات الحركة النسائية، ودَارَ الحديثُ حول حدود حقوق المرأة في الإسلام، وقد تَوَجَّهَتْ إليَّ اعتراضاتٌ شتَّى، بَيَّنْتُ فيها وجهةَ نظري الشخصية، ولا أَدَّعي العصمة، وإنما قلتُ ما استيقنتُ أنه الحق كل الحقِّ، من ثمرات تجاربي وعلمي وإدراكاتي، في واقع الحسِّ والسمع والبصر والبصيرة .

وأنا ألخصُ هنا وجهةَ نظري ونظر إخواني وأمثالي بغاية الاختصار، على ما دار في هذا المجلس، ليعلم من لم يكن يعلم، وليعذرنا الذين لا يتورعون أن يرمونا زورًا بالجمود والتخلف، والذين يتَّهِموننا بأننا لم نفهم دين الله، والله يعلم المفسد من المصلح، وهو علينا وعليهم وكيل .

(١) الإسلامُ ردَّ اعتبارَ المرأةِ إليها :

إنَّ مما يَسعد به المسلم أن يقرر السيد الرئيس أنَّ مساواة المرأة للرجل إنما تكون في الحدود الدينية، ولا تتسع هذه الوريقات لتعداد صور الذل والمهانة

(١) مقال غرة صفر سنة (١٣٨٢هـ)، ٣ يولية سنة (١٩٦٢م) ـ العدد السابع السنة الثانية عشرة .

والحقارة التي كانت عليها المرأة قبل الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، ثم جاء دين الله فمنحها كل ما هي أهل له من الحقوق، فسوّىٰ بينها وبين الرجال فيما لا بُدَّ فيه من التساوي ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران:١٩٥] و«**النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ**» وفرّق بينها وبين الرجال فيما لا بد فيه من التفرقة ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة :٢٢٨] .

وبهذه الحقوق ردَّ الإسلامُ للمرأة اعتبارَهَا الإنسانيَّ، وبعث آدميتها من الموت الطويل، ووضع كُلَّ ذلك في حدود فطرية لا ترتبك معها المعايير، ولا تضطرب القيم، ورأينا الشخصي : أنه لم يكن في هذه الحقوق ما يأذن للمرأة بالاندماج في الحياة السياسية ولا ما يتعلق بها، ولا تولي الولاية العامة لا نصًّا، ولا قياسًا، ولا استنباطًا، ولا غيره .

وذلك أنَّ الدين كما قلنا مَنَحَ المرأةَ ما منحها من حقوق، للمبالغة في رعايتها وصيانتها، وحياطتها بمزيد من العناية في التمجيد المحدود بمستوجبات الطبيعة ومقتضيات الأنوثة، وضرورياتها الفطرية .

ولا يقول عاقل : بأنَّ التصون والاستعفاف والتسامي والتحوط، والتزام العزائم، أمورٌ تُشَهِّر بالدين أو تشوه من تعاليمه، أو تضيق من رحبه، فإنما هي مميزاته وحقائقه وخصائصه، وأركان خلوده وإعجازه، فكيف تستحيل الكمالات إلى مناقص؟

اللَّهُمَّ إلا إذا أرادوا بالإسلام أن يكون إسلامًا مستحدثًا، لا يعرفه الإسلام الذي جاء به سيدنا محمدﷺ .

والخطأُ خطأٌ في كل زمان ومكان، وإجازةُ الخطأ في مكان ما لأمرٍ ما، لا

ينقله إلى رتبة الصواب ، ولا يلزم الآخرين بالقدوة به ، وأحكامُ الدين لا تُؤخذ من الأهواء والرغبات ، فإننا إنما نتلقى ديننا عن الكتاب والسنة ، وهما شيءٌ غير اللهو والعبث والبدوات والنزوات .

فالمسألةُ مسألةُ حجة عقلية ، وتاريخ شاهد ، وواقع محسوس ، ونصٍّ محكم ، وإقناع علمي لا انحراف فيه .

(٢) دعوى الحقوق السياسية :

وحتى اليوم ، وإلى غد ، وما بعد غد ، لن يأتي رجل بدليل واحد مقبول على صحة دعوى هذه الحقوق السياسية ، أو الولاية العامة .

١- ولقد استشكلت المرأة في دعواها بمبايعة النساء للنبيﷺ ، وهذه البيعة قد حددها القرآنُ تحديدًا لا لبس فيه ، فالبيعةُ كانت على ألا يشركن بالله شيئًا ، ولا يسرقن ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصين الرسولﷺ في معروف ، وليس من ذلك الاشتغالُ بسياسة الدولة ، أو ولاية أمور الرجال ، فاتخاذُ البيعة كان على الانتقال من الكفر إلى الإيمان ، فلا يكون برهانًا على انتقال المرأة من البيت إلى السوق ، اللهم إلا فيما جاز للمرأة أن تشتغل به من طلب العلم ، أو تعليم البنات ، أو تمريض النساء ، أو الخدمات الاجتماعية في ميادين الطفولة والأمومة ، أو طلب العيش في البيئات النسوية ونحوها ، مما لا يعرضها أو يجعلها سببًا للفتنة ، أو إهدار مال الدولة ، أو بلبلة العيون والقلوب ، واضطراب العمل والإنتاج .

٢- أما الاستدلالُ باشتراك المرأة في الحرب ، فالتاريخ يقول فيه إنه كان

قبل نزول آيات الحجاب ، ودليله أنَّ النبيﷺ ردَّ النساء عن الحرب بعد الأمر بالحجاب ، وقال : «**حتى لا يتحدث النَّاسُ أنَّ محمَّدًا يغزو بامرأة**» .

وكان إذا سأله النساءُ عن الجهاد بعد الحجاب، قال: جهادكن الحج والعمرة. وأرشدهن إلى أنَّ وظيفتهن هي حسن التبعل، وما هو منه كرعاية شأن البيت والولد والأسرة، وإنها لأخطر الوظائف كما جاءت بذلك السنة الصحيحة، وما أقره الواقع التجريبي .

٣- أما الاستشكال - ولا يقال الاستشهاد - بحكم النفير العام ، فالعلم والتاريخ يقرران أنه هو الحالة الوحيدة التي أباح الإسلام للمرأة أن تشارك فيها الرجل بعد الحجاب ؛ إذ إنها حالةٌ نادرةٌ تنتفي معها المعاني التي سببت إعفاءَ المرأة من الجهاد ، ثم هي استثناءٌ اضطراري ، مشروط ومحدود بشروط وحدود لا يُقاس عليها غيرها .

٤- أما مسألة تولى القضاء وإباحته عند أبي حنيفة ، فالعلم والتاريخ يؤكدان أنه قول مهجور لم يُفْتَ به في المذهب ، ولم يُعمل به في تاريخ الإسلام جميعًا ، فوق أنه مشروط بالوقوف عند تولي قضاء بسائط الأمور ، فلا يجوز قضاؤها في حدٍّ ولا قصاص ولا نحوه ، وفوق أنَّ فاعله يعتبر آثـما في المذهب ، ومعنى هذا - لو سلمنا جدلاً بهذا القول - أنَّ توليها القضاء يكون إثـما لذاته ، مع أنه ولاية لتوافه الأمور .

٥- على أنك لا تجد سندًا عقليًا ولا عمليًا في الاستدلال باشتراك المرأة في الحرب والقضاء ، على جواز اشتراكها في السياسة على مفهومها

العصري ، فبين القضاء والحرب وبين هذه السياسة فوارق أساسية ، لا تجعل من أحدهما حجةً على جواز مباشرة الآخر ؛ للتنافر الأصيل بين موضوعيهما ، وأسلوبيهما ، وأهدافهما ، في قياس العرف والمنطق ، والدين ، والواقع .

وإذا كان الإسلام لم يقبل إمامة المرأة للمرأة إلا بشروط دقيقة ، وهذا في الصلاة المضبوطة حدودها ، فكيف يجوز لها أن تتولى إمامة الرجال في السياسة التي لا تضبطها حدود ؟ وقوامة امرأة على امرأة في الإسلام محل نظر ، فكيف بقوامة امرأة على رجال لا على رجل واحد ؟ وهذا أبو حنيفة أبطل صلاة من حاذى المرأة في الصلاة ، فكيف بغير الصلاة ؟

(٣) آراء الأوروبيين في التجربة النسوية :

وحكم الدين في كل ذلك هو حكم الطبيعة ، وهو حكم تجارب التاريخ ، ولا يزال في أوروبا بلاد قد اعتبرت بفشل التجربة ، فلم تأذن للمرأة بولوج باب البرلمان .

وربما كان من المناسب أن نستدل هنا بما قرره اللورد «**ماينكروفت**» عضو مجلس العموم البريطاني ، من استيائه من أنَّ النواب يلهون في جلسات البرلمان النسائية مع النائبات ، كما نقله الأهرام بالعدد الصادر في ٢٦/ ٤/ ١٩٥٢ ، فهل يُراد بنا أن نشهد هذا الدور اللطيف في مصر أيضًا .

ويحدثنا التاريخ أنَّ العلامة «**جون سيمون**» يرى في المرأة رأيَ الإسلام ، كما نقله عنه المرحوم محمد طلعت حرب في كتاب «**تربية المرأة**» .

ومن قبله رَأَتْ هذا الرأيَ «**مس فرنسيس**» العالمةُ الإنجليزية ،

وسجَّلت رأيها مسببًا في مجلة «**القرن التاسع عشر**» .

ومن أطرف ما يذكره لنا التاريخ، أنَّ الأستاذ «**فريرو**» سَمَّى النساءَ المشتغلاتِ بالأعمال العامة «**بالجنس الثالث**» ، أي أنهن لسن برجال ولا نساء، وذلك لمخالفتهن للرجال في الطبيعة والتركيب الجسماني، مع مشاركتهن للرجال في الوظائف والأعمال، وأنذر هذا العالم بحدوث خَلل اجتماعي رهيب من نشوء هذا الجنس الثالث، كما نقله الأستاذ فريد بك وجدي في كتاب «**المرأة المسلمة**» .

وقبل نصف قرن من الزمان كتبت مس «**آني رود**» بجريدة «**بريد الخارج**» تتمنى أن تكون بلادها كبلاد المسلمين احتشامًا وعفةً وتحجبًا، حتى لا تمس الأعراض بسوء، ونعت على بلادها أن تجعل بناتها مثلاً للرذائل بكثرة مخالطة الرجال، والتبذل في الزي والمعاملة، فكيف لو رأت الحال اليوم؟

وذكر التاريخ أنَّ إمبراطور ألمانيا السَّابق عندما زار تركيا، ناشد شيخَ الإسلام فيها أن يحافظ على ألا تجاري المرأةُ المسلمة زميلتَهَا الأوروبية، وقال: إننا في أوروبا نَئِنُّ من هذه التربية، ونعاني من آثارها .

وفيما كانت تنشره المرحومة «**فتحية بهيج**» بالأهرام نصوصٌ نقلتها عن بعض زعيمات أوروبا الآن، وإعجابهن بتعاليم الإسلام، وتقاليد الشَّرق فيما يتعلق بالمرأة، وتمنياتهن ألا تخرج المرأة الشرقية من هذا الفلك .

فهذه نماذجُ من أقوال سادة أوروبا تؤيد نصوص الإسلام دون تحفُّظ ؛ لانطباقه المطلق على سنن الفطرة وناموس الفضائل .

(٤) رأي العلم في كفاية المرأة :

وها هو ذا العلم الجديد يقرر شيئًا من طبيعة ضعف النساء ، وكيف أنَّ للرجال عليهن درجة ، فقد ثبت أنَّ قلب المرأة بالنسبة لقلب الرجل لا يزيد عن (٤ : ٥) .

ونسبة جمجمة المرأة إلى الرجل كنسبة (٨٥ : ١٠٠) ، ووزن مخها من (١١٠٠ إلى ١٢٠٠) ، حين وزن مخ الرجل من (١٢٠٠ إلى ١٤٠٠) ، أي أنه يبتدئ من حيث تنتهي هي .

وثبت أنَّ تلافيف المخِّ في الرجل أقوى وأبرز منها في المرأة ، والتلافيف كما هو معروف هو مقياس الذكاء في الإنسان .

وذلك فضلاً عن الفوارق الجسمية والعاطفية التي تكفي فيها الإشارة عن العبارة ، وحسبك المكرر من الانفعالات والدموع ، والتناقض والشذوذ .

وقد عانى ديوانُ الموظفين التجربة ، فسجَّل في تقريره الرسميِّ ضعفَ إنتاج المرأة في العمل بوجه عام ، مع ضعف إنتاج من يزاملها من الرجال ، على عكس الأماكن التي لا يكون فيها اختلاط ، فإنه يكثر فيها الإنتاج من الطرفين غالبًا .

فَلَمْ يظلم الإسلامُ المرأةَ أبدًا ، حين جعلها نصفَ الرجل في الشهادة ، لاحتمال أنْ تضلَّ أو تنسى ، ومن المقرر شرعًا أنَّ شهادة ألف امرأة بدون رجل ، لا تساوي أكثر من نصف شهادة ، وإنْ كره الشيخُ المدني عفا الله عنه ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

ومِنْ ثَمَّ جعل الإسلامُ لها نصفَ حظِّ الرجل في الميراث ، كما خصَّها بلطائف شتَّىٰ كالإفطار في الحيض ، ورَفْعِ تكليف الصَّلاة فيه وغير ذلك ؛ رعاية لطبيعتها ، وصيانة لأنوثتها .

وبالتالي نرىٰ الإسلامَ قد خصَّ الرجل بالنبوة ، والرسالة ، والخلافة ، والإمامة العظمىٰ ، والجهاد ، والأذان ، والخطبة ، والسعي ، والعمل ، وجعل بيده عقدة الزواج والطلاق ، وجعل الانتساب إليه مجاراة لطبيعته ، وعدلاً بين طرفي الأنوثة والذكورة .

(٥) مسألة العورة والحجاب في الإسلام :

وقد تحدث المسلمون في تحديد عورة المرأة ، وهل منها الوجه والكفان وزينتهما والشعر؟ وهل منها الصوت والجلباب ؟ فقد تقرر الحجابُ في السنة الخامسة من الهجرة ، بعد غزوة الأحزاب ، وثبت في الصحاح أنَّ النساء أخذن الأُزر فشققنها من الحواشي ، فاختمرن بها ، وأصبحن وراء الرسول معتجرات كأنَّ علىٰ رءوسهن الطير ، بعد الأمر بالحجاب .

١- ومشهور المذاهب ، ومستفاد الحديث أنَّ الوجه والكفين ليسا غالبًا بعورة ، ما لم تخالطهما الزينة الملفتة للنظر ، وأما الشعرُ فهو عورةٌ باتفاق ، والخلافُ في هل هو عورةٌ مغلظة ، فتفسد الصلاة بكشفه؟ ويتحقق الإثمُ بتعريته ، وهذا هو رأيُ الجمهور إلا بعضَ المالكية وآخرين ، فإنهم يرون أنَّ الشعر عورة مخففة ، قد تصحُّ الصلاةُ بغير ساتر عليه ، ويكون كشفُهُ عندهم مكروهًا فقط ، إلا إذا عُقِصَ - أي سُرِّح - بطريقة ملفتة ، فإنَّ كشفه يكون حرامًا ، والصلاةُ بغير ساتر عليه باطلة ، فالتسريحات الملفتة كالأصباغ المثيرة من حق المنزل فقط .

واتفق المسلمون جميعًا سلفًا وخلفًا على تحريم الملابس المتلصقة بالأجسام، والملابس التي تشف عما تحتها، والتي تكشف شيئًا من جسد الأنثى قولاً واحدًا .

٢- وفي أمر الاختلاط أمَرَنَا النبيُّ ﷺ أنْ نباعد بين أنفاس النساء وأنفاس الرجال ، وبين أنَّ من خرجت من النساء إلى الناس ليجدوا ريحها فهي زانية ، ومنع أن تجالس المرأةُ الرجلَ ولو كان صحابيًّا أعمىٰ ، ولو كان معه رسول الله ، كما حدث في قصة ابن أم مكتوم ، وهذا غير اختلاط الضرورة الطارئ في نحو الأسواق والمواصلات .

٣- أما ذهابهن إلى المساجد فقد كان في الغلس ، وكان النساء في حجاب لا يوشك أن يعرف بعضهن بعضًا فيه ، وكان الرجال ينتظرون حتىٰ ينصرف النساء -كما ذكره البخاري وغيره- ومع هذا فقد كان الرسول ﷺ يرغبهن في صلاة البيوت - كما ذكره أحمد وغيره - وصح أنَّ الرسول ﷺ أمر النساء بالتأخر عن الرجال عند السير في الطريق ، وأمرهن بأن يلزمن جوانب السُّبل ، حتىٰ كانت الجدران توشك أن تمزق أثوابهن لشدة ما يحتككن بها - علىٰ ما رواه أبو داود - ومع هذا فقد روىٰ البخاري عن عائشة أنها قالت لنساء عهدها ، وهن اللواتي أدركن نضرة الوحي وغضاضة الإسلام : لو أدرك النبيُّ ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن المساجد .

قلنا: فيكف لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث نساءُ هذه العصور، وقد كان هذا في الصلاة، فكيف بالسياسة ؟ وكيف بالاجتماع بالرجال نهارًا وليلًا؟ وعلى انفراد، وعلى غير انفراد ؟ مما تستوجبه تقاليد السياسة ومتعلقاتها .

فالأصلُ في الإسلام هو التفرقةُ بين الرجال والنساء، ولهذا لم يأذن النَّبيُّ للنساء أن يختلطن بالرجال في درسه، فجعل لهنَّ يومًا معينًا، ولم يشأ أن يختلطن بالرجال في أكبر حفل ديني جامع في الإسلام، وهو صلاة العيد، فندبهن إلى الخروج وأبعدهن عن الرجال، ثم عاد فخطبهن خطبة العيد على حدة .

كل ذلك مبالغة في التفرقة المانعة للفتنة، وحتى لا يطل الشيطان برأسه فيحدث مثل ما نسمع في هذه الأيام، وما نرى من فواجع الاختلاط المشين.

٤- وقد روىٰ البخاري وأحمد : أنَّ من أسباب نزول أمر الحجاب غيرة عمر من الرجال يحدثن أمهات المؤمنين -تفكر : أمهات المؤمنين- فقال : يا رسول الله لو أمرت نساءك أن يحتجبن ؛ فإنه يكلمهن البار والفاجر ، فنزلت آية الحجاب .

وأنت ترىٰ السر أوضح أيضًا في حديث الخثعمية الذي رواه البخاريُّ حيث كانت تحدث رسول الله ﷺ وكان ينظر إليها من الخلف الفضل بن العباس ابن عمِّ رسول الله ﷺ ، فما كان من رسول الله إلا أنْ لوىٰ عنقه حتىٰ لا يكرر النظر إليها .

فهذه أصول الإسلام وتاريخه يمنعان المرأة مجرد مجالسة الرجال الأجانب ، والاختلاط بهم دون الولاية عليهم ، فكيف إذا كان ذلك في ولاية وعمل عام .

وقد روىٰ أحمد وأبو داود والنسائي عن جدةِ حَشْرَجِ بن زياد : أنَّ النبيَّ ﷺ لما رأىٰ النسوة معها في خيبر ، بعد تقرير الحجاب غضب وقال :

ما أخرجكن؟ وبأمر من خرجتن؟ ثم أمرهن بالانصراف. وهذا كله ينسخ ما كان قبله من الإذن لهن بسقي الماء، ومداواة الجرحى والمرضى في الحرب، كما كانت تفعل أُمُّ عطيةَ وأُمُّ سُليم وغيرهما من قبل، وهو رأي الإمام ابن حجر ومن والاه من ثقاة هذه الأمة .

(٦) قصة الجمل لا تصلح للاستدلال

ولقد حاول بعضهم أن يستدل على جواز اشتغال المرأة بالسياسة العامة وولاية الرجال والحروب، بخروج أم المؤمنين عائشة لقتال عليٍّ في فتنة عثمان، في القصة المعروفة في التاريخ بموقعة الجمل، وهذه القصة لا تصلح للاستدلال إطلاقًا للأسباب الآتية :

١- لم تتولَ عائشةُ قيادةَ الجيش أبدًا، ولم يَنْقِل ذلك عنها صادقٌ ولا كذابٌ، وإنما كانت في هودجها على حجابها في غمار الجيش، وكانت القيادات كلها للرجال .

٢- لعائشة حُكْمٌ خاص في المسلمين، هو حكم أمهات المؤمنين، فهي مَحْرَمٌ وأُمٌّ لهم جميعًا، لا تحلُّ لهم ولا يحلون لها .

٣- خرجت عائشةُ مخرجها هذا متأوِّلةً، وكان هذا التأوُّلُ سببًا في إجماع المسلمين على أنها أخطأت، وبذلك أفتى أئمة الإسلام وسادة الدين من أعلام الصحابة؛ فقد قال عبد الله بن عمر لطلحة والزبير : اعلما أن بيت عائشة خير من هودجها .

٤- ولما وصلت أُمُّ المؤمنين إلى خيبر أقبل على ركبها سعيد بن العاص والمغيرة بن شعبة فسألاها : أين تريدين يا أم المؤمنين ؟ قالت : أريد

البصرة . قالا : وما تصنعين ؟ قالت : أطلب دم عثمان . قال المغيرة : أيها الناس إن كنتم إنما خرجتم مع أمكم فارجعوا بها خير لكم .

٥- ولما وصل ركبها إلى البصرة جاءها عمران بن حصين وأبو الأسود الدؤلي ، فقالا لها : يا أم المؤمنين ما هذا المسير ؟ أَمَعَكِ من رسول الله به عهد؟ قالت : قُتل عثمان مظلومًا ، غضبنا لكم من السوط والعصا ، ولا نغضب لعثمان من القتل؟ فقال أبو الأسود : ما أنت من عصانا وسيفنا وسوطنا؟

٦- ولما وصلت إلى البصرة اصطف الناس منكرين هاتفين : يا أم المؤمنين ما أخرجك من بيتك ؟

ثم جاء حارثة بن قدامة فقال لها : يا أم المؤمنين لَقَتْلُ عثمان كان أهونَ علينا من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون، إنه كانت لك من الله تعالى حرمة وستر، فهتكت سترك، وأبحت حرمتك إنه من رأى قتالك فقد رأى قتلك، فإن كنت يا أم المؤمنين قد خرجت مستكرهة فاستعتبي الله. تأمل.

٧- وقبل التقاء الجمعين كتب عليٌّ إلى عائشة يقول : أما بعد ، فإنك خرجت عاصية لله ولرسوله ﷺ (تأمل . . .) تطلبين أمرًا كان عنك موضوعًا ، ما بال النساء والحرب ، والإصلاح بين الناس ؟ (تأمل . . .) تطلبين بدم عثمان ، ولعمري لَمَنْ عرَّضك للبلاء ، وحملك على المعصية ، أعظم إليك ذنبا من قتلة عثمان ، وما غضبت حتى أغضبت ، وما هجت حتى هيجت ، فاتقي الله وارجعي إلى بيتك .

٨- ولما علمت أم المؤمنين أم سلمة بخروج عائشة في غمار الجيش كتبت إليها

تقول فيها تقول : أما بعد ... وقد علمت أن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال ، ولا يرأب بهن إن انصدع ما كنت قائلة لرسول الله ﷺ لو عارضك بأطراف الجبال والفلوات على قعود من الإبل ، من منهل إلى منهل إلى أن يعين الله مهواك ، وعلى رسول الله تردين ، وقد هتكت حجابه الذي ضرب الله عليك عهيداه ولو أتيتُ الذي تريدين ، ثم قيل لي : ادخلي الجنة لاستحييتُ أن ألقى الله هاتكةً حجابًا قد ضربه عليَّ (تأمل ...) فاجعلي حجابك الذي ضرب عليك حصنك ، فأبقيه منزلا لك حتى تلقيه ... إلى أن قالت لها : ولو ذكرتك كلامًا قاله رسول الله ﷺ لنهشتني نهش الحية ، والسلام .

وهنا كتبت عائشة إلى أم سلمة تكشف حقيقة أمرها وتعتذر فتقول :

ما أقبلني لوعظك، وأعلمني بنصحك، وليس مسيري على ما تظنين (تأمل ...) ولنعم المطلع مطلع فرقت فيه بين فئتين متناجزتين، فإن أقدر ففي غير حرج، وإن أحرج فلا غنى بي عن الازدياد منه، والسلام . انتهى.

٩- ولا بد من الإشارة إلى أن موقعة الجمل بدأت بعد الظهر وانتهت عند الغروب ، وعقر الجمل واستسلمت عائشة ، فشيعها عليٌّ إلى المدينة خير تشييع ، وقد كانت هذه الحادثة وحيدة التاريخ الإسلامي كله ، فلم تتكرر بعد وكان من منكري هذه الواقعة فوق من ذكرنا كل من عمَّار بن ياسر ، وأبو بكرة ، وعبد بن بديل الخزاعي ، الذي أمر بعقر جمل عائشة ، وعشرات من أئمة الصحابة .

١٠- وفي كلام عمار فصل ليس بالهزل : فقد روى ابن أبي شيبة أن عَمَّارًا قال : إن أُمَّنا سارت مسيرها هذا ، وإنها والله زوج محمد ﷺ

في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلانا بها، ليعلم إياه نطيع أو إياها (تأمل . . .) ثم قال لها: ما أبعد هذا المسير من العهد الذي عهد إليكن ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[الأحزاب:٣٣] فقالت: أبا اليقظان. قال: قلت: نعم. قالت: والله إنك لقوَّال بالحق. قال: الحمد لله الذي قضى لي على لسانك.

قلتُ: حسبي هذا، وأنا أضعه بين يدي القراء بدون تعليق، ليعلموا إن كانت هذه القصة بعد هذا التفصيل تنهض حجة على دعاوى مطالب المرأة في الحياة السياسية والحزبية، وولاية الرجال وقد أنكرها الصحابة والصحابيات؟ والمسلمون جميعًا.

(٧) المرأة التي راجعت عمر، وشجرة الدر:

وهاتان القصتان أيضًا لا تصلحان للاحتجاج كذلك، فمراجعة الصحابية لعمر في أمر المهور، كان إبداء رأي في شيء يخص المرأة، والإسلامُ يأذن للمرأة بأن تبدي رأيها، وخصوصًا فيما يتعلق بشأنها من أمور الزواج والخلع والظهار والنفقة، والأمومة والرضاع، وما يتعلق بهذا الجانب، ثم إنَّ مراجعتها لم تكن للتغيير والتبديل، ولكن لإحقاق حق قائم، فهو دفاع عن شرع منصوص، وتصويب لخطأ طارئ، وذلك لا يفيد أبدًا ضرورة اشتراكها في أمور السياسة والحرب، وتولي الأمور العامة.

وأما قصة شجرة الدر، فهي تدل على حصافة نادرة في سيدة نادرة في واقعة نادرة، ومع تقديرنا وإعجابنا العميق بموقفها التاريخي الفذ، نرى أنه عندما انتهى هذا الموقف غلبت عليها طبيعة المرأة، فكان من شأنها ما كان، فالقصة لا تصلح للاستشهاد، وخصوصًا أنَّ المسألة مسألة تشريع

ديني، ليس هو بيد شجرة الدر ولا ألف من مثلها، بعد أن أكمل الله الدين وأتم النعمة .

ولهذا لم تشترك المرأة في اختيار خلفاء المسلمين ولا في المسائل الكبرىٰ، كمسألة التحكيم بين عليٍّ ومعاوية، ولا في غير ذلك من المهام التاريخية، وعندما خرجت عائشة مجتهدة متأولة في واقعة الجمل ردَّ عليها كُلُّ ذي رأي من الصحابة والصحابيات، ثم اعترفت بخطئها، فانتفت الحجية من خروجها، كما رأيت .

(٨) ما هو الحجاب الذي يريده الإسلام :

قلنا : إنَّ الإسلام ردَّ إلى المرأة اعتبارها المسلوب، وقرر لها من الحقوق ما لم يكن يخطر على بال مصلح أو مشرِّع، ومع أنَّ أوربا - بعد قرون من تشريع الإسلام - قد اعترفت للمرأة بكثير من الحقوق، إلا أنَّ هذه الحقوق الأوروبية، لا تزال دون الكثير مما منحه الإسلام للمرأة، خصوصًا في جوانب حرية التصرف في العقود المدنية وأنواع الملكية، وحق الوكالة والضمان، والإجارة، والبيعة والمخالعة وغيرها .

وقلنا : إنَّ الحجاب في الإسلام إنما فُرض من أجل تكريم المرأة، وصيانة أنوثتها، أن تُتخذ تجارة ودعاية واستهواء، كما هو الشائع اليوم في كثير من الوظائف التي تشغلها المرأة، لمجرد استغلال الجمال والإغراء، وفي كثير من المهن التي تستخدم فيها المرأة، لمجرد عرض الأجسام وإثارة الغرائز، وفي كثير من المجتمعات التي تعرض فيها المرأة، لمجرد اللهو والترفيه والمعابثة، إلى عشرات من الأسباب الإنسانية والاجتماعية

والفطرية التي تجعل الحجاب هو البرزخ الأساسي بين التحرر والتحلل ، وبين القيم العليا ، وإشباع الغرائز والشهوات .

وليس الحجاب في الإسلام هو سجن المرأة في زنزانة الحريم ، فلا ترىٰ النور ، ولا تشترك في موكب الحياة أبدًا ، ليس هذا ، فقد كان نساء النبي ونساء المؤمنين يخرجن لزيارة البيوت والمساجد ، وللمجاملات في الأفراح والأتراح ، وكن يشهدن الجمع والجماعات والأعياد ، وكن يشهدن اللعب والمبارزة ، وكن يذهبن إلى الأسواق فيبعن ويشترين ، وكن يشاركن في الرأي ، وفي تبليغ الدعوة والفقه بالدين ، كل هذا علىٰ أساس ممارسة الفضيلة والشرف والأدب الإلهي .

وقد حفظ لنا التاريخ أسماء الكثيرات من المحدثات والعابدات والخطيبات والأديبات ، والفقيهات ، اللواتي تلقَّىٰ عنهن كثير من مشاهير الأمة ، وشيوخ الإسلام .

فالمرادُ بالحجاب في الإسلام هو حجب السوء عن المرأة ، وحجب المرأة عن السوء ، ولهذا أجاز الإسلام للمرأة من الأعمال والاختلاط في تقدم العمر ، ما لم يجزه لها في ميعة الحياة ، حتىٰ تستقيم الأمور .

المرأة والعلم والعمل والحجاب :

فلتكن المرأة من العلم النافع – أي علم – في الذروة ، ولتكن من العمل المفيد – أي عمل – في القمة ، ولتكن طبيبة نساء أو ممرضة نساء ، أو مدرسة بنات ، أو إخصائية أمومة وطفولة ، أو واعظة متفرغة ، أو أستاذة تخصص – أي تخصص – أو عاملة صناعة ، أو موظفة كتابة ، أو غير ذلك متىٰ تحققت المصلحة ، ولكن في بيئة نسائية ، أو في جو أخلاقي يسوده

الاحتشام، وتهيمن عليه الفضيلة، ويتحكم فيه سلطان العقل والجد والشرف، ويقوم فيه الضمير الإنساني مقام القانون .

هذا هو الحجاب في الإسلام على ما نفهمه ملائمًا لأصول الدين وضرورة العصر الحاضر، حرية مطلقة في حد محدود، يتأكد من تجاوزه الخطر الماحق .

ولولا ضيق المجال لضربنا آلاف الأمثال على فساد تجربة الاختلاط والمساواة المطلقة، وخطورة دعوة التكشف، وسيادة موجة الانحلال .

وإنه لمما يطمئِن المسلم على أنَّ الخير لا يزال موجودًا في النساء، أننا لا نزال نرى الكثيرات من المثقفات وزعيمات النساء، لا يرضين عن المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة، وفي مقدمة هؤلاء الفضليات السيدة خيرية شيرين، والدكتورة ابنة الشاطئ، والسيدة نعيمة عيسى، والسيدة محاسن بدر، وأخريات من الشريفات .

إنَّ الذين يدعون إلى فوضى الغرائز والأعراض باسم حقوق المرأة، أو باسم الحرية والتقدم، يعلمون في صميم أعماقهم، ومن تجاربهم، وممارستهم، ومغامراتهم، أضعاف أضعاف ما نعلمه نحن من المزالق، والمخاطر والمفاسد والبوهيمية، بل والحيوانية الراتعة وراء هذه الدعوة، ولكنهم يمعنون في إقناع غيرهم بما لا اقتناع لهم به، لأسباب محلها علم النفس الصحي والعلاجي، ومحلها علم الأمراض المعنوية .

قال لي أحدهم مرة : إنه يعلم من دراساته وتحقيقاته أن أكثر من خمسين في المائة من الأوربيين ينتسبون إلى غير آبائهم الحقيقيين. قلت : وهل

تطمع أن نصبح كذلك؟ قال : وهل تريد أن يتهموني بالرجعية والتخلف؟ قلت : حسبي وحسب أمثالي شرفًا أن نكون من أئمة التخلف والرجعية في هذا المجال .

وبعد ، فهذا هو الرأي ، وعلى الناس بحثه ، وهذا هو الحق ، وعلى الناس اتباعه .

***

سؤالٌ صوفيٌّ تاريخيٌّ وجوابُهُ
الطرقُ الصُّوفيةُ في العَالمِ الإسلاميِّ[١]

تلقيتُ من أحد إخواني وأبنائي المثقفين سؤالاً طويلاً ، ألَمَّ فيه بنواحي شتَّىٰ من التاريخ الصوفي ، والواقع الحي هنا وهنا ، ثم سألني واستحلف ، وكرر الرجاء وألحف ، أن أجيب علىٰ سؤاله ذاك ، وإني باسم اللَّه مجيبه بما أعلم عما يمكن الإجابة عليه من سؤاله ، وأستغفر اللَّه عما لا أعلم .

أولاً : الطُّرقُ الشَّهيرةُ بالمشرقِ :

معروفٌ يا بني أنَّ الطرق الرسمية في الجمهورية العربية المتحدة ، وصلت إلىٰ نيف وستين طريقة ، وقد اعترف المجلس الصوفي بنحو نصفها في عهد مشيخة المرحوم الشيخ أحمد الصاوي ، علىٰ أنَّ أكثر هذه الطرق فروعٌ لأصول معدودة ، يطول الكلام عليها الآن ، وقد يكون تأريخها منَّا اليوم علىٰ ما نعلم غيرَ رشيد .

وقد كان السَّلفُ لا يعترفون بطريقة إلا بعد الاستيقان من استكمالها لشخصيتها المعنوية المستقلة ، وسلسلة سندها الثابت ، حتىٰ وإنْ كانت فرعًا من أصل .

وهذا الاستقلالُ يعني أن يكون لها منهجٌ سويٌ خاصٌّ في التربية والسلوك والتوجيه والدعوة والنظام ، وأن يكون لها أورادها وأحزابها

---

(١) مقال غرة ربيع الأول سنة (١٣٨٢هـ) ، ١ أغسطس ١٩٦٢م ، العدد الثامن - السنة الثانية عشرة .

وأساليبها الرياضية والتعبدية التي لا تشارك فيها غيرها، رغم وجود أحزاب الأصل وأوراده، وأنْ يكون لها مستقرُّها الدائم، من مسجد أو زاوية أو دار صالحة للدعوة، وألا يكون في شيءٍ مما ينسب إليها مخالفة لصريح شريعة الله، وأن يكون وجودها لحاجة إليها، وأن يكون إمامُها بحيث يستغني به مريده عن غيره، في كل ما يتعلق بعلم دينه، ومستوجبات سلوكه، فيكون قدوة بكل معنى القدوة في ظاهر أمره وباطنه، وفيما يتعامل به مع الله ومع الناس.

وقد كُنَّا أولَ من طَبَعَ في هذا الوطن تقويما بيانيا بأسماء الطرق الرسمية وشيوخها وعنواناتهم، منذ نحو عشر سنين، وعلى مَن يحب اليوم أن يعرف الجديد من شأن هذه الأسماء والعناوين، أن يرجع إلى المشيخة العامة للطرق الصوفية الرسمية بدارها بالقاهرة.

وبجوار هذه الطرق الرسمية الستين، توجد طرقٌ أُخرىٰ غير رسمية، بعضها شرعيٌّ مستكمل لكل أسباب الوجود الحقيقي، كطريقة صوفية مستقلة، ذات قيمة عملية، وفعالية إيجابية، وبعضها ليس بذاك.

وكان في عزمنا أن نجمع كذلك أسماء هذه الطرق وشيوخها وعنواناتهم في تقويم بياني خاص بها، لولا زحمة الأعمال، وضيق الوقت والصحة، وانعدام الموضوعية أو على الأقل انكماشها.

أما الطرق الشهيرة بالمشرق الإسلامي غير هذه الطرق المصرية الستين، فبعضها كان قد سرده صاحب كتاب بيت الصديق ثم هو لم يذكر البعض الآخر، فإنما كان يريد - والله أعلم- مجرد حصر ما وصل إليه من أسماء

الطرق بالمشرق والمغرب، دون تفصيل أو بيان أو إسناد، رغم تيسر الموضوع فيما نظن.

ومن المشهور اليوم الذي نعرف له مشيخات فعلية وأتباعًا بالمشرق الإسلامي من هذه الطرق عدد كبير نذكر منه: الطريقة البكتاشية، والمولوية، والجشتية، والغزالية[1]، والكلشنية، والخضرية، والملامتية، والقلندرية، والعيدروسية، واللاهية[2]، والعليانية[3]، والمتبولية، والشعرانية، والأكبرية، والكبروية[4]، والأويسية، والسهروردية، والقشيرية، والجلوتية (بالجيم) ... إلخ، وليس لهذه الطرق وجود بمصر الآن والكلام التفصيلي عنها يطول.

ذلك بالإضافة إلى فروع الشَّاذلية، والنقشبندية، والقادرية، والرفاعية، والإدريسية، والأحمدية، والدسوقية، والخلوتية (بالخاء) بوصفها طرقا عالمية مشرقية ومغربية.

ويمكن الرجوع إلى أصول هذه الطرق في أمثال كتاب: الرشحات، والنفحات، والبهجة، والغنية، والقلائد، والمفاخر، والواردات، والوصايا، والطبقات، والتدبيرات، والمثنوي، والثواقب، والتأويلات، والجاودان، والتذكرة، والقاشاني، والاصطلاحات، والحادي، والحاوي، والقوارف،

---

(١) الغزالية بمصر حلقات دراسية ولكنها ليست طريقة رغم انتظامها (المسلم).
(٢) طريقة النعمة اللاهية نسبة إلى اسم الجلالة (الله) من طرق الشيعة بإيران (المسلم).
(٣) العليانية فرع من الناصرية الشاذلية، منه بقية في صعيد مصر الأقصى (المسلم).
(٤) الأكبرية نسبة إلى الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، والكبروية نسبة إلى ولي الله نجم الدين آل كبرى (المسلم).

والرسالة . . . وغيرها ، فضلاً عن كتب الرجال والطبقات المعروفة .

وعند بحث كل طريق من هذه الطرق تتبين الشخصية المستقلة ، والمنهج الذاتي ، والهدف المحدد ، وسلسلة السند الصحيح ، ولا عيب في هذا التعدد ؛ فإنما هي مشاربُ تختلف باختلاف الناس والأوطان ، واختلاف القابليات والاستعدادات .

ثانيا : الطرقُ المغربيةُ ودورها :

أما التعريفُ بالطرق الشهيرة في المغرب العربي فيسيرٌ ، لولا أنَّ الإشارة إلى الدور والتاريخ الذي يطلبه السائل بالتفصيل ، ويجعل الإجابة عليه شرطًا وأمانةً وعهدًا ، فذلك هو العسير ، وهو المشي على الشوك كما يقولون .

وعلى الإجمال ، فمن أشهر الطرق الصوفية بالمغرب : الطريقة السنوسية ، والسلامية ، والعروسية ، والبشيشية ، والناصرية ، والصديقية ، والعلوية ، والرحمانية - وأربعتها الأخيرة من فروع الشاذلية - والدرقاوية ، والكتانية ، والوزانية ، والتجانية ، والعيسوية وهناك طرق أخرىٰ فرعية ، أو محلية ، ربما أفردناها بالذكر .

فأما السنوسية : فقد أسسها الإمام العلامة العارف بالله الجامع بين الجهادين سيدي الشيخ محمد بن علي السنوسي الكبير ، وتتصل في بعض أسنادها بالشاذلية ، وتعتبر هذه الطريقة المثل الحي الشرعي للتصوف الإسلامي في أهدافه ومناهجه ، بوصف أن التصوف هو خلاصة الإسلام ، وإكسيره الجامع لخير الإنسان في كل زمان ومكان ، ويجمع

مريدها دائمًا بين الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر .

ولولا أن الكلام عن هذه الطريقة الآن بما هي أهله ، قد يتخذ عند بعض ضعاف النفوس اعتبارًا لا نحب أن يُنسب إلينا ، لكتبنا عنها ما يرضي الله تعالىٰ ويرضينا .

وأما السَّلامية والعروسية : فطريقتان دخلت فيهما البدع المنكرة ، ثم نسبت هذه البدع زورًا إلىٰ الإمام العارف الشيخ عبد السلام الأسمر ، والإمام العارف الشيخ ابن عروس ، وهما من كل بدعة بريئان ، وما يُنسب إليهما من ممارسة الطبل والرقص فباطلٌ عقلاً ونقلاً ، وتاريخًا وشرعًا ، وعند التسليم جدلاً بأنَّ شيخًا منهما في حالة فناء وجذب وغيبوبة ، دقَّ بدُفٍّ أو استمع إلىٰ دُفٍّ - في غير عُرس ولا مَوسم ولا حرب - فلا بُدَّ أنه كان في حالة لا يؤاخذ فيها شرعًا ، ولا يحاسب عليها قانونًا ، ومثل هذه الحالة لا تكون حجة ، ولا تتخذ قدوة .

ثم لو فرضنا مرة أخرىٰ جدلاً ، أنَّ أحدهما حدث منه ذلك في حاله إدراك ووعي وقصد - وهذا غير مُسَلَّمٍ - فإنه يكون غلطةَ اجتهادٍ من بشر غير معصوم ، وغلطات المشايخ لا تكون شريعة في الشريعة ، ولا دينا في الدين ، وعندما يخالف فعل الشيخ فعل النبيﷺ وجب ترك الشيخ واتباع النبيﷺ ، أما من ترك صواب النبيﷺ واتبع غلط الشيخ فقد خسر نَبِيَّه وخَسر شَيْخَه ، ومن خسر نبيه خسر دينه علم ذلك أو لم يعلم ، عياذا الله .

وأمَّا البَشيشية : فقد أسسها الشيخ عبد السلام بن بَشيش الوزاني وهي أصل الشاذلية ، ومن الشاذلية تفرعت الناصرية ، وهي الطريقة الوحيدة

التي لم يعرف لشيوخها ولا لأتباعها مهادنة للمستعمر، أو تعاون معه في المغرب، ولم يشر إليها واحد من الكُتَّاب أو المؤرخين الأوربيين أو غيرهم بكلمة نقص واحدة، لا في مناهجها ولا في مقاصدها، ولا في سلوكها، وقد أسسها مولانا الإمام السني المحدث المؤرخ الرَّحالة العلامة القدوة العارف الشيخ محمد بن ناصر الدرعي، وهو من شيوخ الشيخ عبد الوهاب العفيفي المصري، ويقال إنَّ لولده سيدي أحمد بن ناصر مصاهرة بصعيد مصر الأقصى، ثم ولي الطريقةَ من أتباعه كُلُّ زعيم عالم جامع بين الجهادين، حتى أيامنا هذه.

وقد كان من كبار رجال البيت الناصري الذين طردهم المستعمر خارج الأوطان، ضيف مصر السابق السيد اليمني الناصري - نزيل الحجاز الآن - وشقيقه السيد المكي الناصري - أحد كبار حركة التحرير - وهما مؤسسا بيت المغرب الأول بالقاهرة.

وما يُقال عن الطريقة الناصرية يُقال عن الطريقة الصديقية فقد ظلَّ رجالها يجاهدون المستعمر، وعلى رأسهم المرحوم المحدث دفين مصر(١) الشيخ أحمد بن الصديق، حتى قبض عليه وسجن وحكم عليه بالإعدام ثم فر إلى القاهرة.

وتستطيع أن تقرر مثل ذلك في شأن الطريقة العلوية والرحمانية، وما كان لرجالها من مشاركة إيجابية في حركات التحرير بتونس ومراكش

(١) أنشأ له محبوه مدفنا بجبانة الإمام الشافعي، ويرجى أن يلحق بالمدفن مكتبة تحتوي على كتبه ومؤلفاته إن شاء الله. (المسلم).

والجزائر ، منذ كان الاستعمار إلىٰ طلوع شمس التحرير في هذه الأيام .

أما الطريقة الوزانية : فتنسب إلىٰ إقليم وزان في شمال مراكش ، ومن أسرة الوزاني خرج مولانا الإمام عبد السلام بن بشيش في القرن السابع الهجري داعيا إلى التصوف الصحيح ، وعليه تتلمذ مولانا الإمام المجدد الشيخ أبو الحسن الشاذلي ، وعلىٰ أبي الحسن تتلمذ رجال ، وعنه دعوته تفرعت فروعًا .

ومن هذا الوقت أصبح لأسرة الوزاني نفوذها الروحي وسلطانها الزمني ، الذي كان يخضع له السلاطين ، فلما كان عهد السلطان الكبير مولاي إسماعيل في أوائل القرن الثاني عشر الهجري ، وشوا عنده بشيخ الطريقة الوزانية الشيخ التهامي الوزاني ، فأرسل في استدعاء الشيخ لمؤاخذته ، غير أن رسل السُّلطان ما كادوا أن يصلوا إلىٰ مجلس الشيخ ، حتىٰ أظهر الله إكرامه له بحادث فزعوا منه وفروا عائدين إلى السُّلطان يقصُّون ما جرىٰ ، فأدرك السُّلطان الوشاية ، وركب فرسه ، وذهب يستعتب الشيخ ، وما إن رأىٰ السُّلطانُ الشيخَ حتىٰ ترجل ، فنهض الشيخ ممسكًا بزمام الفرس مشيرًا إلى السُّلطان بالركوب ثانية فركب ، وهو يرىٰ أنَّ سلطانه قد تأكد بهذه الإشارة ، وبعدها أصبح من التقاليد السُّلطانية ، ألا يباشر السُّلطانُ الجديد عمله ، حتىٰ يمسك شيخ الطريقة الوزانية بزمام فرسه في حفل شعبي حافل ، وبقي هذا التقليد معمولاً به إلىٰ أيام السُّلطان يوسف والد الملك محمد الخامس ، والد الملك الحسن الحالي ، حيث استبدل التقليد بدعوات ، يدعوها الشيخ الوزاني للملك في حفل التولية .

ومن أسرة الوزاني الآن في الحاشية الملكية سادة ، منهم السيد التهامي

الوزاني، وهو رجل له نفوذه الكبير في داخل الدولة وخارجها.

وهكذا نرى كيف يخرج من زوايا الصوفية أولئك المجاهدون الصادقون، وحسبك منهم الذين وقفوا أمام الإسبان والفرنسيس والبرتغال، وحفظوا بيضة الإسلام كبيت الخطابي، فلا عجب أن كان يصل بعضهم إلى سرير الملك، كالسنوسية في عصرنا، وكالأدارسة والمرابطين والموحدين فيما سبق، وكلهم صوفية يحني التاريخ لذكرهم الهام.

الفرنسيون والصوفية:

وأما الطريقة الدرقاوية والتجانية: فقد نشأتا في القرن الثاني عشر الهجري، وأما الطريقة الكتانية، فقد نشأت في القرن الثالث عشر.

وقد شوه الفرنسيون تاريخ هذه الطرق الثلاث، بدعوى أنها كانت تتعاون معهم ضد السلطان، وضد الحركات التحريرية، ويستطيع من يراجع كتاب «**روم لاندو**» وكتاب «**بول أودينو**» الفرنسيين، أن يدرك مدى التضليل الكبير في تشويه سمعة هذه الطرق، وما وراء ذلك من أهداف السياسة البعيدة المدى، وأقلها التفرقة والتعادي بين الصف المسلم كما حدث بالفعل.

ولهذا كان الكلام عن هذه الطرق الآن مشيًا على الشوك، غير أنَّ الذي لا شك فيه، أنَّ بعض الأتباع وبعض السَّادة في هذه الطرق كان قد خدع، كما أنَّ بعضهم كان قد اضطر تحت حكم ظروف خاصة - أرجو أن أنشرها تفصيلاً يومًا ما إنصافًا للحقيقة إن شاء الله - فتعاون هذا أو هذا بصورة أو بأخرى مع فرنسا أو غيرها متأولاً مجتهدًا، أو مضطرًّا فيما

نعتقد، ثم بقيت الكتلة الأصيلة نفسها من هذه الطرق سليمة بعيدة عن المستعمر، عاملة بكل جهدها مع الأحرار.

فمجاراتنا الكُتَّاب أو المؤرخين أو مراسلي الصحف الأجانب، على تعميمهم في الإخبار عن الصوفية أولئك، نوع من ظلم التاريخ، والتعمية، كما تدل عليه الدراسات العلمية المنصفة.

ولفرنسا دائمًا دور معروف مع الصوفية في كل بلد استعمرته قديمًا أو حديثًا حتى في مصر، ثم لاتساع رقعة التبعية الصوفية بالمغرب، وتعسر الاتصال السريع بينهم، ولتباعد مختلف الطبقات، والمستويات في مجتمعهم ـ تيسر دائمًا محاولة خداع بعضهم أو التغرير بهم، أو إرهاقهم واضطرارهم.

فمثلا لا يؤاخذ التجانية بما كان بين الماريشال بيجود والشيخ البشير أحد شيوخها، فهو -إن صحَّ - اضطرارٌ أو خطأٌ فردي لا تحاسب عليه الطريقة، ولا يؤاخذ الدرقاوية مثلاً بما كان بين الشيخ الحسن وبين فرنسا، ثم ما كان ما بينه وبين الحلفاء والمحور، ولا يؤاخذ الوزانية بما كان بين الشيخ عبد السلام وبريطانيا، أو بما كان بين بعض شيوخهم والأمير عبد الكريم، ولا يؤاخذ الكتانيون كذلك بمواقف الشيخ عبد الحي في مراكش، فلكل هذه المواقف حوافز شخصية وأسباب تفصيلية، وهي كما قلنا أعمال فردية إنْ صحت، وقد تعمدنا الإشارة إليها لننصف كتلة الطريقة نفسها، فلا تؤاخذ بخطأ واحد أو أكثر منها، وهل خطأ مسلم من المسلمين معناه خطأ الإسلام كله كدين، أو معناه خطأ المسلمين كلهم كأمة؟ فليتق الله من يأخذون بظواهر الأمور، ولا يتمسكون إلا بالقشور وليكن الحَكَمُ أصيلاً منصفًا

دقيقًا، وقد قلنا إننا لا ننزه هؤلاء عن الخطأ، ولكننا نقول إنهم اضطروا أو تأولوا واجتهدوا فأخطأوا، ولا تزر وازرة وزر أخرىٰ.

أما الطريقة العيسوية البدعية: فهي غير العيسوية الشرعية بمنصورة إقليم مصر من الجمهورية العربية المتحدة، فالعيسوية هنا شاذلية مدنية قاوقجية محمدية، تُنسب إلى العارف الصالح الأخ الشيخ أحمد العيسوي من أسرة العيسوي المعروفة بالدقهلية ودمياط، وهو رجل شريعة وحقيقة، وعلم وعمل، وبركة وشرف إن شاء اللّٰه.

أما العيسوية المغربية: فطريقةٌ أسسها في القرن العاشر الهجري سيدي الشيخ محمد بن عيسىٰ، أحد تقاة الصوفية المتورعين بمرَّاكش، وكان صاحبَ خلوة وتعبد وحال، وكان متمسكًا بالشريعة، معتقَدًا من الناس جميعًا.

ثم خلف من بعده خلف نقلوا انحرافات السَّلامية والعروسية، من جنوب المغرب العربي إلى الطريقة العيسوية بشماله الأقصىٰ لمناسبات مختلفة، فنقلوا إليها الطبل والرقص والبخور، والتنويم الذاتي، والخروج عن الأطوار بالانفعال العصبي، وما يُسمَّىٰ «**الزار التمصوفي**» واحتراف إشاعة عدوىٰ الأمراض العصبية والعقلية والنفسية.

وفي مصر من هؤلاء الممخرقين بقية تطفو بالإسكندرية وضواحيها وبعض نواحي البحيرة والشرقية، وفي قلب القاهرة، مع الأسف الشديد.

أما في مراكش، فما إن تحقق المرحوم الملك محمد الخامس من فساد هذه الطائفة البدعية حتىٰ أصدر مرسومًا ملكيا بحلِّها وتحريمها، وعقوبة من ينتسب إليها.

ومما يذكر بهذه المناسبة استطرادًا، هذه المصادفة التي يذكرها مؤرخو الملل والنحل، فيقولون: إنَّ في يهود أصبهان طائفة تسمى العيسوية، وهذه الطائفة تقول إنَّ النبي محمدًا ﷺ مرسل حقًّا، صادق في كل ما جاء به، ولكنه نبيٌّ للعرب وحدهم، ولا يجوز أن يؤمن به غيرهم.

وبعد: فقد تحرر الشمال الإفريقي أو كاد، وسوف ينمحي كل أثر للاستعمار فيه، وسوف يتوحد الصف المسلم، ولن تعود إليه التفرقة إن شاء الله.

***

التعريفُ بالطريقةِ المحمَّديةِ (١)

ما بين الحين والحين تصلنا مكاتباتٌ من إخوان وأحباب، في بعض الأوطان الإسلامية يسألوننا شيئًا من التعريف بالطريقة المحمدية التي ننتسب إليها.

ولقد عرف الإخوان من قبل الفرقَ الأساسيَّ الكبير بين الطريقة المحمدية و العشيرة المحمدية، فالعشيرة المحمدية دعوة لخدمة التصوف عامة، ككتلة وجبهة واحدة لا نظر فيها إلى طريقة بالذات، ولا نسبة بالخصوص، ولا إلى منهج محدد، ولسانُ حال العشيرة مجلةُ المسلم التي هي مجلة كل صوفي شرعي.

فالعشيرة بحمد الله هي الجامعة الصوفية العالمية في عصرنا الحاضر، ومجلتها مجلة العالم الصوفي، ولا نزكي على الله أحدًا.

أما الطريقة المحمدية فدعوة صوفية مذهبية مستقلة، ذات كيان خاص ومنهج ذاتي، ومقومات وخصائص معينة.

وقد رأينا أنَّ خير وسيلة للتعريف بها، هو نشر الجزء الآتي من الإجازة التي تمنحها الطريقة المحمدية للمتقدمين العاملين من رجالها، فلعلها خير وسيلة للتعريف بأصل هذه الطريقة الآن.

أما أورادُ الطريقة، وأما الآداب وغيرها، ففي المطبوعات الخاصة بهذا

---

(١) غرة ربيع الآخر (١٣٨٢هـ) ٣١ أغسطس (١٩٦٢م)، العدد التاسع من السنة الثانية عشرة.

الجانب ، وإليك هذا التعريف ، فما أعجبك فَخُذْ ، وما لم يعجبك فدع ، وإياك وسوء الظن الموبق ، والعاقبة للتقوىٰ .

(١) تصوف المسلمين :

نعتقد أنَّ التصوف الإسلامي النقي ، إنما نزل به الوحيُ السماويُّ ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران:٧٩] ، والربانية هي ما اصطلحنا علىٰ تسميته بالتصوف لسبب أو لآخر ، وأساس الربانية في نص الآية هو العلم والمدارسة ، ومقتضاهما الطبيعي هو التخلق والممارسة .

وأهل الصُّفة هم أهل الربانية في الإسلام ، والربانيون فيه هم الصوفية ، وفي أهل الصُّفة نزل التكريم الإلهي المعروف في القرآن ، وأمر الله رسوله أن يصبر معهم نفسه ، فهم عِبَادُ الرَّحْمَن الذين فصَّلَ أوصافهم في سورة الفرقان ، وهم أهل الأخلاق والصفات المضافة إلى المؤمنين والمتقين والمحسنين والصابرين في مواضع شتىٰ من كتاب الله على اختلاف الموقع والأسلوب والبيان .

ولعل من أجمع أوصاف الصوفية أنهم : التائبون ، العابدون ، الحامدون ، السائحون ، الراكعون ، الساجدون ، الآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله ، فهم أهل البُشرىٰ في الحياتين .

فالتصوفُ إذن وحيُ الله الثابت في أعلىٰ مراتبه ، ثم هو بالتالي سنة نبيهﷺ حيّة في أعلىٰ درجاتها ، وحسبك منها أن يكون التصوف فيها هو مقام الإحسان ، وقدس الذكر ، وطب القلوب ، وسبيل المعرفة ، ومعراج

معالي الأمور، ومعنىٰ هذا أن التصوف هو طلب الكمال، فهو فرض عين علىٰ كل مسلم ومسلمة، من أغفله أَثِمَ، وحاسبه الله.

ثم إنَّ التصوف هو قضية العقل والفكر، فهو ملاك العقيدة.

وهو قضية القلوب والأرواح، فهو أساس العبادة.

وهو قضية الأخلاق والأدب، فهو دستور المعاملة.

وما الدنيا بشيءٍ بعد هذه الأقضية الثلاثة.

والتصوفُ حقيقةٌ ربانية واحدة، مصدرها الكتاب والسنة، وهي تبدأ من التوبة، وتنتهي بالمعرفة علىٰ بصر وبصيرة، أما اختلاف أساليب التربية والسلوك والتعبد والرياضة، فضرورة طبيعية في المجاهدة، وهي تعود جميعًا إلىٰ أصول الدين وفروعه، حتىٰ تتلاءم شُعب الدعوة، وتتجاوب مع مختلف الشخصيات والبيئات، والقابليات والاستعدادات ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٠] ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وعليه فاختلافُ أسماء الطرق الشرعية وتعدد أشياخها، لا يعني سوىٰ اختلاف الوسائل وحدها مع اتحاد الأصول والأهداف جميعًا: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

ونحن هنا نتحدث عن التصوف الأبيض النقي، ولا علاقة لنا بتصوف غيرنا علىٰ علاته، سابقًا ولاحقًا، وإنْ كنا نحب أنْ نحسن الظنَّ بكل ما يقبل التأولَ والاجتهاد، مما قد يُنسب إلىٰ تصوف أهل الحق، ولكل امرئ ما نوىٰ.

ثـم إننا لو فرضنا الخطأ، بل لو فرضنا الانحرافَ في رجل أو رجال ممن انتسبوا إلىٰ هذا الجانب الإلهي، فليس معنىٰ هذا أن نفرض الخطأَ والانحرافَ في نفس الدعوة، أو في بقية جماهير المنتسبين إليها، فالتصوفُ شيءٌ غير المتصوف، كالإسلام شيء غير المسلم، فلا يكون ضلال المتصوف أو المسلم كبشر، معناه ضلال التصوف كمذهب أو الإسلام كدين ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

(٢) الطريقةُ المحمَّديةُ:

وفي هذا الفلك الإسلامي الراقي، تدورُ دعوة الطريقة المحمدية، سمحة بيضاء، ليلها كنهارها، ولعل من فاته شرف الانتفاع بها قد فاته الشيءُ الذي لا يعوض، وضاع منه ما لا يُغني عنه سواه، ولا نزكي على الله أحدًا.

والطريقةُ المحمَّديةُ مع أنها موصولة السند الروحي برسول الله ﷺ من سلسلة السَّادة الناصرية الشاذلية أصلًا وأساسًا، فإنها كذلك قد جمعت بنعمته تعالىٰ فضائلَ وبركاتٍ وأمدادًا وخصائصَ كريمة، لعدة طرائق أخرىٰ من أصول الطرق الشرعية الكبرىٰ كالخلوتية، والنقشبندية، والتجانية، والقادرية، والأحمدية وغيرها كما سيأتي مفصلًا بإذن الله.

فالمريدُ المحمديُّ موصول السند بكل مدد، وهو مع تمسكه المطلق بطريقته، ومع اعتزازه واعتداده الكلي بمحمديته، ومع وفائه الخالد بعهده من الله، تراه أخًا لكل مريد متحقق، وحبيبًا لكل داعية عارف، وأمينًا لكل ولي لله، لكنه لا يقبل التغفيل ولا التضليل، ولا يسكت عن النصيحة في الله بالتي هي أحسن، ثم هو يطلب العلم حيث كان، ولكن

لا يذكر إلا مع الإخوان، فالعِلمُ مَطالبُ تأتلف، والذِّكرُ مشاربُ تختلف ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة :١٤٨].

وهكذا تجدنا أصحابَ مدرسة صوفية حديثة مستقلة بكيانها ومقوماتها وحيوياتها وخصائصها، ولعل من مميزات هذه الطريقة أيضًا أنها تجعل العناية بالثقافة الإسلامية، والخدمة الاجتماعية والإنسانية في منزلة لا تقل أبدًا عن العناية بالتربية الدينية والروحية، وترى أنها جميعًا حلقة واحدة، يُفضي بعضها إلى بعض، ولا غنى لبعضها عن بعض، ولا يقوم بعضها إلا ببعض، ولهذا نقول إنه لا بد من إصلاح جذري في الدعوة الصوفية الحالية حتى تؤدي رسالة الله.

(٣) المنكراتُ والبدعُ:

ونحمد الله تعالى على أنه ليس في طريقتنا هذه سبيلٌ إلى بدعة أو محرم أو منكر، ولا إلى دخيل أو مدسوس أو ملفق، ولا إلى انحراف فكري أو تعبيري أو عملي، أو غيره.

وربما كان من الخير ضرورةُ النصِّ على أنه ليس في طريقنا: طبلٌ، ولا زمرٌ، ولا رقصٌ، ولا رايات، ولا أشاير، ولا دلوق، ولا مرقعات، ولا طراطير، ولا عكاكيز، ولا سواري، ولا جمع جموع، ولا ركبة خليفة، ولا دعاوي ولاية، ولا كشف غيب، ولا تجارة بالكرامات والخوارق، ولا احتراف للتبطن والمخالفة، ولا قول بالحلول والاتحاد والوحدة، ولا لغو بمخالفة الشريعة والحقيقة، ولا تستر بالإلغاز والتحجية والإشارة، ولا تفتن بسقوط التكاليف وصور العبادة، ولا تبطل، ولا تعطل ولا شعوذة، ولا غير ذلك من العبث والتشغيب الصارف عن خدمة الحق، بل

إننا نكافح كل ذلك بكل ما لدينا من وسائل شرعية وطاقات .

ولا بُدَّ من الإشارة إلى أنه ليس في طريقنا على إخواننا ضرائبُ دورية ولا مكوس مالية ، ولا عوائد مادية ، ولا اشتراكات عينية ، وإنما هي تبرعات حرة واختيارية ، لمن شاء أن يتعاون مع صندوق الإخوان الخيري على البر والتقوى ؛ لمواجهة ما هو مفروض على الطريقة من أعباء ومسئوليات ، وخدمات دينية ، وأخوية ، وإنسانية ، تجاه اليتامى ، والأيامى ، والفقراء ، والمرضى ، والعجزة ، والمبتلين المحسوبين شرعًا على الطريقة ، ثم لمواجهة ما لا بُدَّ منه من خيرات المواسم والمناسبات ، وما لا رخصة فيه من الإنشاءات والصيانات والطوارئ والمفاجآت ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] .

(٤) سببُ التسمية :

إنَّ كل من نطق بالشهادتين مسلمٌ ، سواء عصى أو أطاع ، لكنَّ المحمديَّ هو المطيع الصادق ، وهذا هو الفرق بين مفهوم المسلم ومفهوم المحمدي ، ولما اتخذت الطريقة لنفسها هذا المنهج الكامل الشامل الجامع بين فضائل السلف والخلف ، وجعلتْ سيدنا محمَّدًا - رسولَ اللهِ ﷺ - قِبلتَهَا وأسوتها وقدوتها ، اشتهرت باسم الطريقة المحمدية ، نسبةً مباشرة إلى سيدنا محمَّدٍ رسول الله ﷺ ، وتيمنًا بحبه ، وتفاؤلًا باسمه ، وتذكرًا بذكره ، وليس في الدنيا أشرفُ ولا أعلى ولا أسمى من قداسة النسبة إلى جنابه ﷺ فلا يفضل النسبة إلى غيره عن النسبة إليه مسلم قط ، وتلك أيضًا خصيصة فريدة لطريقتنا من نعمة الله .

(٥) قواعدُ وأصولٌ :

وليعلم الأخ الصالح أننا الآن طائفةٌ قليلةٌ ، مؤمنةٌ فقيرةٌ ، مجاهدةٌ غريبةٌ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[سبأ :١٣] ، ولا اعتبار عندنا للمظهريات قط ، ولا للكثرة أبدًا ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦] .

وإنَّ من أصول مؤاخاتنا ، قبولنا على علاتنا ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[الإسراء:٨٤] فليس بعد الرسول بَشَرٌ معصوم ، وفرق ما بين الأولياء والأنبياء ، هو جواز وقوع الخطأ من الولي ، وعصمة الله للنبي ، فكيف بالفارق بين النبوة والإنسانية العامة المجردة؟

لكننا نجعل حتميةَ التناصح في الله بشروطه واجبًا عينيًا بيننا لا رخصة فيه ، ونعتقد كذلك حتمية مواصلة الأخ تثقيف نفسه دينيًا ومدنيًا وتعبديًا ، وتثقيف أهله وبيئته بثقافته الإسلامية الروحية .

ونعتقد حتمية مبايعة الأخ زوجته ، وأبناءه ، وبناته ، وكل مَن له عليه ولاية بهذه الطريقة ، وتكليفهم تحت إشرافه بالتزام كافة أصولها وفروعها بالقدر المستطاع .

ونعتقد كذلك حتمية الأدب المطلق مع إمام الطريقة وحسن الظن به ، وتمام الاعتقاد فيه وملازمة التعاون الإيجابي معه ، وهكذا للسالك على الإمام حقوق التلمذة والبنوة والصحبة ، وللإمام على السَّالك كل حقوق الأستاذية والأبوة الروحية المقدسة .

ونعتقد كذلك حتميةَ ملازمة الأخ لمجالسنا العلمية والتعبدية

والأخوية ، لا يصرفه عنها إلا عذرٌ قاهر يقبله اللَّه ، إنما التصوف صحبة وقدوة وجهاد .

وليعلم الأخُ السَّالك الداعية ، أنه قد ينقلب عليه أقربُ الناس إليه ، وربما كان يا أخي : شرُّ من خانك هو خير من أعطيتَه أمانَك ، فاعلم أنها سُنة اللَّه في البشر ، فهي قَدَرٌ لا يُغني عنه حذر ، وعلينا مقابلة المفاجآت والفواجع بالصبر والرضا .

وليعلم أخونا في اللَّه أنَّ من خالف عنا فليس منا ، وإن ظل ينتسب إلينا ، فإنما إثمه عليه لا علينا ، وبهذه المخالفة ينسحب عنه شرفُ صحبتنا ، وينُتزع منه حقُّ أخوتنا ، بطريقة ذاتية آلية تلقائية ، لا حاجة معها إلى بيان أو إعلان .

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد :٢٥] .

وليتذكر الأخُ أنَّ بيعتنا معه كانت على : اعتقاد عقائدنا ، واعتياد عوائدنا ، وشهود مشاهدنا ، والقول بأقوالنا ، والعمل بأعمالنا ، والتحقق بأحوالنا ، والوفاء بالحق لنا .

﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾[الأحزاب : ٢٤] سبحانه .

(٦) الشيخ والطريق :

وقد أسلفنا لك أنَّ تصوفنا ثابتٌ بالوحي ، كتابًا وسنة ، وأنه طلب الكمال ، فهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة ، فقد تعيَّن عليك إذنْ التماسُ

سبيل الله إلى الكمال بأهل القدوة ﴿ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ [لقمان :١٥] .

وتعين عليك اختيارُ مَنْ يدلك على صاحب السبيل، مفيض الكمال ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴾[الفرقان :٥٩] .

وبالتالي وجب اختيارُ الجماعة التي تجاهد معها، فلا يكفي أن تتقي وتنطوي ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة :١١٩] ووجب أن يتصل نَسبُ الصادقين فلا ينقطع ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ [الأنعام :٩٠] .

ملخص سند الطريق المحمدي

تقدمة أساسية :

ولما كان من المتعين على كل مسلم عاقل - فضلًا عن كل سالك فاضل - أنْ يعلم - ولو إجمالًا - نسبه في الله وحسبه، وسنده الروحي ومدده؛ ليتبصر في نعمة الله عليه، ويتحرَّىٰ القيامَ بحقها، تقربا إليه، وليكون له من ذكر أشياخه مددٌ وتذكره، ومن سيرتهم أسوة وتبصرة، ومن بركتهم وسرهم فضل نور ومزيد يقين .

ولما كان التلقي بسنده عندنا ثلاثة مراتب :

أولًا : تلقي السلوك والمجاهدة، وهو من الشيخ الكامل لا يغير ولا ينقض .

ثانيًا : تلقي البركة والتيمن، وهو لا يجوز إلا بإذن الشيخ الأول وتوجيهه .

ثالثًا : تلقي الصحبة والمبادلة، وهو خاص بكبار الرجال يتبادلون الإذن بالعلوم والأوراد، والصيغ، والأسرار، زيادة في المدد، وتمكنا من الحقائق .

ولما كان ذكرُ ما لنا من الأسناد والأنساب العلمية والروحية ، لا يسع تفصيلَها هذا المقام ، لذلك أفردنا لها ثبتًا خاصًا ، مكتفين هنا بالإشارة إليها إجمالا .

ترابُ أقدام الدعاة إلى الله :

فأقول : أنا العبدُ المذنبُ الخطَّاءُ المعترف ، ترابُ أقدام الدعاة إلى اللَّه ، وخادمُ نعال الواقفين بحقٍّ على باب اللَّه ، المنسوبُ إلى البيت المحمَّديِّ حسًّا ومعنى ، الحُسينيُّ الشَّرفِ أبا وأُما ، المصريُّ القاهريُّ نشأةً ومولدًا ، العربيُّ المسلمُ جنسية ودينًا وموطنًا ، الصُّوفيُّ السَّلفيُّ الشَّرعيُّ دعوة ومشربًا ومذهبًا ، الأزهريُّ تربيةً وإجازةً وتحصيلًا ، الموظفُ بوزارة التربية والتعليم بالجمهورية العربية المتحدة ، والمقيمُ بالدار المحمدية العامة بحي قايتباي التابع لقسم الجمالية من محافظة القاهرة ، الفقيرُ إلى اللَّه وحده ، المعتصمُ باللَّه ، المُكنى بأبي البركات ، **محمدُ الملقبُ بزكيِّ الدين بن المرحوم السيد إبراهيمَ الخليل** .

قد تلقيتُ البيعة الشَّرعية على الخدمة الإسلامية الجامعة ، ومنها خدمة التصوف الإسلامي عمومًا ، وخدمة الطريقة المحمدية الشاذلية خصوصًا ، ووراثة مشيختها على الأخص ، عن شيخي وقدوتي مربي روحي وجسدي ، والدي وسندي أبي البركات المرحوم العارف باللَّه العابد الزاهد المجاهد ، **الشريف الحسيني الشافعي الأزهري السيد إبراهيم الخليل** ، الملقب أيضًا بخليل اللَّه ابن علي بن محمد الملقب كريم الدين الصغير من أحفاد سيدي حسام الدين بن سيدي يوسف بن منصور ، ومشهده بالشرقية يُزار ، ووالدي دفين ضريح الأئمة المحمديين بالزاوية الكبرى ، الملحقة بالبيت المحمدي بقايتباي بالقاهرة .

سند الإمام الشيخ إبراهيم الخليل :

أما والدنا السيد **إبراهيم خليل الله** ﵁ ، فكان قد تلقى بيعته الأولى بالطريق ، عن ولي الله الشيخ المكيِّ إمام الخلوتية في عصره بإقليم الشرقية ، ثم لما توفي الشيخُ المكيُّ تلقى بيعة الفتح والجهاد ووراثة المشيخة ، عن شيخه وعمه وصهره جدنا لوالدتنا السيد العارف بالله العابد ، القطب المجاهد ، صاحب الكرامات الخوالد ، الشريف الحسيني الشيخ محمود أبو عليان الكبير بن زيد بن علي بن نصار الصعيدي البصيلي ، الزوايدي مولدًا ، القاهري البولاقي إقامة وموطنًا ، المالكي مذهبًا ، الشاذلي المحمدي مشربًا ، والذي تسمَّى باسمه ـ تبركًا ـ كثيرٌ من الرجال والأسر ، وأضيف اسمه ولقبه البصيلي وأبو عليان إلى كثير من العباد والبلاد في الجمهورية ، وهو دفين ضريح الأئمة المحمديين بالزاوية الكبرى بقايتباي بالقاهرة .

سند الإمام الشيخ أبو عليان :

أما جدُّنا الشيخ **محمود أبو عليان** الكبير فقد تلقى بيعته الصوفية ، ووراثة المشيخة الناصرية ، عن شيخه ولي الله العارف التقي الشيخ علي الصعيدي شيخ الطريقة الناصرية في وقته ، وهو تلقاه بسنده المبارك عن أشياخه الأبرار ، إلى العلامة العارف الشاعر المحدث الصوفي صاحب التوسل المستجاب ، سيدي الشيخ أحمد بن ناصر الدرعي ، المعروف بالخليفة .

سند الإمام الشيخ أحمد بن ناصر :

أما الشيخ **أحمد بن ناصر الدرعي** ، فقد تلقىٰ بيعته عن والده العلامة الصوفي ، المحدث الفحل ، الرحالة ، المؤرخ ، الثبت ، مجدد الشاذلية ، القطب العارف بالله ، سيدي أبي عبد الله محمد بن ناصر بن عمر الدرعي المغربي ، مؤسس الطريقة الناصرية ، ودفين درعه بالمغرب الأقصىٰ .

سند الإمام الشيخ محمد بن ناصر ، والإمام الشاذلي :

أما الشيخ **محمد بن ناصر** ، فقد تلقىٰ بيعته عن أشياخه الأكابر كابرًا عن كابر إلىٰ مولانا الأمير الإدريسي الحسني ، الإمام الصوفي ، المجدد الأكبر ، والقطب العارف الأشهر سيدي الإمام علي أبي الحسن الشاذلي ، وهو تلقى البيعة بسنده إمامًا عن إمام .

أولًا : تلقىٰ **الشَّاذليُّ** عن سيدي أبي عبد الله محمد بن خرازم ، عن سيدي الشيخ أبي محمد صالح بنصار بن عقبان السوكاكي المالكي ، وهو عن أبي مدين ابن شعيب الأندلسي الأشبيلي الأنصاري ، عن أشياخه إلىٰ سيدنا رسول الله ﷺ .

ثانيًا : ولما توفي الشيخ **أبو عبد الله** تلقى الإمامُ **الشَّاذليُّ** عن سيدي عبد السلام بن بَشيش - ويُسمىٰ كذلك مَشيش- وهو يجتمع في سلسلة النسب العصبي مع الإمام أبي الحسن الشاذلي ، عند سيدي إدريس بن عبدالله ابن الحسن المثنىٰ ، المبايع له بالمغرب فهو جدهما معًا .

وقد تلقى الشيخُ **ابنُ بشيش** ، عن سيدي عبد الرحمن الحسني المدني

العطار الزيات، بسنده إلى سيدنا رسول اللهﷺ عن الروح الأمين، عن الملك الحق المبين.

أصولٌ وفروعٌ:

هذا هو الأصل الأصيل، والسند الأساسي المعتمد للطريقة المحمدية الناصرية الشاذلية، وبهذا الأصل الجليل يتصل أساسًا وتبركًا عددٌ كبير من خاصة الطرق العلية - خصوصا بعض فروع الشاذلية- كالعفيفية، والقاوقجية، والجوهرية، والإدريسية، والكتانية، والختمية، والحصافية، والمدنية، والفاسية، وبعض فروع الخلوتية، والنقشبندية وغيرها رضي الله عنهم وعنا بهم.

السَّندُ المباشِرُ:

هذا ومن نعمة الله أنْ تلقيتُ كذلك الإذن بمشيخة الطريقة الناصرية مباشرة، من العارف المجاهد التقي الصالح السيد اليمني الناصري كبير الدوحة الناصرية الشريفة في عصرنا الحاضر، وذلك كان أيام أنْ استضافته القاهرة، هو وشقيقه السيد المكي الناصري، عندما طاردتهما فرنسا، وهما يعملان بأتباعهما في صفوف المجاهدين لتحرير شمالي أفريقيا المسلم.

أسنادٌ أخرى لأبي عليان:

ولما حضر مولانا الإمام أبو عليان من الصعيد إلى القاهرة في طلب العلم وخدمة الدعوة، صحب من شيوخه العلامةَ العارف الشيخ محمد عليش الكبير، فأذنه تبركًا بالطريق الشاذلي من سلسلة الأمير الصغير،

فالأمير الكبير، فالجوهري الخالدي، فالشيخ الجزولي صاحب الدلائل بسنده إلى أبي الحسن الشاذلي.

وكذلك صحب شيخَهُ العلامة العارف الشيخ حسن العُدوي، فأذنه تبركًا بطريق الشاذلية من سلسلة الشيخ البهي عن السيد مرتضى الزَّبيدي، ثم أذنه بالشاذلية من سلسلة الشيخ الغريني، على أنَّ للشيخ البهي كذلك سندًا معروفًا في «**الخلوتية**» من طريق الشيخ الحفني.

وكان الشيخ العُدويُّ يأذن بالطريقتين الشاذلية والخلوتية معًا خواصَّ مريديه، ثم صحب الشيخ أبو عليان وليَ الله المبارك الشيخَ أحمد رضوان العفيفي فتَحَابَّا معًا، وأذن كل منهما صاحبه بما عنده من أوراد وأحزاب ودعوة.

وكان لسيدي الشيخ أبي عليان علاقة أخوة وصحبة في الله مع كل من أولياء الله، سيدي سرِّ الختم الكبير إمام المراغنة الختمية الأول بالسودان، وسيدي إبراهيم الرشيد الإدريسي، وسيدي الأمير عبد القادر الجزائري، وسيدي الإمام الشيخ أحمد ابن علي السنوسي، وسيدي الشيخ ظافر المدني، وسيدي محمد البوزري المستغانمي الدرقاوي، وسيدي الإمام المحب الشيخ يوسف النبهاني، وقد تبادل معهم جميعًا الإذن بالأحزاب والأوراد وخصائص الطريق بحمد الله.

فالمريدُ المتصل سنده الروحي بسيدي الشيخ أبي عليان متصل بكل هذه الأسناد المباركة، وأسرارها المحققة.

ومن الوفاء الإشارةُ إلى أنَّ الشيخ أبا عليان، كان قد لاقى مع شيخيه

المجاهدين العُدوي وعليش كثيرًا من المحن الكبرىٰ ، من جراء المشاركة في الحركة العُرابية الإسلامية ضد أعداء الله وأعداء الوطن ، كما كان لوالدنا السيد إبراهيم الخليل مشاركات وطنية وإسلامية معروفة منذ عهد مصطفىٰ كامل ، عانىٰ من جرَّائِها البلاء الشديد .

أسناد التيمن والبركة :

ومما مَنَّ الله به عليَّ أنْ تلقيتُ إذن التيمن والسند والتبرك والمدد -مع ما لقنني إياه والدي وبإذنه- عن طائفة من كبار صالحي شيوخ الطرق الصوفية في عصري تشبهًا بالرجال ، وطلبا للكمال ، وقد أيدني الله فخدمت ما استطعت كل هذه الطرق وأفدت منها ، مع توفري علىٰ تمام خدمة طريقتي الأساسية المحمدية الناصرية الشاذلية .

الطريقة العفيفية :

فتلقيتُ الإذن بالطريقة العفيفية عن والدي عن جدي ، عن الشيخ أحمد بن رضوان عن آبائه إلى الشيخ العفيفي ﷺ وعنا به .

الطريقة الإدريسية :

وتلقيتُ الإذن بالطريقة الإدريسية عن والدي عن سيدي السيد أحمد عن سيدي إبراهيم الرشيد ، عن سيدي أحمد بن إدريس ، ثم تلقيتها عن الشيخ علي الجربي بسنده إلى الإمام ابن إدريس .

الطريقة النقشبندية :

وتلقيت الإذن بالطريقة النقشبندية مرات عن والدي عن الشيخ محمد أمين الكردي ، ثم تلقيتها عنه عن الشيخ محمد أمين البغدادي ، ثم تلقيتها عن السفير الأفغاني الصوفي الشيخ محمد صادق المجددي ، ثم تلقيتها عن العلامة البركة الشيخ إبراهيم الغلاييني المفتي الدمشقي ، ثم عن العارف المجاهد الشيخ محمد رشيد الخالدي مفتي زاده الكردي اللبناني .

الطريقة الخلوتية :

وتلقيتُ الإذن بالطريقة الخلوتية ، عن والدي عن الشيخ المكي ، وعن والدي عن أبي عليان عن العدوي من طريق الحفني ، ثم تلقيتها عن الشيخ محمد بن إبراهيم الببلاوي ، عن الشيخ أحمد أبي شرقاوي ، ثم تلقيتها عن الشيخ عبد العظيم القاياتي ، ثم عن الشيخ إبراهيم أبي العيون الكبير ، ثم عن الشيخ أبي الوفا الشرقاوي .

وللسادة الخلوتية المصرية سندٌ ملازمٌ إلى النقشبندية ، عن سيدي الدردير ، عن الإمام الحفني ، عن الشيخ البكري ، عن سيدي الحلبي ، عن الشيخ عبد القدوس النقشبندي ، بسنده إلى السري السقطي ، بسنده إلى الإمام عليٍّ .

فيكون للسادة النقشبندية أيضًا هذا السند إلى الإمام عليٍّ ، بالإضافة إلى سندهم المشهور إلى سيدنا أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ .

القادرية والدرقاوية :

وقد تلقيتُ الإذن بالطريقة القادرية عن ولي الله المبلغ الإسلامي الشيخ عبدالعليم الصديقي الهندي ، ثم عن العلامة الداعية الشيخ عبد الحامد البدايوني الهندي .

وتلقيت الإذن بالطريقة الدرقاوية والعلوية عن ولي الله الشيخ محمد الهاشمي التلمساني الدمشقي ، ثم عن ولي الله المستغانمي العلوي الجزائري .

التجانية والصديقية :

وتلقيت الإذن بالطريقة التجانية ، عن الشيخ الرحالة فرع الدوحة التجانية ، السيد ابن عمر بن الشيخ محمد الكبير بن الشيخ محمد البشير بن الشيخ محمد الحبيب بن الشيخ أحمد التجاني ، وسند التجاني إلى الشاذلية والخلوتية وغيرهما معروف ، وكان ذلك في إحدىٰ زيارات الشيخ ابن عمر للقاهرة .

وتلقيت الإذن بالطريقة الصديقية عن المحدث المجاهد الشيخ أحمد ابن الصديق المغربي ، كبير بيت الصديق ، ودفين القاهرة ، وسنده إلى الشاذلية معروف كذلك .

الكتانية وطرق أخرى :

وتلقيت الإذن بالطريقة الكتانية عن المحدث العارف سيدي محمد بن سيدي محمد بن جعفر الكتاني ، أثناء زيارته الأولىٰ مع السادة إخوته للقاهرة .

وكذلك تلقيت الإذن بالطريقة الأكبرية ، والغزالية ، والزرُّوقية ، والسهروردية ، والقُشيرية ، والسنوسية ، والنابلسية ، والسُّمَّانية ، والجيباوية ،

والوفائية، وفروع الشاذلية من عدة طرق مفصلة في الثبت الخاص بنا - بفضل الله- كما تلقينا الإذن بطرق ومؤلفات الشيخ النبهاني وغيره من الشيوخ عليهم رضوان الله .

تبادل أسناد البركة مع السيد الوالد :

وقد كان لوالدنا بركة الزمان السيد إبراهيم خليل الله كذلك، مصاحبات أخوية ومودات روحية كبرىٰ، تبادل فيها الإذن بالطريق والدعوة تبركًا من الجانبين مع كثير من أحبابه السادة الدعاة الذين عاصروه، وبرغم أنه كان هو مَن هو جهادًا ودعوة، وصلة بالله ومهابة وجلالًا، كان حريصًا علىٰ ألا يفوته تبادلُ التبرك بمدد كل واقف علىٰ باب الله، ما دام معتصمًا بشرع الله في عصره .

أئمة نقشبندية :

ونذكر من هؤلاء السادة علىٰ سبيل المثال، سيدي الشيخ محمد أمين الكردي النقشبندي، وسيدي الشيخ محمد أمين البغدادي النقشبندي، وسيدي الشيخ جودة الشرقاوي النقشبندي، وسيدي الشيخ سلامة العزامي النقشبندي، وسيدي الشيخ أبو الخير الإهناسي النقشبندي، وسيدي الشيخ زاهد التركي النقشبندي .

أئمة شاذلية :

ومنهم كذلك سيدي الشيخ العقاد الكبير الشاذلي، وسيدي الشيخ الحصافي الكبير الشاذلي، وسيدي الجوهري الكبير الشاذلي، وسيدي الشيخ القاوقجي الكبير الشاذلي، وسيدي الشيخ عبد الرحيم السكندري

الشاذلي، وسيدي الشيخ يوسف السكندري الشاذلي، وسيدي الشيخ سليمان فوزي الشاذلي، وسيدي الشيخ الخفاجي الدمياطي الشاذلي، وسيدي الشيخ محمد ماضي أبوالعزائم الشاذلي، وسيدي الشيخ عمران الأسيوطي الشاذلي، وسيدي الشيخ إبراهيم الانبابي الشاذلي، وسيدي الشيخ أحمد العروسي الكبير الشاذلي، وسيدي الشيخ سلامة الراضي الشاذلي، وسيدي الشيخ سيد أحمد الدندراوي الشاذلي، وسيدي الشيخ علي غالب الشاذلي، وسيدي الشيخ عبد الكريم المكي الشاذلي، وسيدي الشيخ نسيم الأسمر الشاذلي.

أئمة الخلوتية :

ومنهم كذلك سيدي الشيخ محمد إبراهيم الببلاوي الخلوتي، وسيدي الشيخ أحمد الجنيدي الميموني الخلوتي، وسيدي الشيخ جودة أبو عبد المتعال القنبشي الخلوتي، وسيدي الشيخ أبو الليل الفيومي الخلوتي، وسيدي الشيخ عبد الخالق الشبراوي الخلوتي، وسيدي الشيخ أبو الوفا الشرقاوي الخلوتي، وسيدي الشيخ عبد العظيم القاياتي الخلوتي، وسيدي الشيخ إبراهيم أبو العيون الكبير الخلوتي، وسيدي الشيخ محمد أبو خليل الزقازيقي الخلوتي، وسيدي الشيخ الصاوي الكبير الخلوتي، وسيدي الشيخ ماضي الرخاوي الخلوتي، وسيدي الشيخ المسلمي الكبير الخلوتي، وسيدي الشيخ مصطفى أبو سيف الحمامي الخلوتي، وسيدي الشيخ عبد الجواد الدومي الخلوتي، وسيدي الشيخ السباعي الخلوتي.

أئمة آخرون :

ومنهم كذلك من غير المصريين ، سيدي الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي المغربي المحدث الثقة الصوفي ، وسيدي الشيخ مصطفىٰ صبري شيخ الإسلام السابق في تركيا ، وسيدي الشيخ محمد زاهد الكوثري علامة الدين والتصوف ، وسيدي أبو العباس أحمد بن مصطفى الدرقاوي الجزائري ، ولا يحضرني ذكر الباقين رضي الله عنهم جميعًا ، وقد أجازني السيد الوالد إذنًا عامًا بكل ما أجيز به من كل هؤلاء السادة ، وإنما ذكرناهم لنؤكد كيف أنَّ المريد المحمَّديَّ متصلٌ بكل سند ، ممنوح من كل مدد ، وأنه حبيب لكل سالك شرعي إلى الله ، وأمين معتقد في كل ولي صادق لله ، مع تمسكه المطلق بطريقته المحمدية الجامعة لكل خير معروف في الله .

الأسناد الروحية :

ونحن نعلم أنَّ ذكر الأسناد الروحية أمرٌ غريب علىٰ بعض الناس في عصرنا ، فمن ذكر ذلك استهدف ، ولهذا كان السلف يكتفون في هذه الأسناد بالتلقي الشفوي ، ولكننا هنا نسجل حقائق واقعية أكيدة بالنسبة لنا ولإخواننا ، ولا نجبر غيرنا على الإيمان بما نؤمن به من الغيب ، فليس كل الناس أهل لهذا الإيمان ، وحسابهم على الله .

الطريقة الخضرية :

وقد تلقىٰ جدنا الشيخ أبو عليان عن مولانا الإمام الخضر الطريقة مباشرة في المشهد الحسيني ، وتلقى الخضر عن رسول الله ﷺ مباشرة ، وقد تلقيت هذه الطريقة عن أبي عن جدي ، فيكون بيننا وبين رسول الله ﷺ من

هذا السند ثلاثة رجال، فإذا اعتبرنا الخضر صحابيا ـ على القول بحياته الجسدية أو بحياته الروحية المتجسدة ـ جاز تقديرًا أنَّ جدنا الشيخ أبا عليان تابعيٌّ، فيكون الشيخ الوالد من تابعي التابعين، ونحن بعده أتباع، رضي الله عنهم جميعًا.

الطريقةُ الشَّعرانيةُ :

وقد تلقىٰ والدي الطريقةَ الشَّعرانية عن روح سيدي عبد الوهاب الشَّعرانيِّ تلقيًّا روحيًّا مباشرًا في ضريحه علىٰ ما هو مقرر عند القوم، وكان ذلك في وجود روح جدي الشيخ أبي عليان، وتوصيته روح الشعراني علىٰ أبي رضي الله عنهم جميعًا.

وقد لقنني الوالد هذه الطريقة، فبيننا وبين الشَّعرانيِّ رجلٌ واحدٌ.

وقد تلقى الشَّعرانيُّ عن الشيخ الخوَّاصِّ، ولم يمت الشيخ الخواص حتىٰ تلقىٰ عن روح سيدنا رسول الله ﷺ بغير واسطة، فبيننا وبين النبي ﷺ روحيًا ثلاث رجال من هذا السند.

وكذلك تلقى الخواص عن المتبولي، والمتبولي تلقىٰ عن روح النبي ﷺ أيضًا بغير واسطة، فبيننا وبين النبي ﷺ أربعة رجال من هذا السند.

الطريقة الأحمدية :

وكذلك تلقىٰ والدي الطريقة الأحمدية عن روح سيدي أحمد البدوي تلقيًّا روحيًّا في ضريحه علىٰ ما هو مقرر عند القوم، وبحضور روح جدي وتوصيته كذلك.

وقد لقنني والدي هذه الطريقة ، فبيننا وبين سيدي أحمد البدوي رجل واحد فقط .

بيعة صالحي الجن :

وقد تلقىٰ جدي الشيخ أبو عليان بيعة التصوف والدعوة ، عن شيخ معمَّر من صالحي الجنِّ ، وهو تلقاها عن شيخه ، وشيخُهُ هذا تلقاها عن شيخه المعمَّر الكبير ، وكان هذا الشيخ الأخير من النفر الجني الذين استمعوا إلىٰ رسول الله ﷺ : ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبًا ۝ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن :١-٢] .

وقد لَقَّنَ جدي هذه الدعوة لوالدي ، وهو لقنها إياي ، وسمَّىٰ لي أسماءَ السادة الأشياخ الثلاثة من صالحي الجن ، ثم لم يأذن لي بذكر أسمائهم .

فبيننا وبين النبيِّ ﷺ من طريق بيعة صالحي الجنِّ خمسةُ رجال ، فضلًا من الله ونعمة .

وكذلك تلقى الوالد عن السيد الهادي ، وهو عن القاضي شمهورش عن رسول الله ﷺ فإذا كان القاضي شمهورش يعتبر صحابيا ، كان السيد الهادي تابعيا ، وكان الوالد من تابعي التابعين ، وقد تلقينا عنه هذا السند ، فنحن في الاعتبار التقديري من تابعي التابعين ، اللهم ألحقنا بالصالحين .

تعليق صغير :

هذا ، وقد أثبت العلم الرُّوحيُّ الحديثُ ، الذي يمارسه كبار المثقفين في أوروبا وأمريكا والشرق كله ، والذي تسانده الجامعات العالمية الكبرىٰ ، وتتألف له الجمعيات في كل قُطر ، وتصدر به المجلات الضخمة ، فضلًا

عن العلم الديني في الأديان السماوية كلها ؛ قد أثبت بلا أدنىٰ مرية – عقلًا ونقلًا – حقيقة وجود العَالم الرُّوحي وعالم الجن ، وصلة كل منهما بعالم البشر ، وتجسد الجن وتجسد الأرواح ، فلا سبيل إلىٰ إنكار ذلك من علم ولا دين عند السلف والخلف إجماعًا ، إلا من طريق علم الجهل ، أو علم المادية اللادينية ، ولا اعتبار لهذين العلمين عند أحد .

بلوغ الرُّشدِ الرُّوحيِّ وتعددُ التَّلقي :

ولا عجب في كثرة أسناد التيمن والبركة ، فهي سُنَّةُ كبار الرجال في العلم والدعوة ، وهكذا نرىٰ أنَّ ثبت بعض كبار السادة الأئمة في التصوف وفي الحديث قد سَجَّلَ التلقي عن عشرات ، ربما نيفت على المائة من الشيوخ ، ولعل من أحدث هذه الأثبات المتداولة بيننا اليوم ثبت الإمام الشيخ أحمد بن إدريس ، والإمام الشيخ يوسف النبهاني ، فضلًا عن غيرها من المخطوط والمطبوع .

وحسبك أنْ تعرف للاستئناس أنَّ سيدنا الإمام مالكًا ﵁ أخذ عن نحو تسعمائة شيخ ، منهم ثلاثمائة من التابعين ، ومن يدرس علم الرجال والطبقات والأسناد ، لا يرىٰ في هذا شيئًا من الغرابة على الإطلاق لمن توفرت فيه الشروط .

والشروطُ في تعدد التلقي عند القوم هي بلوغُ الرُّشد الرُّوحيِّ في خدمة الطريق الأصلي ، حتىٰ يَنال فيه درجة الفتح ، ثم إذنُ الشيخ المربي الأول وتوجيهه بتبادل إذن التبرك ، ثم أن يكون الغرض الأول والأخير هو تدعيم الطريقة الأولىٰ ، بتدعيم روحانية الداعي إليها ما دام أهلًا لتجمع

الأسناد والأمداد، ومضاعفة القدرة على الخدمة، والفناء في سر الغيب، وغيب السر.

فمَنْ لم تتوفر له هذه الشروط الثلاثة، لا يجوز له تعدد التلقي، وإلا كان ذلك ذبذبة في الطريق، وتلفيقًا وتلونًا آثمًا، ليس من ورائه إلا السلب والقطيعة، وهو حينئذ لا يورث إلا الفتنة وفساد القلب، والبلاء الحسي والمعنوي الموصول.

وذلك أنَّ من عَجَزَ عن حفظ الأمانة الأولى سيخون من بعدها كل أمانة، ومن قصَّرَ عن احتمال خدمة واحدة سوف يتحطم تحت أية خدمة زائدة ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

كل هذا في تبعية المرشد الكامل، الصالح شرعًا للقدوة والإمامة، أما إذا كان الشيخُ الأول غيرَ متحقق بمقام الدعوة والإرشاد الشرعي الجامع، فإنَّ اعتباره الروحي والشرعي يسقط ذاتيًا، ويتعين على السالك حتمًا اختيارُ المرشد المستكمل لشروط الإمامة والقدوة، قيامًا بواجب إنقاذ نفسه، ودينه ودنياه.

لبس الخرقة المحمدية:

وبحمد الله قد ألبسني شيخي رضي الله عنه الخرقة المحمدية البيضاء ثلاث مرات: فمرة لفَّ بها رأسي، وأرخى لها ذؤابة ضخمة على الظهر، ثم مدَّ يده فوضع الذؤابة - أعني العذبة - على كتفي وصدري.

ومرة وضع رأسي في وسط الخرقة وغطى بها أذني، ثم ألقى بطرفيها إلى الخلف، كلاهما على صورة عمائم أهل المدينة.

وأما المرة الأخيرة فلفَّ بالخرقة رأسي، وجعل أحد الطرفين تحنيكًا تحت ذقني، وبسط الطرف الثاني على ظهري، على صورة عمائم أهل المغرب.

ثم قال: هكذا، أو هكذا، أو هكذا بالسند الموصول المرفوع إلى رسول الله ﷺ كما رواه السيوطي، وبالسند الموقوف على صالحي أشياخنا رضي الله عنهم أجمعين، ثم قال: والخرقة عمامة، فكل ما صحَّ من الأحاديث والآثار في لبس العمامة فهو صحيح في لبس الخرقة، والغرضُ التبركُ بالقدوة، والتشبه بعمل النبوة ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب :٢١].

الإذن بالتقاليد الصوفية الشرعية :

وكذلك تلقيت عن أشياخي بالسند الثابت الموصول، الإذنَ والإجازة بالمصافحة، والمشابكة والمبايعة، وخدمة الأسماء الحسنى، والرقية، وإهداء المصحف، ومناولة السبحة، ومنح الكنية، واللقب، والخلوة بأنواعها، والجلوة بأنواعها، وأسرار جُمَّلِ الحرف والعدد، والفلك والجفر، والزياريج والرمل، والأزياج والفراسة والأوفاق، والأحزاب والأوراد والابتهالات على مراتبها للطرق التي ذكرناها في هذه الإجازة.

ذلك بالإضافة إلى الإذن بالدرس والخطابة، والإرشاد والدعوة، والتربية والتجديد، والفتوى والتأليف، والذكر والتلقين، وكل ما تواضع عليه الصوفية الأخيار مما يشمله أصل أو فرع ديني مقرر، ومريدونا مأذونون بكل ذلك بفضل الله.

ثم إن كل هذا بحسب العادة، وظاهر الأمر، أما في الحقيقة ونفس

الواقع فالله يشهد كيف أصبح الإذن والمدد كله مباشرة من روح سيدي ومولاي، وجدي وإمامي، وشيخي ومرشدي، رسول الله ﷺ ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الحديد :٢٩].

الاعتراف الرسمي بالطريقة المحمدية

أولا : اعتراف المجلس الصوفي :

ونحن نعتقد مؤمنين بأن التصوف الإسلامي النقي - كما قدمنا - عبادة عامة وشخصية مطلوبة، وأن الدعوة إليه واجب شرعي مقرر، فالرسمي فيه ما رسمه الله ورسوله، وغير الرسمي فيه ما لم يرسمه الله ورسوله، فإنه لا حاجة في العبادة ولا في الدعوة إلى الله إلى رخصة أو ترخيص بعد الكتاب والسنة والإمام المرشد، لكنه مجاراة للعرف المعمول به في بلادنا، وطلبًا لمضاعفة الخير، تفضَّل الله تعالى فاعترف المجلس الصوفي اعترافًا إجماعيًا بالطريقة المحمدية الشاذلية، بكل ما تقدم من أصولها، وقواعدها، وتقاليدها، وتعبداتها، ومناهجها، وأسنادها، وإجازاتها، وأذونها.

وذلك بجلسته القانونية المنعقدة بإدارة المسجد الحسيني الشريف في غرة ذي الحجة عام ألف وثلاثمائة وسبعين هجرية، الموافق لليوم الثالث من شهر سبتمبر عام ألف وتسعمائة وواحد وخمسين ميلادية.

وصدر بذلك التقرير الرسمي في التاريخ المذكور، مسجلا بسجلات مشيخة عموم الطرق الصوفية، برقم أحد عشر في صحيفة ثلاثة وأربعين.

وقد كانت الجلسة برياسة سماحة شيخ المشايخ السيد أحمد الصاوي

العمراني، وعضوية كل من السيد محمد شمس الدين شيخ السادة المرازقة، والسيد محمد عاشور شيخ السادة البراهمة، والسيد محمود كامل ياسين شيخ السادة الرفاعية، والسيد مرغني الإدريسي شيخ السادة الإدريسية، والسيد شفيق الجنيدي شيخ السادة الحلبية، وكان سكرتير الجلسة السيد إبراهيم حافظ وهبي، رحم الله السابق منهم ورضي عمَّن بقي بفضله ومنته.

ثانيا: اعتراف مجلس الدولة:

وكذلك اعترف مجلس الدولة بالطريقة المحمدية ومشيختها بجلسته المنعقدة بتاريخ الثلاثاء العاشر من جمادى الآخرة سنة ألف وثلاثمائة وخمسة وسبعين هجرية، الموافق واحد وثلاثين عام ألف وتسعمائة وستة وخمسين ميلادية.

وكانت الجلسة «**جلسة الهيئة الأولى لمحكمة القضاء الإداري**» برياسة السيد محمد عفت وكيل مجلس الدولة، وعضوية المستشارين السيد طه عبد الوهاب، والسيد محمد تاج الدين، ومفوض الدولة الأستاذ السيد يوسف الشناوي، وسكرتارية الأستاذ السيد محمد كامل هلال.

وكانت هذه هي أول مرة في التاريخ المصري يعترف فيها مجلس الدولة بطريقة صوفية، ويقرر تثبيت مشيختها بحكم قانوني مسبَّب مسجَّل، غاية في التشريف والتمجيد نقول هذا ونستغفر الله العظيم، ونسأله جوامع الخير والتوفيق، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

***

مِن مفاخر تاريخ الخوانق ومشيخة المشايخ شيءٌ مجمل يجب أن يعرفه الصوفية المجاهدون(١)

تمهيد:

من الأسئلة التي أغفلتُها زمنًا طويلًا هذا السؤال الذي يدور حول تاريخ الخوانق و«**مشيخة الشيوخ**» الصوفية، ورتبتها، وتطورها، وهو شيء يجب أن يحيط به كل صوفي مستنير، وكل باحث مثقف يطلب الحقيقة، ولا نريد أن نستخلص العبرة أو ندل عليها فيما سنكتب بتوفيق الله؛ فإنَّ العبرة سوف تعلن عن نفسها فيما سوف نجمله من هذا التاريخ العزيز الشائق.

ولا بُدَّ بين يدي الحديث من الإشارة إلى أنه لا يُعرف في تواريخ البلاد الإسلامية، ما يدل على أنه أُتيح لبلد منها من الملابسات ما أتيح لمصر، وكان من نتائجه قديمًا قيام مشيخة المشايخ الرسمية، والتي لا تزال باقية لليوم، بلا نظير في بلاد المسلمين، وهذا فيما نحسب فضل ميزة، حبذا لو أحسن استغلاله في الله.

ما هي الخانقاهات أو بيوت العبادة؟

الخانقاه، أو الخانكاه، أو الخونقاه: كلمة فارسية معناها البيت المحترم، أو المكان الذي يأكل فيه الملك، ثم أطلقوه تعظيمًا على أمكنة تجمع الصوفية تشبيها لهم بالملوك، وإشارة إلى أنهم لا ينزلون إلا الأماكن المحترمة.

---

(١) مقال غرة جمادى الأول سنة (١٣٨٢هـ) - ٣٠ سبتمبر سنة (١٩٦٢م)، العدد العاشر - السنة الثانية عشرة.

وأصلُ الخانقاه : بيتُ العبادة ، واتخاذ بيت مخصوص بجماعة للخلوة إلى الله ، والتعبد له ، والتفرغ للدعوة إليه - قديمٌ ، يرجع تاريخه إلى عهد أمير المؤمنين عثمان ابن عفان ﷺ فهو سنة صحابية منقولة متقبلة ، ولها فوائد ذات بال .

روى الإمامُ أبو نُعيم ما ملخصه أن «**صوحان بن صبرة**» بنى دورًا لبعض عُبَّاد البصرة ، الذين كانوا لا يملكون شيئًا ، ولا يستطيعون ضربا في الأرض ، ثم أجرى «**صوحان**» عليهم ما يقوم بشأنهم ، وما يعينهم على خدمة الدعوة إلى الله ، فلما علم بذلك عبد الله بن عامر عامل البصرة وواليها لأمير المؤمنين عثمان دعاهم ليقربهم إليه - لما لهم من النفوذ الروحي مع الخبرة والتقوى - فيكونون في جواره مشيرين له ، فعارضه «**صوحان**» قائلًا : لا ، ولا كرامة ، أفتأتي إلى قوم انقطعوا إلى الله فتدنسهم بدنياك ، وتشركهم في أمرك؟ حتى إذا ذهبت أديانهم أعرضت عنهم فطاحوا ، لا إلى الدنيا ، ولا إلى الآخرة . فأمسك ابنُ عامر ، فما ردَّ على «**صوحان**» بكلمة .

وهذا صريحٌ في أنَّ اتخاذ بيوت الدعوة والعبادة قديم ، وليس هو بمحدث ولا بدعة مضلة ، وذلك أنَّ الإسلام دين الخير والمصلحة ، فحيثما كان الخير والمصلحة فثَمَّ دينُ الله .

وقد كانت الخوانقُ -فوق أنها بيوت للعبادة- دواوينَ لفحص الرأي والاهتمام بأمر المسلمين ، وخدمة الدعوة إلى الله ، كذلك كانت ندوات للبحث والفتوى ، ومدارس للعلم بكل ألوانه الدينية والدنيوية ، كما كانت مآوى ومضايف وفنادق مجانية من الدرجة الأولى ، خاصة بالمنقطعين إلى

خدمة العلم والعبادة، والراغبين في إعداد أنفسهم لحمل أمانة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ودعوة الخلق إلى الحق، وصلح العباد على ربهم سبحانه.

فلم تكن الخوانقُ أديرةَ رهبان، ولا مخازن يتكدس فيها تنابلة الرجال والمتعطلة، ولا حظائر للمناحيس المناكيد، ومحترفي التنبلة والبلادة.

وإذا كان شيءٌ من ذلك قد حدث فيما بعد، فإنما كان من استدارة الفَلك، وتقهقر الزمان، والنكسة العامة التي أحاطت بالعالم الإسلامي في كافة حيثياته ومعنوياته.

رتبة مشيخة المشايخ:

ومنذ أُنشئت رتبة مشيخة المشايخ بصفة رسمية في عهد صلاح الدين الأيوبي، كانت أعلى رتبة دينية عرفها الناس، فلم يكن في مصر مشيخة أزهر، بعد أنْ قضى صلاح الدين على الدولة الفاطمية، واستولى على الحكم من الخليفة العاضد، فقد كانت أعلى رتب الدين أو مشيخة الأزهر وقفا على «**داعي الدعاة الفاطمي**»، وكانت وظيفة داعي الدعاة أعلى وظيفة دينية بعد الخلافة في إمبراطورية الفاطميين، ثم استبدلها صلاح الدين بوظيفة «**شيخ الشيوخ**»، وأعطاها من مظاهر الجلال والفخامة كل ما أمكن، وقد حرص صلاح الدين ومن بعده على ألا يلي هذه الوظيفة إلا سادة السادة، وقادة القادة، وأئمة الأئمة، الذين تنحني لذكرهم الهامات، علمًا وتعبدًا وورعًا، ونفوذًا، ومهابةً وجلالًا، وحكمةً وإدراكًا، وحسبًا ونسبًا.

وكان شيخ الشيوخ يجمع في يده أرقى مناصب الدولة التي تمت إلى الدين بنسب بعيد أو قريب ، حتى إنَّ بعض مشايخ الشيوخ ، كان يجمع بيده سبعة عشر منصبًا دينيًّا رفيعًا ، منها خطابة الجامع الأزهر ، وكان خطيب الأزهر وقتئذ هو شيخه ، وسيد علمائه .

وهكذا أصبحت رتبة مشيخة الشيوخ هي المظهر الديني الأعظم للدولة ، وكان صاحب هذا اللقب يلي السلطان أو الملك في الرتبة مباشرة ، ويأتي من بعده الوزراء ومن يليهم من ذوي المراتب والمقامات الرفيعة ، وذلك أنَّ هذه المشيخة ، فوق أنها مسئولية علمية هائلة ، فهي كذلك زعامة روحية شعبية ليس لها حدود ، فمثلًا كان أول من تولى هذه المشيخة رسميًّا عندما أُنشئت في الحكم الأيوبي الأمير الوزير القائد قاضي القضاة الشيخ صدر الدين محمد بن حمويه الجويني ، ثم وليها ذو الرياستين الوزير الصاحب قاضي القضاة تقي الدين عبد الرحمن ، ابن ذي الرياستين ، الوزير الصاحب قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز .

يقول السبكيُّ عن ابن بنت الأعز ما مجمله : إنه جمع بين مشيخة الشيوخ والقضاء والوزارة ، وخطابة الجامع الأزهر ، وتدريس المدرسة «**الشريفية**» ، والتدريس بقبة الشافعي ، والمشهد الحسيني وكان التدريس بهما خاصًّا بكبار العلماء .

ويقول ابنُ كثير : كان بيده – أي ابن بنت الأعز – سبعة عشر منصبًا منها : مشيخة الشيوخ ، والقضاء والخطابة ، ونظر الأحباس – الأوقاف – ونظر الخزانة – المالية – والتدريس . . . إلخ .

ويذكر المقريزي نحو هذا ، ويزيد عليه نظر التركة الظاهرية .

شيخ المشايخ بالانتخاب:

ومن هذا تظهر خطورة هذا المنصب الديني الرفيع، وجلال من كان يليه، وما كان يتصف به من خبرات وقدرات وكفاية، ودين وورع وترفع، ثم بعد انقضاء الدولة الأيوبية وضع السلطان تقليدًا جديدًا في اختيار «**شيخ المشايخ**»؛ فجعل أمر ترشيحه بيد الشيوخ أنفسهم، فهم يرشحون من يرونه أهلًا لهذا المنصب، ثم يرفع الأمر إلى السلطان، فإنْ رضيَ عنه نفذه، وإلا طلب تجديد الترشيح للأسباب التي يبديها.

وكان أول شيخ للشيوخ تقلد المشيخة بناء على ترشيح الشيوخ أنفسهم، قاضي القضاة العلامة الخالد التقي الورع الشيخ بدر الدين ابن جماعة، وقد استدعاه السلطان من القدس لتولي مشيخة الشيوخ بالقاهرة في أوائل القرن الثامن الهجري، كما ذكره ابن كثير في «**البداية والنهاية**» عند الكلام على حوادث عام (٧٠١هـ).

قال ابن كثير: وفي يوم الأربعاء تاسع عشر ربيع الأول، جلس قاضي القضاة وخطيب الخطباء الشيخ بدر الدين ابن جماعة بالخانقاه... شيخ الشيوخ بها، عن طلب الصوفية له بذلك ورغبتهم فيه... إلخ.

قال: وفرحت الصوفية به، وجلسوا حوله، ولم تجتمع هذه المناصب لغيره قبله، ولا بلغنا أنها اجتمعت إلى أحد من بعده في زماننا هذا: القضاء والخطابة ومشيخة الشيوخ... إلخ.

ومما يُذكر في مدى تعظيم الملوك لشيخ الشيوخ، أنَّ السلطان الظاهر لما بنى مدرسته الكبرى، وجعل للصوفية فيها المقامَ الأعظم، دعا إلى حفل

افتتاحها علامةَ زمانه شيخ الشيوخ العارف علاء الدين السيرامي، وهناك استقبله الظاهر بشخصه أفخر استقبال، وبالغ في إكرامه أمام جموع المحتفلين بافتتاح المدرسة حتى فرش له سجادته بيده، شكرًا له على استجابته لدعوته.

وبهذا الخبر التاريخي الغني عن التعليق، نكتفي بأمثلة هذا الباب العريق، وسنذكر لك بإذن الله فيما يلي ما يحضرنا من أسماء مشاهير الأئمة، الذين تولوا مشيخة الخوانق، لتدرك أي مركز كان هذا المركز، وأي رتبة كانت هذه الرتبة، وأي رجال كان هؤلاء الصوفية في هذه الأزمان.

أول خانقاه في مصر:

تولى صلاح الدين الأيوبي الحكم في مصر سنة (٥٦٩) هجرية، ولم يكن للصوفية رابطة تجمعهم سوى رابطة الشعور المشترك بأمانة الدعوة ومسئوليتها، ولم يكن ثمة رمز ديني من رتبة أو وظيفة عُليا، بعد انقضاء عهد داعي الدعاة الفاطمي، يهرع الجمهور والحكومة إليه في أمور الدين، فأمر صلاحُ الدين بالاستيلاء على دار «**سعيد السعداء**» عنبر، عتيق الخليفة المستنصر الفاطمي، وأحد الأستاذين المحنكين في دولته، وكانت هذه الدار أفخم الدور بالجمالية، وتقع في أيامها أمام دار الوزارة الكبرى -أمام حارة المبيضة الآن- وكان قد سكنها بعد مقتل «**سعيد السعداء**» الوزير رُزيك بن الصالح طلائع بن رزيك، ثم سكنها الوزير شَاور بن مجير، الذي حرق مصر القديمة أمام الإفرنج، ثم ابنه الكامل.

وأمر صلاح الدين بتهيئة هذه الدار لتكون ديوانا عاما لدعوة السادة الصوفية، يجتمعون فيه بشيخهم الذي يمثل الرياسة الدينية العليا،

فينسقون جهودهم، ويبلغون رسالات ربهم، ويجدون في هذه الدار كل ما يعينهم على أمرهم، ويغنيهم عن غيرهم، وأطلق على إمامهم الأكبر لقب «**شيخ الشيوخ**» وسماها صلاح الدين «**دويرة الصوفية**»، واشتهرت بين الناس بخانقاه سعيد السعداء، نسبة إلى منشئ الدار الأول، ثم عرفت بالخانقاه الصلاحية، نسبة إلى صلاح الدين.

ووقف صلاح الدين على الخانقاه بستان الحبانية بظاهر القاهرة، وكان بستانًا يمتد إلى بركة الفيل بالسيدة، ثم وقف كذلك عليها قيسارية الشرابية، والأراضي الزراعية بناحية دمرو، وأوقافًا كثيرة أخرى. ورتب فيها دروس الفقه والحديث والتفسير بجوار مجالس القرآن والذكر.

ورتب للصوفية المقيمين والوافدين ما يكفيهم من أفخر الطعام والشراب واللباس، بحيث لا يقل عددهم عن ثلاثمائة صوفي بين عالم وطالب علم، وشيخ ومريد، وكان الناس يجلّون هؤلاء الصوفية إجلالًا ما بعده إجلال، وكانوا يقصدونهم لطلب العلم والفتوى والسلوك من كل جانب.

وكانوا ينتظرون موكبهم الأسبوعي المهيب، وهم خارجون خلف شيخهم لأداء صلاة الجمعة، كأنما صحابة رسول الله قد بُعثوا في موكب رباني ترجف من حوله القلوب، وتحفه الملائكة.

وهكذا اختص شيخُ هذه الخانقاه بلقب شيخ الشيوخ، وكان كل شيوخ الخانقاهات التي أنشئت بعد هذه الخانقاه تبعًا لشيخها الأكبر.

وكان من أول من تولى مشيخة هذه الخانقاه رسميا الشيخ صدر الدين

محمد ابن حمويه الجويني ، وقاضي القضاة ابن بنت الأعز ، وقاضي القضاة البدر ابن جماعة - وقد أشرنا إليهم فيما أسلفناه - كما ولي هذه المشيخة من مشاهير الأئمة كل من العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر الأيلي ، والعلامة جلال الدين جار الله الحنفي ، والعلامة علاء الدين القونوي ، والعلامة شهاب الدين أحمد الأنصاري ، والعلامة جمال الدين يوسف التزمنتي ، والعلامة تقي الدين القلقشندي ، وقاضي القضاة شمس الدين محمد بن علي بن يعقوب القاياتي ، وغيرهم ممن تكفي الإشارة إلى ذكرهم ليشهد الناس بجلالة قدرهم .

وفي أرض هذه الخانقاه دُفن كثير ممن تولوا مشيختها ، ومَنْ كان له نصيب مشهودٌ في نشاطها وأثرها الكبير روادا ومريدين . وسنذكر بعضهم .

وقد ظلت هذه الخانقاه تؤدي وظيفتها الكبرى ، حتى ولي النظر على أوقافها الأمير يلبغا السالمي في عام (٧٩٧ هجرية) في مشيخة شيخ الشيوخ السيد محمد البلالي الشامي ، أيام حكم السلطان برقوق ، حيث وقعت الفتنة بينه وبين الصوفية واضطربت الأمور ، وتدهورت حال أكبر وأول خانقاه بديار مصر .

وكما تدهورت حال الإدارة بالخانقاه ، كذلك تدهورت بها الحال الروحية والعلمية ، وشاع بين روادها وقاطنيها كثير من البدع ، حتى قيل إنَّ شيخ الخانقاه وقتئذ - وكان من أجل الشيوخ - لما أراد القضاء على هذه المناكر تربص به المبتدعة حتى إذا ذهب إلى المطهرة ضربوه بالقباقيب .

وهكذا يعيد التاريخ نفسه ، ولكن في كل عصر بما يناسبه .

وإنما أوسعتُ الكلامَ بعض الشيء على هذه الخانقاه ؛ لما لها من القيمة التاريخية والأثرية في الدعوة الصوفية ، ولا أشك أبدًا في أنَّ كثيرًا جدًّا من الصوفية القاهريين أنفسهم -فضلا عن غيرهم- لا يوشك أنْ يعرف شيئًا عن هذه الخانقاه ، التي كانت قد تحولت إلى مسجد عادي ، بل إنَّ كثيرًا جدًّا من الصوفية أنفسهم ، لم يكن قد طرق سمعَهُ شيءٌ من هذا التاريخ ، حتى إنَّ بعضهم ليمر على مكان هذا الأثر الغالي العزيز ولا يدري عمق جذوره في حياته ، حياة التصوف والصوفية بمصر ، ولا قوة إلا بالله .

خانقاه بيبرس الجاشنكير:

والسلطان المظفر بيبرس الجاشنكير ركن الدين المنصوري ، غير السلطان الظاهر بيبرس البندقداري الصالحي ، كلاهما من دولة المماليك البحرية ، وقد حكم الأول بعد زمن الثاني بفترة .

وهكذا بنى الجاشنكير أعظم وأجل وأوسع خانقاه للصوفية بالقاهرة في عام (٧٠٩ هجرية) وكانت مساحتها نحو فدان وثلث ، وألحق بها رباطًا كبيرًا فاخرًا ، وقد بناها على أرض مبني الوزارة الفاطمية الكبرى بعد هدمها ، ووضع بالقبة الملحقة بالخانقاه شباك دار الخلافة الكبير ، الذي حمله من بغداد إلى مصر الأميرُ أبو الحارث البساسيري ، عندما غلب على الخليفة القائم بأمر الله العباسي ، قال المقريزي : وهو شباك جليل القدر ، يكاد تتبين عليه أبهة الخلافة ، وضع في مكانه تعظيمًا لسكان الخانقاه من الصوفية .

وقد تحرى منشئُ الخانقاه أن يكون «**العدل والحلال**» أساسَ كل شيء

فيها، وقد قرر بها أربعمائة صوفي من العلماء والطلاب، والمشايخ والمريدين، وقرر فيها دروس العلم، وحِلَقَ الذكر، ومجالس التربية، كما قرر بالرباط الملحق بها مائة من الجند، ومن أبناء السادات الذين غدر بهم الزمان، وأوقف عليها عدة ضياع بدمشق وحماة، وبالجيزة والصعيد، وبنواحي أخرى من الوجه البحري، كما أوقف عليها بالقاهرة ريعًا كبيرًا، وقيسارية.

ولما قُتل السلطان بيبرس الجاشنكير أغلقت الخانقاه، وظلت مغلقة نحو عشرين سنة، ثم إنها فتحت مرة أخرى في سنة (٧٢٦ هجرية)، وبقيت إلى أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون سنة (٧٧٦ هـ)، حيث بدأت تضطرب أمورها تبعًا للاضطراب العام في هذه الأيام.

وقد اشتهر أهل هذه الخانقاه بأنهم من أعلم الصوفية في الدنيا وأورعهم وأغيرهم على حرمات الله، فلم يؤخذ عليهم نقيصة واحدة.

وتعرف هذه الخانقاه في أيامنا الحاضرة باسم «**جامع بيبرس**» بالجمالية، وقد كان آخر من أحيا فيه سنة الصوفية فيمن أدركنا مولانا العارف بالله المرحوم الشيخ محمد أمين البغدادي النقشبندي رضي الله عنه وعنا به، وأرضاه.

خانقاه سرياقوس:

ولا بد من الإشارة إلى ذكر هذه الخانقاه فيما نشير إليه من أشهر الخوانق، ولا يزال اسم «**الخانقاة أو الخانكاه**» يطلق على المكان الذي أُسست به للآن وهو معروف مشهور، مضروب به المثل بين الخاصة والعامة.

وكان سبب إنشاء هذه الخانقاه، أنَّ الملك الناصر محمد بن قلاوون، كان قد خرج للصيد بأول «**تيه بني إسرائيل**» بضواحي «**سرياقوس**» بمحافظة القليوبية الآن، وهناك أصيب بمغص حاد بلغ به الموت أو كاد، ولا مِنْ دواء ولا طبيب هناك، فنذر لئن شفاه الله ليبنين له بيتا ينفع الناس في هذا المكان المنقطع ؛ فلما شُفي وفَّى بنذره، وبنى هذه الخانقاه، فإنَّ الخانقاهات كانت - كما أشرنا إلى ذلك - هي المؤسسات العامة التي تؤدي الخدمات الاجتماعية والثقافية والدينية في هذا الوقت، وألحق بالخانقاه مسجدًا ومرفقًا للطب، قرر به أخصائيين للجراحة والعيون والجلد والأمراض الباطنة، وغيرها ورتب الموظفين والخدم، وجعل المعاليم والأطعمة والأشربة والأكسية فوق ما كان يُرجى وينتظر.

وهكذا استكمل مطالب الخانقاه، وجعلها لمائة صوفي، بين عالم وطالب، وناسك وداعية، وأراد بها التخفيف عن خانقاهات القاهرة، وأن تكون قريبة من شيوخ الأقاليم يهرعون إليها، ويجدون فيها نزلهم وضيافتهم، وخلواتهم، وتطبيبهم وديوان تجمعهم واستجمامهم، وتشاورهم في أمورهم، وتربية مريديهم، وورثة دعواتهم، وكان ذلك في عام (٧٢٥ هجرية).

ودعا الملكُ لافتتاحها قاضيَ القضاة بدر الدين ابن جماعة، فقرأ في حفل الافتتاح عشرين حديثًا تُساعيا من روايته عن أشياخه، ثم أجاز الملكَ والحاضرين بروايتها عنه، مع ما يجوز لهم روايته كذلك عنه بسنده. فيا للعزة.

ثم قرر الملك في مشيخة هذه الخانقاه الشيخ العلامة العارف الفحل مجد الدين موسى الأقصرائي، وزاد فمنحه لقب شيخ الشيوخ، وتعارف الناس بعد هذا بأن شيخ خانقاه سرياقوس يلي في الرتبة شيخ خانقاه سعيد السعداء. وكان على خانقاه سعيد السعداء وقتئذ الشيخ علاء الدين القونوي. ثم هان اللقب بعد هذا وشاع، وتسمَّى به كل من شاء من شيوخ الخوانق.

وبعد أن وزع الملك المنح والعطايا، أعفى من يعمِّر حول الخانقاه من الضرائب والمكوس إكرامًا للصوفية، فلم يمض وقتٌ طويل حتى كان حول الخانقاه بلدٌ من أكبر البلاد وأعمرها، حيث بقيت إلي هذه الأيام.

خانقاهات شتَّى:

ثم تنافس الملوك والأمراء في إنشاء الخوانق، لما قدمنا لها من الفوائد الاجتماعية والدينية والثقافية وغيرها، وكان من خير هذه الخوانق، خانقاه الأمير سيف الدين شيخو العمري سنة (٧٥٦ هـ) التي أنشأها أمام مسجده المعروف الآن بين القلعة والصليبة، وأوقف عليها الأوقاف الجليلة، ومنها الحوانيت والحمامات التي بجوارها وكان بها من فائض أموال وقفها، ما استعان به الناصر فرج بن برقوق أيام المحن، وقد رتب بها دروس الدين والتصوف، والخدمات الاجتماعية، وشَرَطَ في شيخ الخانقاه أن يكون أستاذًا صوفيًا عاملًا، وأن يكون من أئمة المذهب

الحنفي ، ومن علماء التفسير والأصول ، وألا يكون قاضيًا ، وكان ممن تولي مشيخة هذه الخانقاه أبو حنيفة عصره الإمام الشيخ الكمال ابن الهمام ، والشيخ بهاء الدين بن تقي الدين السبكي ، والشيخ أحمد الدين البابرتي ، والشيخ بدر الدين حسن بن أبي بكر القدسي ، والشيخ موفق الدين الحنبلي ، والشيخ خليل المالكي صاحب «**المختصر**» تلميذ العلامة العارف سيدي عبد الله المنوفي دفين قايتباي .

ولا نستطيع في هذه العُجالة استقصاء ذكر الخوانق والرباطات ، التي أنشئت للخدمة الصوفية بوصفها الخدمة الإسلامية الجامعة لكافة الخدمات الإنسانية - كما رأيت - ولكننا قدمنا أمثالًا تدلك على ما كان للصوفية عمومًا في الزمن القديم من منزلة ، وما كان لمشيختهم من حرمة وقداسة ، وما كان حقًّا لهم من الأوقاف الهائلة ، وما كانوا يضطلعون به من رسالة مقدسة ، حتى لا يوشك أن تدخل مسجدًا أو مدرسة أثرية ، إلا وجدت فيها أكبر نصيب للصوفية ، إلى أواخر أيام المماليك ، بل إلى أواخر أيام العثمانيين ، غير أنَّ العثمانيين استبدلوا الخوانق والربط بالتكايا التي لا تزال بقاياها ماثلة للعيان ، وفيها أخيرا تقهقر التصوف والصوفية .

وهكذا لو تنبه الصوفية المعاصرون من غفلتهم ، لوجدوا أنَّ لهم في كل أرض منزلًا ، وفي كل مكان دارًا ، ولوجدوا أنَّ لهم مالًا موقوفًا لو طالبوا به لحقق لهم الخير الكثير الوفير ، ولأغناهم عن الكبير والصغير ، وكنا قد اقترحنا يومًا أشرف وأنفع اقتراح ، للانتفاع بأموال نذور الأضرحة الصوفية الكبرى ، في إنشاء المعهد الصوفي ودار الضيافة والإدارة الصوفية ، واليوم نوجه النظر إلى بحث المطالبة بموقوفات الصوفية وأحباسهم ،

والنظر في وضع مخطط عملي عصري، لإنفاقها على ما فيه خير هذه الدعوة ودوام النفع بها، ونرجو أن نعود إلى الكتابة لتوفية هذا الموضوع حقه، وتكملة تاريخ المشيخة وتطوراتها إلي هذه الأيام إن شاء الله .

من هم رواد الخوانق، ودراويشها، وخريجوها؟

ولكي تستيقن من أنَّ الخوانق كانت منارات كبرى للعلم الديني، وجامعات عالية للثقافة الربانية، ومعاهد للخدمات العامة، وأنَّ روادها وخريجيها كانوا مصابيحَ الهدى وأئمة الدين والدنيا، أذكرُ لك على سبيل المثال أسماء قلة قليلة من ساداتنا رواد خانقاه سعيد السعداء، الذين لازموها في حياتهم، حتى إذا ماتوا دُفنوا في داخل هذه الخانقاه بمقابرها التي كانت في فنائها، لتأخذ يا أخي صورة صحيحة عن دراويش الخوانق وشيوخها، كما أخذت صورة من قبل عن شيخ الشيوخ .

وفي هذا الإطار تنكشف لك الحقيقة الصوفية المقدسة التي نخدمها ونفخر برجالها، ونعتز بالانتساب إليها، فمن هؤلاء السادة :

١- الشيخ جار الله بن صالح بن أبي منصور المالكي من تلاميذ صاحب المختصر الشيخ خليل، أخذ عن العز بن جماعة، والشهاب الهكاري، وقصده الناس وسمع منه الفضلاء، وقرأ بمكة وينبع، وأفاد الله بعلمه وروحانيته نفرًا لا يحصى عددًا .

٢- الشيخ عبد الرحيم بن محمد بن أبي بكر الحنفي الطرابلسي، سمع من الشمس ابن يوسف، والشرف ابن أبي بكر بن جماعة، والشمس الخشاب، وأجاز له القيراطي، وابن عبد المعطي والإسفرايني، وتولى

الإفتاء والتدريس، وحدث وروىٰ وسمع منه الأئمة، وقصده طلاب الله من كل جانب.

٣- الشيخ عبد الله بن محمد بن عيسى الجمالي العوفي أخذ عن البلقيني، وابن القطان، والمحب بن هشام، والشهاب الأشموني، وتقدم في العلم، وأذن له بالإفتاء والتدريس، وناب في القضاء، وكان ناظمًا ناثرًا مذكورًا بالولاية والبركة متبوعًا من الناس.

٤- الشيخ عبد الله بن محمد بن الجمال الحنبلي، أخذ عن المحب ابن نصر الله، وعن البرهان الأنباسي، وعن الونائي والقاياتي، واستنابه المحبُّ في القضاء، واستقر في التدريس والإفتاء بعد ابن البدر، وأخذ عنه الرجال خصوصًا في العربية والإلهيات.

٥- الشيخ محمد بن عبد الوهاب ظهير الدين الحنفي، أخذ عن الشرف ابن الكويك، والجمال الحنبلي، وأبي الحسن الفوري، والشهاب الجوهري، والشمس الديري، واستقر في التدريس والإفتاء، وناب في القضاء، وكان يعد من أعيان الناس علمًا ودينًا وفضلًا.

٦- الشيخ عبد الرحمن بن علي بن عمر بن أبي الحسن الأنصاري، المعروف بابن الملقن، أخذ عن العراقي، والهيتمي، والجلاوي، وابن أبي المجد، والزين العراقي، والصدر المناوي، والكمال الدميري، وأجازوا له، واستقر في التدريس، وناب في القضاء عن الشمس الأخنائي، وقرره الأشرف إينال في نظر البيمارستانات، وسمع منه الأئمة واقتدىٰ به السادات.

٧- الشيخ محمد بن علي الفضل القوصي أخذ عن الجمال الإمشاطي، والونائي، والبلقيني، والمناوي، وعن شيخ الإسلام ابن حجر، وابن الهائم، والشرواني، استقر في التدريس والإقراء على رغبة في الله والتزام حال الصوفية وآدابهم فاستفاضت شهرته، وطلبت دعواته واهتدى به كثير من الخلائق.

٨- الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مظفر البلقيني المعروف بابن عز الدين، أخذ عن العز ابن جماعة، والجلال البلقيني، والعراقي، والهيتمي، وناب في القضاء عن البلقيني، واستقر في التدريس والإفتاء، ومات ممتحنا في سلطنة الظاهر جقمق بعد أن انتفع الناس بعلمه وفضله.

٩- الشيخ محمد بن خليل أبو حامد الرملي المقدسي، أخذ عن الشهاب ابن رسلان، والسراج الرومي، وابن فاضل الحسباني، وأخذ عن عائشة الحنبلية، وعن العيني، والشُّمُنِّي، والعز البغدادي، وعن ابن الملقن، وعن أخته صالحة، وأم هانئ الهورينية، وعن السيد النسابة، وعن الكافي الذهبي، وعن المحب الطبري، وعبد الله التستري، وأبي الفرج الكازروني، وأبي الفتح المراغي، والبرهان الزمزمي، واستقر في تدريس الحديث، وناب في القضاء وذاع ذكره في الدعوة، ومن شعره ما نختم به ذكر هؤلاء السادة قال:

ارحم إله الخلق عبدا مذنبا ... بالجود يرجو العفو في كل زمن
وانشر له يا رب دوما رحمة ... يا من رحمت الخلق سرًّا وعلن

فهؤلاء هم «**الدراويش**» وأولئك هم «**مشايخ الطرق**» وها هو ذا «**شيخ الشيوخ**» .

مقابر الصوفية بباب النصر:

وإذا قد أشرنا إلى المقبرة الملحقة بفناء خانقاه سعيد السعداء ، فقد تعين تتميمًا لبحث التجمع والتعاون الصوفي القديم ، أن نذكر أنه كان لتخصيص الصوفية بخانقاه سعيد السعداء كمركز دعوة أساسي عام ، تتبعه مراكز فرعية في مختلف الخوانق ، كان لذلك أثره الكبير في تجميع قواهم وتنظيمها ، وبداية التكتل والتعاون بينهم جميعًا ، وكان من أثر ذلك أن خصصوا أنفسهم بمقبرة كبرىٰ مسورة خارج باب النصر ، يدفن فيها الميت منهم في جوار أخيه ، كما كان يعيش متعاونا معه في الحياة ، وقد دُفن فيها معهم عددٌ كبيرٌ من العلماء والمؤرخين والمؤلفين ، وكان موقع هذه المقبرة الآن هو الساحة الواقعة أمام باب النصر جنوبا مع ملتقى الشارع الشرقي والجنوبي وما حولها ، وكانت هذه المقبرة مقصدَ المسلمين للتبرك ، والزيارة من كل فجٍّ وحدب ، ثم اندثرت بتخلف الزمان وتفرق الصوفية ، بله جهلهم بتواريخهم وآثارهم ، وانشغالهم بالمظاهر الدنيوية الفانية .

وكان ممن دُفن بهذه المقبرة قاضي القضاة برهان الدين ابن بهادر الغزي شيخ الملك الظاهر برقوق ، وكان قادريا ، تلقى الطريقة عن سيدي عمر القادري ، حفيد سيدي عبد القادر الجيلاني .

ودُفن بهذه المقبرة الإمام الحافظ الشيخ شرف الدين الدمياطي ، تلقىٰ

عن الحافظ المنذري الحديث والطريقة الشاذلية .

ودفن بها عمدة المؤرخين الشريف الشيخ تقي الدين أحمد المقريزي ، الذي كان محتسب القاهرة في عهد الملك الظاهر برقوق ، ثم تصوف وعكف على التأليف والتقشف ، ورفض ولاية قضاء دمشق ، ولا تزال خططه وتواريخه مرجع الأجيال .

ودُفن بهذه المقبرة الإمام العلامة قاضي مصر وضيفها المؤرخ العالمي الشيخ عبد الرحمن بن خَلدون الحضرمي التونسي .

ودُفن بها السيدة زينب الحنفية المحمدية ، وتنسب إلى جعفر بن محمد ابن الحنفية ابن الإمام علي ﷺ ويظنُّ العامة أن قبرها مزارٌ للسيدة زينب بنت علي .

ودُفن بها الإمام جمال الدين ابن هشام المصري من أكبر وأشهر أئمة النحو في العالم ، وشاهد قبره اليوم مواجه لباب النصر في الميدان .

كما بَنىٰ حوالي مقبرة الصوفية كثيرٌ من الأمراء قبورَهَم تبركًا بها ، وليس هذا مقام التفصيل ، بل المراد أنه كان للصوفية رابطةٌ كبرىٰ جمعتهم من قبل أحياء وأمواتا ، وأنه كان لهم مجد زال ، وحال حال ، كأنهم إلى زوال .

فمتىٰ ينسىٰ إخواننا الطبل والزمر ، والرقص والرايات ، والسواري والتهريج ومواكب الكرنفال ، وقضايا المفاخرة والمكاثرة ، والانشغال بالإداريات الجافة المبعدة عن الله ، ليتذكروا مجدهم الذاهب ، وتاريخهم

الغالب ، فيعملوا بحق على عودته ، إذا لم يكن بحقيقته ، فلا أقل من صورته .

اللهم إنك تعلم أنني من أغير الناس على تصوف المسلمين ، فاجعل لكلامي محلًا من القلوب ، ومستقرًّا من العقول ؛ حتى يرى المخلصون ما أرى ، وما كان حديثًا يُفترى .

بلغتُ ، اللهمَّ فاشهدْ .

***

من نَشَاطِ العَشِيرَةِ في عَامٍ الكلمةُ التي ألقَاها السيدُ الرائدُ في الاجْتماعِ السَّنويِّ للجمعيةِ العامَّةِ للعشيرةِ (١)

تقدمةٌ :

حمدًا لك اللهمَّ وشكرًا، وصلاةً وسلامًا على نبيِّك ومُصْطَفاك، ورضوانًا منك على أوليائك والعاملين لوجهك الكريم، ولبيك اللهم لبيك، والله أكبر.

أمَّا بعد أيُّها الإخوة: فعلى معتادِنا السَّنوي نلتقي اليوم لله، وفي الله؛ لنتذاكر بعض ما أسلفنا في سبيل الله، وبعض ما ننوي أن نقدمه إن شاء الله، وإني لأرجو أن تعتبروا كلماتي هذه في كل عام وحدة يكمل بعضها بعضًا، فلا بُدَّ من الرجوع إلى السَّابق من كلماتي في مثل هذا الموسم؛ حتى يستكمل الغرض من اللاحق منها، أما ما لاقينا وما نلاقي من المشاق والمتاعب والعقبات وصدمات المفاجآت وموصول التضحيات، فأَمْرٌ أَلِفْنَاه وأَحْبَبْنَاه، وأعددنا له الاعتصامَ بالله، وما كان لله دام واتصل، والعاقبة للمتقين.

هذه الدَّعوةُ الرُّوحيَّةُ :

وتعلمون أيها الإخوة، أنكم اليوم تقفون وحدكم في الميدان، تهتفون بدعوتكم الإصلاحية الروحية الجديدة، الجامعة بين تصوف المسلمين في

---

(١) مقال: غرة جمادى الآخرة (١٣٨٢هـ)، ٢٩ أكتوبر (١٩٦٢م)- العدد الحادي عشر من السنة الثانية عشرة.

أنقى وأرقى ألوانه، وبين مطالب الحياة التقدمية المتدنية في أكمل صورها، تكافحون الانحلال والخلاعة والتبذل، وتقاومون ما لا يتفق مع الشريعة من الانحرافات في الجماهير العامة، وفي الوسط الصحفي والفني والإذاعي، على مستوياته المختلفة، وتقفون بالمرصاد للمادية والإلحاد واللادينية، إلى جانب مقاومة البدع والمناكر، والضلالات والشعوذات التي تُنسب زورًا إلى الدين، وتحتمي بهتانًا بتصوف المسلمين، وتنشئون علاقات المودة بين الله وعباده، حتى لا يكون لغيره عليهم سلطان.

نخاصمُ الدعوةَ الوهابية ولا فخر:

ولقد كنتم ولا زلتم -بفضل الله- الطائفة الإسلامية، البعيدة النظر، العميقة الإدراك، التي نَبَّهت إلى خطر الدعوة الوهابية، وكشفت عوراتها السياسية المتسترة باللون الديني الزائف، وكنتم الطائفة الإسلامية الوحيدة التي جاهرت بعدائها لهذه الدعوة وذيولها وأبواقها، وظاهرتهم بالخصومة مهما كانت مراكزهم المدنية والدينية، وهكذا بكل صراحة فضحت العشيرة ألاعيبهم، وكشفت الستائر عن أسرار الحجِّ الزائف، وما وراءه من إغراء الذهب والدولار وشراء الضمائر؛ للتبشير لبعض الحكام والدعاية لمذهبهم؛ فإنَّ القاعدة أنَّ المؤمنَ بمذهبهم جنديٌّ للقائمين عليه، وإذا رجعتم إلى ما كتبناه في هذا الباب رأيتم العجاب.

ويوم كانت الكتب تؤلَّف، والمقالات تدبَّج؛ لمحاولة التضليل بإثبات أنَّ الدعوة الوهابية دعوة إصلاح ديني، ويوم كانت المطبوعات الوهابية تطبع في القاهرة، وتوزع بالمجان بمعرفة بعض الهيئات

والشخصيات، ويوم كانت بعض الجمعيات المنسوبة إلى السَّلفية تتلقى عشرات ألوف الجنيهات سرًّا وجهرًا، وتعتبر نفسها السفارة الدينية للدعوة الوهابية، واللسان الناطق باسم أصحابها ومعتنقيها من الحكام، الذين كشف الله سوءاتهم، وهتك الله ستره عن سوء نياتهم، وانحطاط اتجاهاتهم وعقائدهم وأعمالهم، ويوم كانت الحفلات الكبرى تُقام لبعض الأمراء والأثرياء الوهابيين هنا، وفي بعض الأماكن المنسوبة إلى الدين، ويوم كان يُصَرِّح رجلٌ حي، لا يزال له مركزه الديني الكبير، بأنه راعي دعوة الوهابية وحارسها، وأنه والدها الروحي، ووالد الهيئة التي تخدمها في مصر، دون تحفُّظ ولا احتياط، ويوم كان المجد والسلطان، والدينار والدولار في خدمة كل وهابي، أو خادم للوهابية.

في هذا اليوم أو في هذه الأيام، كنتم وحدكم الذين تُنَبِّهون إلى الخطر الوهابي الخبيث، وتنذرون بما وراءه من سرٍّ غير شريف، حتى جاءت هذه الأيام التي تعيشونها الآن، تحقق صدق فراستكم، وتؤكد عميق فهمكم، وجاءت الأحداث العربية الكبرى، تشكر لكم موقفكم، وتحمد الله على أنه كانت في أمة الإسلام جماعة استطاعت ـ رغم ما تعرضت وتتعرض له من متاعب ومصاعب ـ أن تجهر بما لم يجهر به سواها، وهي تفتخر اليوم بخصومتها القديمة للوهابية، وتبتهل إلى الله أن يهبها من القوة ما تستأصل به هذه الشأفة المنافقة المضللة باسم التوحيد، المفرقة بين المسلمين، المستحلَّة لدمائهم وأعراضهم وأموالهم باسم الدين، ما لم يكونوا من الوهابيين، لتحقق تحت الستار أحلامهم السياسية البعيدة الأغوار.

تقدير السيد الرئيس للعشيرة والرائد:

وإنَّ مما تفخر به العشيرة، هذه الهيئة العاملة المخلصة الفقيرة، أنْ يمتدَّ حُسْنُ ذكرها، ونقاء سمعتها، وصدق مجهوداتها، إلى السادة المسئولين الكبار في الجمهورية، وعلى رأسهم السيد الرئيس - وفقه الله لمزيد من خدمة البلاد والعباد - فيقدِّر سيادته العمل الديني والروحي والأخلاقي والثقافي والاجتماعي، الذي تباشره العشيرة خالصًا لوجه الله، فيكتب إليها خطابَه التاريخي الخالد، الذي سبق أن نشرنا صورته الزنكوغرافية بـ «**المسلم**»، هذا الخطاب الذي لا يُعرف له نظير فيما وجهه السيد الرئيس إلى الهيئات المختلفة من كتابات، فَمَنَحَ العشيرةَ به وثيقةً تاريخيةً خالدة، تحمل من التقدير والاعتبار ما تستوجب كلَّ الإعزاز، وكلَّ الإكبار، وكلَّ الافتخار، إنَّ هذه الوثيقةَ شيءٌ آخر غير ما يُوَجَّه إلى بقية الهيئات.

ثم تفضَّل الرئيسُ فأَذِنَ بكتابة وثيقة تقدير أخرى وجهها إلى شخص رائد العشيرة، قرَّر سيادته فيها أنه يَعْتَزُّ به، وأنه ينتظر له مستقبلاً عظيمًا فيما وقف نفسه عليه من خدمة لله، وأنه يبارك دعوته، ويقدر جهوده، وقد نشرت مجلة المسلم صورة زنكوغرافية لهذا الكتاب التاريخي، الذي لا يُعرف أنَّ مثلَه وُجِّه إلى رئيس هيئة بجمهوريتنا المباركة، رغم كثرة ما يُوَجَّه إلى رؤساء الهيئات.

وهكذا كان كتابُ الرئيس في تقدير العشيرة، وكتابُه في تقدير الرائد، وسامَ شرفٍ لكل محمدي في الجمهورية العربية المتحدة، بل في العالم الإسلامي كله، فإنَّ كلمات الرئيس لا تصدر جزافًا، ولكنها توزن بأدق موازين الحكمة، وتوضع في موضعها بعَدَ التحري والاحتياط وبُعدِ النظر.

فبارك الله في السيد الرئيس قائدًا للعروبة والإسلام، وبارك الله في العشيرة حصنًا منيعًا للدين المتين، وثبَّت الله خادم العشيرة على خدمة دعوة الحق، والمحمدية الإصلاحية النقية المشرقة.

دارُ العشيرة بالقاهرة:

وهذا البناء الصغير المتواضع، الرابض في جوار جامع البنات بالقاهرة، تطبق شهرته الخارقة العالم الإسلامي كله، بما يعبق فيه من إخلاص وجهاد دائب، فلا يوجد وطن إسلامي عام، ولا وطن خاص بجالية إسلامية في أرض مشرقية أو مغربية، إلا وقد عَلِمَ أهلُه خيرَ ما ينبغي أن يُعْلَمَ عن العشيرة المحمدية، وبهذا كانت ولا زالت دار العشيرة مقصدًا ونُزلاً كريمًا لأكثر الوافدين إلى مصر، من زعماء الإسلام وعلمائه في أنحاء الدنيا.

وفي قاعة الفقراء المتواضعة قاعة مجلس أهل الصفة بدار العشيرة، أُقيمت -وتقام بحمد الله- أحفال الاستقبال الروحي، التي تتوارى منها أضخم الأحفال؛ تكريمًا للوافدين من رجالات الإسلام، حتى ليخرج الواحد منهم وهو مأخوذ مشدوه بروعة الإيمان والإخاء في الله، يُسَبِّحُ بأثر الاستقبال والتكريم الصوفي الصادق، الذي لا يُلتمس اليوم إلا في هذه الدار.

وهكذا تؤدي هذه الدار أكبر خدمة من جانب الدعاية الروحية المشرِّفة لهذه الجمهورية، إيمانًا واحتسابًا عند الله، ثم بالتالي أدرك طلاب الإسلام الوافدين على الله من الأديان الأخرى قيمة هذه الدار المتواضعة، فأقبل عليها كل من هداه الله إلى دينه القويم، من داخل الجمهورية أو

خارجها، ليتعلم الإسلام ويتلقى الأدب والفقه، ويجد ما شاء الله من العون الأدبي والمادي جميعًا.

المبعوثون لطلب الدين والتصوف.

وإنَّ مما يُشَرِّفُ كلَّ محمديٍّ أنْ نسجلَ هنا كيف أنَّ بعض البلاد الإفريقية الإسلامية وهي كثيرة، قد اتفقت مع العشيرة على أنْ تبعث إليها بعدد من الطلبة يَتَرَبَّون مع فتيان العشيرة وشبابها، ويتلقَّون علم الدين والتصوف معهم في دار العشيرة، على أسلوبهم، ويعيشون عيشهم الإسلامي المحصن من أسباب الفساد والانحراف، حتى يعودوا إلى بلادهم، وهم مثلٌ عمليٌّ في العلم الديني، والمدني، والتصوف الإسلامي، العملي الإيجابي، الجامع بين أفضل خصائص خدمة الدنيا والدين.

مجلة المسلم لسان حال الدعوة:

وهكذا أيضًا يريد الله أن تختصَّ هذه المجلة المباركة بِلَوْنٍ ذاتي مستقل، في شكلها وحجمها وتبويبها وتحريرها وموضوعاتها، والأسلوب الذي تعالج به دعوتها، والمنهج الذي جعلته وسيلتها إلى هدفها، الأمر الذي كتب لها هذه الحياة الكريمة مدة اثنتي عشرة سنة، لم تتخلف فيها مرة واحدة، فهي مجلة أوجدتها الحاجة إليها في الإسلام، وهي تمضي بقوة وبيقين بالغ في خدماتها، تطلب الله والدار الآخرة، تزيد ولا تنقص، تتجدد ولا تتبدد ولا تتردد، تنتشر في كل شبر أرض فيه ناطق بالشهادتين، تحمل نور الله إلى الآفاق في مجاهل الأرض ومعالمها، تقدِّم مادة علمية وإخبارية ليست لغيرها، تنقل صحف العالم الإسلامي عنها،

بالنصِّ الحرفي تارة، وبالترجمة تارة أخرى، وقد استودعها الله من بركة الصدق والإيمان والإخلاص جاذبيةً، تجعل مَنْ نَظَرَ فيها لا يتركها حتى يأتي على آخر سطر فيها، ثم هو ينتهي وقد أحسَّ أنَّ وراء كل كلمة هدفًا، وأنه جمع محصولاً ثقافيًا وروحيًا ودينيًا وخلقيًا، ما كان ينبغي له لو فاتته قراءة هذه المجلة، فيشدُّ نفسه إليها، ويلتصق بقوة بها، فتصبح المجلة منه في مكان الكيوف الملحة، ينتظرها ويدعو إليها، ويسأل عنها ويتلقفها، ويكاد يلتهمها بفكره وبصره وقلبه التهامًا.

ومع أنَّ بعض الدول تمنع دخول مجلة «**المسلم**» إليها، أو تضرب عليها الجمارك الكبرى؛ خوفًا من أثرها البليغ، فإنَّ المجلة تصل بحمد الله إلى مشتركيها في كل البلاد بطريقتها الخاصة، رغم أنف المانعين والمتربصين.

ذلك في الوقت الذي تتصايح فيه بالبكاء كثير من المجلات الغارقة في الإعانات والإعلانات والدعايات وتُنْذِر بالتوقف، كما توقفت أخوات لها من قبل ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٣] وفرقٌ كبير بين الدُّعاة والتُّجار.

أما التضحياتُ المادية والمعنوية التي نبذلها في هذا السبيل، فلا نَمُنُّ بها على الله؛ فالمال والجهد منه وإليه، وهو شهيد وحسيب، فإنه لولا هذه التضحيات في هذه الدعوة - عشيرةً ومجلةً وطريقةً - لكان لنا من دخلنا بحمد الله ما يجعلنا في مصافِّ خواصِّ الأثرياء، ولكن حسبنا أن وفَّقَنا الله إلى السعادة بما نمارسه من تضحيات، قد لا تتصورها عقول كثير من المجاهدين فضلاً عن القاعدين، في الوقت الذي يحترف فيه بعضُهُم العملَ الدينيَّ، فيصبح من أكبر أثرياء الإقطاعيين، ولكنَّ الله خير وأبقى ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

من ألوان النشاط الثقافي والديني:

ونحمد الله تعالىٰ علىٰ حُسن توفيقه، فإنه رغم مواردنا المالية المحدودة، فإنَّ الله يعوضنا بموارد معنوية كبرىٰ، من الطاقات والكفايات والتسديد، والتأييد الإلهي.

فمساجدكم بحمد الله تزيد ولا تنقص، وفي غير جلبة، ولا ضوضاء، ولا تهريج، ولا شعوذة، تنتشر دعوتكم في الأوساط المختلفة، وبخاصة في الوسط المتعلم، وفي وسط الطلاب والطالبات، وخطبكم ودروسكم في المساجد والزوايا.

وفي الحلقات المختلفة دروسٌ مستمرة منتظمة، يتطوع لأدائها كثيرٌ من إخوانكم علماء الأزهر، وخريجي الجامعات، وغيرهم من المحمديين الأكْفَاء المخلصين.

ومحاضراتكم في القاعات، والنوادي، والحلقات القرآنية، وحلقات العبادة الدورية، وأحفالكم الكبرىٰ بأشهر مساجد القاهرة في المناسبات المختلفة، ونشاط حلقة الشعراء المحمديين في التجمعات المتعددة، ورحلاتكم الثقافية والروحية إلى الأقاليم، ونشاط قسم السيدات الثقافي، ونشاط حلقات الفتيات والفتيان.

وحفلات الاستقبال والتكريم والتأبين، ونشاط مجلتكم «**المسلم**»، ومشاركاتكم الكبرىٰ في المجامع الثقافية والدينية، مع الهيئات والشخصيات العاملة في الحقل الديني والفكري، ونشاط لجنة الفتوىٰ، وقاعات الاستذكار، وخدمة الطلبة، وغير ذلك من الجهود الكبيرة الكثيرة.

كل ذلك يسير بحمد الله محفوفًا من الله بالتوفيق، مرموقًا من الناس بالتقدير والإكبار.

من ألوان النشاط الاجتماعي والإنساني:

ونكرر كذلك أنه برغم مواردنا المالية القليلة المحلة، فإنَّ يدَ الله تعالى تمسح على جهادنا باليُمْن والبركة، فلا نزال نرعى بمال الله المحسوبين على العشيرة من يتامى الطلبة والطالبات في ظروفهم المختلفة، على أسلوبنا الاجتماعي الخاص، ولا نزال نقدم كل عون مستطاع إلى من نرعاهم من أسر الفقراء، ولا نزال نقدم شفاعاتنا لتشغيل العاطلين، وإلحاق الطلبة بالمدارس، وتسديد المصروفات عن العاجزين، وتيسير الكشف الطبي وصرف الدواء للمرضى المعدمين، وترحيل المغتربين، والإعانة في طوارئ الولادة والعجز والحجز والديون والمفاجآت، وتجهيز ودفن الموتى، والإصلاح بين العائلات والأفراد، وتوزيع الأكسية والأغطية - جديدة ومستعملة - وتوزيع الدقيق واللبن الجاف والمسلى، وغيره من مختلف المساعدات الأدبية والمالية والعينية بأنواعها المختلفة.

كل ذلك على أسلوبنا الإسلامي الذي يحفظ كرامة الإنسان، ويؤدي عنه ما وجب بقدر الإمكان في غير تهريج ولا إعلان.

بعض المشروعات والمقترحات:

وقد أعدت العشيرةُ عديدًا من المشروعات، منها إنشاءُ مركز ثقافي، وقاعة استذكار، وخدمة اجتماعية بحي «**قايتباي**» و«**برقوق**» في بعض الأماكن الأثرية المغلقة هناك؛ لشدة حاجة هذا الحي إلى مثل هذه الخدمة الإسلامية؛ لمواجهة الخدمات التبشيرية بالحي، وإنشاء معهد لتأهيل الفتيات مهنيًّا ودينيًّا في «**الدرب الأحمر**» و«**الجمالية**»، في بعض هذه الأماكن الأثرية المعطلة أيضًا.

ومنها إنشاءُ القافلة المتنقلة للدعوة إلى الله، دعوة شعبية محببة، ومنها الإنشاءاتُ الجديدة اللازمة لمقبرة العشيرة، والترميمات اللازمة لزاوية البيت المحمدي وضريح الأئمة، ومنها الإنشاءات اللازمة لمكتب حراء، وقسم السيدات بدرب القزازين . . . إلخ.

كما تقدمت العشيرةُ للمسئولين بعدة مقترحات، منها الانتفاع بأموال النذور في إنشاء الدار الصوفية العامة، والمعهد الصوفي، والمجمع الصوفي، والمؤتمر الصوفي، ومنها رعاية الجمعيات الإسلامية، وضمُّها في اتحاد يقوِّي عضدها، ويقرب ما بينها.

ومنها رعاية المجلات الإسلامية، والنظر في شأنها بما يحفظ عليها حياتها، وييسر لها تأدية رسالتها، ومنها إنشاء المدارس القرآنية ورعايتها وتشجيعها. . .إلخ.

ولا يمنع العشيرة فيما يتعلق بمشروعاتها من المضي في تنفيذها إلا قلة مواردها المالية - كما كررنا ذلك - مع عدم تعاون الأثرياء، ولا الجهات

المسئولة معها بصورة مؤسفة موئسة، ولا يعلم لهذا سبب مقبول، ولكن المدد من الله.

ونفس الوضع هو هو في شأن المقترحات الهامة التي نتقدم بها إلى الجهات المختصة، وإنما نسجل ذلك إبراءً للذمة، وانتظارًا للوقت المناسب، والله الموفق.

حركة سير الدعوة والنظام:

وإنَّ مما يزيدنا فخرًا تَغَلْغُلَ دعوة العشيرة في كثير من الأوساط والأوطان؛ بوصفها الدعوة الإيجابية العملية والمذهبية الوسط، المناسب لكل إنسان في كل زمان وكل مكان، فما على الأخ المحمدي إلا أن يعتصم بالتصوف على أساس الكتاب والسنة، بعيدًا عن البدع والمنكرات، والانحرافات والشعوذات، ولا عليه أن يكون تلميذًا لأي شيخ أو منتسبًا لأية طريقة، أو أية جمعية، أو غير منتسب إلى دعوة، فإنما عليه أن يظل وفيًّا لما هو عليه، ثم يعتصم مع ذلك بالمحمدية الشاملة ليساير موكب الحياة، ويؤدي رسالة الله.

وهكذا تتلخص المحمدية في خدمة العقيدة والفضيلة بالتي هي أحسن، بداية من الفرد، إلى الأسرة، إلى البيئة، إلى المجتمع، إلى الأمة، وهكذا حتى يكثر الصالحون بإذن الله، فيكثر بهم الصلاح، وفي مقابله يقل الفاسدون، فيقل الفساد، وهي نظرية عادية بسيطة، أساسها الإيمان والعمل لوجه الله.

وقد ازداد بحمد الله عدد الفروع، والحلقات، والنواب، والمندوبين،

ببركة حسن النية ، والحاجة الماسة إلى الدعوة الروحية المطهرة ، وبرغم سوء الظروف .

ولا شك أنَّ دعوتنا هذه كمدرسة حديثة ، قد أحدثت بحمد الله حركة انتقال تقدمي ، روحي وفكري كبير ، في الوسط الديني والصوفي معا ، وخطت بفضل الله إلى الأمام خطوات كبرى لها ما بعدها بعون الله .

بقي أنْ أقول إنَّ تفاصيل المشروعات العملية ، والمخططات المالية ، والحسابات المختلفة ، موضوعةٌ تحت تصرف أي أخٍ يسأل عنها في قاعة الإدارة بالعشيرة .

وسلام عليكم وعلى رسول الله وأمته جميعًا

***

مشاهدُ شهيرات آل البيت بالقاهرة الزَّينباتُ، والنَّفيستَانِ والسُّكينَاتُ، والفواطِمُ، وغيرهنَّ (١)

تمهيدٌ وبيانٌ:

توجهتُ لأتبرَّكَ بمشاركة إخواني في حفل العشيرة المحمدية، لإحياء ذكرىٰ مولاتنا السيدة نفيسة رضي الله عنها، وأنا أحمل مرضي وإرهاقي الشديد.

وكان لا بُدَّ من أن أتحدث رغم أن قد سبقني من المحمَّديين أئمةٌ يؤخذ عنهم، ويتبرك بهم وبهم يغاث العباد.

وقبل مغادرة المسجد توجه إلي بعض المثقفين وبعض ضيوف الحفل من إخواننا الإندونيسيين بأسئلة كثيرة عن الأضرحة الزينبية والنفيسية وغيرها، واستحلفني من السَّادة الإخوة عالمٌ عارفٌ أن أسجل ما أجبت به، ففيه -كما يرىٰ- حلٌ لكثير من المشكلات، وتحقيقٌ لكثير من الواقعات حول مشاهد آل البيت.

واستجابةً لهذه الرغبة التي أتبرك بها وأعتز، أوجز هنا ما يحضرني الآن من هذه الإجابات إيجازًا؛ مكتفيًا بالتعرض للمسائل التاريخية، دون الكرامات والمناقب.

ولنبدأ أولاً بالكلام عن ساداتنا الزينبات.

---

(١) مقال غرة رجب سنة (١٣٨٢هـ) ـ ٢٨ نوفمبر سنة (١٩٦٢م) ـ العدد الثاني عشر من السنة الثانية عشرة.

أولا : الزينباتُ

السَّيدةُ زينبُ الكُبرى :

هي بنتُ فاطمةَ البتول ، بِضعةِ الرسول ، أبوها سيفُ اللَّه الغالب عليُّ ابن أبي طالب ، وأخوها زين شباب الجنة ، وسيد شهداء الإسلام الإمام أبو عبد اللَّه الحسين شقيق الإمام الحسن ﭬ جميعًا .

ولادتها وزواجها وأولادها :

ولدت بعد مولد الحسين بسنتين ، وكلاهما ولد في شهر شعبان في السنة الخامسة للهجرة ، فعاصرت إشراقَ النبوة خمس سنوات .

اشتهرت بجمال الخَلق والخُلق ، اشتهارها بالإقدام والبلاغة ، وبالكرم وحسن المشورة ، والعلاقة باللَّه ، وكثيرًا ما كان يرجع إليها أبوها وإخوتها في الرأي .

تزوجت بابن عمها عبد اللَّه بن جعفر - الطيار - ابن أبي طالب ، وكان عبد اللَّه هذا أولَ طفل ولد أثناء الهجرة الأولى بأرض الحبشة ، وهو يكبر زينب بخمس سنوات ، أي أنه عاصر إشراق النبوة عشر سنوات ، ومنه أنجبت ذكورًا وإناثًا ، ملئوا الدنيا نورًا وفضلاً ، وإليها يُنسب الأشراف الزيانبة ، وبعض الأشراف الجعافرة .

إذنها لزوجها بالزواج :

ولما شُغلت زينبُ بأمر الدعوة مع أخويها الإمامين : الحسن والحسين ، ورأت أنها لا تستطيع أن تجمع بين واجب الجهاد وواجب الزوجية ، أذنت

لزوجها عبد اللَّه بن جعفر أن يتزوج ؛ فتزوج الخوصاء الوائلية ، ورزق منها بمحمد وعبيد اللَّه اللذين استشهدا مع الإمام الحسين في كربلاء ، ثم تزوج عبداللَّه بجمانة الفزارية بنت المسيب أمير التوابين - الذين خرجوا بعد مقتل الحسين على ابن زياد من أجل أهل البيت - ورزق منها بعون الأصغر الذي استشهد يوم الحرة ، مع أبي بكر أخيه من الخوصاء زوجة أبيه .

مشاركتُها في الأحداث الكبرى :

ولما خرج الحسين في جهاد الغاصب الفاسد ، شاركته زينب في رحلته وقاسمته الجهاد ، فكانت تثير حميةَ الأبطال وتشجع الضعفاء وتخدم المقاتلين .

ولما قُتل الحسين كان لها مواقفُهَا الجريئة الخالدة مع ابن زياد ومع يزيد ، وبها حمى اللَّه فاطمةَ الصُغرىٰ بنت الحسين من السبي والتسري ، وحمى اللَّه عليًّا الأصغر زين العابدين من القتل ؛ فانتشرت به ذُرية الإمام الحسين .

رحلتها من المدينة إلى مصر ووفاتها :

ولما أعادوها - رضي اللَّه عنها- إلى المدينة المنورة ، بعد أن استبقوا رأس الحسين بدمشق ليطوفوا به الآفاق إرهابًا للناس ، أحسُّوا بخطرها الكبير علىٰ عرشهم ، فاضطروها إلى الخروج ، فأبت أن تخرج من المدينة إلا محمولة ، ولكنَّ جمهرة أهل البيت أقنعتها بالخروج ، فاختارت مصر لما علمت من حُبِّ أهلها وواليها لأهل البيت ، فدخلتها في أوائل شعبان سنة (٦١ من الهجرة) ومعها فاطمةُ وسُكينة بنتا الحسين ، واستقبلها أهل مصر في بلبيس بُكاةً مُعزِّين .

واحتملها والي مصر مَسلمةُ بن مخلد الأنصاري إلى داره بالحمراء القصوى، عند بساتين الزهري - حي السيدة الآن - فأقامت بهذه الدار أقل من عام، عابدة زاهدة تفقه الناس، وتفيض عليهم من أنوار النبوة، وشرائف المعارف والبركات والأمداد، حيث توفيت في مساء الأحد (١٥) من رجب سنة (٦٢ هـ) ودفنت بمخدعها وحجرتها من دار مسلمة، التي أصبحت مسجدها المعروف الآن.

وقد تُوفيت وهي على عصمة زوجها عبد الله، وأما قصة طلاقها منه فكذبٌ من وضع النواصب، أو هو على أحسن الأحوال وهم واختلاط.

مشهدها الطاهر:

ومشهدُها ترياقٌ مجرَّبٌ، تُرفع فيه التوسلات، وتُستجاب به الدعوات، وأما ما قد يكون فيه، ـ كما يكون في غيره ـ من بعض المخالفات لظاهر الشرع الشريف، فهو من أثر الجهل، الذي يخفف من سوئه حسن نية أصحابه، وسلامة اعتقادهم والحمد لله، ويجب أن تُسمَّى الأشياء بأسمائها، فلا يُسمَّى الجهلُ شركًا ولا كفرًا.

تجديدات الحرم الزينبي:

أُنشئ في العهد الأموي، وما زال يجد الرعاية في كل عصر، تجديدًا وصيانة وتوسعة حتى سنة (٩٥٦ هـ) حيث جدده الأمير علي بك الوزير، ثم بعد ذلك جدده من ماله الخاص الأميرُ الصالح محبُّ أهل البيت وخادمُ العلم والمساجد؛ عبد الرحمن كتخدا الفازدغلي، ثم بعد ذلك أُنشئت مقصورة النحاس الأصفر على القبر الشريف، ثم بعد ذلك

قام بتجديده الأميرُ عثمان المرادي، ولكنه لم يتم التجديد لدخول الفرنسيين مصر، ثم بعد ذلك شرع الوزير يوسف الوالي في إتمام هذه العمارة، ولكنه توفي فأوقف العمل، إلى أن جاء محمد علي فأتم عمارته، ثم جاء من بعده عباسٌ الأول فوضع تصميم توسعة المسجد وتجديده، وجاء من بعده سعيدٌ فنفذ التصميم، ثم بعد ذلك قام الخديوي توفيق بإصلاح القبر والمنارة وتجديد الجدران، ثم وسعته الحكومة المصرية التوسعة الأخيرة، وأنشأت ميضأته الكبرى من نحو خمسة عشر عامًا تقريبًا، ثم هي الآن بصدد توسعته من جديد.

الشيخ العتريس:

أما الشيخُ العتريس المدفون بجوار المسجد الشريف فهو محمد بن أبي المجد ابن قريش، شقيق سيدي إبراهيم الدسوقي، المتوفى في النصف الثاني من القرن السابع، وقد أوصى بأن يُدفن في هذا المكان، حيث كان يقيم مجالس العبادة والدعوة في كنف الحرم الزينبي أكثر حياته رضي الله عنه.

الشيخ العيدروس:

وأما الشيخُ العيدروس فهو الشيخ وجيه الدين المُكَنَّى بأبي المراحم عبد الرحمن الحسيني، من حضرموت، وقد استقر بمصر بعد حياة طويلة مشحونة بالكفاح والدعوة والسياحة، وجعل مجلس عبادته وإرشاده في جوار ضريح الشيخ العتريس، وعندما حضرته الوفاة في سنة (١١٩٢هـ) أوصى بأن يُدفن حيث هو الآن، بجوار السيد العتريس في ظل المسجد المبارك.

الزَّينباتُ الثلاثُ:

تُسمَّى السيدة زينب بنت عليٍّ أخت الحسين زينبَ الكبرىٰ؛ فقد كان من عادة أهل البيت تكرار أسماء أبناء وبنات جدِّهم رسول الله ﷺ في أبناء البيت الواحد، فتجد مثلاً زينب الصغرىٰ والوسطىٰ والكبرىٰ، وفاطمة الصغرىٰ والكبرىٰ والوسطىٰ، وكان ذوات الاسم الواحد يتوفين ويدفن في أماكن متفرقة من بلاد المسلمين، حيث شَتَّتَهُنَّ الدولة الأموية والعباسية، ومن هنا حصل اللبس الكبير الذي وقع فيه كثير من المؤرخين في تحديد مشاهد أهل البيت، ولو أنهم لاحظوا ذلك - أعني تكرار الاسم الواحد في البيت الواحد - لانحل المشكل الذي لا نزال نعانيه.

زينب الوسطى:

ثم إنَّ سيدتنا زينب الوسطىٰ أخت زينب الكبرىٰ؛ فقد كانت تُنادىٰ وتكنىٰ باسم خالتها أم كلثوم، كما سميت باسم خالتها زينب، عندما ولدت في السنة التاسعة من الهجرة، وقد تزوجها أمير المؤمنين عمرُ وهي دون العاشرة، فولدت له زيدًا الأكبر ورقية، حتى استشهد عمر، ثم تزوجت من ابن عمِّها عون بن جعفر، فلما استشهد تزوجها أخوه محمد ابن جعفر، الذي مات في موقعة صفين، ولم تلبث أن توفيت زينب الوسطىٰ هذه المعروفة بأم كلثوم هي وابنها زيد في وقت واحد، وصلَّىٰ عليهما عبد الله بن عمر ودُفنت مع ابنها زيد بالمدينة، فلاحظ ذلك.

زينب الصغرى:

أما القبر المعروف باسم زينب بنت عليٍّ في قرية «**راوية**» بدمشق، فهو قبر زينب الصغرىٰ أخت الوسطىٰ والكبرىٰ، وإليه أشار ابن الحوراني في كتابه عن أماكن الزيارات، والموصلي في المعارف، وبهذا يزول اللبس كله.

ألقابٌ وكُنَى:

وقد كان أهل البيت جميعًا يرجعون إلىٰ رأي زينب الكبرىٰ، ولهذا سُميت «**صاحبة الشورىٰ**»، ولما جاءت مصرَ كان الوالي ورجاله يعقدون جلساتهم بدارها وتحت رياستها فسميت «**رئيسة الديوان**»، وكانت دارها مأوىٰ لكل ضعيف ومريض ومحتاج فسميت «**أم العواجز**»، وكان لها مع الله جانب عظيم، فظلت في الحياة وبعد الممات مهوىٰ الأفئدة، ومناط الاستشفاع والبركة، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، وليلهث الثرىٰ بعد ذلك كل ناصبي حقود.

دولة الأرواح:

وليس من شأننا هنا أن نتعرض لعقائد الناس في رتبة ساداتنا آل البيت من العالم الثاني، ودولة الأرواح، فأمر ذلك إلى الله، وإنما يكفينا من الناس حسنُ النية وسلامة الاعتقاد، وما بقي من أمور الكشف والشهود والأذواق والمواجيد، فليس هذا مقام البحث فيه، أو الحكم عليه، وما دام الأمر لا يتعارض مع أصول الشريعة، ولا يجرُّ إلىٰ مفسدة، فلا موجبَ قط للحملة عليه، فإنَّ أمامنا ما هو أولىٰ يقينًا بالجهاد والجهود، فيما نرىٰ من المفاسد السافرة، والشرك الصريح.

وزينبات أخريات مباركات:

وهناك من أهل البيت زينبات مباركات - غير زينبات الإمام عليٍّ - منهن :

١- السيدةُ زينب بنت سيدي يحيى المتوج بالأنوار، وهو أخو السيدة نفيسة بنت سيدي حسن الأنور، وقد وهبت زينب نفسها لخدمة عمتها السيدة نفيسة بنت الحسين، وضريحها بقرافة الإمام بجوار ضريح عمر بن الفارض، جدده عميد أسرة المناسترلي وضمه إلى قبور أسرته، وقد ماتت ولم تعقب، وقبرها معروف بالبركة، وكان الخليفة الظافر الفاطمي يأتي لزيارته ماشيًا.

٢- ومنهن السيدة زينب الحنفية بنت أحمد بن محمد بن عبد الله بن جعفر ابن الحنفية، وهو من أبناء الإمام عليٍّ من زوجته الحنفية، وضريحها بقرافة باب النصر، يحسبه الناس مزارًا للسيدة زينب الكبرىٰ، وفيه يستجاب الدعاء.

٣- ومنهن السيدة زينب بنت سيدي عبد الله المحض، وهي المشهورة بفاطمة النبوية بالعباسية، ويطلق اسمها على شارع كبير هناك فيما حوالي قسم شرطة الوايلي الآن، وهي أخت سيدي إبراهيم الجواد، المدفون رأسه الشريف بمسجده بشارع البرنس بالمطرية، وأبوهما سيدي عبدالله الكامل المشهور بالمحض، وضريحه - على المشهور - بشارع الشيخ عبد الله المتفرع من شارع القصر العيني الآن، ويوشك أن يندثر، وعبد الله المحض هو بن الحسن المثنىٰ بن الحسن السبط بن الإمام علي.

٤- ومنهن الشريفة المباركة زينب بنت حسن بن إبراهيم بن بللوه النسابة، من نسل إسماعيل المثلث ابن أحمد بن إسماعيل المثنى، ابن محمد بن إسماعيل الإمام ابن مولانا جعفر الصادق، من أهل القرن السابع، وقد دفنت مع جدها إبراهيم عند باب المشهد السُّكيني.

٥- ومنهن السيدة زينب الإدريسية، بنت محمد بن علي، بن عبد الله ابن محمد، ابن يحيى بن إدريس، بن عبد الله المحض، بن الحسن المثنى، بن الحسن السبط بن الإمام علي، وقبرها معروف بالقرافة النفيسية عند قبر السيد الشريف حيدرة، ويتبرك الناس بالاستشفاع بها ودعاء الله عند قبرها.

٦- ومنهن السيدة زينب الكلثمية من ذرية القاسم بن محمد، وهم يعرفون بالكلثميين، وقبرها معروف يزار تبركًا بقرافة الإمام الليث.

وحسبنا ذكر هؤلاء الزينبات الشهيرات من آل البيت الطاهر المدفونات بمصر.

ثانيا: النفيستان

ثم لنتكلم الآن عن النفيستين عليهما الرضا

نفيسة الصغرى:

مولاتنا السيدة نفيسة الصغرى بنت سيدي حسن الأنور - ويشتهر بالأكبر كذلك - وهو ابن سيدي زيد الأبلج، ابن مولانا الإمام الحسن السبط، ابن مولانا الإمام علي، من مولاتنا فاطمة الزهراء البتول بِضعة سيدنا ومولانا الرسول ﷺ، ومشهدها الآن بالقاهرة الباهرة في جنوبها

الشرقي بسفح المقطم، بمنطقة تُعرف تاريخيا بدرب السباع، وقد أزالت البلدية ما حول المشهد من مبان، وجعلت له ميدانا فسيحًا رائعًا، ولم يجمع المؤرخون على شيء إجماعهم على أن السيدة نفيسة بنت الحسن مدفونة بمشهدها بمصر.

ولادتها وزوجها وأولادها:

وقد ولدت -رضي الله عنها- بمكة في النصف الأول من ربيع الأول، سنة مائة وخمس وأربعين من الهجرة، وقضت صباها بالمدينة؛ إذ كان والدها أميرًا عليها للخليفة المنصور، وقد أدركت طائفةً من نساء الصحابة والتابعين وتلقت عنهن.

وتزوجت في العشر الأولى من رجب سنة (١٦١هـ) من أحد بني عمومتها، السيد إسحاق المؤتمن، ابن السيد جعفر الصادق، ابن السيد محمد الباقر، ابن السيد علي زين العابدين، ابن مولانا الإمام الحسين رضي الله عنهم جميعًا، ورزقت منه بالقاسم وأم كلثوم، ولما ترك الإمام الحسن الأنور والد السيدة نفيسة ولاية المدينة، خلفه زوجها إسحاق المؤتمن عليها واليًا للعباسيين.

نزولها إلى مصر ومنازلها فيها:

وفي العَشر الأواخر من رمضان سنة (١٩٣ هـ)، نزلت مصر مع زوجها وأبيها وابنها وبنتها لزيارة مَنْ كان بمصر من آل البيت، بعد أن زارت بيت المقدس، واستقبلها أهل مصر من عند العريش أعظم الاستقبال، حتى إذا دخلت مصر أنزلها السيد جمال الدين عبد الله

الجصاص كبير تجار مصر في داره الفاخرة، ثم انتقلت إلى دار أم هانئ بجهة المراغة المشهورة الآن بالقرافة، وهناك كان إكرام الله لها بأن شفى من ماء وضوئها الفتاة المقعدة بنت أبي السرايا أيوب بن صابر اليهودي، فأسلم أهلوها ومن كان معهم، وحاول أبو السرايا نقل السيدة نفيسة إلى داره في درب الكروبيين، وكان لهذه القصة دوي هائل في أهل مصر؛ فلازموا دارها ليل نهار بالمئات يلتمسون البركات، وينتظرون الدعوات.

وهنا أزمعت العودة إلى الحجاز، فاستمسك أهل مصر بوجودها بينهم، ووهبها السري بن الحكم والي مصر داره الكبرى بدرب السباع، وهي الدار التي كانت لأبي جعفر خالد بن هارون السلمي من قبل، وحدد لزيارتها يومي السبت والأربعاء مراعاة لصحتها، وتمكينا لها من عباداتها.

بعض مآثرها:

وكان أهل مصر ربما شكوا إليها انحراف الوالي فلقيته وعزرته، وذكرته بعذاب الله، وحقوق الناس فما تزال به حتى يعود إلى أمر الله.

وكانت مستجابة الدعاء، فما دعت لأحد إلا استجاب الله له.

وكانت على شيء من طبِّ العيون، تجمع فيه بين الطب المعتاد والطب الروحي، فيَشْفِي الله قُصَّادَها؛ ولهذا كان يهرع مرضى العيون إلى مشهدها بعد وفاتها التماسًا للشفاء، وكان من كراماتها أن أقامت الحكومة إلى جوار مشهدها مستشفى لأمراض العيون باسمها، ولكنها عادت فنقلته إلى مكان آخر، وغَيَّرت اسمَه مع الأسف الشديد.

نفيسة والشافعي:

وكان لها دخل كبير في حضور الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي ﵁ إلى مصر، ولهذا كان ﵁ يكثر زيارتها والتلقي عنها، ويصلي بها في مسجدها خصوصا تراويح رمضان، وكانت تقدره رضي الله عنها، وتمده بما يعينه على أداء رسالته العلمية الكبرى.

ولما مات ﵁ في رجب سنة (٢٠٤ هـ) حملوه إلى دارها، فصلت عليه مأمومة بالإمام أبي يعقوب البويطي، ودعت له وشهدت فيه خير شهادة، وقد حزنت على وفاته حزنا كبيرا.

وفاتها ودفنها:

وبعد وفاة الشافعي بدأت السيدة نفيسة تعد نفسها للقاء مولاها، فحفرت قبرها بيدها في حجرتها بمنزلها الذي أهداه إليها والي مصر بدرب السباع، وهو الذي أصبح فيما بعد مشهدها ومسجدها الحالي.

وفي يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان سنة (٢٠٨هـ) اشتد مرضها، وكانت تقرأ سورة الأنعام حتى إذا وصلت قوله تعالى ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام:١٢٧] فاضت روحها إلى الرفيق الأعلى راضية مرضية.

بعض أحبابها:

وكان ممن يتبرك بها مولانا أبو الفيض ذو النون المصري، والإمام أبو الحسن الدينوري، وأبو علي الروذباري، وأبو بكر الدقاق، وتبان الواسطي، والإمام إسماعيل المزني الشافعي، والإمام أبو يعقوب البويطي

الشافعي ، والفقيه عبد الله بن وهب القرشي المالكي ، والإمام أبو جعفر الطحاوي الحنفي ، وأبو نصر سراج الدين المغافري ، والفقيه أبو بكر الحداد ، والإمام أبو الحجاج الإشبيلي ، والإمام يوسف بن يعقوب الهروي ، والمحدث الحافظ عبد الغني بن سعيد الأزدي ، والإمام أبو عبد الله القضاعي ، والإمام أبو زكريا السخاوي ، والفقيه الإمام ابن زروق المالكي الصوفي ، وشيخ قراء مصر الإمام ورش المقرئ ، والإمام المحدث الحافظ الشيرازي ، والحافظ أبو الطاهر السِّلَفِي ، وأبو الحسن الموصلي ، إلى مئات من سادات السادات ، وأئمة الأئمة في علوم الدين والدنيا .

وقد جرب كبار أصحاب القلوب التوسل إلى الله بها ، ودعاءه تعالى عند قبرها ، فاستجاب لهم ربهم ، ولا يزال سبحانه يستجيب لرواد هذا المشهد الحبيب .

تاريخ مشهدها :

وقد أنشأ قبرها أمير مصر ابن عبد الحكم ، ثم جدده الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، ثم بنى قبته الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمي ، كما بنى لكبار الفاطميين في جوار المشهد مقبرة - دخلت في المسجد الحالي عند توسعته - ثم جدد المشهد الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وهو الذي أنشأ المسجد بجوار المشهد ، وبعده جددهما الأمير عبد الرحمن كتخدا ، ثم جدده على وصفه الحالي الخديوي عباس حلمي الثاني .

أبوها وإخوتها وأبناؤها :

وللسيدة نفيسة عشرة أخوة من أبيها ، أمهم أم سلمة زينب بنت الحسن المثنىٰ ، ابن مولانا الحسن الإمام السبط ، ابن الإمام علي .

أما هي – رضي الله عنها – فمن أُمٍّ وحدها غير أمهم أم سلمة – رضي الله عنها– وقد مات في مصر أبوها سيدي حسن الأنور المشهور أيضًا بالأكبر ، وقبره معروف بحي مصر القديمة ، ودفن معه في مشهده ابنه زيد أخو نفيسة ، كما دُفن بمصر أيضًا أخوها يحيى المتوج ، وقبره معروف بقرب الإمام الليث ، في جوار مدفن سيدي يحيى الملقب بالشبيه بالنبيﷺ ، وهو المشهور بيحيى الحسيني ، وكان السلطان أحمد ابن طولون ، قد استقدمه من الحجاز تبركا به ، فانتفع أهل مصر بطهارة أنفاسه حتىٰ توفاه الله .

ويوجد بهذه المنطقة في شارع الخليفة قبر سيدي محمد الأصغر الشهير بمحمد الأنور ابن زيد الأصغر ابن الحسن الأكبر ابن زيد الأكبر المعروف بالجواد ابن الحسن بن علي رضي الله عنهم .

فمحمد الأنور علىٰ هذا هو ابن أخي السيدة نفيسة بنت الحسن الأكبر ، ويظن بعضهم خطأ أنه عمها ، وليس كذلك .

أما زوجها إسحاق فكان قد حضر لزيارتها كعادته ، فإذا حضوره هذه المرة يصادف من إكرام الله لها يوم وفاتها ، فتولىٰ بنفسه جميع شئونها كوصيتها ، وترك جسدها الشريف وديعة عند أهل مصر كطلبهم ، ثم استصحب ابنها وابنتها معه إلى الحجاز رضي الله عنهم جميعًا .

هذه هي مولاتنا السيدة نفيسة الصغرىٰ ، أشهر آل البيت بعد مولاتنا السيدة زينب بنت علي رضي الله عنهما وعمن يحبهما .

السيدة نفيسة الكبرى:

أما السيدة نفيسة الكبرىٰ فهي مولاتنا السيدة نفيسة بنت الإمام زيد الأبلج، ابن مولانا الإمام الحسن السبط، ابن مولانا الإمام علي رضي الله عنه.

فهي عمة نفيسة الصغرىٰ؛ لأنها أخت والدها سيدي حسن الأنور ابن زيد الأبلج، كما أنها شقيقة سيدتنا رقية بنت زيد -رضي الله عنها-، وأمها لبابة بنت عبد الله بن العباس.

وكانت نفيسة الكبرىٰ زوجة للخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان، وكانت قد جاءت إلىٰ مصر معه حين كان واليا علىٰ مصر قبل أن يتولى الخلافة.

ولما تولى الخلافة اختلفت نفيسة معه علىٰ حقوق الله عليه لعباده، فطلقها، فرحلت إلىٰ مصر عند ابنة عمها سيدتنا سكينة بنت الإمام الحسين، قبل مجيء السيدة نفيسة الصغرىٰ بوقت طويل، واستفاضت شهرة صلاحها وتقواها وعلمها وعبادتها وبركتها، فَأَمَّهَا أهلُ مصر، وتبركوا بها كعادتهم مع بقية آل البيت.

وكان عبد الله بن عبد الملك بن مروان أخو مطلقها، هو والي مصر حينئذ، فوهبها دارًا في شمال مصر القديمة الشرقي، والمعروف أنَّ هذه الدار التي وهبت لنفيسة الكبرىٰ، كانت مجاورة أو ملحقة بدار أم هانئ التي نزلت فيها نفيسة الصغرىٰ فيما بعد بالمراغة، ثم اشتهرت بمعبد السيدة نفيسة حتى الآن.

وقد دفنت في هذه الدار - أو ذلك المعبد - مولاتنا السيدة نفيسة الكبرىٰ، وهي التي يزورها الناس إذ يزورون هذا المكان باسم المعبد، ولا

يكاد جمهورهم يفرق بين النفيستين والمشهدين ، بل لعل أغلب الناس لا يعرف أن عندنا نفيسة صغرىٰ ونفيسة كبرىٰ ، رضي الله عنهما وأرضاهما وأرضىٰ أهل البيت جميعا .

ثم لنتكلم الآن عن السُّكينات الطاهرات .

ثالثا : السُّكَيْنَات الكريمات

سُكينة الكبرى بنت الإمام الحسين :

السيدة سكينة بنت الإمام الحسين ، أول من دخل مصر من أبناء الإمام علي ﷺ ، كما نقله جماعة ، منهم ابن الزيات عن ابن زولاق مؤرخ مصر المحقق في القرن الرابع ، وينطق اسمها بضم السين وفتح الكاف تصغيرا علىٰ وزن «**بثينة**» .

سبب دخولها مصر :

وكان سبب دخولها مصر أن خطبها الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان أمير مصر ، وكان من سياسة الأمويين بعد مقتل الحسين محاولة التخفيف من وقع الحادث عند الناس ، بالتقرب إلىٰ أهل البيت بالزواج ، وإسناد بعض الإمارات والمناصب إلىٰ من يأمنونه منهم .

وبينما سُكينة في طريقها إلىٰ مصر إذ بلغها شناعة بغي الأصبغ وجوره وفجوره ، فأقسمت ألا تكون له زوجة أبدًا ، واستجاب الله لها ، فما إن وصلت منية الأصبغ في مصر حتىٰ كان قد مات الأصبغ قبل أن يراها ، ثم كان ما كان من أمرها مع إبراهيم الزهري علىٰ ما ذكره بعضهم .

وهكذا انتقلت من منية الأصبغ إلىٰ دارها التي بقيت بها إلىٰ أن ماتت، ثم أصبحت هذه الدار لها مشهدًا ومسجدًا لليوم.

وهذا هو الملاحظ في كثير من أهل البيت والسادة الأولياء، فإنهم كثير ما تكون بيوتهم في حياتهم هي مدافنهم بعد مماتهم، ولله في ذلك حكمة.

مَنْ دَخَلَ مصر بعد سُكينة:

وكان أول من جاء مصر بعد سكينة، عمتها نفيسة الكبرىٰ بنت زيد الأبلج، بعد طلاقها من الخليفة الأموي، ثم جاءت من بعدها نفيسة الصغرىٰ بنت الحسن الأنور - كما فصلنا ذلك من قبل - وبعد هذا تتابع دخول أهل البيت إلىٰ مصر وإقامتهم بها؛ لما وجدوا من أهلها من صدق الحب، ولبعدها عن مواطن الفتن والائتمار ومشاكل الأمور السياسية.

دعاوى أهل الباطل:

ولقد ادَّعى الوضاعون وخصوم أهل البيت دعاوىٰ على السيدة سكينة يبرأ منها الحق إلى الله، كادعائهم شغفها بالغناء واللهو، واختلاطها بالرجال، وإشاعتها عقصات الشعور، وغير ذلك مما قُصد به محاولة الإساءة إلىٰ أهل البيت، ثم نقله كثير من المؤلفين بحسن النية، وشاع علىٰ بعض الألسن بدون وعي، وهو دخيل مدسوس لئيم، لا ينبغي السكوت عليه من مسلم؛ لما فيه من قصد التشهير ببيت النبوة والاحتيال للوصول إلى اغتماز شخص النبيﷺ، وبالتالي تجريح رسالته المقدسة.

والذي لا شك فيه أنَّ سكينة النبوية كانت أديبة ذواقة ناقدة عالمة بدقائق اللغة، وخصائص الدين، شأن نساء أهل البيت كلهم، وكانت

ربما أجازت الأدباء والعلماء وأجزلت لهم، واستضافتهم وشجعتهم، وذلك أمر مطلوب من أهل البيت عامة، ومن حراس التراث المحمدي لغة ودينا بصفة خاصة.

أما ما زاد على ذلك من أخبار اللهو والغناء ونحوه فمن دس الباطنية، ووضع الكذابين، ومن إفك حُساد أهل البيت وخصوم الإسلام، فليتنبه إلى ذلك كل من في قلبه مثقال حبة من خردل من غيرة على دين الله، وعلى أهل بيت النبي ﷺ.

ولقد سجل التاريخ أنَّ سكينة كانت من سادة السادات، وكانت دارها مقصد الأعيان، وقبلة ذوي الحاجات، ذلك إلى العلم الواسع، والأدب البارع، والتزام العزيمة في حدود الله، مع التقوى واليسر، واعتبار قانون اللياقة والسلوك، والمتواترُ في سيرتها أنه كان يغلب عليها الاستغراق كما نقله ابن الصباغ.

من في الضريح ومن حوله:

وقد دُفن في ضريح السيدة سُكينة بنت الإمام الحسين - عند باب المشهد - جماعة من السادة، منهم الشريف حيدرة بن ناصر من الفواطم السليمانية، أبناء الإمام الحسين من حفيده الحسين الأصغر، وكانوا بصنهاجة المغرب.

وكان قد جاء مصر زائرًا فمات بها، وصلى عليه الخليفةُ العزيز بالله ابن المعز لدين الله الفاطمي، ودفن في باب المشهد السكيني.

ودُفن بباب المشهد كذلك الشريف النسابة المقيم حياته بالمشهد

السكيني السيد إبراهيم بن يحيىٰ بن بللوه المشهدي ، ودفن معه ولده السيد حسن ، وبنت ابنه السيد حسن ، واسمها السيدة زينب ، وهي التي أشرنا إلىٰ ذكرها في الكلام عن الزينبات .

وقريبا جدًّا من مشهد السيدة سُكينة الكبرىٰ إلى الغرب ، يقع قبر السيدة رقية بنت علي الرضا ابن موسى الكاظم ، ابن جعفر الصادق ، ابن محمد الباقر ، ابن علي زين العابدين ، ابن الإمام الحسين ، وكثير من الناس يظنونه للسيدة رقية أخت السيدة زينب أخت الإمام الحسين وبنت الإمام علي ، وهو خطأ جرَّ إليه تشابه الأسماء .

وقد جدد هذا القبر السيدة «**علم الآمرية**» زوجة الخليفة المستعلي بالله الفاطمي ، ثم جدده عبد الرحمن كتخدا ، ثم عمَّره عباس الأول وزوجته ، ونقل إلى الضريح المقصورة المطعمة بالصدف التي كانت علىٰ قبر الحسين ، قبل عمل المقصورة الحالية له ، ولم يبق من المبنى الفاطمي إلا الإيوان الذي به الضريح ، وما عداه فمستحدث .

وبمشهد السيدة رُقية قبر السيدة عاتكة بنت زيد بن عمر بن نفيل القرشي ، زوجة سيدنا محمد بن أبي بكر الصديق الذي كان واليا علىٰ مصر ، تزوجها بعد الزبير بن العوام ، ودخلت معه مصر ، وماتت معه فيها ، ويظن كثير من الناس أنها عاتكة عمة رسول الله ﷺ وليس كذلك .

وبجوارها قبر السيد علي الجعفري الصوفي من سلسلة أبناء جعفر الطيار أخي علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقد ترجمه الأزروقاني ، ووصفه بالصلاح والقداسة وطهارة الأنفاس .

وبهذا المشهد طائفة أخرى من الأشراف والعلماء، منهم العلامة المحقق النسابة السيد أبو الفيض محمد مرتضى الزبيدي الحنفي الشريف الحسيني، ومعه زوجته أم الفضل زبيدة التي سبقته إلى الله، رحمهم الله جميعًا.

وحسبنا ما قدمناه من ذكر السيدة سكينة الكبرى وجيرتها المباركة.

سُكَينة الصغرى وسَمِيَّاتُهَا:

أما سكينة الصغرى فهي بنت زين العابدين ابن الإمام الحسين، ولا خلاف بين المؤرخين في أنها دخلت مصر وأنها ماتت بها بكرًا لم يدخل بها رجل.

وقد خلط بعضهم بينها وبين عمتها سُكينة الكبرى بنت الحسين، ولكنَّ الحق عندنا ما بيناه هنا بعد التحقيق التاريخي المؤيد بالتواتر، ثم بِنقول أهل الحق من العارفين بالله في مقامات الكشف والشهود.

أما قبر سُكينة الصغرى بنت زين العابدين التي نتحدث عنها، فهو عند مقبرة الصِّديقين، وهم من السادة التابعين، وكانت لهم أربعمائة قبة هناك، ومنهم بركة مصر وفخرها الإمام يونس بن عبد الأعلى شيخ البخاري ومسلم، والذي كان نائبًا عن الإمام الليث، وقبورهم بجوار قبر سكينة الصغرى قريبًا من مشهد الإمام الليث بن سعد رضي الله عنه وهو معروف يُزار ويتبرك به.

أما سكينةُ المدفونة بالشام، فهي الأخت الكبرى لسكينة بنت زين العابدين دفينة مصر، وقد وهم في شأنها بعض مؤرخي المزارات فخلط بينها وبين سميتها.

وأما سكينة المدفونة بالمدينة، فهي الأخت الصغرى لسكينة بنت الحسين، وقد تزوجت جماعة معروفين، وماتت هناك وقبرها معروف، فاحفظ ذلك.

قلنا: وإنما أحدث هذا اللبس ما تعوده أهلُ البيت ﵃ من تكرار الاسم الواحد في البيت الواحد مرتين وثلاث مرات من قبيل التبرك والتيمن، مع الاكتفاء في التمييز بلفظ الأكبر أو الكبرى، والأوسط أو الوسطى، والأصغر والصغرى، أو بالألقاب أحيانا، نحو: الصادق والأبلج والمحض أو المؤتمن، أو بنحو قولهم: المثنى والمثلث وهكذا، ﵃ جميعًا، وعنا وعن المسلمين بهم.

ولننقل الكلام الآن إلى السيدات الفواطم.

رابعا: الفاطماتُ الطاهراتُ

السيدة فاطمة بنت مولانا الحسين:

السيدة فاطمة بنت مولانا الإمام الحسين أخت السيدة سكينة النبوية، وأمها أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله - على ما حققه البغدادي - وقد كانت دخلت مصر مع عمتها السيدة زينب، ثم رجعت إلى الحجاز فتزوجت هناك وأنجبت كما سنفصله.

كنيتها وزواجها وأبناؤها:

كانت أشبهَ الناس بجدتها السيدة فاطمة الزهراء، وكانت فصيحةً أديبةً كريمة دائمة العبادة، وقد ضمت إليها اليتامى اللائي فقدن الآباء في موقعة الحسين، وكانت تستصحبهن في رحلاتها، وتضم إليهن أخريات

من اليتامىٰ ، قالوا : وكُنَّ معها في دخولها إلىٰ مصر حتىٰ دفنت بها ، ولهذا سميت «**أم اليتامىٰ**» .

تزوجت أولاً من ابن عمها الحسن المثنىٰ بن الحسن السبط بن الإمام علي ، وقد أعقب منها عبد الله المحض - أي الخالص العبودية لله - وكان عالما شاعرًا هُمَاما ، وهو أبو إبراهيم الجواد المدفون رأسه بالمطرية ، وأبو زينب المشهورة بفاطمة النبوية في العباسية ، أما مدفنه هو فالمشهور كما قلنا إنه بالقاهرة علىٰ ناصية شارع الشيخ عبد الله في بناء هناك بشارع القصر العيني .

وقد يكون في هذا نظر إذا أخذنا في الاعتبار قول من يقول بأنه مات في سجن أبي جعفر ببغداد .

ومن أبناء السيدة فاطمة غير المحض إسماعيل الديباج الذي ينسب إليه آل طباطبا ، ثم الحسن المثلث ، وقد مات في سجن أبي جعفر المنصور بعد أن أعقبا نسلا طيبا ، ثم تزوجت فاطمة ثانيا بعد وفاة الحسن المثنىٰ زوجِهَا الأول ، بعبد الله ابن عمرو بن عثمان بن عفان ، فولدت له محمَّدًا والقاسم .

وفاتها وقبرها :

وقد توفيت عام (١١٠ هـ) وفي قدومها إلىٰ مصر بعد كبرها ودفنها بها خلاف ، وقد حقق شيخ الإسلام الأجهوري مؤيدًا بخطط الشهاب الأوحدي قدومها إلىٰ مصر ، ووفاتها بها ودفنها في سفح المقطم وهو الأشهر المعتمد ، وقد جدد قبرها جماعة من أواخرهم عبد الرحمن كتخدا وعباس .

وعندئذ يكون قبر فاطمة النبوية بالمدينة ، وقبر فاطمة النبوية بالخليل بالشام من قبور فاطمات السلف من سيدات أهل البيت ، ومن الحفيدات الطاهرات .

والعكس جائزٌ أيضًا لوجود كُنية أم سلمة على رخامة قبر السيدة فاطمة بسفح المقطم، وليست هذه الكنية من كنى بنت الحسين فكنيتها أم اليتامى، ومعنى هذا أنَّ أم سلمة فاطمة النبوية الموجود قبرها بسفح المقطم ليست بنت الحسين مباشرة، إنما هي من أقرب الحفيدات الطاهرات، غير أنَّ الروحانية والمدد والتواتر والبركة والتجربة ترجح الأول، وهو المعتمد عند أكثر المؤرخين وأهل الشهود كما أسلفنا.

فاطمات القاهرة:

وبعد هذا تأتي من الفاطمات النبويات بالقاهرة كُلٌّ من السيدات:

١- فاطمة النبوية بنت محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وقبرها بالخليفة مشهور بزار.

٢- فاطمة النبوية بنت أحمد بن إسماعيل بن محمد بن جعفر الصادق، وقبرها بدرب سعادة بباب الخلق، ذكر المقريزي دخولها مصر، ومشهدها مقصود بالزيارة وطلب البركة، وعليه - رغم تواضعه - نور النبوة.

٣- السيدة فاطمة النبوية العيناء ابنة القاسم بن محمد بن جعفر الصادق، وسميت بالعيناء لحسن عيونها، وشدة شبهها بجدتها فاطمة الزهراء، ويؤثر عنها كرامات ومناقب شتى، وقد نقل إلى قبرها المعروف شرقي قبر الشافعي عدد من الأشراف الحسنيين والكلاثمة، وقبرها يستجاب عنده الدعاء بإذن الله، وعنده تفيض البركات والأمداد.

٤- السيدة فاطمة النبوية المحضية، واسمها زينب بنت عبد الله المحض

ابن الحسن المثنىٰ بن الحسن السبط بن الإمام علي ، وشهرتها فاطمة علىٰ ما ذكره القلعاوي في «**مشاهد الصفا**» وقبرها بالعباسية في شارع معروف باسمها هناك .

٥- السيدتان فاطمة الصغرىٰ ، وفاطمة الكبرىٰ ، ذكر السخاوي أنَّ قبرهما كان بحري قبر العارف أبي بكر الأدفوي بسفح المقطم ، ومعهما جماعة من الأشراف ﭫ .

كلمات أخيرة هامة :

بقي من أصحاب الأسماء المتماثلة من شهيرات أهل البيت بالقاهرة :

أولا : الآمنتان :

١- السيدة آمنة بنت موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، وقبرها قرب قبر عمرو بن العاص وعقبة بن عامر الجهني الصحابيين بقرافة قريش شرقي قبر الإمام الشافعي .

٢- السيدة آمنة بنت عبد الله بن الحسن بن عبد الله ، من أولاد القاسم القرشي ، ومدفنها في حوش طباطبا بقرافة الإمام الليث قريبا من مشهد الشقيقين الشريفين - الحسن والمحسن - ابنا القاسم بن جعفر الصادق ﭫ جميعا .

ثانيا : القارئتان :

الأختان الشريفتان «**ثناء**» و«**سناء**» من أحفاد الإمام جعفر الصادق ، كانت إحداهما تقرأ الختمة وتستمع إليها الأخرىٰ ، حتىٰ إذا انتهت هذه بدأت الثانية ختمتها ، واستمعت إليها أختها التي كانت تقرأ ، فلما ماتت

إحداهما جعلت الأخرىٰ تقرأ ختمتها عند قبرها، حتىٰ إذا أتمتها ماتت ودفنت مع أختها.

وقبرهما في الحوش المعروف الآن بسيدي ريحان بصحراء السيوطي تجاه قبة سودون العجمي بسفح المقطم، وفيه بركة كبرىٰ، ودعاء مستجاب.

ثالثا: الرءوس الثلاثة:

وقد شرَّفَ اللَّه مصرَ بأن جعلها مقرًّا لثلاثة من الرءوس الشريفة للكبار من سادة أهل البيت، وهي حسب تواريخ دخولها مصر.

أولها: رأس الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين، وإليه يُنسب المذهب الزيدي باليمن، وجثته مُثِّل بها، ولا يعرف للجثة مدفن على التحقيق، ومشهد رأسه هو المعروف باسم أبيه سيدي علي زين العابدين في الحي المعروف باسمه خلف حي السيدة زينب بالقاهرة، أما علي زين العابدين نفسه فالمشهور أنه لم يدفن بمصر.

ثانيها: رأس سيدي إبراهيم الجواد بن عبد اللَّه المحض بن الحسن المثنى ابن علي، ولا يعرف أيضا لجثته مكان محقق، ومشهد الرأس بالمطرية بمصر معروف.

ثالثها: رأس الإمام الحسين، وجثته في كربلاء بالعراق، ورأسه في حرم مشهده الأشهر بالقاهرة على التحقيق التاريخي والروحاني الأكيد.

أما المشهد المنسوب إلى الحسين بعسقلان بالشام، فهو الذي كانت به

الرأس قبل نقلها إلىٰ مصر ، وأما المشهد المنسوب إليه أيضًا بسوريا فهو من المنازل الذي أنزلوا الرأس بها وهي تطوف البلاد ، وهكذا بنيت علىٰ هذه المنازل عدة مساجد .

ونذكر بهذه المناسبة رأس محمد بن أبي بكر فإنه في القاهرة بلا خلاف ، والترجيح أنه بمشهده المعروف بشارع باب الوداع بمصر القديمة ، وتنسب إليه عدة مشاهد أخرىٰ ، لعلها الأماكن التي كانت تخفىٰ فيها الرأس حتىٰ تنقل من مكان إلىٰ مكان ، والله أعلم .

رابعا : وأخيرًا عائشة :

ولما لم يبق من مشاهير سيدات أهل البيت مَن لم نُشِرْ إليه – فيما نَظُنُّ – إلا عائشة ؛ لانفرادها في القاهرة باسمها ، فقد تعيَّن علينا أن نقرر أنها السيدة عائشة بنت جعفر الصادق ، متفق علىٰ دخولها مصر ، مع إدريس ابن عبد الله المحض ، بعد موقعه فخ ، التي استشهد بها جماعة من أهل البيت ، وكانت عائشة زوجًا لأمير المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله ابن عمر بن الخطاب .

ومشهدها معروف عند القلعة في طريق الإمام الشافعي ، وكانت كبقية العترة من أهل الله ، يؤثر عنها من الكرامات والمناقب شيء كثير ، وقبرها مقصود يدعى الله فيه ، ويتوسل بها إليه ، رضي الله عنها .

خامسًا : خاتمةٌ

كتبتُ هذا الموجز التاريخي تبصرة وتذكرة بذوات الأسماء المتماثلة من أهل البيت ، وذلك استجابة للرغبة الموجهة إليَّ ممن لا أستطيع مخالفتهم ، وأنا على يقين مما سيقوله ويتندر به أولئك الذين يتمسحون في السلفية ويسموننا القبوريين أو المخرفين حين يترفقون بنا ، ولا يسموننا المشركين أو الوثنيين ، ولكني بحمد الله أكتب عن سلامة عقيدة ، وصدق توحيد ، وإيمان بالسبب ، وأعرف كيف أعامل الله بما هو أهله ، وكيف أكتب عن علم وبرهان ، هذا أولا .

أما ثانيا : فلا شك أنَّ في بعض ما قررته وجهًا آخر ، فأحب أن يكون معروفًا أنه لم يَفُتْنِي بحمد الله هذا الوجه الآخر ، ولكنني سجلت ما ترجح عندي بدليله ، ولا أجبر أحدًا على الإيمان بمذهبي ، والعصمة لله ، فلا ندعيها لأنفسنا .

أما ثالثًا : فقد كان من بعض ما رجعت إليه في تحقيقاتي هذه خطط القضاعي ، والمقريزي ، ومبارك ، والسخاوي ، وكتابات المؤرخ الأخ المحقق حسن قاسم ، وما جاء في مشاهد القلعاوي ، وكواكب ابن الزيات ، وجمهرة ابن حزم ، وبحر الأنساب للأزورقاني ، ولمحة البهجة للقادري ، وعمدة الطالب لابن عنبة ، والتبر المسبوك ، ومصباح الدياجي ، والشذرات ، وحسن المحاضرة ، والمشارق ، والإسعاف ، والعدل الشاهد ، وقلائد الجواهر ، ومرشد الزوار . . . وغيرها من كتب الطبقات والرجال .

أما رابعًا: فإنه ليس يهم الزائر في الواقع ونفس الأمر، أن يكون صاحب القبر هو شخص فلان بالذات أو أخوه أو ابن عمه أو غيرهم؛ فإنَّ الزائر إنما يقوم بزيارة شخص مسلم، له على المسلمين حق الزيارة، ثم هو يحسن به الظن لله، وقد يكون له عند الله منزلة خاصة، فهو يستشفع إليه تعالى به في حاجته على نيته، وفي مكان قد جرب الناس استجابة الدعاء فيه بالتواتر والتلاحق، فالمسألة هنا أولاً وأخيرًا مسألة تجربة يقينية عندنا، والتجربة الواقعية اليقينية لا تكذبها الهرطقة ولا الفيهقة، ولا الشقشقة الكلامية، فإنما العلم العملي كله أساسه التجربة، والمجرِّب دائما محكوم بتجربته ومعذور بها وخصوصا عندما يجد سندها من دين الله.

ثم إنه إذا كان المزور مسمىً في الواقع باسم آخر غير ما هو مشهور به عند الناس، فقد أصبح ما سمَّاه به الناس عَلَمًا عليه، يُراد به في الأرض، فيراد به في السماء على مقاصد الناس، وإنما الأعمال بالنيات، وعلى هذا الحكم يحمل ما يسمونه «**مشاهد الرؤيا**» إذا صح وجودها.

وحتى لو فرضنا أنه ليس لصاحب المشهد شفاعة، فإنَّ زيارة الناس له ودعاءهم وابتهالهم عنده هو نوع من شفاعتهم من أجله عند الله، ونوع من التعبد الذي تعم به البركات، وتستنزل الرحمات، ويطهر به المكان، ويتقدس به الإنسان.

فالنفع هنا شركة بين الميت والحي، وليس فيه محرم، ثم إنَّ عالم البرزخ عالم انطلاق للصالحين، فلا يحصره حدٌّ ولا قيد، ولا يهيمن عليه وقت ولا زمان ولا مسافة، فالحدود والقيود والأبعاد والأوقات والأقيسة، كلها أثر

محدود لما يرتبط به الإنسان الحي من أغلال المادة الجسمية المحدودة وآصارها .

وإنما المشاهد والأضرحة محطات روحية يتلاقى فيها الأحياء بأرواح صالحي الموتى ، فلتكن ما تكون الأسماء والأماكن ما دام قد تحقق بلوغ المراد بإذن الله .

أما خامسًا : فإني أستغفر اللَّه وأتوب إليه وأتوكل عليه ، وأبرأ من علمي وعملي وحولي وقوتي إليه ، وأعتذر لقرائي عن الخطأ والسهو والنسيان ، واللَّه المستعان .

***

تعليقاتٌ خطيرةٌ، على مسائلَ مثيرة في الوسطين: الديني والاجتماعي [(١)]

فتياتُ الأزهر

يا وزيرَ الأزهر، ويا إمامَه الأكبر:

أرجو ألاَّ يتَّهمني السيدُ الوزير، ولا الشيخُ الإمام، بأنني رجلٌ رجعي جامد، فَهُمَا مِن خيرِ مَن يُمَيِّز بين الرجعية والنصيحة، وبين الجمود والفضيلة، ونحن إذ نوجه الوزير والإمام كليهما، إلى ما نرى أنه مقتضى الإسلام، في أرقى مستوياته ننزع أمام الله وأمام الناس عن أعناقنا نير الأمانة الكبرى في النصح لله، وتسجيل كلمة الحق، وكفى بالله حسيبًا.

منذ أيام دقَّ تليفوني بمنزلي وبمكتبي مرات، وفي كل مرة كان حديثُ المتحدثين، حول الصورة التي نشرتها بعض الصحف لعميدة كلية الفتيات الأزهرية الإسلامية!! والمفارقة العجيبة بين الصورة، وبين ما بجوارها من كلام شيخ الأزهر.

فقد كانت الصورة عارية الرأس، على تسريحة شعر «**آخر مودة**» وعلى أحدث تفصيلات الملابس والزينة طبعًا، وكلامُ شيخ الأزهر «**أول مودة**» في الأدب الديني، وعلى أحدث أساليب التعبير والإنشاء المعتادة من الإمام الأكبر!! فلم تكن الصورة توحي بالأمل في تحقيق معنى واحد، مما سرده فضيلته خطابَهَ وأملاه، أملًا في كلية الفتيات إذا كان هذا هو مظهر

(١) مقال غرة شعبان (١٣٨٢هـ)- ٢٨ ديسمبر (١٩٦٢م)، العدد الأول - السنة الثالثة عشرة.

عميدتها، وقدوة فتياتها.

ولم تمض أيامٌ حتى كانت فجيعة المسلمين في (**كلية البنات**) فجيعةً (**كلية**) فجيعة (**جامعة**)؛ بما نشرته مجلة المصور، من صور للطالبات، عاريات الشعور رءوسهن كأسنمة البخت المائلة، على أحدث ما عرفه (**الكوافير**) من عقصات وتسريحات وزينة، كاشفات عن منابت الأثداء، وعما تحت الآباط، وقد انحدرت سواعدهن البضة، وأذرعتهن المشحونة بالأنوثة مكشوفة، تصرخ بالثورة، والفورة والصبا الفتَّان.

وأمام هذه الصورة الهادفة، شيخ معمم يمثل دور الأستاذ!! ودعني مما بقي من صور (المصور) في هذا «**الروبارتاج**»، ومنها صورة الغلاف المعنة في الإغراء المغلف!! فقد كانت على رغم مخالفتها لأبسط آداب الإسلام دون صورة الأستاذ والطالبة. باستثناء صورة الفتاة التي أحسنت تمثيل وضعية الفتاة الساهمة السارحة في الملكوت!! وقد أسندت ذقنها على يديها الرخصتين في وضع مسرحي ناجح!!

وهناك صورة للشاب «**القوي الأمين**» الموظف بالكلية، وهو يميل في أدب تمثيلي على زميلته المشرفة الاجتماعية في جلستها المسرحية، يؤديان دورًا عميقًا عن التقدمية الأزهرية في شئون الوظيفة، تتعادل مع التقدمية الأزهرية في شئون الثقافة، وشئون التحرر النسوي من الأدب القديم، وتقاليد الإسلام العتيقة!!

يا لفضيحة الأزهر في بلاد الإسلام، حين يرى المسلمون هذه الصورة التي لا تمت بأدنى مناسبة، إلى أدب الإسلام ولا إلى تقاليده المعروفة منه بالضرورة.

أيُّ مادة هذه التي نقدمها لخصوم جمهوريتنا يلوثون بها سمعة الثورة، وسمعة الأزهر الجديد، وسمعة أهدافنا ووسائلنا، وسمعة رجالنا ونسائنا؟!.

كل ما بين يدي خصومنا من تُهَمٍ ضدنا، لا تساوي واحدًا على الألف مما قدمه الأزهر المتطور لهم بصور كلية بناته، يضربون بها المثل لشعوبهم، على أننا تحللنا حتى من أبسط مبادئ الإسلام، وأوليات قواعده الأخلاقية، ونحن في دفعنا التقدمي نعتمد على الشعوب، وهذه الشعوب فيها بقية إسلام، وفيها عميق غيرة، وفيها انفعال ذاتي ضد كل انحلال وانحراف، فهل يدري الأزهر مدى الخسارة التي أصابت رسالتنا، ومدى الثغرة الرهيبة التي فتحناها بأيدينا لتخرج منها الشعوب التي نعلق عليها آمالنا، ونبني على صداقتها ووعيها وحبها مستقبل دعوتنا ورسالتنا؟ رسالة العروبة الجديدة، والإسلام القديم!!

فبالله يا أخي الوزير، ثم بالله يا شيخنا الإمام: إلا ما وجدتما علاجًا لهذه الفضيحة العالمية؟! علاجًا عاجلًا، ولو بمسكنات مؤقتة؟!

لقد رضينا أنْ يتهكم أهل المعادي، فيقولون للفتاة المصابة بمرض التهتك: هذه أزهرية!! وتقول الفتاة التي تتبرأ من تهمة تلصق بها: «**أكون زي بنات الأزهر، ما حصل مني شيء!!**» أحدوثة الأحاديث وأعجوبة الأعاجيب، أن تكون هذه صورة بنات الأزهر اللائي كان ينتظر الناس، أنهن سيحدثن حركة عملية فعالة في شيوع الاحتشام وتحديد مظهر الفتاة المسلمة.

يا وزير الأزهر، ويا إمام الأزهر:

ما معنى أن تَفتتح كليةُ فتيات الإسلام معرضًا لبيع أدوات الزينة، يعني يا سيدنا الشيخ، ويا سيادة الوزير: يُباع للفتيات العَذارى بالكلية: «**أحمر الشفاه والخدود والكريمات، والعطور**» فلمن تتزين فتيات الأزهر؟! وأيُّ إيحاء هذا الذي توحيه الكريمات والعطور؟! ومتى وأين يستعملنها؟!

ويقول «**المصور**» بالإضافة إلى هذا: إنَّ في المعرض أحدث الأزياء، وقد رأينا بعضها فعلًا على الفتيات أثناء الدرس في صور «**المصور**»، فهي تفصل الأجساد وتدل على المفاتن، وتضع النقط على الحروف.. وتكشف عن المناطق الغالية!!

هذا في داخل الفصول وأثناء الدرس، فكيف بفتيات الأزهر في خارج الفصول، ثم في خارج الكلية؟! أما تمثيلية أداء الصلاة، فقد كانت لعبة مكشوفة!!

لقد عذرنا أهل المعادي في تهكمهم بالأزهر، وكليته وفتياتها، إنَّ الله سوف يحاسب الأزهر أشد الحساب!!

إنَّ هذه البداية لا تبشر بخيرٍ أبدًا، ولا تعين البلد على أداء رسالته الكبرى في العالم العربي والإسلامي بأية حال!! فكيف يهدم الأزهر ما تبني الدولة؟

إنَّ فجيعة «**دار العلوم**» التي خشيناها على بنات الأزهر أخذت تتحقق، ولكن أوسع وأعمق، فإنَّ دار العلوم لا تدعي حراسة تراث الإسلام.

يا وزير الأزهر، ويا إمام الأزهر، تدبرا، فإنَّ الأمر خطير!! أو أكثر من خطير!!!

مشكلة الطلاق أمام القاضي:

جعل اللَّه تعالىٰ عقدة النكاح في يد الرجل، فالزواجُ بكلمة ينعقد، والطلاقُ بكلمة يقع، وصاحب هذه الكلمة في الأصل هو الزوج، أو من ينيبه عنه، وفي مشروع الأحوال الشخصية للمسلمين، يُراد إسناد أمر الطلاق إلى القاضي، ولا نعرف لذلك دليلًا من دين اللَّه ولا دافعًا من الواقع.

فإنْ كان ذلك من أجل تقليل نسبة الطلاق، فإنه قد ثبت بالإحصاء الرسمي أنَّ حالات الطلاق في مصر، تقل بكثير عن مثيلاتها في أمريكا، التي يُراد تقليدها بجعل الطلاق أمام القاضي كما هو شأنها.

وإن كان من أجل تقليل نسبة التشرد كما هو مُدَّعَىٰ، فإنَّ البحث أثبت أنَّ السبب الأكبر في التشرد هو الفقر مع الجهل، وهنا نسأل أصحاب هذا المشروع وعلىٰ رأسهم الأستاذ السنهوري، أسئلة ثلاثة:

أما الأول: فهب رجلًا طلق زوجته في غير غضب ولا إكراه، الطلاق المكمل للثلاث، الذي عليه إجماع السلف والخلف بأنه البينونة الكبرىٰ، فلا تحل الزوجة بعده لزوجها حتىٰ تنكح زوجًا غيره، ثم ذهبت المرأة إلى القاضي، فرأىٰ أنَّ سبب الطلاق هينٌ عنده، وحكم بعدم إنفاذ الطلاق، ووجوب العودة إلى المعاشرة الزوجية، فعلىٰ أي مذهب وأي دين تكون هذه المعاشرة بعد وقوع هذا الطلاق؟! وما حكم ما يكون أثرًا لها من

النسل والولد؟ ثم إذا لم يكن حكم القاضي ملزمًا، فما قيمته؟!

وأما السؤال الثاني: فهب رجلًا كره زوجته أو كرهته زوجته، حتىٰ أصبحت العشرة مستحيلة بينهما لسبب أو لآخر، ثم لم ير القاضي أنْ يوقع الطلاق بينهما، فكيف تكون هذه الحياة الجهنمية الإجبارية؟! وكيف يكون أثرها في نفس الزوجين والأبناء إن وجدوا؟! وهلا يكون إلزامهما بالحياة من غير رغبة منهما سببًا في اتساع هوة الخُلف بينهما بما قد ينذر بأوخم العواقب، سواء في الريف أو الحضر؟ وهل من الممكن عمليًّا إجبار أحد الزوجين على المعاشرة بقوة القانون؟ وهل يستبعد بعد هذا أن يقع أحد الزوجين في جريمة القتل أو الردة عن الإسلام، خروجًا من هذا الإرغام؟!

أما السؤال الثالث: فهب رجلًا طلق زوجته لسبب خُلقي دقيق، في نشره على الناس فضيحة أو تجريح خطير، فهل من الرأي أن يقرر ذلك أمام القاضي، وقد لا يستطيع إثباته قانونا مع ثبوته عنده يقينًا، فينقلب الزوج قاذفا لمحصنة في رأي القانون، ويقدم للمحاكمة بتهمة القذف، الذي هو حقيقة عجزٌ عن إثباتها؟

وإذا كان الرجل قادرًا علىٰ إثبات سبب الطلاق الفاضح علىٰ دقته وخطورته، فهل يكون من الدين إشاعة الفضائح والأسباب الحساسة ضد النساء، بحيث تكون حيثيات للحكم الذي يدمغ الفتاة مما يمحو ذكرها من تاريخ الشرف والأمانة، ثم يكون الحادثُ عار الأبد للأسرة، وقد يكون بعد ذلك ما لم يكن في الحسبان من أثر الانفعال والدفاع عن العرض والشرف؟!

هذه الأسئلة الثلاثة نضعها أمام ضمير لجنة الأحوال الشخصية، وأمام دينها وهي بعدُ مسئولة أمام الله عن تشريعها، وعليها إثمه وإثم من عمل به إلى يوم القيامة! ما لم تتخذ جميع أسباب الاحتياط، ولا قوة إلا بالله.

ثم مشكلة حبوب منع الحمل:

ولقد سبق أنْ عالجنا هذه المشكلة، ونبهنا إلى ما وراء إباحة هذه الحبوب بين الجمهور، دون قيد أو شرط من خطورة أخلاقية، غير مدفوعة ولا مشروعة..

لقد قرر الباحثون الأوربيون أنفسهم، أنَّ اختراع هذه الحبوب قد ساعد على مضاعفة انتشار الانحلال، وأنَّ هذه الحبوب أصبحت لازمةً ضرورية لكل فتاة طالبة كانت أو عاملة أو غير ذلك، وإنَّ ما كان يُعتبر حجابًا دون الجرأة المطلقة على الانحلال، من خوف ظهور الحمل، قد انعدم، فأنت واجدٌ في حقيبة كل فتاة عددًا من هذه الحبوب، التي تهيئ لها قضاء تفثها، مع ضمان عدم ظهور المضاعفات المعتادة، وبهذا شهد القساوسة أنفسهم.

وأنت تعرف أنَّ البكارة خرافة شرقية، لا وجود لها في أوروبا، وأنَّ البنت البكر هناك، هي التي لم يسبق لها حمل من زوج شرعي!!

وهكذا نرى أنَّ بعض باحثي أوروبا وأمريكا، اعتبر ظهور هذه الحبوب آخرَ معول، يذهب بآخر حجر في البناء الأخلاقي، وأنه لن يبقى من بعده بقيةٌ لما كان يُعرف عند بعض المحافظين هناك، بالعِرض أو الشَّرف أو العفة أو الأمانة الذاتية.

فإذا كانت هذه اعترافات كبار علماء أوروبا، ونحن قوم تفشّى فينا وباء التقليد الغربي بصورة لم يعرفها تاريخ من قبل، وبين أيدينا من دعاة الانحلال والتهتيك أقلامٌ وألسنة تجعل هذا الانحلال صلاة مقدسة، وعبادة أكثر من سماوية، وهم يفلسفون نزوات الجنس فلسفة حيوانية مسعورة تعوي بالشهوة، وتصرخ بالإثم والخطيئة، ثم يجدون من الشباب أنصارًا يندفعون من ورائهم بلا وعي ولا تمييز . .

على أنَّ موقفنا كأُمَّةٍ عربية لها تقاليدها، وعراقتها، وغيرتها، ومحافظتها، ثم كأمة إسلامية لها دينها وقيودها وإيمانها، وعقائدها، ثم كأمة تضطلع بدور قيادي خطير في شعوب القارتين آسيا وإفريقيا، كل أولئك يجعلنا نستبصر ونمعن ونفكر ألف مرة قبل الإقدام على أمر ما، أو الانفعال برأي أو مذهب وافد أو مستوطن .

إننا نعامل تاريخنا ومواريثنا وعقائدنا، من جهتنا، أما من جهة غيرنا، فنحن نعامل شعوبا لها فهومها، ولها تقاليدها ومواريثها وتاريخها وعقائدها، ثم هي تتعامل معنا كمثل أعلى، فإذا نحن أسقطنا اعتبار خصائصها وخصائصنا معها، أضعنا أنفسنا، وضاعت القيادة من أيدينا، ولم يبق إلا الحسرة والفضيحة، وشماتة الأعداء، ثم من وراء ذلك سخط الله وعذابه .

إننا نرجو أنْ تُتخذ الإجراءات الدقيقة المشددة، فلا تصرف حبوب منع الحمل إلا لمن يتحقق للمختصين بيقين أنه سيستعملها في حلاله، وبموافقة طرفي الزوجية جميعًا .

إنه لا يكفي في ذلك استخدام البطاقة الشخصية وحدها، إنه يجب

البحث في الإجراء الذي يحصر استعمال هذه الحبوب في جمهورها الشرعي، حتىٰ يتحقق من ورائها الهدف المقصود، وحتىٰ تُتَّقىٰ موجةُ الانحلال المريع الذي ينتظرنا من وراء إباحة هذه الحبوب لكل راغب فيها .

إنَّ المحنة الكبرىٰ التي يعانيها العالم كله في هذه الأيام هي محنة التبكير في النضج الجنسي التي تجتاح الفتيان والفتيات، نتيجةَ الاختلاط المطلق مع انتشار الكتب الجنسية، والروايات السينمائية والمسرحية والتليفزيونية والإذاعية، والمطبوعات والصور والأغاني المنحلة، ومع فقدان الوازع الروحي والعائلي وهيمنة الجوانب المادية وطغيانها على الفكر والحياة بصفة عامة .

وكان من نتيجة هذا ما حققته الباحثة إيزيس فهمي ونشرته الجمهورية في : (١٥/ ١١/ ٦٢م) من أن في النمسا مثلا (١٣٪) من المواليد غير شرعيين من فتيات غير متزوجات، وأنَّ في باريس يحدث كل عام أن تُجهض نحو نصف مليون فتاة . . من سن الخامسة عشرة فأكثر . . وقد وجدت الباحثةُ في مستشفىٰ واحد مائةَ حالة إجهاض، إنَّ أربعين من هؤلاء المائة فتيات دون سنِّ الزواج حملن سفاحًا كغيرهن من البنات . . وفي اسكنديناوة يقوم الفتيان والفتيات بالمغامرات الجنسية الكاملة، وهم في سن الرابعة عشرة أو ما دونها، ثم يحدث الحمل . . فالإجهاض . . ولا تسأل عن هذه المحنة في أمريكا وغيرها من العالم الغربي، ولهذا كانت حبوب منع الحمل سببًا في مضاعفة انتشار هذه الظاهرة البيولوجية التي تزحف إلينا زحفًا مخيفًا، بل التي ندعوها نحن إلينا بإلحاح وإلحاف، لا عقل معه ولا تدبر فيه، باسم تحرير المرأة، واختلاطها المنطلق المجنون .

فإلى السادة المختصين ، نوجه هذه الصرخة العميقة الخالصة ؛ لوجه الله والوطن

كلماتُ آخر المقال

أولا : حول مقال الخوانق ومشيخة الشيوخ :

كنا قد قررنا في مقالنا التاريخي عن وظيفة الخوانق ، ومشيخة الشيوخ ، أنَّ رتبة «**داعي الدعاة**» في الدولة الفاطمية ، كانت أرقى الرتب الدينية ، وقد أردنا أنها أرقى الرتب الدينية الشعبية ، التي يتعامل صاحبها مع الشعب ، ويتغلغل في جماهيره ، ويندمج في طبقاته ، شأن شيخ الشيوخ ، في الدولة الأيوبية وما بعدها ، وإلا فقد كانت وظيفة قاضي القضاة ، عند الفاطميين أرقى الوظائف الدينية ، ولكنها كانت وظيفةً دينية رسمية ، ليس لصاحبها عمل في الجماهير ، إلا بمقدار سماع القضايا الكبرىٰ وإصدار الأحكام والإنابة عنه فيما دون ذلك ، ومن بعد قاضي القضاة ، يأتي داعي الدعاة ، ولهذا تعين البيان والاستدراك .

وإنا لنرجو أن تُتاح لنا فرصة استكمال بحث تاريخ المشيخة إلى العصر الحاضر ؛ ليعلم الناس من شأنها بعض ما يجب أن يعلموه .

ثانيا : اقتراح الغرامة على التعري:

الأخ المحمدي الغيور السيد عبد المجيد حمزة ، قاضي محكمة المنيا الجزئية ، كان قد تقدم إلى المسئولين باقتراح مسبب ، بتغريم كل فتاة أو سيدة لا تستر ذراعيها أو ساقيها في الطريق العام مبلغ خمسة جنيهات .

وقد سلَّم مذكرة هذا الاقتراح بأسبابه ودواعيه ونتائجه إلى السيد كمال

الدين حسين ، والسيد حسين الشافعي ، والسيد أنور السادات ، كما سلَّمه إلى الأخ الشيخ محمد الغزالي السقا مدير المساجد .

وإنا لنؤيد من كل قلوبنا اقتراحَ الأخ القاضي الغيور المسلم ، بقدر ما نهنيه على هذه الوثبة في الله ، التي لم تتح لكبار حملة العمائم الرسميين في هذا البلد المسلم العريق .

ثالثا : فرق بالية دار العلوم :

نشرت الجمهورية في أخبار عدد (٢٠/ ١١/ ٦٢ م) أنه قد تكونت بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة (فرقة للباليه الكلاسيك) لأول مرة .

والخبر على علاته مؤسفٌ مثيرٌ ، فالإسلامُ لا يرى في الرقص مهما سموه بغير اسمه فنًا مباحًا ، ولا يوجد في كل ما عرفه الناس من تفاسير القرآن ، وموسوعات السنة ، ومؤلفات المجتهدين ما يشير من قريب أو بعيد إلى احتمال مشروعية الرقص في الإسلام ، سواء كان رقصًا مختلطًا بين الجنسين كرقص البالية الغربي -كلاسيك أو رومانتيك- أو كان رقصًا شرقيًّا أساسه انفراد المرأة بهز البطن والعجيزة والأثداء .

ووجهُ الأسف ، أنَّ دار العلوم كلية تنتسب إلى خدمة الإسلام ولغته ، ولا تزال تدرس الكتب الصفراء!!! وتتابع مشاكل الفقه والتشريع ، ومعارك اللغويين وعلماء النحو ، على ما هو معهود في الأزهر القديم .

وقد مُنيت دار العلوم من قبل بفتنة اختلاط الطلبة بالطالبات ، على ما ليس من دين الله قط ، وحسبناها آخر حلقة في التخلص من نير الأدب

الإسلامي، حتى كانت فتنة فرقة الرقص (الدارعمي) التي لا يرتضيها إلا كل ذي عَمَهٍ عَمِيّ!!

والله إنَّ هذا ما نخشاه على الأزهر المختلط في تطوره الجديد، وعندها تكون الفتنة الكبرى، التي نسأل الله ألا تكون!! وإنْ كانت كل الملابسات توحي باحتمال حدوثها في القريب!! والأسف ملء القلوب، والضراعة إلى الله.

رابعًا: ولدت القاهرة في شعبان:

بمناسبة حلول شهر شعبان المبارك، واعتباره عمودًا لشجرة شهور الله الثلاثة فرجب جذرها، وشعبان جذعها، ورمضان أغصانها وأوراقها وثمرها، وهو الشهر الذي صدرت فيه مجلة «**المسلم**» وبه تستقبل اليوم عامها الثالث عشر من أعوام عمرها المديد السعيد الرشيد إن شاء الله.

وهو الشهر الذي ولد فيه مولانا الإمام الحسين وأخته زينب وبعض أهل البيت كذلك.

يقول المؤرخون: إنَّ القاهرة الفاطمية تأسست في يوم ١٧ من شعبان سنة ٣٥٨ هجرية قمرية، وكان هذا اليوم موافقًا يوم ٦ من يوليو سنة ٩٦٩ ميلادية شمسية، فيكون عمر القاهرة الآن بالهجري (١٠٢٤) عامًا، وبالميلادي (٩٩٣) بفرق (٣١) عامًا بين التاريخين في هذه المدة فسبحان من يرث الأرض ومن عليها.

خامسًا: كل دقيقتين من الرقص بجنيه:

نشرت الأهرام أن كل دقيقتين ترقصهما الراقصة المعروفة «**سامية**

جمال» في فندق هيلتون للسياح تتقاضىٰ عنهما جنيها مصريا ، وأنها ترقص في كل ليلة ساعة واحدة تتقاضىٰ عنها ثلاثين جنيها مصريا مع التجاوز في مقابل بعض الامتيازات .

وأنا رجل رجعي جامد لا أعرف ما هي القيمة الفنية للرقص عمومًا وللرقص الشرقي خصوصًا ، إلا أنْ تكون الإثارة وهيمنة الفكرة الجنسية ومجرد التقليد!!

ومحل الشاهد ما هي النسبة بين ما يتقضاه علماءُ هذا البلد والمسئولون فيها شهريا ، على مختلف مستوياتهم وتخصصاتهم وخطورة خدماتهم ، وبين ما تتقاضاه الراقصات والممثلات والمغنيات في ساعات أو أقل من الساعة؟! ، شيء تدور له الرءوس بل تطيش في تعليله الأفهام!!لطفًا يا رب .

***

وإذا سألك عبادي عنِّي : فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان(١)

مقدمةٌ :

برغم ما يحوطنا من أحداث شتىٰ تستوجب النظر والتوجيه ، وبرغم ما يكون في رمضان عادة ، من الحاجة إلى التذكير ببعض الأحكام ، وما ينتظر وقوعه من أمور تستوجب الفتوىٰ والبيان ، وبرغم ما لديَّ من استفسارات وأسئلة تستغرق مجلدًا ضخمًا ، فإني أجد في قلبي اندفاعًا غير إرادي ، إلىٰ تقديم هذا البحث عن الدعاء وما يتعلق به ، في شهر الفضل ، والتعطف والعطاء الإلهي .

فلسوف تتحدث المجلات الإسلامية كلها عن الصوم ، ولكنني لا أظنها تتحدث عن الدعاء ، ولهذا كان تقديم هذا الباب في هذا الشهر علىٰ هذا الأساس ألزم ، ثم إنَّ في أعداد مثل هذا الشهر من المسلم ، قد يجد من يشاء كل ما قد يخطر علىٰ باله من أحكام في شأن الصوم ، والزكاة ، والقدر ، وبدر ، والفتح ، والعيد . . . إلخ ، وما نجد بين يدينا في كل ذلك من جديد اللهم إلا التذكير والتبصير ، وهما شيء علىٰ من يطلبه يسير ، ومن الله التيسير والتسيير .

بعض شرف الدعاء :

قال الصنعاني ما جملته : اعلم أنَّ الدعاء ذكر الله وزيادة فكل حديث في فضل الذكر يصدق عليه ، وقد أمر به الله تعالىٰ فقال :

---

(١) مقال : غرة رمضان (١٣٨٢ هـ) ، ٢٦ يناير (١٩٦٣م) ، العدد الثاني ـ السنة الثالثة عشرة .

﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ [غافر : ٦٠] وأخبر بأنه قريب مجيب فقال : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[البقرة : ١٨٦] .

وفي حديث الترمذي : «**الدُّعاءُ مخُّ العبادة**» وفي البخاري مرفوعًا : «**مَنْ لم يَسألِ اللَّه يغضبْ عليه**» وفي الترمذي كذلك مرفوعًا : «**سلوا اللَّه من فضله فإنه يحبُّ أن يُسأل**» والأحاديث في الحث عليه كثيرة ، وهو يتضمن حقيقة العبودية ، والاعتراف بغنى الرب ، وافتقار العبد ، وإحاطته تعالىٰ بكل شيء ، ولذلك علَّمه اللَّه تعالىٰ لعباده كافة ، وأنبيائه خاصة ، ورواه عنهم في كتابه الكريم .

نقول : وأنت واجدٌ قيمة الدعاء وآثاره ملموسة محسوسة في قوله تعالىٰ : ﴿ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡ ﴾ [الفرقان : ٧٧] .

وفيما رواه الترمذي والبيهقي وابن حبان والحاكم عن أبي هريرة مرفوعًا : «**ليس شيءٌ أكرمَ على اللَّه عزَّ وجلَّ من الدعاء**» وقد روىٰ أصحاب السنن ، وصححه الحاكم وحسنه الترمذي عنه ﷺ : «**الدعاءُ هو العبادةُ**» وكفىٰ بهذا ترغيبًا وتشريفًا .

وأخرج الترمذي : «**ما على الأرض مسلمٌ يدعو اللَّه بدعوة إلا آتاه اللَّه إياها أو صرف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم**» .

وقد ورد أنَّ المؤمن إذا دعا لأخيه بظهر الغيب وكَّلَ اللَّه به مَلَكًا يقولُ له : «**ولك مثل ذلك**» ودعاءُ الملك مستجاب ؛ ولهذا جاء عن بعض الصَّالحين أنه كان إذا ألمت به مَلمةٌ أخذ يدعو لإخوانه بظهر الغيب ؛ رجاء أنْ يدعوَ له المَلكُ بمثل دعائه ، فلعلَّ أنْ يستجيب اللَّه له .

وهذا جميعًا مقامُ أهل الاختيار، وكلنا منهم، وليس أولى بنا من تملق الله وكثرة دعائه، أما مقام أهل التسليم فالكلام عليه طويل وفيه إجمال وتفصيل.

من فضل الدعاء المأثور:

وقد أجمع العالمون على أنَّ الدعاء بالوارد أقربُ إلى الاستجابة؛ لما فيه من القدوة والمدد، قال صاحب رسالة الدعاء -أثابه الله- : «**والسرُّ في ذلك أنَّ الداعيَ إن كان على حال ناقصة، فإنَّ لفظ الدعاء قد يجبر النقص؛ لما فيه من معنى الشفاعة بمصدر الأدعية، والتبرك بها**» (انتهى).

أقول: وهذا مضافٌ إلى ما في العبارات النبوية من القداسة والحياة الروحانية والمدد، ومعنى الوحي والإعجاز العام، كل هذا وما حوله يعطي المأثور حقوقًا وأفضالًا، وأولوية وشرفًا لا حدَّ له، ويجعله أحبَّ إلى الله، وأحقَّ بالثواب، وأبلغَ في النفس، وأدنى إلى الاستجابة، ولكنه لا يمنع الدعاء بغير المأثور البتة.

من شروط الدعاء:

من شرط الدعاء فَهْمُ معناه ولو إجمالًا، وصحةُ النطق به بقدر الإمكان؛ ففي الصحاح عنهﷺ: «**ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها**»، ومن الصلاة الدعاء وهو يراد بها لغة كذلك.

ومن شرطه الضراعة، كما قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢].

ومنه خَفضُ الصوت، كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، ولذلك مدح تعالى زكريا: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾[مريم: ٣].

ومنـه الاستحضارُ ، واليقينُ بالإجابة ؛ كما أمر الرسولﷺ في رواية الحاكم وغيره .

ومن شروطه الكبرىٰ التزامُ الحلال ؛ فقد أخرج مسلمٌ والترمذيُّ أنهﷺ : «**ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّىٰ يُسْتَجَابُ**» .

ومن الشروط الهامة عدم رفع بصره إلىٰ السماء في دعائه ؛ حتىٰ لا يخطف بصره كما أنذر به الرسولﷺ في رواية مسلم عن أبي هريرة .

ومن آداب الدعاء :

ومن آداب الدعاء الطهارة ، ورفع الأيدي مبسوطة ، مع ضم الكفين إلىٰ بعضهما علىٰ ما ثبت في الصحاح ، وذكره الحاكمُ والطبرانيُّ والبيهقي ، وصنَّف له المنذريُّ والنووي وغيرهما ، وأن يبدأ بالحمد والثناء والصلاة على الرسولﷺ ، علىٰ ما رواه أبو داود وغيره ، وأنْ يقول بعد ذلك «**سُبحانَ ربيَّ العليِّ الأعلى الوهَّاب**» علىٰ رواية أحمد والحاكم .

ويرىٰ بعضُ أهل السنة كصاحب المدخل وغيره ، ضرورةَ ذكر اسم الله الأعظم : «**الله لا إله إلا هو الحيُّ القيوم**» بعد الثناء ، وقبل البدء بالدعاء ، ولعل الأولىٰ أن يستفتح بنحو قوله : «**بسم الله الذي لا إله إلا هو الحيُّ القيومُ ، والحمدُ لله والصَّلاةُ والسَّلامُ على النَّبيِّ ومَنْ والاه ، وسبحانَ ربيَّ العليِّ الأعلى الوهَّاب**» ثم يدعو ، قال الصنعاني في ذلك : وهو - أي شرط تقديم هذا الثناء على الدعاء- دليل علىٰ تقديم الوسائل ، بين يدي المسائل ، وذلك نظير : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة :٥] حيث قدم الوسيلة ،

وهي طلب العبادة على طلب الاستعانة (انتهى).

نقول: ومن الأدب التثليثُ؛ فقد أخرج أبو داود وأحمد والسيوطي، عن ابن عمر: «**أنه كان يعجبهﷺ أنْ يدعوَ ثلاثًا**».

ومنه استقبالُ القبلة، لحديث أبي داود «**خيرُ المجالسِ ما استُقبلَ به القبلة**» وحديث البخاري في الاستسقاء قال: «**فتوجه النبيُّﷺ إلى القبلةِ يدعو**»، **وحديث النسائي، ومسلم، «أتى الموقفَ بعرفةَ واستقبلَ القبلةَ، ولم يزلْ يدعو حتى غربت الشمس**».

ومن الأدب مداومة الدعاء في كل حال، كما قال تعالى: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وأن يدعو في الرغبة بباطن الأكف، وفي الرهبة بظهرها؛ فقد روى الصنعاني عن خلاد بن السائب: «**أنَّ النبيَّﷺ كان إذا سأل جعلَ بطنَ كفَّيْهِ إلى السَّماء وإذا استعاذ جعل ظهرَهما إليها**» وعليه حديثُ مسلم في الاستسقاء أيضًا: «**أنه أشار بظهر كَفَّيْه إلى السَّماء**».

ومن الأدب مسحُ وجهه بكفيه بعد الدعاء، لحديث الترمذي: «**كانﷺ إذا مدَّ يديه في الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه**» فإذا تعرَّفَ الإجابةَ قال: «**الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات**» فإذا بطأ الأمر قال: «**الحمد لله على كل حال**»، كما رواه البيهقي والحاكم.

بعض أوقات الدعاء:

من صحيح المأثور قولهﷺ فيما نقله أكثر من ثقة: «**إنَّ لله نفحاتٍ**

فتعرضوا لنفحاتِ الله» فمن البر اغتنام أوقات الرضا، كيوم عرفة، والجمعة، والعيدين ، وأوقات رمضان، ونحوها ـ الترمذي والبيهقي ـ وانتهاز فرص التجلي بالقهر أو البسط، كساعات الزحف، والطوارئ، وليلة القدر، وعند الرعد، والكسوفين والمطر -أبو هريرة- وعند الزلزلة، وأوقات الصلاة -مجاهد- وبين الآذان والإقامة -أبو داود والنسائي والترمذي- وبين الإقامة والتحريمة، وفي وقت السحر -متفق عليه- وفي السفر، وفي السجودين -مسلم- فهي أوقات إجابة إن شاء الله.

ويُلاحظ أنَّ شرف هذه الأوقات متصلٌ بشرف ما يكون فيها من الحالات، وشرف الحالات يتصل تمامًا بشرف الدعوات، وذلك مشروطٌ بشروط الدعاء وآدابه التي أسلفنا، ومن هنا يرتجىٰ قبول الدعاء بإذن الله.

حول الأدعية المرسلة:

وقد ورد عن الرسول الكريمﷺ طائفةٌ كبرىٰ من الأدعية المرسلة، لغير وقت أو حال، مما كان يكرره، أو يرغب فيه، ومما حدد له المواقيت أيضًا، وهو كثير جدًّا في كتب السنة، وقد تقصاه بعضهم وأدخله كثير من الصوفية في أحزابهم وأورادهم، وألَّف منه مجتهد المالكية أحمد بن زروق الشاذلي -وظيفته- وهي من خاصة الوارد في الصحاح، ومما امتاز بزيادة الترغيب فيه، وما جمع معاني أو فضائل غيره، وقد توفر على التبرك بشرحها نفر من السادة، وأبانوا عن فضلها الواسع ومددها الفياض، في كل حال، فليتعبد بها من شاء خير الدنيا والآخرة.

مسألة الدعاء والقضاء:

قال الإمامُ الغزالي ، فإن قلت : ما فائدة الدعاء والقضاء لا مردَّ له؟ فاعلم أنَّ من القضاء ردَّ البلاء بالدعاء ، واستجلاب الرحمة ، فالدعاء سببٌ لردِّ البلاء ، كما أنَّ التُّرس سببٌ لردِّ السهم ، والماء سببٌ لخروج النبات من الأرض ، فكما أنَّ التُّرس يدفع السهم فيتدافعان ، فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان ، وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالىٰ ألا نحمل السلاح ، وقد قال تعالىٰ : ﴿خُذُوا حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء:٧١] ، وألا نسقي الأرض ، بعد بث البذر ، فيقال : إنْ سَبَقَ القضاءُ بالنبات نبت البذر ، وإنْ لم يسبق لم ينبت ، بل ربطُ الأسباب بالمسببات هو القضاءُ الأول ، وترتيبُ تفصيلِ المسببات علىٰ تفاصيل الأسباب ، على التدريج والتقدير ، هو القدر ، فالذي قَدَّرَ الخيرَ قدَّرَهُ لسبب ، والذي قَدَّرَ الشرَّ قدَّرَهُ لدفعه سببًا ، فلا تناقض في هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته (انتهىٰ) ، ولابن القيم هنا كلام نفيس .

نقول : ويُستأنس لهذا بالإشارة والترتيب في قوله تعالىٰ : ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة:٣٧] ، ومنه ما جاء في سورة الأنبياء من ذكر الله تعالىٰ نوحًا وأيوب وذا النون و زكريا . يقول عن كل منهم «**إذ نادىٰ**» ويحكي عن نفسه تعالىٰ تعقيبا علىٰ ذلك بقوله : «**فاستجبنا له**» والأصل الإرادة العلية ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠] ، ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [هود:٨٨] ، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣] .

ومما يدل لذلك ما روىٰ الترمذيُّ بسند صحيح عن أبي خزامة بن معمر . قال : «**سألتُ رسول الله ﷺ : أَرَأَيْتَ رُقًىٰ نَسْتَرْقِيهَا وأدويةً نتداوىٰ**

بها، **أَتَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّه؟ قال: هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّه**»، وقد ذكر الشيوخ بأدلتهم أنَّ الدعاء نافعٌ حتىٰ في القضاء المبرم، فإنه يخففه مادة أو يلطفه موقعًا، ولذلك كان من دعائهم في المبرم: «**اللهم إنا لا نسألك رد القضاء، ولكن نسألك اللطف فيه**». وليُلاحظ أنَّ الدعوات كالزروع، لِجَناها وقتٌ محدود، ولِحصادِها أجلٌ معدودٌ، وما شاء اللَّه كان.

الدعاءُ لا يضيعُ:

وقد روىٰ أحمدُ وصححه الحاكم من حديث أبي سعيد: أنه لا يضيع الدعاء، بل لا بُد للداعي من أحد ثلاث: إما أنْ يعجل اللَّه دعوته، وإما أنْ يدخرها له في الآخرة، وإما أنْ يصرف عنه من السوء مثلها، فيتضح من هذا أنَّ الداعي رابحٌ علىٰ كل حال، ولو لم يكن له إلا ثواب التضرع والاستحضار والتوجه والذكر: لكفىٰ.

وهناك دعاءٌ مردودٌ قطعًا: وهو الدعاء بالإثم وقطيعة الرحم، علىٰ ما رواه الترمذيُّ وغيره، وذهب بعضهم إلىٰ أنَّ هذا النوع من الدعاء يورث الذنوب وسوء الخاتمة، ومنه السَّبُّ واللعن: إلا للمظلوم كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨].

وهناك دعاءٌ مقبولٌ قطعًا، كدعوة الوالدين، ودعاء المظلومين، ودعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب، ودعاء صاحب النعمة علىٰ من كفرها، كما ورد في الأخبار الصحاح باتفاق لا خلاف عليه.

ومن بدائع لطف اللَّه، أنك لو طلبت من اللَّه أن يمنع رزقه عنك ما منعه، وأنك مهما كفرت أو عصيت يرزقك ويحدوك بلطفه: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨].

قراءة الفاتحة للأحياء:

وقد وردت الأحاديثُ في الستة الصحاح وغيرها، بأنَّ سورة الفاتحة رُقيةٌ ودعاءٌ جامعٌ فوق كل دعاء، وأنَّ لكل آية وحرف منها ثوابًا مترامي المدد، وأنَّ الله تعالى يجيب عبده على رأس كل آية منها بجواب قدسي جليل، وأنها أُمُّ القرآن والسبع المثاني، وفيها خلاصة الخلاصة من الفرقان، ولأمر ما كررها الشارع في كل ركعة من ركعات الصلاة، ولهذا قد اعتاد بعضُ الصوفيين، تلاوتها في مجالسهم بنية من النيات؛ لفضلها ذاك ثم لسهولتها على العامة والخاصة، وشيوعها فيهم، وهم على الصواب في ذلك؛ لأنَّ تلاوتها لنية ما، هي توسل إلى الله بعمل صالح، من حي يرزق، وقد اتفق السَّلفُ والخلفُ على الندب إلى التوسل بالعمل الصالح، ومن الأحياء بصفة خاصة، كما جاء في حديث أصحاب الغار، وحديث الأعمى، وحديث الاستسقاء بالعباس وغيرها، ولم يرد نهي ضمني أو نصي في مثل ذلك، فلا خلاف إذن على جوازها على ذلك الوجه بعد هذا البيان، واللغو حول ذلك فتنة فتَّان شيطان، يبكم إن سمع مجون المجان، ويجن إن سمع قراءة القرآن.

الفاتحة أيضًا للموتى:

ويلاحظ أنَّ تلاوة الفاتحة للموتى من الصَّالحين وغيرهم، لا تعدو أن تكون توسلًا بها إلى الله أن يرحمهم أو يخفف عنهم، أو يرفع من درجاتهم ببركتها، ذلك إنْ صرفنا النظر عما جاء في كتب المذاهب الأربعة، وبخاصة عند الأحناف والحنابلة ومن حذا حذوهم من علماء الشافعية والمالكية، من جواز جعل ثواب العمل الصالح للميت، سواء كان قرآنا أو ذِكرًا أو غيره، مع تأكيدهم وصول الثواب إليه بأدلتهم وبراهينهم

القاطعة، وارجع إن شئت إلى ابن قدامة وابن القيم وهما أئمة المذهب التمسلفي، المعروف أهله بالبحث عن الفتن واستحداث التشغيب والهرج حول هذا الموضوع وأشباهه بالذات.

فلا مانع إذن من تلاوتها على أنها توسل إلى الله في رحمة الموتى ورفع درجاتهم، أو على أن مجرد بركة قراءتها تنالهم، أو على أن يسأل الله أن يجعل ثواب القراءة لهم؛ فإنَّ الميت ينقطع عمله إذا مات، ولكنه لا ينقطع عمل غيره له إلى يوم القيامة.

حكم الدعاء بغير الوارد والأحزاب:

ولما كان من المستحيل على الناس عامتهم وخاصتهم، أن يفترضوا كل الفروض ثم يبحثوا في بطون الصحاح عما يلائمها من المأثور، ليحفظوه، فإذا ما جاء وقته، أو سببه دعوا به، لما كان ذلك متعذرًا مستحيلًا يسر الله لهم الأمر إطلاقًا، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢]، ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] أي: بالوارد وغيره، وقال النبيُّ ﷺ: «**ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم**» وأفسح الأمر أكثر من هذا، فقال فيما أخرجه الترمذي: «**ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه إياها أو صرف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم**»، ومنه يُفهم حديث الحاكم والبيهقي، وابن حبان عنه ﷺ، «**ليس شيء أكرم على الله ﷻ من الدعاء**» وحديث الترمذي وأصحاب السنن «**الدعاء هو العبادة**» ولذلك كان الترغيب فيه مطلقًا من كل قيد، ولم يرد حرف واحد ينص على حرمة الدعاء بغير الوارد، وذلك أنَّ الداعي إنما يبتغي بدعائه استباق الخير وفضل الله، والله العظيم يقول:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٩]، ولا حرج على فضله، فليس ثمة شرط مطلقًا بوارد ولا غير وارد في القرآن، وهو بين أيدينا متنًا وشرحًا وتعليقًا.

أما الحديث فلا يعارض القرآن بتة، وإنما هو مفسر له، ومفصل لإجماله، ففي حديث ابن مسعود قال: التفت إلينا رسول الله ﷺ فقال: «**إذا صلى أحدكم فليقل التحيات لله**... إلخ، **ثم ليتخير من الدعاء أعجبه إليه فيدعو**» متفق عليه واللفظ للبخاري، وللنسائي بلفظ: «**فليدع**» وزاد أبو داود «**فيدعو به**» وقيده صاحب «**بلوغ المرام**» بالدعاء بخير الدنيا والآخرة، ولم يشترط واردًا ولا غيره، بل ردَّ على القائلين بلزوم المأثور بقوله: «ويرد القولين قوله ﷺ: «**ثم ليتخير من الدعاء أعجبه**»، وفي لفظ: «**ما أحب**»، وللبخاري: «**من الثناء ما شاء**»، فهو إطلاق للداعي، أن يدعو بما أراد، قلت: وهذا في صلب الصلاة، فكيف بالدعاء في غيرها؟ إنما هو وباء حب المخالفة، وطلب الشهرة من باب الشذوذ.

وفي حديث فضالة أنَّ النبي ﷺ قال: «**وإذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه والثناء عليه، ثم يصلي على النبي، ثم يدعو بما شاء**» رواه أحمد والثلاثة، وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم، قلنا: وهو مؤيد لحديث ابن مسعود السابق ذكره وفيه قيد واحد، هو وجوب تقديم الثناء على الله، والصلاة على النبي ﷺ، قبل كل دعاء، ونقول: إنَّ في اشتراط المأثور فضلًا عن الحرج الذي ذكرناه، غَلًّا لألسن العباد وأفكارِها أن تتفنن في الثناء على الله، وفيه إيقاف للقلوب والعقول والأفواه عن أداء واجب ربها عليها كما يحلو لها وكما تحس به، وما توفق بفضل الله إليه،

فهو تعطيل فيه تحجير وتضليل، وفيه رد لحديث فضالة المذكور آنفا.

وقد أخرج أبو داود بسند جيد، عن بعض الصحابة أنَّ النبيَّ ﷺ قال لرجل: **كيف تقول في الصلاة؟ قال الرجل: «أتشهد ثم أقول اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار»** ثم قال الرجل للرسول ﷺ: «أما إني لا أحسن دندنتك ـ أي نص قولك في الدعاء ـ ولا دندنة معاذ، فقال النبي ﷺ: **حول ذلك ندندن أنا ومعاذ»**

قال الصنعاني: ففيه أن يدعوَ الإنسان بأي لفظ شاء من مأثور وغيره، قلنا: ولو كان غير الوارد منكرًا، لنهاه النبيُّ ﷺ عن قوله وألزمه المأثور بالذات.

فنعرف مما قدمناه أنه لا حجة بالمرة للقائلين بعدم جواز تلاوة الأحزاب والأوراد، والأدعية والتوجهات المتلقاة عن الأشياخ، والمؤلفة منظومة أو منثورة -لعدم ورودها في الحديث بلفظها كما يزعمون- بل تعرف مما أجملناه لك، أنها إنْ لم تكن واجبة فهي مندوب إليها لدخولها في عموم الأمر بالدعاء.

على أنَّ النبي ﷺ لم يترك بجوامع الكلم معنى إلا ضمَّهُ إليه، فكل دعاء خيري هو مردود إلى دعائه ﷺ إن لم يكن بالنص فبالمعنى، وما ورد بالمعنى أخذ حكم الوارد باللفظ، وإن لم يأخذ فَضَلَهُ، وفي الصحاح قال ﷺ: **«أوتيت جوامع الكلم»**.

وقد روى الترمذي كذلك عنه ﷺ: **«ما من مسلم يدعو الله تعالى إلا استجاب له»** ولم يشترط واردًا ولا غيره، ولا تصريحًا ولا تلويحًا لا فيما

ذكرنا ولا فيما لم نذكر، والميزان الأصولي: أنه إذا كان المأثور مأمورًا به، فالدعاء غير المأثور بشروطه وحدوده، غير منهي عنه فهو عفو مباح، وعليه جاءت الأدعية عن الصحابة والتابعين والعلماء والأولياء والصالحين، وكان للدعاء بها أثر بين في المدد وفي الاستجابة، مما يتوارثه الأكابر كابرًا عن كابر.

وأفضلية المأثور لا تحرم الدعاء بغيره، ولا تمنع الثواب فيما عداه، وقد صدق المولى سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ختام هذا الباب:

وعلى رغم أنَّ هذا الباب قد وضح واستوفى فإنا نروي على بركة الله حديثين جليلين يتممان إن شاء الله فضل الكلام في هذا الموضوع؛ استغناء بهما عما في معناهما:

أما الأول: ففي سنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، عن بريدة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلًا يقول: «اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد» **فقال النبي: لقد سألت الله تعالى بالاسم - أو باسمه الأعظم - الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب»**.

وأما الحديث الثاني: ففي سنن أبي داود والنسائي عن أنس رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسًا ورجل يصلي ثم دعا: اللهم إني أسألك بأنَّ لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى.

وفي هذين الحديثين أمور:

الأول: أنَّ النبيﷺ سمع بأُذنه من يدعو بغير المأثور عنه ثم لم ينكر عليه، وهو كالذي جاء في حديث الدندنة الذي أسلفناه.

الثاني: أنَّ النبيﷺ أقر هذا الاجتهاد في الدعاء وحبذه بثنائه عليه، وبيانه أنه أصاب اسم الله الأعظم.

الثالث: أنه بناء على ذلك، يجوز لمن لا يستطيع الدعاء بالمأثور، أن يتعبد بغير المأثور من أوراد وأحزاب ومدائح وموالد منظومة ومنثورة، ولا بأس على العالم بالمأثور أن يضيف إليه ما شاء من غيره[1] جمعًا بين الخيرين.

مسألة الصلاة على رسول الله ﷺ:

والصلاة على رسول اللهﷺ ذكرٌ ودعاءٌ، فكل ما يصدق على الذكر والدعاء يصدق عليها تماما، وقد أمرنا القرآن بها مطلقًا، ورغبتنا فيها السُّنةُ ترغيبًا جامعًا يشتمل على كثير من أصول العقائد وإدراك النجاة في الدارين.

وقدمنا أنَّ الوارد أفضل، ولعل من أصح الوارد في الصلاة عليهﷺ هي الصلاة الإبراهيمية - التي يختم بها التشهد في العادة- وهناك صيغ واردة أخرى كالتي جاء أن النبيﷺ علمها لأعرابي سأله كيف يصلي عليه، فقال: «**قل اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وآله وسلم**» وفي الباب سعة لا حدَّ لها كسعة باب الذكر والدعاء، سواء بسواء.

---

(١) استوفى السيد الرائد هذا الموضوع بحثا على أسلوب علماء فن الحديث في رسالة «**المحمديات**» التي نرجو أن نعيد طباعتها إن شاء الله «**التحرير**» (المسلم).

غير أننا قرأنا لمتمسلفة معاصرينا فتاوىٰ بإحراق كتب الأدعية والصلوات والموالد والمدائح والأوراد جميعًا؛ لاشتمالها علىٰ غير نص المنطوق النبوي، وقد بينا في الباب السابق فساد تلك الدعوىٰ، وضلة هذه الفتوىٰ، وهو إغراقٌ وتعسفٌ لولا حسن الظن والتأثم، لقلنا إنه يشبه الفسق والجهل وسوء الأدب، والتمكين من دين الله، بل هو فعلًا تمكين من دين الله، علم فاعلوه أو جهلوا.

فهذا هو الأمر القرآني بالصلاة عليهﷺ غير مشروط بشرط ما، فهو يفيد الفسحة المطلقة في الحال والمقال والزمان والمكان، بل هو يحث بهذا على الاجتهاد في الموضوع بما في الإمكان، وكذلك السنة فهي تعطي هذا المعنىٰ وزيادة - وقد فصلناه في رسالتنا: البينة - إذ إن كل ما اشترطته السنة في هذا الجانب، هو قولهﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارىٰ المسيح بن مريم**» فالنهي منصب علىٰ أن نجعله في مرتبة الألوهية، كما قال القرآن والحديث: «**إنما أنا بشر مثلكم**» وجاء تفصيل هذا المقام في بردة البوصيري إذ يقول:

دع ما ادعته النصارىٰ في نبيهم واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

وانسب إلىٰ ذاته ما شئت من شرف وانسب إلىٰ قدره ما شئت من عظم

أما ما عدا هذا، فقد سمعه النبيﷺ من أفواه صحابته، وبخاصة الشعراء منهم، كالعباس، وابن رواحة وأنس، وزهير، وحسان والأعشىٰ، وغيرهم، فينقلب هذا الشأن من الإباحة إلى الندب، ويكون بهذا سنة إقرارية أو سنة قولية مطلوبة، لا تحريم فيها، ولا ابتداع.

قال الحافظ السخاوي: «قد روينا عن ابن مهدي ما نصه: وقد روي في كيفية الصلاة على النبيﷺ أحاديث كثيرة، وذهب جماعة من الصحابة، فمن بعدهم إلىٰ أنَّ هذا الباب لا يوقف فيه مع المنصوص واحتجوا بقول ابن مسعود ـ مرفوعًا وموقوفًا ـ «**أحسنوا الصَّلاةَ علىٰ نبيكم، فإنكم لا تدرون. لعل ذلك يعرض عليه**» نقول: وأخرجه الديلمي في «**مسند الفردوس**» حديثًا عن الرسولﷺ من رواية ابن مسعود، وذكره في «**القول البديع**» حديثًا مرفوعًا كذلك، ولذلك قال أبو سليمان الداراني: الصلاة على النبيﷺ لا ترد، ولعل من دليله كذلك قولهﷺ لوفد أطروه: «**قولوا بقولكم ولا يستجرينكم الشيطان**»؛ ففيه أمر نبوي بالاجتهاد في الثناء والصلاة عليه في الحد المحدود، ومن هنا يبين مبلغ الهوج و الهوس والتهور، الذي أصاب المفتي بإحراق كتب الأدعية والصلوات والموالد والمدائح النبوية، الأمر الذي لم يجرؤ على الجهر به أفجر النصارىٰ ولا أشأم اليهود، ولو كان للمبشرين من أعداء الإسلام أمل مكنون، ما كان إلا أن تحرق كتب الثناء علىٰ رسول اللهﷺ، ونعوذ بالله من السلب وعمى البصائر.

عدد كذا وقدر كذا:

ولعل من الجهل المغرق تنديدهم بقول الذاكر والمصلي على النبيﷺ: «**عدد كذا وكذا**» ونحن هنا نضع أيديهم علىٰ مآخذ هذا القول من السنة المطهرة، سائلين لأنفسنا ولهم العفو والغفران، فقد روىٰ أبو داود، والترمذي – وحسنه – عن سعد بن أبي وقاص ﷺ: «**أَنَّهُ دَخَلَ مَعَ رَسُولِ اللهِﷺ عَلَى امْرَأَةٍ وَبَيْنَ يَدَيْهَا نَوًىٰ أَوْ قَالَ حَصًىٰ تُسَبِّحُ بِهِ فَقَالَ أَلَا أُخْبِرُكِ بِمَا هُوَ أَيْسَرُ**

عَلَيْكِ مِنْ هَذَا أَوْ أَفْضَلُ : سُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ فِي السَّمَاءِ ، وَسُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ فِي الأَرْضِ ، وَسُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا بَيْنَ ذَلِكَ ، وَسُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا هُوَ خَالِقٌ ، وَاللهُ أَكْبَرُ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَالْحَمْدُ للهِ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَلا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ مِثْلَ ذَلِكَ» .

وروىٰ مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه والترمذي عن جويرية أم المؤمنين - رضي الله عنها- قالت : «**إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا ، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَىٰ وَهِيَ جَالِسَةٌ ، فَقَالَ : مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟ قَالَتْ : نَعَمْ . قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلاثَ مَرَّاتٍ لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ : سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ**»

فذلك وغيره - وهو كثير معروف لعلماء الحديث- هو مأخذ قولهم عدد (كذا وكذا) من السنة والتوجيه النبوي ، والمراد هو التعبير عن عظيم التقدير الذي لا يحد .

ثم إنَّ كل ما جاءت به الأحاديث الصحاح والضعاف وحتى المناكير ، ليس فيه ما يدل علىٰ حرمة عدم التزام الوارد في الصلاة على الرسول ﷺ في حدوده وشرائطه ، والصلاةُ عليه كما قدمنا ذكر ودعاء ، ينسحب عليها كل ما ينسحب عليهما من أحكام .

ونحب أن نختتم هذا البحث ، بما رويناه في بعض المخطوطات القديمة ، عن مولانا الشيخ محمد بن عمر بن إبراهيم الملالي التلمساني في

شرح المقدمة ، أنه أفتىٰ علىٰ ما ذكره من الأدلة بأنَّ الصلاة على النبيﷺ لا ترد مطلقًا ولو كانت من العاصي أثناء تلبسه بالمعصية انتهىٰ ، وهو أدنىٰ إلى الفضل الإلهي وأشبه بالمقام النبوي ، والحمد لله رب العالمين .

***

سقطاتُ الأزهرِ قنابلُ وصواريخُ
لا سقطات غلطاتٌ جديداتٌ للأزهرِ الشَّريف (١)

لا أحبُّ أبدًا أن يتوهم أحدٌ أننا بما نوجهه من نقد في الله إلى شيخ الأزهر، نريد شخص الشيخ أبدًا؛ فإنَّ الله يعلم أنَّ شخص الشيخ أو شخص غيره ليس في اعتبارنا على الإطلاق، ولكننا نريد تصرفات الشيخ وما لها من أثر كبير في المفاهيم وفي التقاليد، وما لها من دخل أكبر وأخطر، على الدولة، والتمكين لخصومها منها، أراد الشيخ أم لم يرد، علم الشيخ أم لم يعلم، وذلك بحكم وضعه الديني ومنصبه الخطير.

فمثلًا: لماذا تخاصمنا باكستان؟ وتذهب تساعد السعودية ضدنا، وتقف منا أنكر المواقف؟ ذلك لأنها تزعم أننا تحللنا أو نتحلل من الإسلام، وأننا عملنا أو نعمل لنقضيَ على الإسلام، بما يصل إليها مشوهًا من صور الحركات والدعوات، ووسائل الإعلام المنحرفة، أو البعيدة عن الإسلام.

وشأنُ باكستان، هو شأن الكثير من بلاد المسلمين التي تتربص بنا الدوائر، وتتسقط لنا الأخطاء، وتحصي علينا العيب والانحراف، من الجوانب الدينية والخلقية، وهي لا تقيس بها أي مجهود يبذل في مختلف الاتجاهات، مهما يكن شأن هذا المجهود ضخامة وعمقًا وجلالًا، في غير نواحي الدين والأخلاق.

(١) مقال: غرة شوال (١٣٨٢هـ) - ٢٥ فبراير (١٩٦٣م)، العدد الثالث ـ السنة الثالثة عشرة.

والأزهرُ في مصر هو العُنوانُ الدينيُّ الأقدس، وحول حَرَمِهِ ترفُّ قلوبُ ملايين المسلمين في الدنيا كلها، وفوق قدسه تحوم أرواحُ المصلحين والدعاة، وبعلمائه وطلابه تتعلق الآمال، وتُنَاط الأماني العراض.

وفي غفلة الأزهر واندفاعه، استطاعت بلادٌ إسلامية في العصر الحاضر أن تستحدث (أزاهر) في بلادها، تدعو بإلحاح إليها، وتغري بها، وتبذل بسخاء في سبيلها، وحجتُهَا الأولى والأخيرة، أنَّ الأزهر قد فَقَدَ اعتباره، وتنحى عن رسالته، وخلع عن نفسه رداءه الديني الأصيل.

وهكذا تتلقف إذاعات، وصحف، وأفواه، وعيون، ما عسى أن يكون من سقطات أزهرية مقصودة أو غير مقصودة؛ لتستغلها في تأليب الشعوب الإسلامية علينا، وتكدير صفوها نحونا -والشعوب عُدَّتنا الكبرى في دعوتنا- وعلى هذه الشعوب نعلق الأمل، وننتظر العمل.

فنحن إذ نلوم الأزهر، إنما نحافظ على ما يهمنا من مكاسب حققناها، فما ينبغي أن يضيعها الأزهر، ولا يجوز أن تبني الدولة، فيهدم هو -ولو بحسن النية- ما تبني دولته، فذلك ما لا يطيقه مسلم، وما لا يرضاه أزهريٌّ غيور.

إنَّ سمعة هذه الأمة ودينها وجهودها، ونهضتها أمانة في عنق كل رجل، وإنَّ خطأً أزهريٍّ واحد يمكّن لأعدائنا منا بما لا تستطيعه ألوف أو مئات الأخطاء من مختلف الأجهزة. إنَّ سقطات الأزهر، ليست سقطات، إنها قنابل وصواريخ!!

هذا من الوجهة المدنية، أما من الوجهة الدينية والاعتقادية، فالأمرُ

أدخلُ وأهولُ، والدنيا عَرض زائل، والمناصب والأموال والحياة متاعٌ قليلٌ، وللجماهير حُكْمٌ سديدٌ، وللتاريخ بلاغٌ رشيدٌ، وعند الله عذابٌ شديدٌ.

وعلى هذا الأساس ننقد لنبني، ونصرخ لنحذر، ومن هنا نبدأ:

فمنذ أيام استفتح الإمامُ الأكبر، شيخ الجامع الأزهر، الأستاذ شلتوت الأشهر، معرض الرسم والتصوير والنحت الأزهري، وكانت لنا في ذلك كلمة لله، يذكرها قُرَّاءُ «**المسلم**»! ولا يزال صداها في الآذان.

وفي عدد مضى، قدَّمنا الإمامَ الأكبر شيخَ الجامع الأزهر، وهو يقدم عميدة كلية فتيات الأزهر، الفتيات الكاسيات العاريات، المائلات والمميلات - الآن- اللاتي ضاع في مظهرهن، ما كان ينتظره المسلمون والمسلمات من آمال!!

وفي هذا العدد نقدم الإمام الأكبر، شيخ الجامع الأزهر، في ثلاثة أخبار خطيرة كخطورة الإمامة الكبرى لشيخ الأزهر الأشهر:

فأما الخبر الأول: فما نشره الأهرام عن فضيلته في صفحة الصور، وهو يزور معهد الفتيات، وقد شدَّ على يد فتاة أزهرية عارية الرأس، تلبس الزي المختار للمعهد، وأرجو ملاحظةَ أنَّ المعهد ذا الزي المختار، غيرُ الكلية ذات الزي المبهار!!! حتى الآن!!!

وبهذا علم المسلمون ما لم يكونوا يعلمونه، وهو أن عُري الرأس حلالٌ زلال!! وقد كانوا، وكنت معهم، أظنُّ أنه حرامٌ ألجأنا إلى ارتكابه ضروراتُ حركة الانتقال، فهو بعد الاستقرار إلى زوال، وكانوا وكنتُ معهم أظنُّ، أنَّ شيخ الأزهر سيحاول بالمعهد الأزهري، والكلية

الأزهرية، أن يستحدث بيئة إسلامية، وجوًّا إسلاميًّا في المستوىٰ النسائي، يجمع بين الحشمة والأناقة، ويفرض نفسه على الأمة، بما يكون فيه من مميزات ومرغبات، وإيجابية.

أما الآن وقد شدَّ شيخ الأزهر، والإمام الأكبر، على يد الفتاة العارية الرأس، وهو يضحك لها ملء شدقيه! وسعة شيخوخته!!! فقد علم الناس من أمر الحلال والحرام ما لم يكونوا يعلمون، وقد حل لنسائهم تعرية الرءوس في الشوارع والتجمعات والافتنان في العقصات «**والتسريحات**»، وبالتالي: معاملة «**الكوافير**» الحلاق الذكر!!! البالغ القوي الشاب!! دون حساب ولا عقاب!!

وقد استنتج المسلمون أنه ما دام قد جاز ذلك في المعهد والشارع والمجتمع؛ فقد جاز بالتالي أن تصلي النساء - إن كان في مثل هؤلاء من تصلي- وهن عاريات الرءوس، مسبسبات الشعور، متهدلات «**القُصص**» على الحواجب والعيون، فليست المصلَّىٰ والمسجد بِشَرٍّ من الشارع والمعهد!! والمجتمع!!

والآن وبعد كل هذا العمر في خدمة علم الإسلام، قد علمتُ علمَ ما لم أكن أعلم!! وما لم يكن يعلمه كل من سبق من علماء الإسلام، ومن لحق منهم، في قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٩]، فقد نسخت ولم يعلم بنسخها إلا شيخ الأزهر وحده!! في هذا الزمان.

وقد عَذرتُ بعد موقف شيخ الأزهر، عميدةَ المعهد، التي تضرب بخمارها على صدرها وشعرها!! حين أجابت على سؤال أحد الصحفيين بأنها لن تطلب من الفتيات تغطية الرءوس ولا توسيع الملابس كمثلها، حتى لا يضحك عليهن الناس!!! أو كما قالت!!! منطقٌ أزهريٌّ جديد من منطق الأزهر الجديد، منطق قد لا يعرف طريقه إلى إسلام المسلمين!!! ولو أيده شيخ الأزهر وإمامه!! ومن معه!!

إني أدعو الإمام الأكبر، شيخ الجامع الأزهر، وعميدة كليته، مع عميدة معهده، إلى زيارة لأية مدرسة أو كلية من كليات الإرسالات التبشيرية، أو المعاهد الدينية لغير المسلمات!! فلعل سيادته أو سيادتيهما يرون أدب الإسلام في أولئك الطالبات المعدات للتبشير والخدمات الربانية، من وقار السَّمت ووقار الصمت، ومهابة الاحتشام، ولست أطلب لفتيات الأزهر زيًّا كزي الرواهب، ولكني أطلب لهن زيًّا كزي المسلمات الفضليات المعدات للقيادة والإمامة.

وبهذا نكون قد قدمنا الإمام الأكبر، في الخبر الأول.

أما الخبر الثاني: فقد نشرت الأهرام الصادرة في (١٣/ ١/ ٦٣م) أنَّ الأزهر قد دفع ألفين وأربعمائة جنيه مصري عدًّا ونقدًا ثمنا لآلات موسيقية، اشتراها لأعضاء أول فرقة موسيقية يكونها الأزهر من طلبته، وأنَّ هذه الفرقة يدربها الآن الملحن «ع. **توفيق**»، وأنها ستعزف في الاحتفالات الأزهرية... إلخ!!!.

والتعليق: إنه ليس بغريب على أزهر النحت والتصوير والتكشف،

أن يكون هو أزهر الموسيقىٰ والرقص أيضًا!!! ببركة الإمام الأكبر، شيخ الجامع الأزهر، مع عميدة كليته، التي تقبل الطالبات العاريات، وتبيعهن، العطور والزينات، وتعرض عليهن أحدث «**الموديلات**» ثم مع عميدة معهده، التي لا يهمها غضب الله في سبيل رضا بعض الناس، فلا ترىٰ أن تَسْتُرَ البناتُ الشعور، ولا ألا «**يخرقن**» الخصور، فلا تظهر النهود والأرداف، حتىٰ لا يسخر منهن الأشراف، ولا الأجلاف!!! وما دام قد تألف في دار العلوم تشكيل «**للباليه**» فكيف يتخلف عنه الأزهر الجديد؟! وليقضم المسلمون الحديد، أو ينهلوا الصديد!!!

أما ما جاء من الأحاديث الصحيحة في اللهو والسماع المنحل، والطبول والمزامير والدفوف، فقد نسخ علىٰ يد الإمام الأكبر كما نسخت آيات الربا، وآيات التستر وغيرها من الآيات.

ثم علىٰ حساب أي علم تدرس الموسيقىٰ، بعد أن أُتخم طلبة الأزهر بما لا قبل لهم به من العلوم المدنية، علىٰ حساب العلوم الدينية؟! بعض البصر أيها المجددون!!

أما الخبر الثالث: وهو الأدهىٰ، والأمر، وهو ما كنا نخشاه ونخافه ونتوقاه فهو ما نشرته «**الجمهورية**» من أنه قد تألف بكليات الأزهر فريق للتمثيل، وأنَّ القائمين عليه رأوا ضرورة تطعيمه بوجوه جديدة من كلية الفتيات الأزهرية!!

وأنا كمسلم، وكأزهري، لا أكاد أصدق أن يصل التمادي بالأزهر في التهاون بتقاليده وبمواريث الإسلام التي كان حفيظًا عليها، حتىٰ يكون

له فريق تمثيلي مختلط من أبنائه وبناته!! الشيء الذي تدور له الرءوس، ولا يعثر الإنسان له على علة تقبل!! والخبر صادق ما لم يكذبه الأزهر رسميا حتى الآن.

كيف يصدق المسلم هذا، في الوقت الذي تَحْمِلُ إلينا في الصحف، ومنها الأهرام (١٢/ ٢/ ٦٣م) أنَّ الأسقف (موريس بوشامب) رئيس أساقفة الكنيسة الإنجليزية، يعارض أشدَّ المعارضة، فكرة انضمام الفتيات إلى اتحاد جامعة أكسفورد -مجرد انضمام لا تمثيل!!- لأن من تقاليد هذا الاتحاد ألا ينضم إليه إلا الطلبة وحدهم، وقد بلغ من قوة معارضة الأسقف لمجرد الانضمام هذا أن طالبته إحدى السيدات بالمبارزة!!

إنَّ المقارنة بين الخبرين لا يتسع لها هذا المجال، ولازلت أشك كثيرًا في أن يتحقق هذا الخبر، وفي الأزهر بقية من علماء فيهم دين وغيرة وإيمان.

وإلى أن نرى ماذا سيتم في هذا الشأن الخطير، نمسك القلم على تحيةٍ تمسلفيةٍ وهابية!! لمولانا الأكبر شيخ الجامع الأزهر.

***

فتاوى فقهية متعددة[(١)]

تمهيدٌ :

فيما بين يدي من الأسئلة عديدٌ من الاستفتاءات الفقهية ، التي يَشترط أصحابها أنْ أجيب عليها شخصيًّا - جزاهم اللّٰه خيرًا على حسن ظنهم- والواقع أنَّ بعض هذه الاستفتاءات قد مضى عليه شهور طويلة ، وعذري معروفٌ عند إخواني وأبنائي ؛ فأنا رجلٌ أعملُ لمعاشي -ككل الناس- عملًا يستغرق أكثر وقتي ، وأعمل لمعادي وللدعوة ، فيما بقي لي من وقتي الضيق ، ومع هذا فأنا رجلٌ مبتلى بضعف الجسم ، وضيق الصحة ، كأثر طبيعي لمجهود غير عادي أمارسه في خدمة المعاش والمعاد .

فعذري إلى إخواني وأبنائي هو ضيقُ الوقت وضيقُ الصحة ، وأغلبُ الظنِّ أنهم سيتقبلون مني عذري ، وقد قبلوني على عيبي ، ومن شروط مؤاخاتنا : قبولنا على علاتنا .

ولنبدأ هنا ببعض ما يجوز نشره لينتفع به الناس ، وقد أرسلنا فعلًا إلى كثير جدًّا من الإخوان إجاباتهم في خطابات خاصة ، على مسائلهم الخاصة ، ونرجو أن تبدأ الإجابات الصوفية من العدد المقبل إن شاء اللّٰه ، ونستغفر اللّٰه تعالى ونتوب إليه .

---

(١) مقال : غرة ذي القعدة (١٣٨٢هـ)،٢٦ مارس (١٩٦٣م) العدد الرابع السنة- الثالثة عشرة .

كفارة يمين الطلاق :

قد يرىٰ بعضُ العلماء أنَّ مَنْ حَلَفَ بالطلاق علىٰ شيء حانثًا فطلاقه غير واقع ، ونسبوا ذلك إلىٰ أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب وابن طاووس ، وأخذ به بعضُ المالكية وأهلُ الظاهر خلافًا لمن يرىٰ هذا الحنث طلاقًا واقعًا .

ولكنَّ بعض الأئمة توسط فاعتبره يمينًا شرعية ، فيها الكفارة ، ولا يقع بها طلاق ، فيجب عندهم علىٰ من حلف بالطلاق حانثًا أن يُكَفِّرَ كفارة يمين ، وسواء كفّر أو لم يكفّر ، فلا تطلق زوجته عندهم ، والله أعلم .

هل يقع طلاق الغضبان :

والغضبانُ هو الواقعُ تحت ثورة غضب طارئ ، بحيث يفقد الرجل التسلط علىٰ أعصابه ، فيقول ما لا يريد ، ويحكم بما لا نية له عليه .

والغضب غير الهذيان ، الذي هو فقدان العقل والإرادة لفترة طارئة ، والغضب أيضًا غير الجنون الذي هو فقدان العقل والإرادة بصفة دائمة .

وقد سمى النبيُّ ﷺ الغضبَ «**الإغلاقَ**» ، وهو انسدادُ طريق القصد والإرادة والتصور ؛ فحَكَمَ ﷺ بعدم وقوع طلاق الغضبان بقوله ﷺ : «**لا طلاق في إغلاق**» وهو مذهب الأحناف ومن والاهم .

قال ابن القيم : «**والطلاق إنما يكون عن وطر ، فيكون عن قصد من المطلِّق ، وتصور لما يقصده ، فإنْ تخلف القصد أو التصور لم يقع الطلاق**» (انتهىٰ) .

وهذا هو الأرفق والأوفق ، والذي نفتي به الآن تخفيفًا على الناس .

الطلاق : بِعَلَيَّ الطلاق :

وعند الأحناف مَنْ قال : «**عَلَيَّ الطلاق**» لا يقع طلاقه ، وبه أفتى القفَّالُ في قولهم (يلزمني الطلاق) .

وذلك أنهم فهموا قولهم (عَلَيَّ الطلاق ، أو يلزمني الطلاق) على أنه تَعَهُّدٌ من الرجل أنْ يطلق زوجته إن فعل أو فعلت كذا أو كذا مثلا ، وهذا التعهد غير ملزم ، والطلاق لا يلزم صاحبه إلا بعد أن يوقعه فعلًا .

قال ابن القيم : «**كأنه قال : فعليَّ - أي أتعهد - أن أطلقك ، وهو لو صرح بهذا لم تطلق زوجته بلا خلاف**» .

نقول أيضًا : وهذا هو الأرفق والأوفق ، والذي به نفتي الآن تخفيفًا على الناس ، ومواجهة لما عمّت به البلوىٰ .

مغالطة في الطلاق :

الرجل الذي طلق زوجته ، ثم راجعها ، ثم طلقها ، ثم راجعها ، ثم طلقها ، ثم راجعها ، بدعوىٰ أنَّ الطلقة التي وقعت بعد الرجعة وقبل العقد لا تلحقها ، هذا الرجل آثم ، والطلاق مرتان لا غير ، والرجعة لا يشترط فيها العقد ، ما دام الطلاق نفسه رجعيًّا ، ووقوع الطلاق بعد الرجعة كاف لاحتسابه ، أما أنها أبرأته أو لم تبرئه من مؤخر الصداق ، وأنه سدد المؤخر أو لم يسدده ؛ فلا أثر لكل هذا على حقيقة الطلاق ، ووقوعه لمرتين لا ثالثة لهما .

ومعروفٌ أنَّ الحكم في مصر ، يجري رسميًّا على أساس أنَّ الطلاق

المعلق على فعل شيء أو تركه، إن قصد به الترهيب أو التأديب فلا يقع، وليس هذا مما يدخل في الاستفتاء الذي أمامنا.

وعلى الحاكم التفريق بين كل زوجين، وقع بينهما الطلاقُ صحيحًا أكثر من مرتين.

الخلع والطلاق الثلاث:

القاعدةُ أنَّ المرأة أمينةُ الحيض، والرجل أمينُ الطلاق، وحسابهما على الله، فمتى ما أقرَّ الزوج بأنَّ الطلاق الثالث كان خلعًا شرعيًّا، ولم يكن طلاقًا، على رأي من يقول بأنَّ الخلع فسخٌ لا طلاق، فيؤخذ بقوله قضاءً، إذا اعترفت الزوجة بذلك؛ لأنَّ الخلع اتفاقٌ على التفريق بينهما على عوض منها.

وجمهور المذاهب على أنَّ الطلاق الثلاث بلفظ واحد، يقع ثلاثًا ويترتبُ عليه البينونة الكبرى، فلا تحل له حتى تنكحَ زوجًا غيره.

لكنَّ بعض العلماء يرون أنَّ هذا الطلاق، إنما يقع طلقة واحدة؛ لأنه لا عبرة عندهم بالعدد، ولكنَّ العبرة عندهم بالنطق بلفظ الطلاق، فكُلُّ نطقٍ به يُعتبر مرة واحدة عندهم، مهما قيده الناطق بعدد قلَّ أو كثر هذا العدد.

وهؤلاء العلماء يجيزون إمساك الزوجة على ما كانت عليه، ومراجعتها بعد الطلاق الأول والثاني، مهما اقترن أحدهما أو كلاهما بعدد الثلاث أو غيره، وقد أخذت مصر رسميًّا بهذا الرأي تخفيفًا على الناس فيما عمت به البلوى.

ولكنَّ الاحتياط ألا يُصار إلى هذا الحكم إلا عند الضرورة الملجئة،

فعلى رأي الجمهور قد انقطع ما بين الرجل والمرأة بمجرد نطق الطلاق الثلاث في أية مرة .

وعلى الرأي الثاني ، إنْ كان الرجل قد راجع زوجته فعلًا ، أو كان إرسال الكسوة يعتبر في عادة أهل هذه البلاد واصطلاحها رجعةً ، فتكون الزوجة قد عادت إلى عصمته ، ويترتب على هذه الرجعة كل الحقوق الشرعية ، وإلا فلا .

ويجب على أهل الخير أن يتدخلوا في مثل هذه الموضوعات الدقيقة ، وأن يختاروا لها حكمها الشرعي المناسب للظرف والبيئة والملابسة الواقعة بالفعل ، والله خير وأبقى .

الطلاق الثلاث بلفظ واحد :

قدّمنا أنَّ بعض علماء المسلمين ، يرى أنَّ الطلاق المقرون بالعدد مهما كان عدده ، فإنه لا يقع إلا طلقة واحدة ، وقدمنا أنَّ القانون المصري (رقم ٢٥ لعام ٢٩) الخاص بالأحوال الشخصية ، اختار هذا الرأي تخفيفًا على الناس ، وعليه سارت ، وبه عمل المأذونون في الديار المصرية .

وقدّمنا أنه لم يفتنا أنَّ هذا الرأي مخالفٌ لرأي الجمهور وما كان عليه العمل من قبل ، وقلنا إنَّ الاحتياط ألا يُصار إليه إلا عند الضرورة الملجئة مواجهة لما عمت به البلوى .

وبهذا اتضح موقفنا في هذا الجانب تمامًا ، فلا مجال هناك لتأويل ولا تحريف .

وللاطمئنان نذكر من السادة القائلين بأنَّ الطلاق الثلاث في لفظ واحد يعتبر طلقة واحدة: أئمةٌ أكابر لا يتهمون في دينهم ولا علمهم، قال ابن القيم: «**إنه رأي أكثر الصحابة، ورأي بعض المالكية، وبعض الحنفية، وبعض الحنابلة، وبه أفتىٰ عكرمة وداود، ونقله ابن المنذر عن أصحاب ابن عباس، كعطاء، وطاووس، وعمرو بن دينار**».

وكذلك نُقل عن عليٍّ، وابن مسعود، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير، وكُلُّهم من كرام الصحابة، كما نُقل كذلك عن مشايخ قرطبة، وعن محمد بن إسحاق، وطائفة من أفاضل السلف.

فالخلافُ بين الطرفين هنا خلافٌ لله، تتحقق به رحمةٌ للمسلمين، ولكل رأي منهما موضع، ولكل قول منهما حجة، وفي كل اتجاه منهما خير، والله أعلم.

نساؤكم حرث لكم:

والأخ صاحب هذا الاستفتاء، غيور ملتهب رأىٰ فيما رأىٰ من كتاب «**أسباب النزول للإمام السيوطي**»، نقلًا عن البخاريّ في حديث ابن عمر، ما يوهم جواز إتيان النساء في غير محل الحرث، فثار وفار؛ احتسابا لوجه الله.

ولو أنَّ الأخ – أثابه الله– علم: (**أولًا**): أنَّ السيوطيَّ ناقلُ علم، والعلم أمانة لا يخفىٰ، كما كان يعمل أهل الكتاب: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١].

ولو علم (**ثانيًا**): أنَّ الإمام البخاري ناقل شأنه شأن السيوطي فيما

صحت نسبته إلى أهله في فن الحديث على شروطه .

وعلم **(ثالثًا)** : أنَّ الناقل إنما يخلع أمانة الترجيح والتصحيح ، والبحث والمقابلة وغيرها على المختصين من أهل الذكر ، وهم بحمد الله قد فعلوا .

وعلم **(رابعًا)** : أنَّ الإمام السيوطي نفسه استدرك على حديث ابن عمر ، بعد أنْ أورده بحديث أبي داود والحاكم عن ابن عباس ، الذي يقرر فيه وهم ابن عمر فيما فهم خطأ ، ويبين فيه السبب الصحيح في نزول الآية ، فينفي الوهم الذي خافه المستفتي .

ولو علم الأخ كل هذا لما ثار هذه الثورة المشكورة ، وقد أجمع جمهور علماء المسلمين ومحدثيهم وفقهائهم ، على أنَّ المراد بقوله تعالى : ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[البقرة: ٢٢٣] ، هو التمتع بالزوجة في محل الحرث ، من كل جهة ، وبكل كيفية ، وعلى أي وضع ؛ لأنَّ الحرث هو محل الولد ، فلا يكون إلا في المكان المشروع له . وظاهر الآية نصٌّ في هذا ، فينفي ما عداه على فرض صحته وثبوته من جهة النقل .

وهذا هو محصل ما رواه الأئمة - واللفظُ لمسلم - عن جابر بن عبد الله وعن الزهري ، وروى نحوه عن ابن عبد الصمد عن أيوب ، عن ابن عمر نفسه ، الذي كان قد وهم فيما جاء عنه في الرواية الأولى ، مما يدل على أنه قد رجع عن وهمه ، كما جاء في تفسير الحميدي لهذه الرواية ، وتعقيبه عليها أو أنَّ الرواية الأولى حُملت عليه حملًا .

وقد يقال : إنَّ هذا الأمر ، كان جائزًا ثم نُسخ ، فما جاء عن ابن عمر

في الرواية الأولى صحيح قبل النسخ، وما جاء عنه في الرواية الثانية صحيحٌ أيضًا بعد النسخ وبهذا يغلق الباب.

ولكنا نرجح أنَّ ابن عمر لم يرد مما جاء عنه صحيحًا، ما فهمه الناسُ من المعنى؛ فإنه إنما أراد أنه يجوز للرجل أن يأتي أهله في مكان الحرث من جهة الخلف، ففهم الناسُ أنه أراد الخلف نفسه، وهذا ما نقطع به، بدليل ما رواه النسائي عن أبي النضر، مما محصله أنه سأل نافعًا مولى ابن عمر عن هذا الحديث ـ أعني الذي رواه البخاري ـ فقال نافع: «**لقد كذبوا عليّ**»، ثم ذكر عن ابن عمر أنه أراد جوازَ المباضعة على كل الأحوال والهيئات في مكان الحرث، لا غيره، وقد روى الدارميُّ في مسنده إنكارَ ابن عمر لنسبة هذا الحديث إليه، فتعين تأويله، نقول: ولا عبرة كذلك بما ينسب زورًا إلى مالك فيما سموه: «**كتاب السر**» من أنه أباح المباشرة في غير موضع الحرث، فعلماء المسلمين على أن هذا الكتاب مدسوس على مالك.

قال القرطبي: «**وما نسب إلى مالك وأصحابه من هذا باطل، وهم مبرءون من ذلك**».

ولما علم مالك ﵁ بنسبة هذا القول إليه، قال لابن وهب، وعلي ابن زياد، غاضبًا: «**كذبوا عليَّ**» وكررها ثلاثًا ثم قال: ألستم قومًا عربًا؟!، ألم يقل الله: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[البقرة: ٢٢٣]، وهل يكون الحرث إلا في موضع المنبت؟

هذا وقد جمع الإمام أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه: «**تحريم المحل**

المكروه» طائفة قاطعة من الأحاديث الصحيحة الثابتة عن اثني عشر صحابيًّا من طرق متعددة، ذكرها الإمام أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي وآخرون، كلها تحرم ما عدا محل الحرث تحريمًا باتًا قاطعًا.

وللجمع بين كل ما ورد إما أن يقال - كما تقدم- بالنسخ، أو يقال بأن المراد ليس هو المحل المحرم، بل المراد إتيان المحل الحلال من جهة المحل الحرام، أو يقال بكذب النسبة إذ وهم الراوي، أو غير ذلك من ألوان التوجيه العلمي، وهو رأي جمهور علماء السلف والخلف، ولا اعتبار لرأي شاذ أو مدسوس، في مواجهة الصحيح القوي المعلوم بالضرورة.

إنَّ الله مع الصابرين:

ليس من الوارد قولُ الداخل إلى المسجد: «**إنَّ الله مع الصابرين**»؛ يريد من الإمام انتظاره، فإنَّ الإمام لو أطال الركن بنية طاعة أمر هذا الداخل لانقلب مأمومًا تابعًا، مما يخشى معه فساد صلاته، وصلاة المأمومين بالتبعية لصلاته.

لكنْ يجب على الداخل إلى المسجد، أن يُشعر الإمامَ بقصده إلى الصلاة معه، دون إخلال بجلال الصلاة ولا حرمة المسجد، وعلى الإمام أن يتعاون مع القادم على البر والتقوى، فينتظره دون تفرقة بين قادم وقادم آخر، ودون تفضيل لرجل على رجل، حتى لا يقع في الشرك، أو الانتقال بالعبادة من إرادة وجه الله إلى إرادة وجه الناس، ويشترط أن يقصد الإمام بهذا الانتظار وتطويل الركن، وجهَ الله تعاونًا مع أخيه المسلم على ما فيه خيرهما، وأن يكون في الوقت الشرعي سعة لهذا الانتظار، وألا يكون الانتظار طويلًا يضر المأمومين، أو يهدر مصالحهم.

وقد قدَّرَ الشافعيُّ مدة الانتظار بتسبيحة أو تسبيحتين زيادة على معتاد الإمام، وترك بعض العلماء تحديد مدة الانتظار بالركن لتقدير الإمام وحالة المأمومين.

من أدرك الركعة أدرك الصلاة:

القول بأنَّ المسبوق الذي لم يدرك قراءة الفاتحة مع الإمام لا تحسب ركعته، مخالفٌ لما عليه جمهور مذاهب المسلمين، فالأئمةُ الأربعة والجمهور على أنَّ من أدرك الإمام راكعًا، فقد أدرك الركعة كلها، وذلك أنه بركوعه قد أدرك أكثر الركعة فأخذ حكم الكل.

وقد أخرج أبو داود والحاكم وصححه: عن أبي هريرة ﷺ أنَّ النبيﷺ قال: «**إِذَا جِئْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ وَنَحْنُ سُجُودٌ فَاسْجُدُوا وَلا تَعُدُّوهَا شَيْئًا وَمَنْ أَدْرَكَ الرَّكْعَةَ فَقَدْ أَدْرَكَ الصَّلاةَ**».

وهذا نصٌّ قاطعٌ في حسبان الركعة لمن أدرك الركوع، وبه يُفهم الاستثناء من حديث لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب، ولعل أن تكون قراءة الإمام له قراءة بإدراكه أكثر الركعة.

قال الترمذي: «**والعمل على هذا - أي احتساب الركعة لمن أدرك الركوع- عند أهل العلم**».

أما في التكبير، فالأفضلُ للمسبوق أن يكبر للإحرام واقفًا، ثم يكبر للركوع، ولكنه إذا خاف فوات الركن وكبر تكبيرة واحدة نوى بها الإحرام والركوع كَفَتْهُ، ولا يُعرف على ذلك مخالفٌ من الصحابة فيكون إجماعًا، وبه قال الأحناف وأحمد ومالك، وطائفة من السلف.

إنشاد الشعر في المسجد :

الذي يعيب على الشعراء المحمديين إنشادَ الشعر الإسلامي في المساجد ، ما عَرَفَ شيئًا من دين الله ، وها نحن أولاء يحضر مجالسنا هذه أئمة الدنيا من علماء مصر وغيرها ، فلا ينكر علينا منهم أحد ، بما استحفظوا من علم الدين ؛ فإنَّ إنشاد الشعر الديني في المساجد سنةٌ مهجورةٌ ، نحن نحييها بحمد الله ، وما كان سنة ثابتة كان تأويله بالبدعة أو تحويله إلى التحريم ، نوعًا من التجديد ، في الجهل بالبسائط ، أو المعلوم من الدين بالضرورة ، أو نوعًا من مجرد التجمد والتعصب الذي لا احتياط فيه ، ولا عزيمة معه ، ولا خير من ورائه .

روى البخاري ومسلم وأحمد : «**أَنَّ عُمَرَ** رضي الله عنه **مَرَّ بِحَسَّانَ وَهُوَ يُنْشِدُ الشِّعْرَ فِي الْمَسْجِدِ فَلَحَظَ إِلَيْهِ ـ أي نظر إليه نظرة إنكار ـ فَقَالَ قَدْ كُنْتُ أُنْشِدُ وَفِيهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ** ـ يريد رسول الله ﷺ ـ **ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَىٰ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ : أَنْشُدُكَ اللهَ – أي أستحلفك بالله – أَسَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ** ﷺ **يَقُولُ أَجِبْ عَنِّي اللهمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ قَالَ : اللهمَّ نَعَمْ**» .

وفي حديث البراء عند البخاري : «**وجبريل معك**» !! وأخرج البخاري -في الأدب- والطبرانيُّ - في الأوسط- قال ﷺ : «**الشِّعْرُ بمنزلةِ الكلامِ ، فحسنُهُ كحسنِ الكلام ، وقبيحُهُ كقبيح الكلام**» .

ولهذا نصب رسول الله ﷺ لحسان في المسجد منبرًا ، يلقي شعره على الناس من فوقه ، وفي هذا نوعُ تكريم ملحوظ يفيد مزيد محبوبية هذه السنة عند رسول الله ﷺ .

أما حديث أبي داود : «**نَهَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُسْتَقَادَ فِي الْمَسْجِدِ وَأَنْ تُنْشَدَ فِيهِ الأَشْعَارُ وَأَنْ تُقَامَ فِيهِ الْحُدُودُ**» فالمراد الأشعار المذمومة الصارفة عن الخير كالهجو ، وذكر النساء ، ونفاق الظلمة ، وتمليق الفساق ، أو تبغيض المشروع وتحبيذ الممنوع ، وما هو من هذا الباب .

قال النوويُّ الشافعيُّ : لا بأس بإنشاد الشعر في المسجد إذا كان مدحًا للنبوة ، أو الإسلام ، أو كان حكمة ، أو في مكارم الأخلاق ، أو الزهد ، ونحو ذلك من أنواع الخير .

وقال ابن العربي المالكي : لا بأس بإنشاد الشعر في المسجد إذا كان في مدح الدين وإقامة الشرع .

ونحو هذا مأثورٌ عن جمهور الأئمة ، وقد سمع رسول الله ﷺ في المسجد شعر كعب وغيره ، وأجاز على هذا الشعر ، كما هو ثابت صحيح في كتب الدين المعتمدة .

فاللغو واللغط حول هذا الموضوع ، إنما هو فراغٌ من العلم والعقل والدين ، وهو تفاهة وفهاهة ، تزيد على مرتبة السفاهة والبلاهة .

القراءة من المصحف في الصلاة :

هذا الذي كان يُلزم نفسه بالقراءة من المصحف في الصلاة من غير حفظ منه للقرآن ، ملزم نفسه ومأموميه ما لا يلزم ، على الأقل ، وليس في دين الله هذا العسر ، والتشديد والتضييق ، والبحث عن الغرائب والشذوذات ، ومثيرات الفتن بين الناس : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج : ٧٨] .

قال أبو يوسف : بلغني عن ابن عباس ، أنه قال في الرجل يؤم القوم ،

وهو ينظر في المصحف ، إنه يكره ذلك ، وقال : إنه كفعل أهل الكتاب ، وقد أمرنا بمخالفتهم .

ونحن نضيف فوق أنه تشبه بأهل الكتاب ، أنه مستوجبٌ للحركة ، لحفظ توازن المصحف بين يديه ، وتقليبه لصحائفه ، ثم وضعه أمامه أثناء أداء الأركان ، ثم عودته إلى أخذه ، وفتحه ، والبحث عن الصحيفة التي كان يقرؤها ، وتحري الآية التي وقف عندها ، مما يتنافى مع الحضور والخشوع والسكون المطلوب للصلاة ، بل مما يؤدي إلى كثرة الحركات التي تفسد بها الصلاة عند أكثر الأئمة .

وقد حكم الأحناف بفساد صلاة القارئ من المصحف في الصلاة ؛ لأن القراءة من المصحف تلقن وتعلم ، ليس من أعمال الصلاة فيفسدها .

نقول : فإذا أضيف إلى هذا ما يكون من الحركات التي ذكرناها آنفًا ، والتي لا تجعل الناظر إلى المصلي يحسب أنه في الصلاة ، كان الحكم بالفساد أحرى وأثبت .

قالوا : وقد جاء في الموطأ : أنَّ ذكوان مولى عائشة كان يؤمها في رمضان وهو يقرأ من المصحف ، ولهذا حكم بعضهم بجواز القراءة من المصحف في الصلاة .

نقول : لو صحَّ هذا لكان فيه نظر ؛ فإنَّ لفظ الموطأ : «**كان يقوم يقرأ لها في رمضان**» ، وهذا النص لا دليل فيه على قراءته من المصحف .

وحتى إنْ صح أنه فعل هذا ، لكان اجتهادًا شخصيًّا منه لا يَستنُّ به غيره ، على أنَّ المعروف أنَّ المصحف لم يجمع في جلد واحد بين دفتين إلا في

عهد عثمان رضي الله عنه على أرجح الأقوال، وجمعه في عهد أبي بكر لم يثبت بالقطع أنه كان في جلد واحد بين دفتين، بل كان أدنى إلى أنه إنما جَمَعَ مُتفرَّقَ أجزاء الأشياء المختلفة التي دونت عليها الآيات.

كما لم يثبت بالقطع أنه كان لذكوان مصحف خاص كمصحف ابن مسعود مثلًا، إلا أنْ يكون من بعد مصحف عثمان، فلهذا جاز أن يكون مفهوم الخبر محتملًا، فلا يصلح به استدلال علمي.

ثم إنَّ ذلك كله على فرض صحته، إنما كان في صلاة النافلة، فلا يجوز تطبيقه في الصلاة المفروضة ففي النوافل تجوز ليس في الفروض.

ثم إنه شيء لم يرد إقراره عن النبي ﷺ ولا فعله كبار صحابته الراشدين، ثم إذا تجاوزنا فهو سنة صحابية، وإذا تعارضت السنة الصحابية مع السنة النبوية، كانت السنة النبوية مقدمة لا محالة. ويكفي هذا والله أعلم.

***

تعليقاتٌ ذاتُ معنى!!
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (١)

عيدُ الأُمِّ والأعياد الأخرى:

مولانا الإمام الأكبر، الشيخ شلتوت شيخ الجامع الأزهر، طالما حمل على مستحدثات الأعياد الدينية، ومنها مولد النبيﷺ واعتبرها بدعًا منكرة، لأنَّ اللّه لم يشرع للمسلمين في رأيه إلا عيدي الفطر والأضحى، أو كما قال!!

ولا تزال بقايا حملاته ترنُّ في الآذان، بتبديع ليلات أجمع المسلمون على فضلها بأدلتهم القاطعة، وخلاصة رأي الشيخ فيما أصدره من كتب، وما ألقاه من كلمات في الإذاعة، أنه لا يجوز لمسلم أن يستحدث عيدًا، أو أن يحتفل بعيد، غير ما حدده الرسولﷺ من الفطر والأضحى، وإلا كان المحتفل بِدْعِيًّا عليه اللعنة يخرج من الملة، ولا يقبل اللّه منه صرفًا ولا عدلًا!!!

وكنت أتمنى أن أسأل الشيخَ عن حكم اللّه في عيد الوحدة، وعيد الجلاء وعيد النصر، وعيد الثورة، والعيد القومي، وعيد الطفولة، وأيام ذكريات أبطال الحرب والسياسة وغير ذلك، حتى استمعتُ إليه في صبح

(١) مقال: غرة ذي الحجة (١٣٨٢هـ)، ٢٥ إبريل (١٩٦٣م)، العدد الخامس، السنة الثالثة عشرة.

عيد الأم، يمجد الاحتفال بهذا العيد، ويستدل على مشروعيته ويبارك الاحتفال به، فهل نفهم من ذلك أنَّ الشيخ رجع عن رأيه، واعتبر صحة جواز استحداث الأعياد، والاحتفال بها ما دامت بواعثها ووسائلها وغاياتها، تدخل تحت حكم شرعي عام، وبهذا يجوز الاحتفال بمولد سيدنا رسول الله ﷺ، ومن وَالاه من رجال الله، كما يجوز الاحتفال بعاشوراء، وليلة الإسراء، ونصف شعبان ونحوها، ولا شكَّ أنها أدخلُ في المعنى الديني مما عداها، وأفعلُ في الروح والنفس مما سواها، ولو كان عيدَ الأم الذي مجَّده الشيخُ، واستفتح يومَهُ بكلماته الهدارة!!

والله لقد حيَّرَنا مولانا شيخُ الأزهر، وحيَّرَ نفسه، منذ جعل علمه تحت الطَلب، ولهذا فإنَّ أحدًا من المحمَّديين لم يعد يجعل لفتاوىٰ مولانا شيخ الأزهر من اعتباره سلبًا وإيجابًا أي نصيب مع الأسف!!

عيد الأسرة لا عيد الأم:

ولأمر ما تهتم الدولة بعيد الأم، وهو يوشك أنْ يكون اليوم عيدًا عالميًا، وكان التفكير السليم يومًا قد اتجه إلىٰ جعله عيدًا للأسرة، بدلًا من قصره على الأم، لأسباب علمية فصَّلناها وفصَّلها غيرُنا من العاملين في الحقل الاجتماعي والتربوي، والمتمكنين من علماء النفس والدين.

وكان من بعض هذه الأسباب، هذه الحسرة والآلام العنيفة التي يجدها يتامى الأمهات في المدارس والبيوت، في هذا اليوم.

إنَّ هذا اليوم مهما فلسفوه وزيَّنُوه وحسَّنُوه، واعْتَاضُوا فيه لليتامىٰ بما سَمَّوه «**الأم البديلة**» إنما هو يومُ الدَّمعِ والأسىٰ لهؤلاء الأطفال أو الفتيان

أو الشباب ، الذين فَقَدُوا الأُمَّ الأصيلة ، وما الأمُّ البديلة إلا تمثيلية هزيلة ، تزيدهم ألمًا وحسرةً ، وتُشْعِرُهم بسخريةِ الحياة وتَهَكُّمِها بهم ، بالتجربة الواقعية المكررة .

فلماذا لا يعود المختصون والمسئولون إلى جعل هذا العيد عيدًا للأسرة ، رحمةً باليتامى أولًا ، ثم لعدم تفكيك الأسرة ثانيًا ، ثم لعدم ترسيب شيء من عدم المحبة أو عدم الاهتمام بالأب في «**اللاوعي**» دون ما قصد ثالثًا ، ثم لإحداث التوازن بين حقيقتي الأمومة والأبوة في نفوس النشء رابعًا ؛ إذ إنَّ اضطراب هذه الحقائق أكبر معول في هدم بنيان الأسرة من القواعد .

إنَّ الأنانية والأثرة وحبَّ السيطرة في فرض هذا المعنى الأبتر الضار ، والاحتفال به ، ليس من مصلحة الأسرة ولا الأمة في قليل ولا كثير .

فكروا أيها السادة ، ودعونا من تفكير السيدات ، وليكن العيدُ عيدَ الأسرة ، حتى تتحقق على الأقل في محيط هذه الاشتراكية التي جعلناها عقيدتنا بعد العقيدة ، إذا لم يكن لكل ما أسلفناه وزن ولا اعتبار ، فإنَّ عيد الأم بوضعه الحالي دكتاتوريةٌ عائلية ، لا هي من الديمقراطية ولا هي من الاشتراكية ، ولا هي من علم النفس ، ولا من علم التربية ، ولا من علم الاجتماع ، ولا من علم الدين! .

وبنات الأزهر أيضًا :

في ملحق «**بناء الوطن**» الخاص بالمرأة هذا الشهر ، نُشرت عدة صور لبنات كلية الأزهر الشريف ، منها صورة للسيدة العميدة برأسها العاري ، وملابسها التي تكشف السيقان ، أما الفتيات فإني أشهد أنَّ الشتاء قد

ألزمهنَّ بعض الحشمة ؛ فلم تظهر السواعد الغضة البضة ، ولا المناطق الغالية في مكامن الأنوثة والإثارة ؛ اكتفاءً بكشف الشعور والسيقان ، أو الإمعان في الإغراء بتغطية هذه السيقان بالشفيف اللطيف من جوارب النايلون الخجلان ، وحواء هي حواء ، وإن تأزهرت!!

تقول محررة المجلة : إنها كانت تتصور أنها ستذهب إلى مجتمع تتألق فيه «**الطرحة البيضاء**» على الرءوس ، وتسترسل فيه الأثواب الفضفاضة على الأجسام ، فإذا هي أمام أحدث المودات ، على أحدث الفتيات . نقول : وهذا مع الأسف الشديد .

ونشهد الله ، أنَّ الصورة الفوتوغرافية التي نقلتها الجريدة ، وفيها تبدو تسريحات الشعور سابقة لأحدث مودلات التصفيف في العالم ، وقد تزاحمت الفتيات بصورة مسرحية حول الأستاذ :

كما يقول الشاعر :

وموقفُ الأستاذِ بَيْنَهُنَّـهْ إمَّا إلى نارٍ وإمَّـا جنَّـهْ!!

كل ذلك جَسَّم أمامنا الخطورةَ التي نخافها من بنات الأزهر ، على الأزهر ، وعلى الإسلام ، وعلى الوطن ، والمجتمع ، والمرأة المسلمة .

فإلامَ ، وعَلامَ ، وحَتَّامَ ، أيها القائمون على هذا الأمر الخطير؟! وسنرى ماذا يكون شأن فتيات الأزهر إذا أقبل الصيف بفتنته العارمة ، وعريه الفاضح وإثارته للغرائز الصغيرة!! أدبا وتدينا يا رب!! علمهما بنات الأزهر!!!

ولكن لا زال في البنات خير:

وبمناسبة ما كتبه «**المسلم**» عن بنات الأزهر، تلقينا رسالة مؤمنة غيورة، من الآنسة المحمدية «**ألطاف محمد**»، تنعي فيها هذه الجرأة على الفضائل من حيث هي فضائل في كل عرف وكل مجتمع سليم، بِغضِّ النظر عن الأديان، وكيف أنَّ أعداءنا تركوا لنا هذا الاحتلال النفساني والمظهري والفكري، الذي هو أخطر من الاحتلال العسكري، وخصوصًا أنَّ الشيطان العالِم يفلسف هذا الاحتلال، ويقدمه في صورة من ضرورات المدنية والحضارة.

وهي تأسف معنا أشد الأسف على ضياع الأمل الذي كان معقودًا على بنات الأزهر، في استحداث بيئة إسلامية نسائية، ووعي عربي أنثوي، يجمع بين مطالب الإسلام في التعفف والتسامي والصيانة، وبين مواريث الشرق في الفضيلة والحشمة والسِّحر، وبين مقتضيات العصر الحاضر، من الأناقة والرقة والذوق؛ فإنه لا تنافي أبدًا بين كل هذا العناصر، فيا ليت بنات الأزهر يفقهون.

وقد طمأننا الله تعالى بهذا الكتاب، على أنه لا يزال في بنات البيوت الكريمة خير.

وإننا نسأل الأزهر أنْ يقدم لنا ما نقنع به بناتنا، وما نعتذر به إليهنَّ، إذا نحن حاولنا إلزامهنَّ المظهر الإسلامي الذي يجمع بين الحشمة والأناقة!! فاحتجوا بأنَّ بنات الأزهر آخر مودة في التكشف والرشاقة بل الحماقة!!

ومن الأستاذ سيد راضي:

وأخونا في الله العالم الورع الداعية الغيور الأستاذ سيد راضي، لا تزال كتبه الشخصية التي يتفضل بتوجيهها إلينا حافلة بنفثات الغيرة الملتهبة على الأعراض المسلمة، وعلى آداب القرآن المضيعة، التي استدبرتها المرأة، بل نبذتها واحتقرتها، وتعمدت «**مرمطتها**» باسم التحرر والانطلاق، والحضارة، وما هو إلا التحلل والاحتراق والخسارة.

وأخونا السيد راضي، يرى أنَّ إفلات زمام المرأة، قد قابله إفلاتُ غضب الله علينا، فابْتُلِينا في أجسامنا بالأمراض، وفي أولادنا بالتمرد، وفي حياتنا بالاضطراب، وفي نفوسنا بالقلق، وفي معاملاتنا بالغش، وفي أموالنا بنزع البركة، وأحاطت بنا النُّذُرُ، فثارت البراكين، وزلزلت الأرض، وتوالت الفيضانات، وانتشرت الأوبئة، ولا عاصم من أمر الله إلا بالعودة إلى أمر الله، وعودة المرأة أولا وقبل كل شيء!!!

مواقفُ مشرفةٌ لشاعرٍ محمَّديٍّ:

وكتب إلينا الأخ السيد محمد نجيب شهاب، يضيف إلى ما كنا كتبناه قبلًا عن الشاعر المحمدي الأستاذ مرسي شاكر الطنطاوي، الذي لقبه السيد الرئيس «**بشاعر الثورات**».

يضيف الأخ أنه لا يمكن أن ننسى ثورة الطنطاوي سنة (١٩٠٣م) لحرمان بنها من المدارس الأميرية، وثورته سنة (١٩٠٦م) بشأن حادث دنشواي، وثورته سنة (١٩٠٨م) احتجاجًا على قانون تقييد الصحافة، وفي سنة (١٩١٠م) احتجاجًا على مشروع مدِّ امتياز قناة السويس، وفي سنة

(١٩١٢م) مطالبًا الخديوي بإعلان الدستور، وأبياته التي قالها في هذا الشأن، مما كاد أنْ يودي بحياته، لولا شفاعة المغفور له محمود باشا شكري.

قال: وفي سنة (١٩١٣م) زُفتْ كريمةُ الخديوي، وكان صداقها عشرين ألف جنيه، وهدايا جدتها تبلغ خمسة عشر ألف جنيه، ونفقات العرس بلغت خمسة وعشرين ألف جنيه، وتقرر لها مرتب شهري قدره ثلاثة آلاف وستمائة جنيه، فقال الطنطاوي هذه الأبيات:

في ليلةِ العُرْسِ كَمْ مِنْ أُسرةٍ دَمِيَتْ أجفانُهَا مِنْ أليمِ الجوعِ والسَّقَمِ

بينا الجنيهاتُ آلافٌ مبعثرةٌ حولَ الموائدِ للنُّدمانِ والحَشَمِ

فيالها صورةً، غَصَّ البيانُ بها غصًّا ينازعُ بين الفكرِ والقلمِ

شخصيةُ سيدنا إبراهيم:

واستجابت رقابةُ التلفزيون لصرخاتنا الموصولة، فمنعت ظهورَ شخصية سيدنا إبراهيم على شاشة التلفزيون، في الحلقات التي يكتبها حسن عبد الله، ويخرجها حمدي فريد، في «**جنة الأطفال**» ولكنها أجازت ظهور من تمثل أمه باعتبار أنها ليست من الأنبياء، وستقوم الممثلة «**علية عبد المنعم**» بهذا الدور!!! ونحن نشكر رقابة التلفزيون قائلين: بعضُ الشَّرِّ أهونُ من بعض.

ماذا فعل الأزهر مع هؤلاء؟!

نشرت صحف (٢/ ٤/ ١٩٦٣م) أنَّ أحد الأزهريين انضم كراقص إلى فرقة «**نللي مظلوم**» ومن قبله نُشر خبرٌ مشابهٌ لأزهري مشابه، وقبله

مَلأت الصحفُ صدرَهَا بخبر الأستاذ الأزهري المغني بفرقة الكورال، ومن قبله آخر، ذكره معروف!!

فما هو موقف الأزهر الشريف، من هؤلاء الراقصين، والمغنين، والممثلين الأزهريين الأشرفين؟!

هل يُعتبر ترخيصُ الأزهر، بتشكيل فرق من طلبته وطالباته للتمثيل والغناء والموسيقىٰ، إجازة لعلمائه وموظفيه في الاشتغال بهذه الألوان من الملاهي أو الفنون بزيادة الرقص عليها بوصفه فنا ملحقًا بها؟ وأنف الشريعة راغم!!

نريد أنْ نعرف موقف الأزهر من راقصيه، وحكم الله تعالىٰ في الرقص الرجالي وتخريج الراقصين، وفيما يترتب عليه، فهل يتنازل الأزهر الشريف بجواب، في هذا الباب، وله الأجر والثواب، وليس من المهم أن يكون الجواب، من الصواب؟!

وعلىٰ فكرة: أَهْدَىٰ السيدُ وزير الأوقاف إلىٰ كلية البنات «**بيانو**» كان معروضًا للبيع ضمن مخلفات مخازن الأوقاف، فاستحق الشكر، علىٰ مذهب من يقول بجواز بيع آلات اللهو والطرب!! وأنف الفقه راغم!!

في برنامج فنجان شاي:

جاءني ولدي في الله، وهو يكاد يتمزق من الغيظ، يقول: إنه سمع أمينة السعيد تقول في هذا البرنامج: إنَّ آخر إمام مجتهد من المشاهير قد مات من ألف عام، ومن ثَمَّ فقد أصبحت آراءُ الأئمة الأربعة قديمة لا تنطبق على الوقت الحاضر... إلخ. وهذه الأَمِينة: لو كانت تعرف ما

هو الاجتهاد وما هي الإمامة، ما هرفت ولا هرأت!!

إنَّ الدين لا يتغير ولا يتبدل بالجدة والقدم، ولا بمجيء إمام وذهاب إمام؛ فإنه لا يزيد الإمامُ الذي تحققت فيه شروط الاجتهاد على أنه مختار مستنبط، لا مستحدث ولا مبتدع، ولو جاء إمامٌ من عند نفسه برأي، أو حاول استحداث ما يُرضي أهواء عصره، دون أن يكون لذلك من الدين سند، لما كان هذا إمامًا مسلمًا أبدًا، فإذا كنتم تطلبون إمامًا يحل حرامًا أو يحرم حلالًا، أو يعبث بالنصوص، أو يحرف في الأصول، فيجيز مثلا التكشف والتعري في الطرقات، ويحل الاختلاط الجنوني باسم التحرر، ويأذن بالإثارة، والتقبيل والعناق في نحو التمثيل، ويقول بخروج المرأة إلى غير محارمها في مثل زينة يوم الزفاف، وبالعري الحيواني على الشواطئ، أو يسمح بتقليد أوروبا فيما يتعلق بالأعراض والأخلاق، والفضائل والمواريث، ثم يسلم بمطلق مساواة المرأة والرجل، ويعطيها حق هجران البيت إلى المجتمع برذائله وانحرافاته دون قيود، إذا كان هذا هو الإمام المطلوب، فلن تجده أمينة السعيد في المسلمين على الإطلاق، ولا بعد أن تمر ألف سنة أخرى!! فلتطمئن!! ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

تحديد النسل في هيئة الأمم:

رفضت كُلُّ الدول الكاثوليكية والشيوعية، الاقتراح الذي عُرض في الأمم المتحدة، بأنْ تتولى هيئة الأمم، مهمة تحديد النسل في جميع البلاد، واعترضت أسبانيا على الفكرة، وقالت إنَّ هذا معناه التشجيع على جريمة الإجهاض والتعقيم والقتل... إلخ.

هذا ما نقلته الصحف في (١٤/ ١٢/ ١٩٦٢م) ومعناه أنَّ هذه الدول المتقدمة المتحضرة، ترىٰ أنه من الممكن علاج كثرة النسل بغير التحديد، وقد سبق أن نشرنا للأستاذ محمد التابعي في «**المسلم**» كلمة عارض فيها تحديد النسل، ووجه فيها إلى الجوانب العملية التي يمكن استغلالها لمواجهة ما يُنتظر من زيادة في الناس، ومن ذلك استصلاح ملايين الأفدنة في الصحاري والوديان، والاستكثار من المصانع على اختلاف أنواعها ومنتجاتها، واستخدام الأساليب العلمية في مضاعفة المحاصيل إلىٰ غير ذلك، وبهذا نحتفظ بهذا العدد البشري الذي يزيد الدولة قوة ومهابة، ولا نجترئ على المقررات الدينية، ولا نفتح ثغرات اجتماعية خطيرة، وخصوصًا أنَّ ما يُعتمد عليه في تحديد النسل هو الحبوب والأقراص الخاصة، وهي سلاحٌ ذو حدين، بل إنه سببٌ أكيد في إشاعة الانحلال، والتفريط في الأعراض، كما سبق أنْ فصَّلنا ذلك ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

أدركوا يا خصوم القباب!!

قالت «**الأهرام**» إنَّ هيئة مصر الجديدة، ستبدأ في بناء أكبر سيرك في الشرق العربي، وسيكون قطر «**قبة قاعة السيرك**» ستين مترا لا غير!!

ومعنىٰ هذا أنَّ أكبر قبة في الشرق العربي ستبنىٰ في مصر الجديدة لا علىٰ مكان مقدس، كما يهرف به بعضهم، ولكن للاستعراضات، والمصارعة والملاكمة، والزحلقة على الجليد. . . إلخ.

وعند الوهابيين، والمتاجرين بالسنة النبوية، أنَّ بناء القباب وثنية صارخة وكفر عملي، ولهذا كان أول ما عملوه يوم فتحوا مكة والمدينة، أنْ حَطموا قباب السادة فيهما، وقد كانت من بدائع فرائد فن العمارة في

الدنيا، ولا يُرجىٰ أن يكون لها نظير، كما حاولوا غير مرة هدم القبة النبوية، وكما يتوقح سفهاؤهم وبرادعهم في مصر بِتَمَنِّي هدم قباب أهل البيت وأولياء الله. ولقد حاججناهم بأنَّ القباب شيء لا يتعلق بالعقيدة، فهي اليوم معقودة على المسارح والصالات، وبيوت المترفين وغيرها، ولا يعبدها، من دون الله أحد، فإنما هي سقفٌ معماريٌّ ثبتت قوة احتماله، وصموده لعوامل الأجواء المختلفة حتى استعمل في المخابئ الحربية، والمصانع الكبرىٰ، لكنهم هكذا جمدوا، وتعصبوا دون وعي ولا إدراك ولا برهان، فما هو رأيهم الآن في هذه القبة الهائلة التي ستكون على سيرك للألعاب؟ أفلا يعقلون؟

تحية إلى قاضي باريز:

أصدر قاضي «**باريز**» حكمه على أربعة من شباب «**جمس دين**» المخنث، بحلق شعورهم، وتغيير ملابسهم وإنذارهم بالحبس إذا عادوا إلىٰ ميوعاتهم وتخنثهم.

فلا بُدَّ من تحيةٍ لهذا القاضي الباريسي، الذي نتمنىٰ أن نرىٰ عشرات من أمثاله في القاهرة، حتىٰ تنمحي منها النذالة والتميع الرخيص، والأنوثة الخانعة الشائعة بصورة وبائية بين شباب الشرق، تقليدًا منه لشباب الغرب، مع الأسف الشديد.

المغني يُخْصَى جزاءً وفاقًا:

هذه القصةُ حضرتني الآن بمناسبة ما!! فأنا أُهديها لقُرَّاء «**المسلم**» في آخر كلمتي بهذا العدد، فهي من خير ما يجب أن يعرفه المسلمون، ومن خير ما يُهدىٰ من تاريخهم إليهم.

ذكر أبو الفرج الأصبهاني ، أنَّ الخليفة الأموي ، سليمان بن عبد الملك ، دعا من الليل بوضوء ، فجاءته به جارية ، وبينما هي تصبُّ له الماء ، إذ أخذتها سهوةٌ طويلة وهو يمدُّ يده في انتظار الماء ، فلحظها ، فإذا هي تستمع إلى صوت رجل يغني في العسكر ، بشعر أهل الغزل ، الذي نسميه في أيامنا هذه الشعر العاطفي .

فلما أصبح الصبحُ أمر الخليفة فجيء بالمغني ، ثم أمر فجيء بالحجام ، ليَخْصِي هذا المغني!! فشفع عمر بن عبد العزيز فيه ، فردَّ الخليفة شفاعة عمر ، وقال : يا عمر هذا رسول فسق وفتنة ، إنَّ الفرس ليصهل فتستودق الحجر له ، وإنَّ الجمل ليرغى فيضبع له الناقة ، وإنَّ الحمام ليهدل فتزف له الحمامة ، وإنَّ الرجل ليغني فيفسد من المرأة ما لا يصلحه شيء ، «**وقد صدق**» .

ثم أمر الخليفة أن يكتب إلى جميع عماله على الأمصار ، ألا يَدَعُوا مغنيًا بالغزل إلا خصوه ، فلم يُسمع بعدها صوت يتغنى إلا بما هو العزة والمجد والخير والدين!!

اللهم فابعث فينا مثل سليمان بن عبد الملك ؛ فقد طفَّ الصَّاعُ .

وبلغ السيلُ الزُّبى!! وأنت المستغاث ، وبك المستعان .

***

في أمواج بحار التصوف المستنير[١]

على بركة الله وبتوفيقه نبدأُ بهذه الكلمة ردودَنا، على بعض ما لدينا من استفسارات صوفية على مستوى طاقتنا، معتذرين لإخواننا، طامعين في الله أن يهيئ لنا سبيل الصَّواب فيما نعالج من موضوعات؛ حتى ننتهيَ من أكثرها أهمية، إن شاء الله، فاللهمَّ توفيقًا وغُفْرًا.

على باب الله وحده:

حضرتني هذه الاستغاثة مساء يوم عاشوراء من المحرم سنة (١٣٨١هـ)، وأنا مضغوطٌ مثقَلٌ بِهَمٍّ هائل، ووهم قاتل، وقد أفاضها الله عليّ؛ فتوجهتُ إليه بها عند السحر، فانشرح صدري، وقُضي أمري، فكانت توجيهًا ربانيًا من القَدَرِ لمدافعة القَدَرِ، ولا أجدُ ما أهديه إلى قُرَّائي في مفتتح هذا العام، إلا هذه الاستغاثةَ المجربة، وقد كان بعض الإخوان يتناقلها بخاصة، فهي الآن للكافة والله المستعان:

«اللهمَّ إني أتوسلُ إليك بذاتك وصفاتك، وأتوجهُ إليك بغيوبك وأسرارك، وأسألك باسمك الأعظم الذي إذا دُعيتَ به أجبت، وإذا سُئلت به أعطيت، وأسألك بأسمائك الحسنى كلها، ما علمتُ منها وما لم أعلم، وأسألك بكلِّ اسم هو لك، سميتَ به نفسك، أو علَّمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابٍ من كتبك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، وأسألك بما سألك به الأنبياءُ والمرسلون، والملائكةُ المقربون،

(١) مقال: غرة المحرم (١٣٨٣هـ) - ٢٤ مايو (١٩٦٣م)، العدد السادس- السنة الثالثة عشرة.

والعبادُ الصَّالحون، وأسألك بمن تحبُّ أنْ تُسأل به، وبما تحبُّ أنْ تُسأل به، مبتهلًا إليك أنْ تصليَ على سيدنا محمد وأمته، وأن تكشف عني الكرب والبلاء، وتصرف عني السُّوء والفحشاء، وترزقني الشفاء من كل داء، وتثأر لي بجبروتك من الخصوم والأعداء، وتعصمني بقدرتك مما أتوقع وأتوجس، وتحفظني بقوتك ممن أخاف وأخشى، وتغسل قلبي ونفسي ببركتك من أهوال الوساوس والأوهام، وسوء الخواطر والأحلام، ومسببات الهموم والآلام، اللهمَّ بك أتوسل إليك، فاربط على قلبي باليقين منك، والأمل فيك، والإيمان بك، والاعتصام بحبلك، والاستمساك بعروتك، والثقة في خفي لطفك، يا من يجيب المضطر إذا دعاه، يا من يكشف السوء عمن ناداه، يا غياثَ المستغيثين أغثني (٣) يا أرحمَ الرَّاحمين ارحمني (٣) يا لطيفًا بالعباد لا تفضحني (٣) اللهمَّ لا تفجأني ولا تفجعني (٣) اللهمَّ الطفْ بي فيما جرت به المقادير، اللهمَّ ادفع عني إنك على كل شيء قدير، اللهمَّ كما سترت ما مضى برحمتك فاستر ما بقي بنعمتك (٣) يا عالم السرِّ منَّا لا تكشف الستر عنا، وعافنا واعفُ عنا، وكن لنا حيثُ كنا (٣) يا حيُ يا قيومُ يا بديعَ السَّماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظَّالمين (٣) اللهمَّ نجني من الغَمِّ وكذلك تُنْجي المؤمنين (٣) يا من لا تنفعُهُ طاعتي، ولا تضرُّهُ معصيتي، ولا حاجةَ به لعذابي، ولا حُجَّةَ لي إليه، ولا عذرَ لي بين يديه، أسألك بضعفي وانكساري، وذلِّي وافتقاري، أنْ تتقبل مني وتستجيب لي، وتخفف عني، ولا تعاملني بعملي، اللهمَّ اقضِ حاجاتي وأنت بها أعلم (٣) يا

واحدُ يا أحد، يا فردُ، يا صمدُ، يا من لم يلدْ، ولم يُولد، ولم يكن له كُفُوًا أحد، ثبتني اللهمَّ بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولا تكلني إلى نفسي طرفةَ عين ولا أقلَّ من ذلك، ولا تلجئني بفضلك إلى أحد سواك، يا الله يا الله يا الله، يا كاشفَ الضُّرِّ والبلوى، يا سامعَ الحقِّ والدعوى، يا مَنْ إليه منتهى الشكوى، اللهمَّ علمُكَ بحالي حسبي عن سؤالي (٣) يا من يكفي عن كل أحد، ولا يكفي عنه أحد.

إلهي: هذا دعاءُ النادمِ المعترفِ بالخطيئة، فلا تخذلني.

إلهي: هذا مقامُ العائذِ بك من القطيعة، فلا تقطعني.

إلهي: هذا نداءُ اللائذِ بحماك من الفضيحة، فلا تفضحني.

أنت غياثي، فبك أغوث، وأنت ملاذي، فبك ألوذ، وأنت عياذي، فبك أعوذ، اللهمَّ إني أعوذ بك من خزيك، وكشف سترك، ونسيان ذكرك، والانصراف عن شكرك، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين (٣). سبحانك اللهمَّ: أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، لا أُحصي ثناءً عليك. أنت كما أثنيت على نفسك، فتقبلْ مني، واستجبْ لي، ببركة بسم الله الرحمن الرحيم (الفاتحة) وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد (٣) وصلِّ اللهمَّ وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وتابعيه وأمته إلى يوم القيامة، واجزه عنا ما هو أهله، وما أنت أهله، يا رب العالمين»

(انتهى).

عبادةُ رابعةَ، لا رغبًا ولا رهبًا :

أثار الشيخُ سعاد جلال الأستاذُ بالأزهر هذا الموضوعَ في «**الفذلكة**» التي يكتبها في بعض ركن من جريدة الجمهورية، ومِنْ قبله أثار الموضوعَ غيرُ واحد من الحرفيين السطحيين أو المغلقين المغلفين[1]، وقد ردَّ أخونا في الله، السيد أبو البقاء المحامي، على الأستاذ سعاد في غير هذا المكان من «**المسلم**» .

وإتماما لهذا الموضوع وحسمًا للجاجة فيه نقرر أنَّ تعبير القرآن عن الأنبياء صلى الله عليهم وسلم بأنهم يدعون ربهم رغبا ورهبا، فيه تقريرٌ للحالة الغالبة على مجموعة الناس، وهي التي ينبغي أن يكون عليها القياس، وهذا لا يمنع أبدًا لا شرعًا ولا عقلًا ، من أن تكون هناك حالاتٌ خاصة، يدعو فيها الأنبياءُ مولاهم دعاءً حنيفيًّا خالصًا مخلصًا متساميًّا، لا نظرَ فيه إلى شيءٍ غيره تعالى؛ شكرًا له، لأنه أهلُ الشكر، أو تقربا إليه لأنه أهل القرب، أو حبًّا فيه، لأنه وحده المستوجب لأشدِّ الحب، أو عبودية مجردة، لأنه الحقيق بالعبادة والتقديس المطلق .

ليس هناك مانعٌ شرعيٌّ ولا عقليٌّ - إن لم يكن هناك دافعٌ شرعيٌّ وعقليٌّ - من أن ينفرد الأنبياءُ بربهم في لحظات التجلي والتسامي، يتعبدون له من غير انفعال بعوض من رجاء الجنة، أو النجاة من النار، أدبا مطلقا في مقام القدس الأعلى : ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام:٩١] .

ويتعبدون له عبادة مطهرة من أدران شرك النظر إلى غيره، مما هو محل طمع أو فزع، ترفعًا عن مستوى الجمهور إلى مستوى الخصوصية : ﴿هُمْ

---

(١) كذا بالأصل ولعلها : المغفلين .

دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣]، ويتعبدون له ترفعًا بمعاملته عن فرض المعاوضة عليه، أو إلزامه بالاتجار بما افترضه بحقِّ الألوهية على عبده، على مقابل من عبادة لا يدري العبدُ مدى رتبتها من القبول أو الرفض.

ويتعبدون له استمتاعًا بلذة العبودية في مقام التفويض الأعظم، لليقين المستوثق بأنه تعالى لن يضيع عمل عامل، فيلتفت العبدُ من طلب الثمن المضمون إلى طلب الأمل المأمول، مما هو أسمى وأعلى، من نحو الاستمتاع بلذة العبودية المجردة، والقيام بالواجب المطلق، مقدَّسًا عن كل معنى آخر صغر أو كبر.

إنه لم يصل إلى علمنا قط، ما يقطع بامتناع وقوع هذا المقام للأنبياء، ولم يأت في القرآن ولا في السنة أبدًا - فيما نعلم - ما ينفي وقوعَهُ منهم، أو ما يجعله نقيصةً في حقهم، يتعين تبرئتهم منه، ولا ما يوجب التزامَ التسوية الأبدية بينهم وبين الكافة، في قصر عباداتهم على مستوى الرغب والرهب ليس إلا.

ومعروفٌ أنَّ الاتصاف بشيء، لا يستوجب عدمَ الاتصاف بغيره مما لا يضاده ولا يناقضه، بل إنَّ الاتصاف بالشيء، أجدرُ بحكم التسامي فيه والاندماج معه، والترقي في مراتبه الكمالية، والكمالُ لا يتناهى.

فالعبادةُ شكرًا أو قربًا أو حبًّا أو عبودية، أو حتى تجريدًا مطلقًا، لا تنافي العبادةَ رغبًا ورهبًا، بل إنما هي ثمرةٌ طبيعية لها، وتدرجٌ عاديٌّ في معارج اقتضاء إخلاص التوحيد والعبادة لِمَنْ هو أهلٌ لإخلاص التوحيد والعبادة، فأقلُ ما في هذا المقام هو البعدُ عن دنس الشرك الخفي، بالنظر في العبادة إلى شيء آخر مع الله، غير عبادته.

وهذا هو مفهوم أهل هذا المقام من قوله تعالى : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥] ، فالعبدُ عبدٌ وشأنه أن يطيع فقط ، فإنَّ من المفروغ منه أنه لن يفوته أحدُ مقامي العدل أو الفضل ، وليس من الثقة بالله أن ينشغل العبدُ بما تكفل به مولاه له ، بل عليه أن يجرد العمل من أسباب الشرك بالنظر إلى العوض والمقابل ، وأنْ يخلص العمل فلا يريد به إلا وجه الله ، وفي الحديث :«**إن أحدا لن يدخل الجنة بعمله**» ، فالنظر إلى العمل هنا ـ ومن الخاصة بصفة خاصة ـ مزلقٌ من أدق المزالق في مقامات السلوك ، وربما كان من سوء الأدب أن يطلب العبد مقابلًا على عمل لا يدري أيثقل به ميزانه أم يخف .

إذن فالنجاةُ والاحتياطُ أن يقوم العبدُ في مقام العبودية بما كُلف به ، ثم يدع ما وراء ذلك لمن لا يظلم الناسَ شيئًا ، وحسبه أنه تعبد لمن لا يكون غيره أهلًا للعبادة ، وحسبه أنه تمتع بعبوديته ، دون نظر إلى شريك مع المعبود .

وفي الحديث الثابت : إنَّ الله تعالى يتجلى على أهل الجنة بالنظر إلى وجهه الكريم ، ومعنى هذا أنَّ هناك شيئًا أسمى من الجنة ، يجوز أن يتمناه العبد العاقل بعبادته ، وفي الذكر الحكيم لهم : ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] فأي مانع شرعي أو عقلي يمنع من طلب هذه الزيادة يقينًا بأنَّ طلبها متضمنٌ قطعًا ما قبلها من حسن الثواب .

ومن ذا الذي استطاع أنْ يقطع بحقيقة هذه الزيادة ، ويتحكم في تفصيل ما تشمله من غيوب ومساتير ، وأسرار ومباهج ومواهب .

يقول العارفون بالله : إنَّ قومًا يعبدون الله عبادة الفجار ، فلولا خوف النار ما عبدوه ، وقومًا يعبدونه عبادة التجار ، فلولا الطمع في كسب الجنة ما عبدوه ، وقومًا يعبدونه عبادة الأحرار ، فهم يقومون بواجب الشكر والتحميد ، وقومًا يعبدونه عبادة الأبرار ، فهم يقومون بواجب الخدمة والتمجيد .

وأولئك قد تخطوا مقام : ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥] .

وفي الأثر : أنه كان للرسولﷺ ساعة مع ربه ، لا يسعه فيها نبي مرسل ولا ملك مقرب ، ترىٰ هل هذه الساعة الخاصة كانت موقوفة علىٰ عبادة الرغب والرهب ، والعمل بالثمن والمعاوضة ، وتصفية حساب «**منه وإليه**» .

فإنْ تفهمْ فكُنْ مَعَنَا وإلا فاتركِ المعنىٰ

غفر الله لأمثال الشيخ سعاد جلال ، وأذاقهم لذة التدرج في طلب الكمال ، وفتح بصائرهم علىٰ مدركات ومفاهيم أهل الحق في مختلف المقامات والأحوال ، وأخذ بحجزهم عن نار القشرية والسطحية ، والتجديد في التقليد أو التقليد في التجديد ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن : ١١] ، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[الأنعام : ١٢٥] .

من تاريخ الفتيان والتصوف :

مجمل ما جاء عن نظام الفتوة عند ابن الأثير وابن بطوطة ووصفائهم ، أنه كان يجمع بين نظام الأصناف -أي النقابات- والتصوف والعسكرية ، والخدمة العامة ، وقد وجد نظامُ الأصناف بعد التصوف ، وقبل الفتوة ، فجَمعت الفتوةُ هذه النظم جميعًا ، ثم تلاشت في التصوف الإسلامي المحض بعد أن عاشت نحو ثلاثة قرون ، وقد كتب في نُظم الفتوة

والصعلكة غير كاتب ، ولكننا هنا نكتفي بما هو أدخل في الجانب الصوفي وحده بقدر الإمكان .

ولقد كان الخليفةُ الناصر العباسي في القرن السادس أولَ من نصب نفسه نقيبًا أعظم على الفتوة ، ولبس سراويلها ببغداد ، وقصرها على أشراف الناس .

وكذلك لبسها الملك العادل ابن أيوب وأولاده ، وجماعة أخرىٰ من الملوك ، وسلاطين الولايات الإسلامية وأمرائها بين القاهرة ودمشق وبغداد .

ومعروفٌ أنَّ الخليفة الناصر استطاع أن يُعيد الخلافة إلى استقلالها بعد خضوعها أكثر من قرنين لآل بويه والسلاجقة من بعدهم ، وقد وضع للفتوة تقاليدَ خاصة ، كارتداء المريد سراويلها في اجتماع ، وأن يشرب من كأسها الماء المالح ، وأنْ يخضع للإرشاد الرُّوحي لأحد الأعضاء ، ومن شرطهم في المريد ؛ الصدقُ ، والأمانةُ ، والأريحيةُ ، والعدلُ ، والزهدُ ، والشهامةُ ، والتدينُ المطلق ، والعلم .

ويتكون لكل مرشد طائفة وتجتمع الطوائف في البيت ، الذي يُعتبر رئيسه نقيبًا وترجمانًا يشرح وسائل الهيئة وأغراضها واصطلاحاتها وتقاليدها ، ولكل عدد من البيوت زاويةٌ ، كما لا يزال هذا جاريًا للآن عند بعض الطرق .

ويُعقد لمن يصلح للترقية من الرُّفقاء حفلٌ يُشَدُّ فيه على وسطه حزامٌ وعلى أكتافه ، فإذا صلح ترقىٰ إلى الرتبة التالية وأُلبس السراويل ، وهكذا حتىٰ يؤذنَ بالإرشاد .

وقد انتشرت الفتوة في جميع الدول الإسلامية، حتى رآها ابنُ بطوطة بعد ذلك بقرنين في الأناضول، وعَرف أنها تَنسجُ على منوال النقابات في بعض نظمها، وكان لها شِعارٌ يحمل على الورع والتُّقى، هو الكأس والسراويل.

وكان أكثر الرفاق من طائفتي العباسيين والعلويين ومن يشايعونهم؛ لانتسابهم إلى جدٍّ واحد، ويُطلق اسمُ الرفاق على القادة.

وقد ذكر ابن جُبير أنه وجد الفتوة على غاية النشاط في الشام، بعد أن خضعت لصلاح الدين، وكان لها أثرها في طرد الصليبيين.

وقد قابل الغربيون من الصليبيين في الأراضي التي كانوا يحكمونها في الشام، نظامَ الفتيان بنظام الرهبان الفرسان في جمعية القديس يوحنا، وقد نقلوا نظام الفتوة وجمعوا فيه بين نظام الفروسية والرهبنة، وجعلوا غرضه إحرازَ الجدارة الرُّوحية في حربٍ لإبادة المسلمين، وكانت لهم أموال وأملاك ونفوذ هائل في تنظيم وإمداد الحروب الصليبية.

ومن أنظمة الفتوة تربيةُ العضو ومحاسبته إذا ما حاد عن المثل الأعلى، ولا يحكم بإبعاده وتجريده إلا إذا ارتكب كبيرة، وثبت عدمُ إمكان إصلاحه إلا بالتجريد، على شرط أن تُترك له فرصة التقويم والدفاع عن نفسه بكل الوسائل.

وقد ذكر ابنُ بطوطة روعته من سلوك الفتيان وقال: «**لم أر في الدنيا أجمل انفعالًا منهم ولا أعظم إكراما للغريب**» -وفي ذلك دعاية كبرى للوطن- كما راعه حسنُ الأماكن التي يجتمعون فيها وأناقتها، كما ذكر أنهم

كان يستهمون في عمارة الزاوية والطعام فيها، والاجتماع بها، ويخدمونها بأنفسهم وإن علت مراكزهم.

وقد تكلم القُشيريُّ وغيره عن الفتوة كمرتبة من مراتب التصوف العسكري في الإسلام، وبيَّن أنَّ شرطها؛ أن يكون العبد أبدًا في أمر غيره مفوضًا إلى ربه... إلخ.

حكمُ تكفير المسلمين وتشريكهم:

يتميز المتمسلفة بالإصرار الوقح على سب مخالفيهم ولعنهم ورميهم بالكفر والفسق والشرك وغير ذلك، مما لا يساير البتة رُوحَ الإسلام، ولا أدبَ المسلمين، وهو يخالف قواعدَ المناظرة، وأصولَ البحث، ومبادئ الكتابة والخطابة بقدر ما ينافي تمام الإيمان.

ففي الترمذيِّ عن ابن مسعود، قال الرسولﷺ: «**لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلا اللَّعَّانِ وَلا الْفَاحِشِ وَلا الْبَذِيءِ**».

وفي الصحيحين: «**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**».

وفي مسلم عن ثابت بن الضحاك، قال الرسولﷺ: «**لَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ**».

وفيه عن أبي الدرداء عنهﷺ: «**لا يَكُونُ اللَّعَّانُونَ شُفَعَاءَ وَلا شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

وفي الصحيحين ـ واللفظ لمسلم ـ عن أبي ذر عنهﷺ: «**وَمَنْ دَعَا رَجُلا بِالْكُفْرِ أَوْ قَالَ عَدُوَّ اللَّهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلا حَارَ - أي رجع الإثم - عليه**».

وفيهما عن عبد الله بن عمر قال الرسولﷺ: «**أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لأَخِيهِ يَا**

كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ وَإِلا رَجَعَتْ عَلَيْهِ» .

ومن عجب أن يكفر هؤلاء خَلْقَ اللَّه بحمقهم، والسَّلفُ من الصحابة والتابعين - حتى ابن تيمية- لم يكفروا الخوارجَ مثلًا، وهم الذين استحلوا دماءَ المسلمين وأموالهم وجعلوا بلاد المسلمين بلاد حرب وبلادهم بلاد إسلام «**شأن الوهابيين سواء بسواء**» .

ولم يكفروا فرقة «**القَدَرِيَّة**» القائلة بأنَّ اللَّه لم يُقَدِّر العصيان والهداية، ولا هو يَقْدِرُ على ذلك، وإنّ المسلم من جعل نفسه مسلمًا، والمصلي من جعل نفسه مصليًا، فلا قدرة للَّه ولا مشيئة له - عياذًا باللَّه - ولا فرقتهم القائلة بأنَّ الطاعة والمعصية أمرٌ قهريٌّ في الإنسان، كالبياض والسَّواد فيه، ولم يحكم أحدٌ بردتهم، ولا بردة المرجئة الذين يقولون: إنَّ الإيمان قولٌ بلا عمل، فلا صلاةَ ولا غيرها تُتَمِّمُه، بل لقد صلَّى الإمامُ أحمد خلف بعض أئمة الجهمية، واستغفر لهم وترحم عليهم، وهم الذين يقولون: ليس على العرش إلهٌ يُعبد، وليس في الأرض للَّه كلام ولا له صفات، وإنَّ ظاهر القرآن والسُّنة لا يُحتجُّ به في معرفة اللَّه، حتى كان عبد اللَّه بن المبارك يقول: إننا لنحكي قول اليهود، ولا نحكي قول الجهمية، ومع هذا لم يسحب أحد على مقتوليهم ولا أمواتهم حُكْمَ الردة، بل غسَّلُوهم وكفنوهم وصلوا عليهم.

وكل ذلك مأخوذٌ من السُّنة المطهرة؛ ففي الطبراني عن عبد اللَّه بن عمر عنه ﷺ قال: «**كُفُّوا عَنْ أهلِ لا إله إلا اللَّه، لا تكفِّرُوهمْ بذنبٍ، فمَنْ كفَّرَ أهلَ لا إله إلا اللَّه فهو إلى الكفرِ أقرب**» .

وفي أبي داود عن أنس بن مالك عنهﷺ قال : «**ثَلاثٌ مِنْ أَصْلِ الإِيمَانِ الْكَفُّ عَمَّنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَلا نُكَفِّرُهُ بِذَنْبٍ وَلا نُخْرِجُهُ مِنْ الإِسْلامِ بِعَمَلٍ وَالْجِهَادُ مَاضٍ مُنْذُ بَعَثَنِي اللهُ إِلَىٰ أَنْ يُقَاتِلَ آخِرُ أُمَّتِي الدَّجَّالَ لا يُبْطِلُهُ جَوْرُ جَائِرٍ وَلا عَدْلُ عَادِلٍ وَالإِيمَانُ بِالأَقْدَارِ**» .

وقد جاء في مسلم : «**أنَّ خالدًا استأذن النبيَّﷺ في قتل منافق فأبى النبيُّﷺ وقال : لعله يصلي ، فأوضح خالدٌ للنبيِّ رأيه فيه ، فقال النبيُّﷺ : لم أُومر أنْ أنقب عن قلوب الناس ، ولا أشق بطونهم . وروىٰ الشافعيُّ وأحمدُ نحو ذلك ، عن رجل من الأنصار استأذن في قتل منافق ، فمنعه النبيﷺ قائلا : أليس يشهد ألا إله إلا الله**» ؟

وفي الحديث عنهﷺ قال : «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَقُولُوا لا إِلَهَ إِلا اللهُ فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**» . رواه البخاري ومسلم وأحمد ، وحقها هنا ألا يأتي المسلم قولًا أو عملًا ، هو كفر أو شرك صراح ، لا شبهة به على وجه ، ولا شك فيه باجتهاد أو تأول .

هـذا وفي المتفـق عـليه عن عائشة عنهﷺ : «**إنَّ الله رفيقٌ يحبُّ الرفقَ في الأمر كله**» .

وروىٰ مسلم عن جرير بن عبد الله قال سمعت رسول اللهﷺ يقول : «**مَنْ يُحْرَمْ الرِّفْقَ يُحْرَمْ الْخَيْرَ**» . والرفق في الحديثين عام شامل ، فهو يضم الرفق في القول والعمل ، والفهم والإفهام وغيره ، وهو قولهﷺ : **أرسلت بالملة السمحة الحنيفية** . أو كما قال .

وعليه حديثُ البخاريِّ عن أبي هريرة قال: «**قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِي الْمَسْجِدِ فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ فَقَالَ لَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ دَعُوهُ وَهَرِيقُوا عَلَىٰ بَوْلِهِ سَجْلا مِنْ مَاءٍ أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**» .

ولذلك كان ما جاء في المتفق عليه عن عائشة: ما خُير رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثما. وكان يقول: **يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا**.

ومنه يُفهم سرُّ الترغيب فيما رواه الترمذي عن ابن مسعود عنه ﷺ أنه قال: «**ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار؟ تحرم على كل قريب هين لين سهل**» .

فتلك هي روح الإسلام، تيسير ورفق في حدود المباح، لهذا قال ﷺ فيما رواه البزار: إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض لنفسك عبادة الله فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى وأيد ذلك بقوله في رواية البخاري: إنَّ الدين يسرٌ ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا. وتأمل معنى سددوا وقاربوا وما فيهما من التيسير والتوسعة.

وعليه ما جاء في السنن عنه ﷺ: «**هلك المتنطعون**» وقوله: «**ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم**» . وعليه قوله لمعاذ حين أغرق في إطالة الصلاة: «**أفتان أنت يا معاذ**» على أنَّ معاذًا لم يجترح ما اجترحه هؤلاء من تعسف وتشديد، وتمذهب يفضي إلى التجهيل والتعطيل والتضليل، ولأمر ما قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

ولأمر ما رضي النبيُّ عن الجارية التي سألها أين اللَّه؟ فقالت: في السماء. فأمر بعتقها وشهد بإيمانها كما جاء في الصحيحين.

فتلك هي روحُ الإسلام وتعاليم رسوله الأعظم ، نسرد بعضها سردًا سريعًا تطمينًا وهداية وتحقيقًا ، لا يرقى إليه تجريح بتصريح ولا تلويح ، عسى أنْ يحفظ هؤلاء الناس ألسنتهم من المجازفة برمي مخالفيهم بالشرك والكفر والفسوق والعصيان .

ولعلهم إلى كل ذلك أقرب من جميع المسلمين .

***

حول قضية الاسم الأعظم بين الجمل والكلمات والحروف[١]

كانت مجلة «**المسلم**» قد نشرت خبرًا عن رسالة جيب خفيفة، وضعها الأخ المرشد الراشد الأستاذ محمود أبو الفيض المنوفي، وجمع في هذه الرسالة حظًّا مما وفقه الله إليه من الأدعية التي ورد أنها تشتمل على الاسم الأعظم.

ثم تفضل الأخ الموفق السيد عباس زكي الوزير السابق، فأهدىٰ إخوانه في الله رجال العشيرة طائفة من هذه الرسالة، فعدنا إلى الإشارة إليها شكرًا لمهديها.

وقد كان لهذا وهذا أثره في بعض الأوساط، التي لا تؤمن بإيمان الصوفية الصحيحة، أو التي تؤمن بإيمان صوفي علىٰ مفهوم مستقل بها، أو التي لا تؤمن بما يكون مصدره الصوفية على العموم، مهما ارتفع مستواه التحقيقي، ومهما صح منهجه العلمي الأصيل.

وكان من آخر مَنْ تعرّض لهذا المقام عالم فاضل كبير، في مجلة إسلامية مكافحة فنفىٰ أن يكون لله اسمًا أعظمَ، وقال: إنَّ كل ما ورد فيه ليس بصحيح، دون أن يذكر حُجَّةً علمية واحدة تؤيد هذا الحكم الخطير، ثم رمى السادة القائلين بهذا من أئمة السَّلف والخلف بالسذاجة، وعاد فقرر أنَّ جميع أسماء الله عُظمىٰ، وأنه تعالىٰ يجيب إن شاء، ويكشف السُّوء إن

---

(١) مقال: غرة صفر (١٣٨٣هـ) -٢٣ يونية (١٩٦٣م)، العدد السابع - السنة الثالثة عشرة.

شاء، ثم ختم هذا الهجوم العنيف بقوله وكل ما قالوه لا يعجبني، وهو خال من التحقيق .اهـ .

وكان لا بُدَّ بعد كل هذا من ردٍّ يضعُ الأمر في نصابه -إن شاء الله- ولا ندّعي العصمة، ولكننا نقول ما يعجبنا بدليله، كما قال هؤلاء ما أعجبهم بغير دليل، وسنقوله دون تعصب، ولا تحيف، ولا تورك على الناس .

الدليل العقلي:

وبين يدي الحديث، نسلم مقدمًا، بأنَّ جميع أسماء الله عُظمىٰ، ومن قال بغير ذلك ما عَرف الأدبَ مع الله، ولا عَرف الأدب مع العلم!!

رجلٌ سأل أبا يزيد البسطامي، عن اسم الله الأعظم، فقال: أرني الاسم الأصغر حتىٰ أريك الاسم الأعظم!!

ومعنىٰ هذا أنَّ الصوفية يؤمنون بعظم كافة أسماء الله ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨١] بيدَ أنَّ التفاضل في العظمة، لا يجعل منها صُغرىٰ وكُبرىٰ، ولكنْ يجعل منها عُظمىٰ وأعظم منها، تدرجًا في مراتب الكمال المتعين في موضعه، فَسُنَّةُ الأمور كلها التفاضلُ بحكم ناموس الكون الثابت، وقانونِ معقولية الأشياء، وقد فضَّلَ الله الرسلَ والنبيين والناس، والليالِيَ والأيامَ والبقاعَ، والأعمالَ والأقوالَ والنوايا وغيرَهَا، بعضها علىٰ بعض، بنصوص القرآن المحكمة .

فوجود العظيم والأعظم في أسماء الله، أو وجود الأعظم والأعظم منه، هو مقتضى الماهية الذي لا يُسأل عنه بلم، ولا كيف، ولا غيرهما،

ولا معنىٰ للمقاولة فيها عقلًا، إلا حين يكون المراد فرضَ الهوىٰ، أو الإلزام بـما لا ينفرد بدليله.

والقائلون بوجود «**الاسم الأعظم**» علىٰ ما صحَّ لديهم من دليل، لا يقبل الجدل، لا يلزمون غيرهم باعتقاد معتقدهم، لسبب أو لآخر، فليس لغيرهم إذن أنْ يلزموهم باعتقاد معتقدهم؛ فإنَّ الأدب مع اللَّه ومع العلم يستوجب أنْ نَزِنَ الناسَ والأفكارَ بالميزان المنهجي المنصف، وأن تتسع النظرة إلى الأشياء وإلى الرجال، فتشمل كل الجوانب الزمنية والمكانية والنفسية والاجتماعية، بالإضافة إلى الأصل العلمي المقرر، حتىٰ يكون الحكم عادلًا أو قريبًا من العدالة؛ فإنَّ الحكم دائمًا يدل علىٰ مستوىٰ مصدره، وحقيقة محصوله، ورتبة فضله، ومدىٰ تحرزه واحتياطه، ومنزلته من الإنصاف، فإذا ما خولف منهج البحث العلمي الشامل، وطاشت القيم، وشالت المعايير، كان الحكم نوعًا من التورك المغرض، أو التحامل المغرور، أو ما هو حول ذلك مما لا نحب أن يُضاف إلىٰ أشياخنا العلماء.

ولقد تحدث في إثبات «**الاسم الأعظم**» سادة الأئمة من السَّلف والخلف علىٰ مختلف المذاهب والمستويات، من محدثين وفقهاء وصوفية ومفسرين وغيرهم، منهم الشوكاني، والسيوطي، والترمذي، وابن جرير، وابن عربي، والرازي، والطبري، والألوسي، ومَنْ هم في طبقاتهم، ممن لا يُتهمون في علمهم ولا تخصصهم ولا مفاهيمهم، ولا حكمهم، ولا إجماعهم على الأشياء، ولا مريةَ في أنَّ مِنَ المجازفة أن يُرمىٰ أمثالُ هؤلاء بالسذاجة، والسذاجةُ صفةٌ ملازمةٌ، فيكون بالتالي من

العبث والتناقض أن ندع قولهم في هذا الجانب، ثم نأخذ به حُجَّةً غير مدفوعة في جانب آخر، أخطر وأعمق في أمر الدين!!

ولم يقل أحدٌ من طلاب الاسم الأعظم، أنَّ الدعاء به إلزامٌ لله - حاشاه- بالفعل أو الترك، ولكنها محاولةٌ لالتماس السبب، كما ثبت في السُّنة أنَّ على العبد أن يتخير أعجب الأدعية إليه فيدعو به، آملًا الإجابة، فالتماسُ الاسم الأعظم نوعٌ من التماس الأسباب التي قد تترتب عليها المسببات، على مقتضى العلم القديم، وهذا من أبلغ أنواع العبادة.

وقد وردت السنة الثابتة بالترغيب في أدعية بذاتها لمناسبة بذاتها، وهي شتَّى فمثلًا منها قولهﷺ إنه يعلم آية في القرآن: ما دعا بها مسلم إلا استجاب الله له، دعوة يونس: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٧] وما ثبت من قولهﷺ عن آخر سورة «**المؤمنون**» إنه إنْ قرأ بها رجل موقن على جبل لزال، وكذلك ما ثبت في الدعاء بِيَا ذَا الجلال والإكرام، فقد روى الطبرانيُّ أنَّ النبيﷺ قال لصاحبه، إنه لو دعى به على ما بين السماء والأرض لاستجيب له، وأخرج الطبرانيُّ أيضًا: أن الدعاء لا يرد بقوله: «**أسألك باسمك الأعز الأعلى**... إلخ»، وأخرج البخاري أنَّ الدعاء لا يردُّ أيضًا بقوله: «**اللهم إني أسألك بلا إله إلا أنت رب السموات والأرض**... إلخ وهكذا».

فالمعنى المستفاد هنا بالقطع أنَّ لبعض الأدعية فضلًا على غيرها، والمرادُ البحثُ عن أحبِّ الأدعية إلى الله، عسى أن توافق لحظةَ نيلٍ منه تعالى فَيُستجاب الدعاء، فأيُّ مأخذ ديني أو علمي أو عادي على هذا

الاتجاه الاتباعي، وهو نابعٌ من صميم السنة، ومن الإيمان بأنَّ الله يفعلُ ما يشاء؟!

ثم أيُّ باعث على حمله على غير محمله؟ أو تحميله غير حمله؟ أو الانصراف به إلى المعنى الجاف؟ والمفهوم المنحرف؟ والصورة المشوشة؟!

الدليل النقلي:

أخرج أبو داود والترمذيُّ وابن ماجه، من حديث أسماء بنت زيد، أنَّ اسم الله الأعظم في: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وأوائل آل عمران ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[آل عمران: ٢].

وروىٰ أصحابُ السُّنن الأربعة، وابنُ حبَّان: أنَّ اسم الله الأعظم في: «**اللهم إني أسألك بأني أشهد ألا إله إلا أنت الحنان المنان**... إلخ».

وروىٰ أصحابُ السنن الأربعة وابن حبان كذلك، أنَّ اسم الله الأعظم، في: «**اللهم إني أسألك، بأني أشهد أنك الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد... إلخ**».

وأخرج الحاكم في المستدرك، والطبراني في الكبير، أن اسم الله الأعظم في البقرة، وآل عمران، وطه... الخ.

وأخرج الديلميُّ أنَّ اسم الله الأعظم في آيات آخر سورة الحشر.

وهكذا تلاحقت الرواياتُ على اختلاف مراتبها عن الاسم الأعظم، فمنها ما جعله في: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[يس: ٥٨]. ومنها ما جعله في الأنعام، أو الأعراف، أو غافر، أو الرعد، أو مريم، أو السجدة، أو

الجاثية، أو الرحمن، أو الحديد، أو الملك، أو الإخلاص، أو فواتح السور، أو هو الاسم المفرد أو المضمر «**يعني : هو**» . . . إلخ .

وأخرج الطبرانيُّ في الكبير أنه في : «**قل اللهم مالك الملك**»، وأخرج الحاكم في المستدرك، أنه في : «**لا إله إلا أنت سبحانك**» وأخرج البخاري أنه في : «**يا بديع السموات والأرض يا حي يا قيوم** . . . إلخ» .

وتتبُّعُ كل الروايات في كل الكتب ليس هذا مكانه، غير أنَّ هناك قدرًا مشتركًا بينها جميعًا، هو أنَّ الاسم الأعظم حقيقةٌ فعليةٌ واقعيةٌ لا شك فيها، وقد تعاضدت الرواياتُ على وجوده حتى توشك أنْ تصل إلى حد التواتر العلمي، وهي من طرق متعددة سليمة، وآحاد معدلين ثقات، وفي كتب لا يتورك عليها عالم!! فهو من الحقائق التي لا تتغير لأنها لم تعجب أحدًا، مهما تكن منزلة هذا الأحد!!

وقد أسند الرواةُ أنَّ ممن انتفع بالدعاء بالاسم الأعظم زيدُ بن حارثة فنجاه الله من القتل، وأنَّ الخضر كان ممن أوتي الاسم الأعظم، وكذلك قالوا عن «**آصف ابن برخيا**» وزير سليمان في حادثة عرش بلقيس . . . إلخ .

والقدر المشترك في هذا، أنَّ جماعة معروفة من الناس، انتفعت بالدعاء بهذا الاسم انتفاعًا لا مرية فيه، وانتفاع هؤلاء به يجعل انتفاع غيرهم به من الأمور العادية .

ما هو الاسم الأعظم :

ولعلك تبينت مما سردته لك هذا السرد السريع، أنه لم يرد تحديدٌ يجعل الاسم الأعظم لفظًا واحدًا، أو ألفاظًا متعددة، في صيغة محصورة معينة،

وإنما وردت أدعية وآيات شتىٰ، موصوفة بهذا الوصف، ولكل منها شخصية، وفي كل منها طعم ومزية، وكل منها في مستوىٰ روحاني محسوس مخصص، الأمر الذي جعل أشياخنا يقولون: بأنَّ لكل سالك أو طالب مما ورد دعاءً أو اسمًا يناسب هويته، فهو بالنسبة له الاسم الأعظم.

ومن هنا يدق أمر التوفيق إليه، ويحتاج الطالب أو السالك في سبيل الحصول عليه إلىٰ كثير من الجهد والتجربة والاسترشاد والمجاهدة، فإذا هو وافقه كان ذلك من نوادر الفتوح.

كما قالوا: إنَّ إصابة المرء للاسم الأعظم المناسب له، مرتبطة بسابق العلم الإلهي والإرادة الأزلية: فالأمرُ من أندر المواهب، لخواصِّ الخواصِّ!! إذ هو من السرِّ المصون الذي لا يؤتاه إلا المصطفون الأخيار، الذين لم يبق لغير الله فيهم أيُ نصيب.

يُروىٰ عن علي زين العابدين، أنه سأل الله الاسم الأعظم، فقيل له في النوم قل: «**اللهم إني أسألك يا الله يا الله يا الله، لا إله إلا أنت رب العرش العظيم**» قال: فما دعوت بها إلا رأيت النجاح، وهذا مما يؤيد القول بأنَّ لكل مريد اسمًا يناسبه هو الاسم الأعظم بالنسبة له، لأنَّ هذه الصيغة غير واردة.

ويؤيده ما قاله الفخرُ من أن اسم الله الأعظم كان لأيوب في «**أرحم الراحمين**» من قوله تعالىٰ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وكان لسليمان في اسمه تعالىٰ «**وهاب**» من قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾[ص: ٣٥].

وكان لزكريا في «**خير الوارثين**» من قوله تعالىٰ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[الأنبياء: ٨٩]. نقول: وهكذا!!

ولكنَّ أشياخنا -رضي الله عنهم- علىٰ إجماع أو شبه إجماع بأنَّ الاسم المفرد «**الله**» هو الاسم الأعظم المشترك بين المسلمين جميعًا، فالتوفيقُ إلىٰ معرفته يسير، ولكن التزامَ مقتضاه، وإيفاءَه حقوقه التي تبلغ إلىٰ باب الاستجابة هذا هو العسير!!

قالوا: وذلك لأنَّ الله كرر اسمه «**الله**» في القرآن نحو ثلاثة آلاف مرة، مما لم يتهيأ لاسم آخر من أسمائه تعالىٰ.

ثم لأنَّ معناه ممدودٌ غير محدود، وكل الأسماء راجعةٌ إليه ومنسوبةٌ إليه، وهي كلها صفات له محمولة عليه، ثم هو اسم لا يُثنىٰ ولا يجمع، ولا يسمىٰ به غير الحق تبارك وتعالىٰ.

ثم هو اسم تامٌّ في ذاته، فأي حرف أسقطته من بنائه، بقي منه ما يدل على الألوهية أو يشير إليها..

ثم إنه الاسمُ الأوحدُ الذي يدل على الذات بالذات، وبقيةُ الأسماء دلالاتٌ على المعاني والصفات!! ثم إنَّ كل الأسماء تصلح للتخلق، إلا اسمه تعالى الله!!

فهو العَلَمُ الأقدسُ على الألوهية لا سواها.

ولبعض السادة رأي في أنَّ الاسم الأعظم مخفي في مجموع أسماء الفاتحة، وأسماء آية الكرسي، واسمي سورة الإخلاص، لما ورد في هذه السور من فضل كبير.

ولعلماء الجُمَّل ، قول في أنَّ الاسم الأعظم هو ما وافق جُمَّلُهُ جُمَّلَ اسم الشخص من الأسماء الحسنىٰ ، سواء كان اسمًا واحدًا ، أو عدة أسماء ، علىٰ تفصيل يُطلب في موضعه ، ونقلناه في رسالتنا عن الأسماء الحسنىٰ «**والجُمَّل بضمِّ الجيم وتشديد [الميم]**»

الحروفُ والاسمُ الأعظمُ:

وهكذا رأيت كيف أنه قد يكون الاسم الأعظم كلمةً واحدةً أو عدة كلمات .

بقي القول بأنه قد يكون حرفًا ، علىٰ رأي من قال بأنَّ الاسم الأعظم في فواتح السور ، كما رواه أبو العالية عن ابن عباس .

وقد اصطلح علماءُ الحرف علىٰ تسمية فواتح السور بالحروف النورانية ، وهي أربعةَ عشرَ حرفًا ، تمثل نصف حروف الهجاء العربية ، وليس منها حرفٌ إلا وهو صالح تقريبًا لأنْ يكون بداية لاسم من أسماء الله ، وهذه الفواتح سرٌّ بين الله ورسوله ، لم يصل أحدٌ إلىٰ قول قطعيٍّ في معناها الممدود ، قال السيوطي : «**والذي عليه أكثر أهل العلم ، أنها من المتشابه فلا تفسر ، والله أعلم بمراده**» .

وقد جمعها بعضُهُم في عبارات ذات معنىٰ تيسيرًا لحفظها أوسردها نحو قوله «**من قطعك صله سُحيرا**» فحروفُ هذه الجملة هي فواتح السور .

ثم جاء جماعةٌ من علماء الحروف ، فرتبوها علىٰ أساس قواعدهم وأسرارهم في أربع ألفاظ تكون جملة واحدة هي : «**اهم ، سقك ، حلع ، يص**» وجعلوا لها خواص ، وقواعد ، وذكروا لها أسرارًا وفوائد .

والذي جربناه فوجدناه، هو التوجه إلى الله تعالى بمنطوق النصِّ القرآني في فواتح السور على ما هو عليه، بشروط التوجه والابتهال المقررة.

واستكمالًا للحديث عن الأحرف يقول بعضهم: إنَّ حروف الوفق الثلاثي «**بطد، زهج، واح**» هي الاسم الأعظم، وقال شاعرهم:

من أوتي الوفق الثلاثي كما يوصى به أوتي الاسم الأعظما

وقال آخرون: إنَّ الحروف السواقط، التي لم تأت في سورة الفاتحة، هي الاسمُ الأعظم، وهي سبعة أحرف مجموعة في قولهم «**فجش ثظخز**»، وقد رتبوها على الأيام، وذكروا لها الأسماء والخدام، وقعدوا لها القواعد، وخصصوا لها المقاصد، ولكننا لا نرى رأي أولئك ولا هؤلاء، فالواضحُ أسلم، والواردُ أقوم، ومن أراد مزيدًا من الكلام على خواصِّ الحروف فليراجع مقدمة ابن خلدون، والكتب الخاصة بهذه العلوم، علمًا بأنَّ الصوفية حين يمارسون شيئًا من هذا فهو من باب العلم العملي سبرًا لغور الحقائق، والحكم عن تجربة، فهم إنما يريدون وجه الله مخلصين له الدين.

وعلماء الصوفية، يجعلون من الحجاب، الانشغال بالكون عن المكون، ويجعلون من السلب ممارسة العبادة ابتغاء الحياة الدنيا وزينتها، أو طلبًا للكرامات والخوارق الصناعية ولفت نظر الناس، وفي الباب كلامٌ كثير وتفريع كبير، قد نعود إليه في مرة آتية بإذن الله.

هذا وقد كتب في شأن الاسم الأعظم - أو جمع حظًّا مما جاء أنه هو- طائفةٌ كبيرة معروفة من السلف، وقد تشبهنا بهم بتوفيق الله فجمعنا في

عام (١٣٦٩هـ) الموافق عام (١٩٥٠م) قدرًا صالحًا مسندًا من الأسماء والأدعية ، التي ارتحنا إلى حسن نسبتها إلى هذا المقام الأسمى ، وأسميناها **(ورد الاسم الأعظم)** وطبعناها في التاريخ السابق ضمن مجموعة المحمديات ، التي وفقنا الله تعالى إلى جمعها على نسق غير مسبوق من الثابت الوارد عن رسول الله ، وجعلناها أحزابا واورادًا مخصصة بموضوعاتها ليس فيها كلمة لغير الله ورسوله ؛ حتى تكون أورادًا لأهل القبلة أجمعين ، على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم تقطع اللجاجة وتؤدي وظيفة المعروف الموروث ، من أحزاب الأشياخ وأورادهم ، ثم تضاف إلى هذه الأحزاب فتكون كالمفتاح لها ، فليس أبرك ولا أفضل من نص القرآن ولا من منطوق النبي ﷺ ثم من بعدهما يكون كلام الناس .

نسأل الله أن يقوينا على إعادة طباعة هذا الكنز النادر ، أو يهيئ له من أهل الخير من يعيد طباعته وإذاعته لوجه الله .

وبعد هذا العرض السريع ، نرجو أن نجعل من هذا البحث كتابا مفصلًا شاملًا كاملًا نتعرض فيه للأسماء العجمية إن شاء الله .

***

يا أخي يا وزير الأوقاف هذه بعض آمال المسلمين فيك، فماذا أنت فاعل[١]؟

أسلفنا في كثير من أعداد «**المسلم**» بعضَ ما كان - ولا يزال - أملاً للمسلمين في الأوقاف والأزهر، وفي السيد وزير الأوقاف والأزهر، ونستطيع هنا أن نجمل بعض هذه الآمال السابقة فيما يأتي :

أولًا : يتمنَّى المسلمون، أن ينهض في ميدان باب الحديد، أضخمُ مسجدٍ في هذا العهد - وحبَّذا لو كان باسم ناصر- فيكون نموذجًا خالدًا لما ينبغي أن تقوم عليه المساجد الجامعة في العصر الحديث، ضخامةً وروعةً وبهاءً وجلالاً وشُمولاً، بحيث يعطي فكرةَ القوميةِ العربيةِ والإسلاميةِ، في مقابل الفكرة الفرعونية التي يوحيها تمثالُ رمسيس، وفي الوقت نفسه يكون رمزًا لتسلسل التاريخ والتطور، ثم هو يرضي الشُّعور العام، ويدل الأجيالَ المقبلة على المستوى الذي وصلنا إليه في نواحي العمارة والفنِّ والهندسة والإيمان.

ثانيًا : يتمنَّى المسلمون أن تجد الهيئات الإسلامية، والمجلات الإسلامية ما هي أهله من عناية الأوقاف الإيجابية، ومن خيراتها، حتى تؤدي هذه الهيئات والمجلات -وهي قليلة مع الأسف الشديد- رسالتها الكبيرةَ الخطيرةَ التي لا يغني عنها سواها، مهما دعمته الرسمية،

(١) مقال غرة ربيع الأول (١٣٨٣هـ)، ٢٢يولية (١٩٦٣م)، العدد الثامن -السنة الثالثة عشرة.

ومهما أغدق عليه من أموال ومساندة، فالتشكيلات الشعبية، والصُّحف الشعبية، دائمًا محل اهتمام وعقيدة عميقة من الجماهير، وأثرها فيها بالغٌ خطيرٌ، والاستفادةُ الإيجابيةُ من هذه الهيئات والمجلات، لا ينبغي أن تفوت الدولة بأية حال.

ثالثًا : يتمنَّى المسلمون أن يهتم السيدُ الوزيرُ، بالطُّرق الصُّوفية؛ فهي أحوجُ شيء إلى الإصلاح الجذري، وأن ينقيها عمليًا وبالفعل مما ليس منها، وأن يحولها إلى أداة إيجابية في خدمة الدين والوطن، وأن ينزع عنها أثوابَ الخُمول والرجعية والتخريف والشعوذة، والمظاهر الكاذبة، وأن ينهض بخدماتها ورسالاتها إلى مستواها الرُّوحيِّ التَّاريخيِّ الرَّفيع، وأن يحفظ على رجالها كراماتهم ومثاليات بيوتاتهم، وعراقة دعواتهم، وتاريخهم المشرق الشريف.

رابعًا : يتمنَّى المسلمون أن يروا مزيدًا من العناية الفعلية بتحفيظ القرآن، والتشجيع الإيجابيِّ على خدمته؛ فتلك خصيصةٌ تنفردُ مصرُ بها، وإنَّ من أكبر ما يتمنَّاهُ المسلمون في هذا الجانب، أن يعامل حامل القرآن في الجندية معاملة أصحاب المؤهلات، ففي ذلك وحده ما فيه، من التشجيع على الحفظ، والدعاية الكُبرى للدَّولة، في الدَّاخلِ والخارج، والخير الشَّامل للدين والدنيا معًا.

خامسًا : يتمنَّى المسلمون أن يجدوا في مظهر بنات الأزهر، الحلقةَ المفقودة التي تجمع بين الحشمة والأناقة، وتعطي القدوة الحسنة، وتستحدث البيئة الإسلامية التي تفرض نفسها على المجتمع الجديد، وأن يجدوا في سُلوكِهِنَّ مُنيةَ المتمني من حُسنِ السَّمتِ،

وجدية المعاملة، وسلامة التصرف، ووقار الحديث، ومضاء الاستقامة، وأن يجدوا في عمومات شأنهنَّ المثلَ المضروبَ لبقية فتيات الجامعات والمدارس وغيرهنَّ تصونًا واستعفافًا وكرامةً، وإقبالاً على الدين والثقافة، وفهمًا لمسئوليات المرأة المسلمة الحديثة في الدَّارِ والمجتمع، وفيما بينها وبين الله.

إنّ التنظيمَ النّسويَّ في الأزهر، يجبُ أن يكون تنظيمًا قياديًّا متساميًّا بوصف أنه تجربة رائدة، ما لم تنجح فستكون محنةَ الأبد، وفضيحةَ التاريخ، ومُضغةَ الأفواه، ولسوف يتعذر الإصلاحُ بعدُ، ومن هنا وجب أن يكون الإسلامُ لُحْمَةَ هذه التَّجربةِ وسُدَاهَا.

فهذه أمانٍ خمسٌ سبق أن قدَّمناها مفصلةً إيمانًا واحتسابًا، واليوم أجملناها إيمانًا واحتسابًا، ثم ها نحن أولاء، نقدمُ اليوم إلى السيد الوزير أربعةَ آمالٍ أخرىٰ، ربما لم يسبق أن تقدمنا بها تفصيلاً، فها هي ذه اليومَ إجمالاً، مع استبقاء بضعة آمالٍ أخرىٰ لوقتٍ آخر، وفي الإشارة ما قد يغني عن العبارة.

فأما أولا : فقد قرأ المسلمون، ما لابدَّ أنَّ الوزير قرأه من إعلان إذاعة (صوت الإنجيل)، التي تقصر إذاعتها على الخدمات الدينية المسيحية من (أديس أبابا) بالحبشة، وأنَّ صوتها سيسمع من أول يوليه الحالي في لبنان، وما جاورها على الموجتين «٣١، ٤١ مترا» ... إلخ إلخ.

وقد كان لوزارة الأوقاف مشروعٌ سابقٌ في إنشاء إذاعة قرآنية، تقصر خدماتها على الجوانب الإسلامية، وقد هلل المسلمون وكبَّروا لهذا

المشروع، ولكنَّهُ لم يلبث أن نام في القاهرة، واستيقظ في الحبشة، ثم امتدَّ واشتدَّ حتىٰ وصل صوته إلىٰ خط العرض الذي تقع عليه لبنان وما حولها خدمة للإنجيل.

والمسلمون يتمنَّونَ لو أنَّ وزارة الأوقاف عادت إلىٰ بحث مشروعها الأول؛ فإنَّ فيه فوق الخدمة الإسلامية الكُبرىٰ، خدمةً دعائيةً للدولة، لا تقدر بمال!!

وأما ثانيًا: فقد أصدرت الكنيسةُ الكاثولكيةُ في روما قرارًا بأنَّ كُلَّ فتاة تدخل أية مسابقة للجمال أو تعرض أكثر جسمها لأعين الناس، تحرم من حقوقها الكَنَسِيَّةِ، حتىٰ إنه لا يُصلَّىٰ عليها فيها، ولا تدفن في مقابرها، كما أنه لا يُسمحُ لأية امرأة بدخول الكنيسة، إلا إذا كانت محتشمةَ الملبس مغطاةَ الشَّعرِ - كما نقله الأهرام -.

أفلا يرىٰ السيد الوزير أننا بمثل ذلك الآن أحقُّ وأولىٰ؟ وأنَّ هذا يذكّرنا باقتراح سبق أن تقدَّمنا به، وهو يتلخص في حرمان كُلِّ فتاة أو امرأة من حقِّ زيارة أضرحة أولياء اللَّه، أو دخول المساجد ما لم تكن علىٰ حال كافية من الاحتشام والوقار، احترامًا لمساجد اللَّه، ولعرصات الموت، وللمعنى الديني السامي، وفي ذلك من ألوان التربية والتوجيه الرُّوحيِّ والخُلقيِّ ما فيه.

وأمَّا ثالثًا: فإنَّ مسلمي المشارق والمغارب علىٰ أمل واحد، في أنْ يعمل السيد الوزير علىٰ ألا يطغى العلمُ المدنيُّ في جامعة الأزهر، على العلم الدِّينيِّ، وأن يظلَّ الأزهرُ محتفظًا بتراثه الدِّينيِّ، وأسلوبه العلميِّ،

والزِّيِّ الخاصِّ بعلمائه، وأنْ يكون المظهرُ والعلمُ المدنيُّ أمرًا إضافيًّا بالنسبة إلى المظهر والعلم الديني الموروث في الأزهر، وألا يكون تطويرُ الأزهر معناه القضاءُ على الأزهر الشريف، بأزهر سخيف أو مخيف !!

وأما رابعًا : فإنَّ مدينة البُعوثِ الإسلامية، هي النافذةُ الكُبرىٰ التي يطل منها العالمُ الإسلاميُّ على الأزهر، فيرىٰ الصورة التي ترضي، أو التي تُردي!! وإنَّ طلبة البعوث الإسلامية يخرجون من ديارهم، وفي أذهانهم صورة مقدسة، لأيام من أيام الله، كأنها الحجُّ، يقضونها في طلب العلم المؤيد بالعمل والنية، ولكنَّ واقعَ الأمر في المدينة – مع الأسف الشديد– بعيدٌ عن هذه الحقائق بعدًا محزنًا والطالب في مدينة البعوث، بمقدار ما يحصِّلُ من علم الدين، ينحط ويهبط في التطبيق العملي، بما لا يعرفه الإسلام ولا يخطر علىٰ بال مسلم، حتىٰ إنَّ بعض صالحي هؤلاء، الطلبة يُصاب بما يشبه الذهول، للفارق الرهيب بين الصورة والواقع، ولا نسمح الآن بالتفصيل فهو معروفٌ موصوف، وإنَّ من أسوأ الدعايات للدولة وللأزهر وللإسلام، أنْ تظلَّ الأمور هناك سائرة علىٰ ما هي عليه الآن .

إنَّ البلاد الإسلامية التي أنشأت فيها (أزاهر) كانت حجتها أولاً في انصراف الأزهر عن رسالته الإسلامية والعربية، الأساسية، وثانيا، في عدم اهتمامه بالتطبيق الفعلي للعلم على العمل، حتىٰ إنَّ طالب الأزهر كثيرًا ما يكون نظريًّا كالآلة الناطقة، يقول ولا يعمل، بل هو يخالف الناس إلىٰ ما ينهاهم عنه .

وإنه لا ينبغي في بلدٍ فيه زعامةٌ دينيةٌ، ألا يصلي به طلبة الأزهر وعلماؤه، أوقاتهم في جماعة رسمية تدخل ضمن المناهج والجداول، ويحاسب المقصر

فيها من الطلبة والعلماء سواء منهم الإداري والفني أشد الحساب .

هلا قرأت عن المعاهد الدينية غير الإسلامية أو رأيتها معلمين ومتعلمين ، وبماذا يبدءون يومهم ، وبماذا يختمونه وكيف يُعتبر أداء المقررات التعبدية قسمًا أصيلاً من عمل المعهد اليومي ، لا رخصة فيه ، وكيف أنَّ للزي هناك قداسة مضاعفة؟!

شيء من مثل ذلك باقٍ في جامعة أبي حنيفة بالعراق ، وبكل المعاهد الشيعية فيها ، وفي إيران والهند والباكستان ، فلماذا لا يكون كل ذلك ـ مثلاً مأخوذًا عن الأزهر الشريف؟! إنَّ التناقض في الأزهر بين العلم والعمل والمظهر ، يذهل ويخجل!

هذه الآمال أو الأماني التسع ، ننقلها إلى عنقك أيها السيد الوزير الفيلسوف الأزهري المسلم ، ومن بعدها يكون لنا كلام ومواقف .

ولنا آمال أخرى ، والله يوفقك إلى جوامع محابه ومراضيه .

***

أحكامُ الإنشادِ والموالدِ والخلوةِ الصُّوفيةِ[١]

نعمْ : الإنشادُ الصُّوفيُّ سنةٌ نبويةٌ ثابتةٌ :

أجبنا في عدد مضىٰ من «المسلم» ، علىٰ سؤال حول الإنشاد الصُّوفيِّ ، قررنا فيه أنَّ الإنشاد الصوفي سنة نبوية ثابتة في أعلىٰ درجات الحديث الصحيح ، أعني المتفق عليه بين الشيخين : البخاري ومسلم ؛ فقد رويا في صحيحيهما ، عن البراء بن عازب ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان ينشد يوم الخندق من شعر أبي رواحة :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ، ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

وقلنا : روىٰ البخاريُّ أنَّ النَّبيَّ كان يمدُّ صوته بالكلمات الأخيرة من كل مقطع ، علىٰ طريقة التلحين العربي وقتئذ ؛ فيقول (لاقينا . . أبينا . .) ، فيردد الصحابة عليه الإنشاد كذلك .

والمفهومُ الفقهيُّ من هذا الخبر الثابت ، أنَّ الإنشاد الفردي والجماعي بالتلحين ، كلاهما جائزٌ بل كلاهما سنة مندوبٌ إليها ، ولعلَّ سِرَّ المدد في هذا الخبر ، هو الذي كان سببَ نجاح الدعاة إلى الله بالإنشاد مع الجهاد ، كذي النون المصري في الرجال ، ورابعةَ العدوية في النساء .

(١) مقال : غرة ربيع الآخر (١٣٨٣هـ)،٢٠ من أغسطس (١٩٦٣م)، العدد التاسع -السنة الثالثة عشرة .

وقد ثبت في الصحاح ، وعند أصحاب التواريخ والسير ، أنَّ المسلمين كانوا في بناء مسجد المدينة يحملون لبِنةً لبِنةً ، أو حجرًا حجرًا ، وكان عمَّارُ ابن ياسر يحمل اثنين اثنين ، وهو ينشد قائلًا :

« نحن الهداةُ نبتني المساجدا»

وكان الرسولﷺ مع بقية المسلمين يردون عليه قائلين : (المساجدا . .) ، وفي روايات لفظ (المسلمون) بدل الهداة .

ومن هاتين الروايتين يثبتُ أنَّ النَّبيَّﷺ كان مرةً ينشد ويرد الصحابة عليه ، كما جاء في الخبر الأول ، ومرة كان يردُّ مع الصحابة على الذي ينشد منهم ، كما جاء في الخبر الثاني .

وثبت كذلك أنهﷺ رأىٰ في يوم الخندق رجلًا اسمه جُعيل -وجعيل تصغير اسم جُعَل ، بضم الجيم وفتح العين ، والجعل حشرةٌ معروفة تُسمَّىٰ في مصر (الجُعران) تحريفًا- فسمَّى النَّبيُّ هذا الرجلَ «**عمرًا**» .

فإذا بالصحابة يحفرون وينشدون قائلين :

سمَّاهُ مِنْ بعدِ جُعيلٍ عُمرًا وكانَ للبائسِ يومًا ظهرًا

وكان النَّبيُّ يردد عليهم قائلًا (عمرا ... ، ظهرا...) مآدًّا بها صوته منشدًا .

وثبت أنَّ خالد بن الوليد كان يهدم صنم (العُزىٰ) وهو ينشد :

يا عزُّ : كُفْرَانكَ ، لا سُبحَانَكَ إِنِّي وَجَدْتُ اللَّهَ قَد أَهَانَك

وكان الطُّفيلُ بنُ عمرو الدوسي، يؤجج النار في صنم (ذو الكفين) وهو يرتجزُ مغنيًا :

يا ذا الكفّين لستُ مِنْ عُبَّادكا ميلادُنا أقدمُ مِنْ ميلادكَا

إني حششتُ النَّارَ في فؤادكَا

لما وَضَعَ النَّبيُّ ﷺ رداءه، وأخذ يعمل بنفسه في بناء مسجد المدينة، جعل عليٌّ بنُ أبي طالب ينشد قائلًا :

لا يستوي من يُعمِّرُ المساجدا يدأبُ فيها راكعًا وساجدًا

وقائمًا طورًا، وطورًا قاعدًا ومن يُرىٰ عن الغبار حائدًا

وهنا وضع الصحابةُ أرديتَهُم وجعلوا يُنشدون قائلين :

لئنْ قعدنا والنَّبيُّ يعمـلُ لذاكَ مِنَّا العملُ المُضَلَّلُ

وكذلك صحَّ أنهﷺ كان ينقلُ اللَّبِنَ مع القومِ ويقول :

هذا الحِمَالُ، لا حِمَالُ هذا أبرُّ – ربَّنَا – وأَطْهَرْ

وكذلك صحَّ أنهﷺ كان ينشد مع صحابته :

اللهمَّ إنَّ العيشَ عيشُ الآخرة فارحمِ الأنصارَ والمهاجرةْ

ومن الثابت الصحيح، عند أهل العلم أنه كان لرسول الله (حادٍ)، يُغنِّي لإبله في الرَّكبِ النبوي، هو عبد الله بن رواحة، وكان رسول الله يسمعُ له ويَطْرَبُ منه، ويشجعه ولا ينهاه، كما في خبر : (رفقًا بالقوارير) عند منصرفه من خيبر.

ويوم الحديبية أخذ ابن رواحة بخطام ناقة الرسولﷺ حاديًا منشدًا قوله :

خلوا بني الكفار عن سبيله خلوا فكل الخير في رسوله
يارب إني مؤمنٌ بقيله أعرف حق الله في قبوله

وفي منصرف المسلمين من بدر كان عدي بن الزغباء يحدو بجيش المسلمين قائلًا :

أقم لها صدورها يا بسبس ليس لدى الطلح لها معرس
إن مطايا القوم لا تخيس فحملها على الطريق أكيس
قد نصر الله ، وفرَّ الأخنس

ويوم أُحد ، أخذ أبو دجانة السيف من رسول الله ، وعصب رأسه بعصابة الموت ، وجعل يقاتل أعظم القتال وهو يرتجز منشدًا :

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل
ألا أقوم الدهر في الكبول أضرب بسيف الله والرسول

ونحو هذا رُوي صحيحًا عن عليٍّ بن أبي طالب ، وكعب بن مالك ، وبعض الصحابة الأبرار ، وهذا ناجية بن جندب في غزوة خيبر يرتجز مغنيًا :

يا لعباد الله : فيما يرغب ما هو إلا مأكل ومشرب
وجنة فيها نعيم معجب

حتى الصحابياتُ كنَّ ترتجزن وينشدن ، سواء في الأفراح كما ثبت في البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عائشة وغزل الأنصار ، وغنائهم :

(أتيناكم أتيناكم فحيانا وحياكم) . . إلخ إلخ .

أو في النوح والبكاء، كما جاء عن أم سعد بن معاذ رضي الله عنه أنها عندما احتمل نعشه جعلت ترتجز قائلة :

ويل أم سعـــدٍ سعدا صرامـــةً وجـــدّا
وســـؤددا ومجـــدا وفارسًـــا معـــدّا
ســـد بـــه مـــسدا يقـــد الهَـــامَّ قـــدّا

أو في القتال في الله كما جاء عن إحدى المسلمات يوم بدر قولها ترتجز :

غلبتْ خيلُ الله، خيلَ اللاتِ والله ُأحقُّ منك بالثباتِ

أو في الاستقبال كما في نشيد بنات النجار لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

طلـعَ البـدرُ علينَـا مِنْ ثَنيـاتِ الـوداعْ
وجبَ الشكرُ علينَا مَـــا دَعَـــا للهِ داعْ

والرَّجَزُ هو الشِّعر الذي كانوا يترنمون به ويغنونه، بإجماع علماء الأدب والفن والتاريخ، وفي صدرهم الأخفش والأصمعي، ولا شك أنَّ تتبع هذا الباب ليس هذا محله، وفيما ذكرناه مقنع أي مقنع .

ومن مجموع ما تقدم، يثبت ثبوتًا قاطعًا، أنَّ الإنشاد الصوفي سنة نبوية وصحابية مندوب إليها، سواء كان المنشد منفردًا، أو كان معه آخرون يرددون نشيده .

والكلامُ في تحسين الصوت بالإنشاد جزء منه، وحسبك قصة بلال في ممارسة الآذان، وقصة ابن مسعود في تلاوة القرآن، ويكفي أن تذكر ما

جاء عن ابن رواحة وأنس بن مالك وأبي محذورة وغيرهم، بل حسبك ما جاء في جمال صوت النبيﷺ، وكيف أنكر القرآنُ الصوتَ القبيح، فقرر بهذا مشروعية الصوت المليح، وما جاء في الإنشاد الصوفي ينطبق شرعًا على الأناشيد الصوفية والوطنية والحربية.

ومعروف ما ذكره العلماء في باب الإنشاد والسماع، من تفريع وتفصيل، وتخصيص وتعميم، فليُرجع إليه في مظانه من كتب الصوفية والمحدثين وغيرهم، وإنما أردت أن أثبت أصلَ هذا الشيء من صميم السُّنةِ والتاريخ، على أسلوب المنهج العلمي الثابت، مغضيًا عن التعليلات النفسية والفنية والعلمية وما يتعلق بها.

نعم إذا اختلط بالإنشاد أمرٌ ممنوعٌ كالصفير والطبل وما هو منه تغير الحكم، لا بالنسبة للأصل، ولكنْ بالنسبة للطارئ عليه، ولعل قولًا يُقال بعد هذا في إفساد هذا المقام، إنما هو من التهوك أو التعالم، أو مجرد طلب المخالفة والتحامق الجاهلي.

الاحتفالُ بذكرياتِ الموالدِ مشروعٌ:

سبق أنْ قررنا وكررنا حكم الشرع في الاحتفال بأيام ذكريات الموالد، وأنها أمرٌ جائزٌ مشروع، مندوبٌ إليه في ذاته، ما لم يلابسه محرمٌ أو مكروهٌ، فيتغير الحكم عليه بحسب ما لابسه وما دخل عليه.

ومن هنا كانت هذه الاحتفالاتُ مشروعةً من حيث ما فيها من الخير، المحثوث عليه المرغب فيه، ثم كانت بالتالي ممنوعة، من حيث ما فيها من الشر والفساد والتلف المخالف للنص، وللمعلوم من الدين بالضرورة.

ولما كان دفعُ المضرات مقدمًا على جلب المنافع، حكم العلماء احتياطًا وتحرزًا بحرمة هذه الموالد، لغلبة الحرام الصراح فيها، واستخزاء منافعها، بجوار استشراء مفاسدها .

لكن الأصل فيها مشروعٌ مطلوب محثوث عليه، ومن هنا كانت مطالبتنا الموصولة بتطهير هذه المناسبات من الأوزار والأوضار، حتى تؤدي وظيفتها الكبيرة، التي لا يؤديها غيرها بحال .

قلنا : إنَّ الله عظَّمَ يوم المولد ويوم الموت، على لسان الحقِّ ولسان البشر، قال تعالى : ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ١٥]، وقال : ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ٣٣] .

وهذا التركيبُ والترتيبُ القرآنيُّ، يفيد أنَّ ليوم المولد قدره العظيم؛ فقد أخرج الله فيه إنسانا من إنسان، فدل على وجه من أعظم وجوه القدرة، فيكون كيوم الموت والبعث يومًا من أيام الله : ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] .

وقلنا : إنَّ رسول الله ﷺ كان يحتفل بيوم مولده أسبوعيًا، فقد سُئل – صحيحًا – عن ملازمته صوم يوم الاثنين، فقال : هذا يوم ولدت فيه !!

وفقهُ الحديث : أنَّ الرسول كان يحتفل بهذا اليوم شكرًا لله بعمل طاعة، فإذا نحن توسعنا في الطاعة كان توسعًا مطلوبًا مشكورًا في الخير ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨] .

فيكون لا بأس بأنْ نشكر الله تعالى بعمل الطاعات المختلفات، من

العبادات والصدقات واستنباط العبر وبث العظات ، على تفضله تعالى بأنْ شرَّفَنَا فجعلنا من أُمَّةِ مَنْ كان مولده هذا بداية العز ، ونهاية السعادات ، الرحمة المهداة ، والنعمة المعطاة ، والمنية المبتغاة ، والغاية المفداة .

وبالتالي يكون شكرنا له تعالى بالطاعات ، على تفضله علينا بمن جَعل موالدهم خيرًا على أمة الإسلام في دينها وروحانياتها وفضائلها ومعنوياتها ، وحفظ غيوبها وأسرارها ومكنوناتها .

ولا شك أنَّ التداعيَ إلى الله مطلوب ، والذِّكر مطلوب والقرآن مطلوب ، والتصدق مطلوب ، والعلم مطلوب ، والتعارف مطلوب ، والتعاطف مطلوب ، والتراحم والتهادي والتلاقي والاعتبار والحب والود ؛ كل ذلك مطلوب .

وإذا كانت أفرادُ الشيء مشروعةً آحادًا ، كان اجتماعها أقوى وأتمَّ في المشروعية ؛ لأنَّ ما يترتب عليها من آثار الخير مجتمعة ، أضعاف ما قد يترتب عليها منه آحادًا وفرادى ، فهذه صورة الموالد الشرعية الخالية من المناكر والمحرمات ، إنما هي أسواق يشهد الناسُ فيها منافعَ لهم في أمور الدنيا ، ومنافعَ لهم في أمور الدين ، لا تتم إلا في هذه التجمعات المبرورة المباركة ، التي يحج إليها الناس بقوة الحب في الله ، والعقيدة الدافعة الرائعة ، فلا يقاربها ـ فضلًا عن أنْ يماثلها ـ تجمع يحشر إليه الناس ، لأمر دنيوي مهما عظم وجل شأنه .

وقد صحَّ في الحديث الثابت ، أنَّ رسول الله ﷺ دخل المدينة فوجد

اليهود يصومون يوم عاشوراء ، فسأل لماذا ؟ فقالوا ؛ لأنَّ اللّٰه أظهر فيه موسىٰ علىٰ فرعون ، فقال رسول اللّٰه ﷺ : نحن أولىٰ بموسىٰ منهم ، وصام عاشوراء ، فكان أولَ صوم فُرِض قبل رمضان ، ثم نُسخ بفرضية صوم رمضان ، وبقي سنة فيها ترغيب وتأكيد عظيم .

وفقه الحديث : أنَّ النبي ﷺ احتفل بمناسبة من مناسبات رجال اللّٰه بصوم يومها ، فيؤخذ منه جواز الاحتفال بمناسبات الرجال ، ما دامت للّٰه ، ولا شك أنَّ الاحتفال بذكريات الموالد هي نوع من الاحتفال بمناسبات الرجال ، فمشروعيتها الذاتية ثابتة مؤكدة ، لا يمتري فيها منصف عليم .

فاحتفلوا أيها المسلمون بذكرىٰ مولد رسول اللّٰه ، شكرًا للّٰه ، وحبًّا في رسول اللّٰه ، ولا يجرمنكم شنآنُ قوم علىٰ أن تكسلوا أو تهملوا ، فقد ألزمناهم الحُجَّةَ ألف مرة ، وألقمناهم الأحجار المُرَّةَ ، يحلون عيد كذا وكذا من المستحدثات ، ويحرمون الاحتفال بعيد خير أهل الأرض والسموات ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصآفات : ١٠٦] .

وأولُ من احتفل بمولد النبي الملكُ المظفر ملك أربل -بالعراق الآن- وبالغَ فيه مبالغة لا تخطر إلا علىٰ قلوب المحبين ، وأنفق عليه إنفاقًا ، لا يتأتىٰ إلا من أصدق العاشقين ، وأقرَّهُ عليه كافة علماء عصره ومن وليهم بإحسان إلىٰ يومنا هذا ، ثم إلىٰ يوم الدين .

وتابعه في ذلك ملوك جميع الأمصار ، جيلًا بعد جيل ، ودولة بعد دولة ، حتىٰ لو أراد الإنسان أن يصف جلال ما كان يؤتىٰ في هذه

الاحتفالات على مستوى الوطن الإسلامي ، ما وسعته المجلدات .

ولكنْ ليس معنى هذا أننا نستبيحُ المناكر والمواكب المبتدعة ، والتجمعات التي تَنِـزُّ بالمفاخرة والمكاثرة ، والمظاهر التي تنضح بالرياء والسمعة ، والتمليق والمداهنة والذكر المحرف ، والإلحاد في أسماء الله والتقاليد الوثنية أو الجاهلية ، مما سجلنا سخطنا عليه عشرات المرات .

إنما نريدها موالد يتمثل فيها تصوف المسلمين على أرقى مستوياته ، مطهرًا من كل شائبة وريبة صادقًا نظيفًا طاهرًا ، خالصًا لوجه الله وحده .

مشروعيةُ الخلوةِ الصُّوفية وأسرارها :

قلنا مرات ، إنَّ أصل الخلوة عند الصوفية ، هو مندوبيةُ الاعتكاف في الإسلام ، وقد كان الاعتكافُ سُنةً ماضية في الأديان السابقة ، فموسى وَاعَدَ ربَّهُ ثلاثين ليلة ، ثم تمت بعشر ، فتمَّ ميقاتُ ربه أربعين ليلة ، ومريم ابنة عمران ، كان لها اعتكافها وميقاتها في المحراب ، وكان ليحيى اعتكافه وميقاته ثلاث ليال سويًا . . .إلخ ، وقد ثبت أنَّ رسول الله ﷺ اختلى قبل البعثة في حِراء ، وكان يختلي بعد البعثة في العشر الأواسط أو الأواخر من رمضان ، وفي غيرها كذلك .

فَدِينُ الله أنْ يخلوَ العبدُ القادر إلى ربه فترة ترويض ورياضة ، يتخلص فيها من عقده وأزماته ورواسبه النفسية ، ويتطهر فيها من خطاياه وآثامه ونزواته ، ويتضلعُ فيها بشُّحنة الإيمان واليقين والقرب من الله ، فيخرج وقد صَفَا قلبُه ، واستنار باطنه ، وانسلخ من أمراضه القلبية والنفسية

والخلقية، إن صحَّ توجهه، وخلصت نواياه، بل إنه لينسلخ تبعًا لهذا من أمراضه الجسمية كذلك، فكأنما ولد ولادة أخرى، إنْ وفقه الله.

وعند المحمَّديين أنَّ شرط الخلوة هو شرط الاعتكاف؛ فقد أخرج البيهقيُّ وأبو داود، عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «**السُّنَّة على المعتكف ألا يعود مريضًا، ولا يشهد جنازة، ولا يمس امرأة، ولا يخرج لحاجة، إلا لِمَا لا بد منه، ولا اعتكاف إلا بصوم، ولا اعتكاف إلا في مسجد جامع**» انتهى.

وشرط المسجد الجامع هنا مقيد بما إذا كان الاعتكاف لمدة أيام تتخللها صلاة الجمعة، فإذا اعتكف في غير المسجد الجامع خرج لصلاة الجمعة وجوبًا، وإلا فاعتكافه في غير المسجد الجامع صحيح، وذلك خلافًا للمرأة، فإنها تعتكف حيث شاءت؛ لعدم فرضية الجمعة في حقها، ومسجد بيتها أولى بها، فإذا فضلت الاعتكاف في المسجد، عند عدم الفتنة، أو عدم السمعة والرياء، ضربت لنفسها خباءً خاصًّا فيه، كما ثبت عن أمهات المؤمنين أنهن ضربن الأخبية في المسجد، لَمَّا أردن الاعتكاف فيه.

وكذلك الرجل المعتكف في المسجد أو المختلي، إذا لم يضمن شتات قلبه ونفسه، أو خاف الرياء والسمعة، أو نحو ذلك ضرب لنفسه خباء في المسجد، كما كان يفعله رسول الله ﷺ، وقد رواه أحمد ومسلم وابن ماجه وأبو داود وغيرهم.

ومدة الخلوة يحددها الطبيب المرشد، بما يتناسب وحال صاحب الخلوة.

ومتىٰ ما ثبت أنَّ الخلوة علاج رُوحيٌّ للأمراض النفسية والخلقية، بل والأمراض الجسمية المترتبة على الأزمات والعقد والانفعالات المختلفة، فقد علمت أنَّ الخلوة بالتالي نوعٌ من عَزل المريض حتىٰ يشفىٰ، فلا يُعدي غيره، ولا يتعرض هو للهلاك، شأن الأمراض الجسمية المعدية سواء بسواء، وشرُّ الأمراض أمراض الباطن . وشرُّ الآثار آثارها المدمرة.

أما خلوة السليم -وهو أمر قليل- فإنما هي لمضاعفة الشحنة الإيمانية، وزيادة طاقة اليقين والعلاقة بالله في نفس المريد، شأن خلوة الرسول في رمضان .

وكما يؤكد أطباء الصحة الجسمية والنفسية، ضرورةَ تعيين يوم دوري للراحة والاستجمام، فكذلك يقرر أطباء الأرواح، ضرورةَ تعيين فترة للتخلص من كافة المشاغل والشواغل والمهام والهموم، والانصراف المطلق إلى الله، والاستمداد من الطاقة المقدسة للتخلص من المتاعب والإجهاد والعيوب، ولمواجهة الحياة بما هي أهله من حيوية وفهم ورشد ونظافة.

فليس أمر الخلوة كما يفهمه المتحاملون والحمقىٰ نوعًا من الانطواء والضعف والهرب من مواجهة مرارة الواقع، أبدًا إنما الخلوة استعداد وتدريب، وتربية وقوة، ومصابرة وكفاح مرير، لا يعرفه إلا ممارسوه، ولو أنَّ واحدًا من أولئك القوَّالين حاول يومَ اعتكافٍ وخلوة واحد - على متعارف الصوفية - لما أطاق ولفرَّ فرار الجندي الجبان من الأسد.

وكما أسلفنا توقيتُ الخلوة وميقاتها، موكول للمرشد الذي يزن جميع ظروف المريد، وتحمله، واحتمالات حياته، وملابساته الاجتماعية

والشخصية والنفسية، والروحية العامة والخاصة؛ فقد يأذن له بخلوة كبرىٰ أو وسطىٰ أو صغرىٰ، أو بنصف خلوة، أو بخلوة الجلوة، أو لا يأذن بأية خلوة بعد الفحص الروحي والتحليل.

فالخلوة إذن إحدىٰ وسائل المحافظة على الكرامة الإنسانية، وعلى الصحة الجسمية والنفسية، وعلى المعالم الدينية والروحية، وإنَّ من وظيفتنا الأساسية أنْ نبين للناس المفهوم الواقعي الأصيل للكرامة الإنسانية والإسلامية في مدلولات التصوف الإسلامي ومجاهداته، كلما عَمِيَتْ أو كلما استعصت بحكم الجهل والمادية، فتخبط في إدراكها الناس بين الشباب والمشيب.

***

مُعْجِزَاتُه ﷺ حقيقةٌ قطعيةُ الثُّبوتِ دفاعٌ عن معجزاتِ رسولِ اللهﷺ

السَّمَّانُ وحبُّ المخالفة :

كان اتجاهي في الكتابة هذه المرة إلى تجميع موضوعات شتَّى يهتم بها قراؤنا ، وإن ما لدينا من أسئلة واستفسارات ، ليستغرق في الرد عليه أعداد سنة كاملة من (**المسلم**) ، تشغل صفحاته كلها من الغلاف إلى الغلاف ، أو تزيد .

غير أن أحد أبنائي في الله أقبل يومًا ، وفي يده عدد (**الرسالة**) الصادر في مناسبة ذكرى المولد النبوي ، وبه كلام كتبه الأخ الأستاذ محمد عبد الله السمان ، يَنْفِي فيه أن يكون للنبي معجزات غير القرآن ، ويحمل فيه على الإمام صاحب (**الشفا**) حملة ثائرة من حملاته الموارة بالتجني (**وحب المخالفة**) ، وإن كانت أحيانًا تستهدف الصواب على ما نرجحه بحسن الظنِّ!!

ولقد جرَّب أخونا الأستاذ السمان حظَّه غير مرة مع مجازفة (**حب المخالفة**) في كل أو جُلِّ ما كتبه وما أصدره من رسائل ، فما أدرك بعض ما أدركه المخالفون من قبله ومن بعده ، وهكذا كان حظه ، وكان يتعين عليه بعد هذا أن يخالف عن صفوفهم ، ليعود إلى صف الجمهور ، بعد أن أكلت مخالفتُهُ أخضرَهُ ويابسَهُ ، ثم تركته ، لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى .

وأخونا السَّمانُ رجل ثائر بطبعه ، ولذلك هو يقول : إن رأسه دار من تخريف صاحب (**الشفاء**) ونسبته إلى رسول الله طائفة من المعجزات ، لم يكن الرسول بحاجة إليها!! فكأنما روى صاحب (**الشفاء**) هذه

المعجزات من عند نفسه تأليفًا واختراعًا، ولم ينقلها عن ثقات أئمة التاريخ، وسادة أصدق المحدثين، ثم كأنما انفرد صاحب **(الشفاء)** برواية هذه التخاريف، فاستحق وحده هذه الثورة العارمة من الأستاذ السَّمان. ولعل السَّمانَ لو قرأ للسابقين واللاحقين في هذا الباب، ما خَصَّ صاحب **(الشفاء)** بهذا السخط الكبير، وإن كان قد تفضل فأشرك معه أصحاب العقول الساذجة، والعواطف الخرقاء، وخطباء المنابر، وقراء الصحف الإسلامية المتواضعة المحدودة. أو كما قال !!

وإذا كان الأستاذ السمان قد دار رأسُهُ مما نقله صاحب الشفاء عن سابقيه من ثقات المؤرخين والمحدثين، فلا أدرى ماذا كان شأن رأسه فيما ذكره القرآن نفسه من المعجزات الخوارق المذهلة، كإمداد الله جيش المسلمين بألوف من الملائكة منزلين ومردفين، وكنصر الله رسوله بالرعب والريح، وكمسألة الإسراء وغيرها من نوادر الخوارق المحمدية، فضلا عن خوارق إخوانه النبيين السابقين، المُمْعِنَةِ في الإغراب وإدارة بعض الرءوس.

طريق الآحاد وطريق التواتر:

ثم إنه إذا كان القرآن، كدستور ولغة وهداية، هو المعجزة الوحيدة المسلَّم بصحتها عند الأستاذ السمان، ومن يرى رأيه، وقد وصل إلينا هذا القرآن من طريق التواتر، فما هو رأيه في المعجزات التي أخذت حكم التواتر، ووصلتنا من نفس الطريق الذي وصلنا منه القرآن الكريم؟!

وإذا كان من عيب بعض هذه المعجزات التي لا تعجب الأخ السمان، أنها جاءتنا مثلا من طريق الآحاد، فهو من أعلم الناس بأننا أخذنا أكثر ديننا عن طريق الآحاد، وأن ما جاءنا من السنة عن طريق التواتر شيء محدود، لا

يستوعب كل الفروع والأصول المعمول بها في الملة من قبل ومن بعد .

وإذا كان يرى أن بعض هذه المعجزات ربما ورد من طريق ضعيف ، فإن الثابت أن أكثر هذا الضعيف معتضد بكثرة الطرق المروي منها ، فالحديث من حيث الفن : حسن لغيره على الأقل ، فهو معتمد للأخذ به حتى في نحو العقائد .

وعند تسليمنا بضعف الحديث إطلاقًا ، فقد أجمع السلف والخلف على جواز الأخذ بالضعيف في الفضائل والمناقب ، وهذا إمام أهل السنة أحمد ابن حنبل ، جعل من أصول مذهبه الأخذ بالضعيف إذا كان مشهورًا ؛ فإن الشهرة عنده تجبر ضعفه، وإذا كان هذا هو القانون في العبادات والمعاملات ومتعلقاتها ، فأولى به أن يكون أساسًا في الفضائل والمناقب ، ثم هذا هو **(الدكتور طه حسين)** عالم المخالفين في هذا العصر ، لا يرى بأسًا أبدًا من الأخذ بهذه المناقب في السيرة ، ويرى فيها من الفوائد ما اعترف به في غير كتاب من كتبه ، التي يتحدث فيها عن نبي المسلمينﷺ!!

المعجزات ضرورة نبوية :

ثم لا نحن ولا أمثالنا ، ولا مُنَجِّمُو العالم كله ، يعلمون أية مضرة تلك التي تصيب السيرة النبوية إذا نحن ألزمناها هذه المعجزات الثابتة ، ولا أية مضرة هذه التي تعود على عقول المسلمين وقلوبهم إذا هم آمنوا بأن رسولهم له معجزات شتى سوى القرآن ، تزيد من رفعة الشأن ، وتثبيت العقيدة ، والتسامي بالروح والعاطفة ، ثم كيف جاز لنا أن نصدق ما جاء في السنة عن معجزات الأنبياء السابقين ، ثم لا يجوز لنا أن نصدق ما جاء فيها عن نبيناﷺ؟ إن هذا لشيء عجاب!!

ثم هل العقل أو الشرع يمنع باستحالةٍ منطقيةٍ أو عاديةٍ، من نسبة هذه المعجزات إلى النبيﷺ، أبدًا بل العقل والشرع يحتمان ضرورة أن تكون له معجزات تواجه بعض المواقف، وتؤكد حقيقة الإيمان بالنبوة في قلوب قريبة العهد بالكفر والجهل، وخوارق العادات.

وقد جاءتنا أخبار هذه المعجزات من نفس الطريق الذي جاءتنا منه بقية السنة، وقواعد الشريعة، فأي موجب لأن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض؟!

إنَّ التزام الثورة على كل قديم، والمخالفة لكل موروث، يجب أن تكون في الحد المتعين على كل مصلح عدل الضمير، سوي المنهج، صادق النية، خصوصًا بعد أن وقف العلم الحديث بجوار الخوارق يعللها ويشد أزرها ويشهد لها.

بين المعجزة والبشرية:

إنَّ ما لا يطيقه العقل، أو لا يقره العلم العصري[1] مما ورد ثابتًا من المعجزات ينبغي لضعاف الإيمان بالقدرة تأويله، والتصرف في فهمه على المجاز أو الكناية أو نحو ذلك، وهذا أضعف الإيمان، أما رده لأنهم لم يفهموه فليس هذا إليهم!!

والذي ندين الله عليه، أن المعجزة لا تكون معجزة إلا إذا كانت خارقة للعادة، مخالفة لنواميس الطبيعة، ليقع بها التحدي والإقناع والإسكات،

(١) العلم الحديث لم يثبت استقراره عند نفسه، ففي كل يوم نظرية تنفي سابقتها، فإخضاع ظواهر النبوة لقوانينه جهل بالعلم وبالنبوة جميعاً، فضلاً عن أنها سمة التبشير والاستشراق. (المسلم).

فأما إذا هي خضعت للقوانين والسنن العامة، فلا تكون معجزة قط؛ إذ المعجز هو ما يعجز الإنسان عن الإتيان بمثله، ولا يكون في طاقة البشر محاكاته أو تعليله.

ومن العجيب مثلا أننا نؤمن بوقوف الشمس ليوشع، ونكفر بوقوفها للمصطفىﷺ، وكلاهما نبي، والمصطفىٰ أفضل، ورَبُّ الاثنين واحد، وناموس الكون لم يتغير، ولكنها المجاراة العمياء للمبشرين والمستشرقين.

إنما هي عقدة نفسية مستحدثة من طريق الاستعمار الفكري، تسمىٰ عقدة (**بشرية الرسول**)، ومعنى البشرية عندهم: الهبوط بمستوىٰ النبيﷺ إلى الحضيض، حتىٰ يتساوىٰ مع أفراد اليهود والنصارىٰ والمجوس في كل شيء، إلا في تبليغ القرآن ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٦].

ولقد اختلفنا من قبل مع الأستاذ السمان، وكان ذلك في الله، ثم نحن نختلف معه اليوم، ولكن في الله أيضًا، وما ذلك بِمُؤَثِّرٍ في قليل أو كثير علىٰ صداقته لنا، وتقديرنا لعصاميته وكفاحه، فإن اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية، غير أننا نحب أن نضع يده علىٰ (**عينات**) من أصول ما اعتبره تخريفًا أو تأليفًا من وضع صاحب الشفاء أو غيره من الشيوخ؛ عسىٰ أن يكون في ذلك راحة لنفسه، وتثبيتًا لقلوب مَنْ قرءوا كلمته، ومَنْ لا ينهلون ثقافتهم إلا لملمة من أقلام كتَّاب المجلات وحدهم!!

مَنْ الذي روى معجزات النبي:

فأمَّا أنهﷺ كان أول من أُخِذَ عليه الميثاق يوم «**ألست بربكم**»، وأنه أول من قال: «**بلىٰ**» فقد رواه القطان، وهو مِنْ أعرفِ العلماءِ احتياطًا وتحرزًا.

وأمَّا أنه كان أولَ النبيين خَلقًا، وأنه كان نبيًّا وآدم منجدل في طينته، فقد ألَّف فيه بعض المحدثين كتبًا، ومنها كتاب **(الأحاديث المنتقاة)**، والحديث رواه الثقات بألفاظ شتىٰ، منهم الترمذي والجماعة.

وأمَّا تنكيس الأصنام لمولده فقد رواه الخرائطيُّ وآخرون.

وأمَّا أنه خرج من بطن أمه ساجدًا مختونًا مسرورًا، فقد رواه ابن سعد وأبو نعيم والطبراني.

وأمَّا النُّورُ الذي خرج عند ولادته أضاءت له الشام، فقد رواه جماعة منهم أحمد، وناهيك بالإمام أحمد !!

وتظليل الغمام رواه جماعة منهم أبو نعيم.

وشَقُّ الصدر رواه طائفة، منهم مسلم صاحب ثاني كتاب بعد البخاري نتلقىٰ منه الدين.

وأمَّا أنه كان يَرىٰ مِنْ خلفه كما يَرىٰ مِنْ أمامه، فقد رواه مسلم كذلك وغيره.

وأمَّا أنه كان يَرىٰ في الظلام كما يرىٰ في الضوء، فقد رواه البيهقي وجماعة.

وأنَّه كانت تنام عيناه ولا ينام قلبه، فقد رواه البخاري وغيره.

وأمَّا إسلام قرينهﷺ فقد رواه مسلم وغيره.

وأمَّا أنه سيد ولد آدم، فقد رواه جماعة منهم مسلم وأحمد وأبو يعلىٰ

وابن ماجه والترمذي وابن حِبَّان والطبراني .

وأمَّا أن رؤيته في المنام حق ، وأن الشيطان لا يتمثل به ، فقد رواه مسلم من عدة طرق بعدة ألفاظ .

وأمَّا أنه لم يتثاءب ، ولم يحتلم ، فقد رواه ابن أبي شيبة والطبراني والخطابي .

واختصاصه بنزول إسرافيل عليه لتخييره أن يكون نبيًّا ملكًا أو نبيًّا عبدًا ، فقد رواه الطبراني وغيره .

وأمَّا بركة اسمهﷺ على حامله في الدنيا والآخرة ، فقد رواه أبو نعيم في حديث قدسي عن نبيط ، ورواه أبو منصور الديلمي عن علي بن أبي طالب .

وأمَّا أنَّ مَن انتقصهﷺ قُتِل ، فهو إجماع المسلمين كما نقله الخطابي وغيره ، والخلاف في قتله ، هل يكون حدًّا أو ردةً؟! ولابن تيمية وغيره في هذا الباب مطبوعات متداولة .

وأمَّا أنَّ جسده الشريف لا يبلى ، فقد رواه غير واحد ، منهم أبو داود .

وأمَّا أن ما بين بيته ومنبره روضة من رياض الجنة ، فقد رواه البخاري وآخرون .

وأمَّا أنَّه أول من تنشق عنه الأرض ، وأول من يفيق من الصعقة ، وأول من يجوز الصراط ، وأول من يدخل الجنة ، فقد رواه البخاري ، ورواه الجماعة بألفاظ مختلفة ، مع مناقب أخرى يُسَرُّ لها أهل الإيمان .

وأمَّا أنه صاحب لواء الحمد يوم القيامة : آدم فما دونه تحته ، رواه البزار وغيره .

مسألة انشقاق القمر وحنين الجذع :

وأمَّا انشقاق القمر ، وشهادة السُّفَّار بذلك ، فقد رواه أبو داود والبخاري ومسلم وأبو نعيم والترمذي وأحمد وغيرهم ، قال ابن عبد البر : روي عن جماعة كثيرة من الصحابة ، ورواه عنهم أمثالهم من التابعين ، ونقله عنهم الجمُّ الغفير ، إلى أن انتهى إلينا ، وقال ابن السبكي في شرحه على (**مختصر ابن الحاجب**) ما جملته :

«**الصحيح أن انشقاق القمر متواتر ، مروي في الصحيحين وغيرهما ، وله طرق شتى ، لا يُمترى فيها**»(١) .

وأمَّا تسبيح الطعام والحصى ، فقد رواه البزار ، والطبراني ، والبخاري .

وأمَّا تسليم الشجر والحجر عليه ، فقد رواه مسلم والترمذي والبزار وأبو نعيم .

وأمَّا تأمين أَسْكُفَّةِ (**عتبة**) الباب والجدران ، فقد رواه البيهقي وغيره .

وأمَّا كلامه ﷺ للجبل (**أُحد**) فقد رواه البخاري ومسلم .

---

(١) نحن نعرف كل المعرفة ما قاله وما يقوله من سبق ومن لحق ممن يستبعدون انشقاق القمر ، ويجعلون ذلك علامة القيامة ، ولو كانت المعجزات محكومة بنواميس العلم الكوني ، ما كانت خارقة للعادة ، ولا سميت معجزة ، ولا جاز بها التحدي ، ولا صحت للدلالة على القدرة . (المسلم) .

وأمَّا مجيء الشجر إليهﷺ فقد رواه الإمام أحمد ومسلم والحاكم والترمذي وآخرون ، منهم البغوي الإمام السَّلفي في شرح السُّنة .

وأمَّا حنين الجذع إليهﷺ حتىٰ سمع صوته ، فرواه الشيخان عن سهل ابن سعد ، ثم البخاري وأحمد عن جابر وابن عمر ، والدارمي وأحمد وابن ماجه عن ابن عباس ، ثم الدارمي عن أبي سعيد وبريدة ، وأحمد والترمذي وابن ماجه عن أنس ، والبيهقي في الدلائل عن أم سلمة ، والشافعي ، وأحمد ، والدارميُّ ، وابن ماجه ، وأبو يعلىٰ ، وسعيد بن منصور ، عن أبي بن كعب ، والطبرانيُّ في الأوسط وأبو نعيم في الدلائل عن عائشة ، وغيرهم ؛ فالخبر به متواتر كما ترىٰ ، وأخرجه أهل الصحيح ورواه عدد من الصحابة من طرق كثيرة تفيد القطع ، وقال التاج السبكي : إنه متواتر .

وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : حنين الجذع وانشقاق القمر ، نقل كل منهما نقلاً مستفيضًا ، يفيد القطع عند من يطلع علىٰ طرق الحديث .

وقال البيهقي : قصة حنين الجذع من الأمور الظاهرة ، التي حملها الخلف عن السلف

وأمَّا كلامهﷺ للجمل ، فقد رواه أحمد والنسائي والبغوي في شرح السنة ، وابن شاهين ، وصححه صاحب (**المصابيح**) .

وأمَّا كلام الذئب ، فقد رواه الإمام أحمد وسعيد بن منصور في السنن .

نبع الماء وتكثير الطعام :

وأمَّا نبع الماء من بين أصابعهﷺ فقد رواه الشيخان في الصحيحين ، وابن شاهين والبيهقي وأبو نعيم والدارمي من طرق متعددة ، وألفاظ مختلفة ، في وقائع شتىٰ لكل منها قصة ثابتة .

قال القرطبي : «**قصة نبع الماء من بين أصابعهﷺ قد تكررت منهﷺ في عدة مواطن ، وفي مشاهد عظيمة ، ووردت من طرق كثيرة ، تفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي**» .

وأما استفاضته الماء من عين (**تبوك**) فقد رواها مسلم في الصحيح ، واستفاضته من عين (**الحديبية**) رواه البخاري ، واستفاضته في الإناء رواها الشيخان ،وحديث كفاية ميضأة أبي قتادة للجم الغفير رواه مسلم ، وأما إجابة اللَّه تعالى استسقاءهﷺ لقومه في (**تبوك**) فقد أخرجه البيهقي وشيخه ابن بشران ، وأما نبع العين (**بذي المجاز**) فقد رواها ابن عساكر وابن سعد .

وأمَّا تكثير الطعام القليل حتىٰ كفىٰ ألفَ صحابي في قصة جابر يوم الخندق ، فقد رواها البخاري ومسلم ، وكذلك تكثير لُقيمات أبي طلحة حتىٰ كفت ثمانين رجلاً رواه البخاري ومسلم أيضًا ، وتكثير بقايا الأزواد القليلة حتىٰ كفت الجيش وفاضت يوم تبوك ، رواه مسلم ، وتكثير طعام أنس وهو ملء تور ـ أي إناء كالذي نسميه الأنجر الآن ـ حتىٰ كفىٰ ثلاثمائة ثم بقي كما هو ، رواه البخاري ومسلم ، وتكثير طعام عبد الرحمن ابن أبي بكر ، حتىٰ كفت شاته مائة وثلاثين رجلاً ، ثم بقي منها ما بقي ، رواه البخاري . . . إلخ إلخ .

وهنا نذكر حديث الترمذي الذي يشرح سرَّ كل ذلك، عن أبي العلاء سمرة ابن جندب قال: «**كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَتَدَاوَلُ فِي قَصْعَةٍ مِنْ غَدْوَةٍ حَتَّى اللَّيْلِ يَقُومُ عَشَرَةٌ وَيَقْعُدُ عَشَرَةٌ قُلْنَا: فَمَا كَانَتْ تُمَدُّ؟! قَالَ: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَعْجَبُ؟ مَا كَانَتْ تُمَدُّ إِلا مِنْ هَا هُنَا وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى السَّمَاءِ!**» .

مسألة رد البصر وشفاء المرضى :

وأمَّا رد بصر الأعمىٰ، فذلك مستفيض في الصحاح عن الرجل الذي علمه رسول الله صلاة الحاجة والتوسل به ﷺ إلىٰ ربه، فما لبث أن رجع إلى القوم يمشي بلا قائد ولا عصا، وحديثه ركن من أركان قضية التوسل مشهور .

وأمَّا إبراء المريض كما حدث لسلمة يوم خيبر؛ إذ نفث رسول الله ﷺ علىٰ ساقه المضروبة، فما اشتكاها قط، رواه البخاري .

وكانت عينا فُدَيك -بضم الفاء وفتح الدال- قد ابْيَضَّتَا، فنفث الرسول فيهما، فأصبح يدخل الخيط في الإبرة، وهو ابن الثمانين، رواه ابن أبي شيبة، والبغوي، وابن السكن، والطبراني .

ولَمَّا أُصيبت عينُ أبي ذر في (**أُحُد**) نفث فيها الرسول، فعادت كما كانت، رواه أبو يعلىٰ وآخرون .

وأمَّا قصة عين قتادة التي سالت علىٰ خده في الجهاد، وكيف ردها النبي ﷺ فكانت أصح عينيه، فقد رواها أبو يعلىٰ، وأبو نعيم من طريق عاصم بن عمر ابن قتادة، ورواها البيهقي عن الخدري عن قتادة بن النعمان، وذكرها الواقدي وعبد الله بن إدريس، والحافظ ابن عبد البر،

واستشهد بها الأصمعي، رواية عن رجل من ولد قتادة بن النعمان، وكان يتمثل بها عمر بن عبد العزيز.

وأمَّا أنهﷺ تفل في عين علي بن أبى طالب يوم خيبر فبرأت كأن لم يكن بها وجع، فقد رواه البخاري. وأما قصة إياس بن سلمة الذي جاء بأبيه يقوده أرمد، فنفث النبيﷺ في عينيه فبرأ لساعته، فقد رواها مسلم. وأما قصة محمد بن حاطب، حين انصبَّت القِدْرُ عليه فاحترق جلده، فحمله إلى رسول الله، فنفث عليه ودعا فبرأ لوقته، رواه النسائي.

وأمَّا العرجون الذي دفعه النبيﷺ إلى قتادة بن النعمان، فأضاء له في الليل المطير، فقد خرجه أبو نعيم، وروى نحوه البخاري في الصحيح والبيهقي بتصحيح الحاكم عن أنس، في قصة عباد بن بشر، وأسيد بن حضير، وكيف أضاءت لكل منهما عصاه، وروى نحوه كذلك البخاري في التاريخ، والبيهقي وأبو النعيم في قصة حمزة الأسلمي، وكيف أضاءت أصابعه، حتى جمع القوم برحالهم وقضوا تفثهم.

أمَّا شكوى الطير إليهﷺ في فجيعته بولده، فقد رواه أبو داود وآخرون.

وهكذا قُلْ في بقية ما ورد من معجزاته وخصائصهﷺ مما لم يُنَصّ عليه في القرآن تفصيلاً، وإن كان قد أشير إليها إجمالاً في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[الضحى: ٥] ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

وبين يدينا كتب الشمائل والخصائص والدلائل وأعلام النبوة، وما هو منها لثقات المؤرخين والمحدثين، وفيها كل هذه المعجزات، وأضعاف أضعاف عددها من أمثالها وغير أمثالها، محكومة بالقانون العلمي المتفق

عليه بين المسلمين في فن الحديث ، والذي ألمعنا إليه في أول هذه الكلمة ، فإذا جاز لنا تجريح هؤلاء الأئمة فيما نقلوه إلينا من معجزاتهﷺ ، لتعين أن نجرحهم من كل ما جاءنا عنهم من أمر الدين ، وهكذا يصبح الدين كله مشكوكًا فيه على هذا الأصل .

(أما بعد) : فكل ذلك غيض من فيض ، من معجزات صاحب مقام ﴿ إِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨] و﴿ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ١٢] .

كلمة أخيرة :

ثم وقد وضح تَجَنِّي السيد السَّمانِ على هذا المقام الأشرف الأكمل ، ونستغفر الله لنا وله ، فهل لنا أن نعتبَ عليه في اغتمازه بإسراف تلك الصحف الإسلامية المتواضعة المحدودة ، وهو يعلم أنها البقية الباقية من الخير النقي ، وأن لها جمهورها الغيور المؤمن المعتقد ، الذي يجعل لها في الجماهير الأخرى إيجابيتها وفعاليتها ، التي لا تنافسها فيها المجلات التي تستنزف مال الدولة ، وتوزع بالمجان ، ولا تجد القارئ المؤمن ، وما يخرج منها إلى السوق يعود إلى المخازن -مائة ونصفًا من كل مائة مجردة- فيما عدا الهدايا !! كما يعلم الأستاذ السمان .

أليست الصحف الإسلامية المتواضعة المحدودة ، على أسوأ حالتها ، في أعلى مستوى كان يرجى للسلسلة التي يصدرها الأستاذ السمان من الرسائل المتواضعة المحدودة ، بل المغرقة في التواضع والمحدودية وما في معناها ! .

إن القوامين على هذه الصحف يضحون بأوقاتهم وأقواتهم وصحتهم ،

وضروريات بيوتهم، ومخصصات أبنائهم في سبيل الله، بل يضحون بكيانهم الذاتي وبآمالهم، وبكل ما يملكون، وليس كذلك شأن المستأجرين للعمل في الصحف الإسلامية الكبرى، تلك التي تُولد ميتةً مكفنةً أجمل الأكفان!!، ثم تعود لتدفن في المخازن ودور الكتب مجاميع مجاميع!

ثم إن الأستاذ السمان يشتغل دائمًا حيث يشتغل الأستاذ الزيات!! وقد سمى الزيات (**غناء أم كلثوم**) قرآن الفجر، وفضل حاكمًا كبيرًا على سيد ولد آدم المصطفى، واحتقر الدعوة المحمدية في قضية الوحدة، وادّعى أنَّ الأديب نبي يوحى إليه، ومن قبل ادعى أن هجرة فوزية أخت فاروق إلى إيران، كهجرة النبي إلى المدينة، إلى آخر هذه السقطات المؤسفة (**التي يتأذى منها الذوق السليم، ويتقزز العقل المستنير**) كما يعبر الأستاذ السمان.

وهذا بحق هو (**الخضم من الخرافات والأساطير**)، المنبعثة من (**العاطفة الخرقاء**)، بل هو أدنى مرتبة في الأخلاق من كل ذلك بإجماع عقلاء المشرقين.

ومع هذا لم نجد للأستاذ السمان ثورة من أجله، ولا تعليلاً لعدم (**الهجوم عليه**) ببعض ما هاجم به العلماء المؤمنين بالقدرة، المحتفين بالنبوة، المثبتين ما صح لديهم من شرائف الأخبار، عن أقدس بشر نبي، وأفضل خلق إنساني، ولا ما هاجم الصحف الإسلامية الشعبية التي تستمد حياتها من العقيدة والطهر، وتؤدي رسالتها إيمانًا واحتسابًا، فتزاحم بقوةِ تواضعها أضخمَ المجلات الأخرى كبرياءً وغرورًا، لا نجد لكل هذا تعليلاً إلا ما نعرفه ويعرفه الناس جميعًا! ويعرفه قبلنا الأستاذ السمان!

بقي المرض الاستعماري التبشيري الجديد الذي يفاجئ كل طالب شهرة شاذة من الكتَّاب ، وهو الهسيتريا النفسية التي يسمونها (**بشرية الرسول**) ، وعدم عصمته وعدم تفضيلهﷺ ، وقد انتفع بهذا المرض بعض الناس من قبل في بلوغ أهداف الشهرة والشهوة ، والكلام هنا طويل ، فلنرجئه إلى درس آخر إن شاء الله ، ومن يرد الله أن يهديه يشرح صدره .

***

العشيرةُ بيْنَ عامين
مَا كَان لله دَامَ وَاتَّصَل، وَالعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى(١)

التَّصوف والإسلام:

بسم الله، والحمد لله، أحمده، وأستعينه، وأستهديه، وأستغفره، وأستفتح بالذي هو خير، وأما بعد: فَعَلَى عادتنا في كل عام، نتحدث إليكم أيها الأخوة في أمورنا الروحية والإنسانية، والاجتماعية، والثقافية، وغيرها من الخدمات الإسلامية، تلك التي يفرضها دينُنا على كل قادر، ولا يَتَرَخَّص فيها مع غافلٍ أو لاهٍ، أو عابث أو كسلان، أو غير معذور، فإنما الإسلام جهاد وإنتاج، وهو إيمان وعمل، للمعاش والمعاد، وهو تطوع في كل ميدان شريف، وتبرع بالنفس والمال والفكر والبدن واللسان؛ حتى لا يكون فوق المسلم إنسان، ولا تكون سيادة لغير أهل القبلة على الزمان والمكان.

وقد علمتم أن تصوفنا هو الاعتصام بكل ما في الطاقة بعزائم الإسلام، والاستمساك المبصر بصحيح أحكامه، والوقوف المتفقه عند حدوده وقيوده، فتصوفنا فيما نعتقد هو خلاصة الإسلام وإكسيره وعصارته، والصوفي الحق في رأينا هو صورة حية من سيدنا المصطفى ﷺ، أو هو على الأقل صورة من صحابي مفضل، أو تابعي جليل، ليس في مظهره وصورته -فذلك لا يَغْنِينَا

---

(١) الكلمة المركزة التي ألقاها السيد الرائد، في الانعقاد السنوي العادي للجمعية العامة للعشيرة بالدار المحمدية العامة، في مناسبة إحياء ذكرى الإمام سيدي إبراهيم الخليل بن علي الشاذلي رضي الله عنه. وهي تعتبر التقرير العام السنوي عن بعض ألوان النشاط المُنَوَّع في العشيرة.

قط - ولكن في حقيقةِ ذاته، وفي كافة مقتضيات حياته، وفي مطلق شخصياته واجتماعياته ومتعلقاته، وعلاقاته.

ولا علاقة لنا بتصوف غيرنا، إذا هو لم يتساوق مع مبدئنا، ولم يساير قواعد دعوتنا، وإذا كان هناك تصوف هابط لسبب أو لآخر، فنحن لا نؤاخَذُ به، فإنما إثمه على الذين ابتدعوه وصنعوه، ثم على أولئك الذين قدَّسوه قبل أن يدرسوه، ثم على جماعة المنتفعين به، ومَن به يُشَعْوِذُون ويتكاهنون: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩، ٧٠].

إن تصوفنا هو الإسلام كله، وهو الحياة كلها.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٧].

أنتم أساتذةُ النَّاسِ:

أيُّها المحمَّديُّونَ: لقد شرَّعتم شرائعَ، وقعَّدتم قواعدَ، وبيَّنتم بيانًا، وأصَّلتم أصولاً، وسنَنْتُم سُنَنًا، فكنتم بحقٍّ أصحاب المدرسة الإصلاحية الروحية الجديدة في كل شيء بهذا العصر الحديث.

وهاهم أولاء السادة الذين حاربوا من قبل مبادئكم، وبذلوا في سبيل القضاء عليكم ما لم يخطر بالبال، قد أصبحوا يتتلمذون عليكم، ويأخذون عنكم، وإن منعهم الاستعلاء ودواعي الصدور أن يعترفوا، فإن التاريخ الثابت المسجل والحق الواقع المؤكد المشهود المؤيد، ناطق بأنهم عيال عليكم، فيما يدَّعُونَهُ لأنفسهم اليوم، وهم لكم تبع فيما سبقتموهم وتسبقونهم دائمًا إليه، في سبيل الله، والتصوف، والدار الآخرة، وتسامي الحياة الدنيا.

مَن الذي أعلن بطلب الإصلاح الصوفي قبلكم ؟!

مَن الذي وضع فكرة المؤتمر الصوفي ، المحلي والعالمي ، وأخرجها فعلاً إلى الواقع قبلكم ؟!

مَن الذي أرسى أركان الجامعة الصوفية العالمية قبلكم؟

مَن الذي قرر فكرة التصوف الإيجابي المنهجي وأذاعها قبلكم؟

مَن الذي كان ومازال يدافع عن مبادئ التصوف وقواعده ، وعقائده قبلكم؟!

مَن الذي أخرج أول مجلة صوفية في هذا البلد قبلكم ؟

مَن الذي رفع اسم التصوف وأذاع صوته ، وأعلن بدعوته ، وكشف حقائقه وكنوزه ، وجمع على الحق رجاله ، وتَسَامَىٰ بمستواه ، ونشر في الأوساط الأدبية والعلمية ذكره ، ورفع بحق قدره ، قبلكم ؟

مَن الذي أدمج التصوف في الحياة ، وفضح زيفه ، وشرح صرفه ، ونقَّاه من المدسوس والمدلس ، وبيَّن أصيله من دخيله قبلكم؟

مَن الذي تعرفه دنيا الشعوب الإسلامية ملاذًا للتصوف ، وعياذًا له ، وحصنًا حوله ، ودريئة عليه ، ومرجعًا فيه ، غيركم ؟

مَن الذي نظم أول موكب لشعراء الصوفية في العالم ، ونظم أول موكب لخطباء التصوف في الدنيا غيركم؟

مَن الذي يقف وحده في الدنيا مكافحًا ، منافحًا ، هاديًا ، داعيًا ، لا يعتمد على سلطان ولا جاه ، ولا يعمل لحساب أحد ، ولا يُعَان من أية جهة سواكم؟

مَن الذي ربط التصوف بالخدمات الاجتماعية والثقافية والإنسانية والعلمية وغيرها قبلكم؟

مَن الذي أسس أول كلية صوفية في العالم قبلكم؟

مَن الذي حرر المفاهيم الصوفية من الخرافة والجمود والانحراف والعبث قبلكم؟

مَن هو صاحب الدعوة إلى الدار الصوفية العامة والمعاهد الصوفية الخاصة، والمجمع الصوفي العلمي، غيركم أو قبلكم ؟

ألا حسبكم هذا وحسبكم، والله أعلم حيث يجعل رسالته، وستحفظ الدنيا لكم هذا السبق النادر مفصلاً مفضلاً، وسيأتي يوم تكون تعاليمكم ورسائلكم ومجلتكم من بعدكم مرجع الدنيا، واحتكام الناس، وحجة التاريخ، فانطلقوا على اسم الله، فأينما تولوا فثم وجه الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

من آثار التصوف الإيجابي :

ولقد كان من أثر ممارسة هذا التصوف الإيجابي الحي، أن وقفتم بقوة الإيمان والعلم تكافحون الانحلال والخلاعة والتبذل، وتقاومون ما شاء الله من انحراف الجماهير، وطغيان المادة، وتضليل التقدم والحضارة في كافة الأوساط، وعلى كافة المستويات، بالقول محاضرةً في النوادي والأحفال، وخطابةً على المنابر، ودروسًا في المساجد، وقاعات الثقافة، وبالعمل كتابةً في المجلات والصحف، وتوجيهًا للمختصين، ولقاءً مع المسئولين.

ولازلتم تنتجعون في سبيل هذه الخدمة إلى مختلف القرى والمدن،

مضحين بالأوقات والأموال والجهود التي قد تكونون في بعض الحاجة إليها في وجوه أُخَر .

وما نسيتم بجوار ذلك تبصير الناس بمخاطر البدع والمنكرات ومقارفة المحرمات .

ولا نسيتم تبشير الناس بيسر الدين وسماحته وجماله وطرافته ، وردهم إليه ، وجمعهم عليه ، وتحبيبهم فيه .

ولا نسيتم خدمة الشباب والفتيان والرجال والنساء ، ولا تبليغ دينكم إلى غير أهل ملتكم ، فآمن به معكم بحمد الله عدد غير قليل .

ولا نسيتم حقوق أهل البيت ، ولا الدفاع عن النبي وأولياء الله .

ولا نسيتم العمل على تجميع الصف الإسلامي ، ونبذ الخلافات الفرعية ، والتعصبات الانتهازية والنفعية ، وبذل الجهد في التقريب بين الشعوب والشخصيات والهيئات العاملة في الحقل الإسلامي لوجه الله وحده .

ولا نسيتم أن تظل داركم المتواضعة ، قبلة كل شخصية إسلامية أو صوفية ، تزور مصر ، فترى في داركم بقايا النور والمعرفة والتصوف النقي الحي ، وترى صور السلف الصالح ، وتحس ترابط العالم الإسلامي بعيدًا عن الرسميات والتكلف والرياء .

ولا نسيتم واجب مجاملات إخوانكم في الله ، في المناسبات المباركات ، تسجِّلونها لهم ، وتكرمونهم بها ، وتتوجهون أنتم وهم جميعًا بها ، عبادة خالصة لوجه الله ، مبرأة من كل نقيصة ، أو اتجاه صغير ، أو إرادة غير الله .

ولا نسيتم توجيه العقول والقلوب إلى مخادعات الدعوة الوهابية، ولؤم سياستها المتسترة بالدين، والتي كنتم أول من هاجمها بصراحة، وكشف عورتها، يوم كان كل إنسان يسبح بحمدها، إما بحكم الغفلة، أو بحكم السياسة، أو بحكم أنه مُشترَىٰ للوهابية الخبيثة، بدنانير فانية، لا تغني من الله شيئًا.

ثقة المسئولين والشعب بالعشيرة:

وإنَّ من فضل الله عليكم ثقة أولي الأمر بدعوتكم، والسماح لكم دون غيركم بإقامة أحفالكم ومواسمكم، في أكبر مساجد القاهرة، وأشهر جوامع الجمهورية كلها، وأنتم لم تنسوا بعد تقدير السيد الرئيس للعشيرة وللسيد الرائد في كتابيه التاريخيين المعروفين عندكم، وفيما لا يزال يتبادله معكم من مكاتبات وبرقيات.

وكان أيضًا من مؤكدات هذه الثقة، اشتراك السيد محافظ العاصمة في سماط الفقراء السنوي (أيام رمضان) في دار العشيرة.

وكان بالتالي من ثقة الشعب بكم، أنه ما تقدم واحد منكم لانتخابات الاتحاد الاشتراكي العربي على مستوياته المختلفة، إلا نجح نجاحًا إجماعيًّا بحمد الله.

وكان الناجحون في الاتحاد الاشتراكي من رجال العشيرة، عددًا ضخمًا لا يُستهان به، وقد سبق للمسلم أن نشرت أسماء بعض هؤلاء الإخوان، على سبيل المثال لا الحصر، وذلك بما لكم من بُعد النظر، وعُمق الفكرة، والبُعد عن أسباب الفتن والاضطراب مع الأدب، والمعاونة في كل عمل سليم شعبي أو رسمي على حد سواء.

مجلة العشيرة :

ولازالت «المسلم» مجلة العشيرة، رغم ضيق الموارد، وغلاء الأوراق، وارتفاع أثمان وسائل الطباعة، وأجور الصف وغيره، ورغم تلاحق العقبات والمتاعب، فهي تمضي الآن بفضل الله في عامها الثالث عشر بقوة مطلقة، ونهضة ملحوظة مباركة، لم تتخلف أبدًا، ولم تضعف يومًا، ولم تنقطع عن مشترِك، ولم تنشر إلا الخلاصة الغالية مما يهم كل مسلم، الأمر الذي زادها بحمد الله ثقةً وسعةً وانتشارًا في الجمهورية العربية، وبقية البلاد الإسلامية في كافة القارات.

إننا نحرص على أن نقدم لقارئنا عصارةً وإكسيرًا من العلم والمعرفة والأخبار في عمق وإدراك، فخلف كل حرف -فضلاً عن كل كلمة- معنى وهدف معين، بقدر ما نحرص على أن نربط قارئنا برأي الإسلام في أهم ماجريات الأمور، وأن نبصره بأمجاد الماضي، وجهود الحاضر، وأهداف المستقبل، وحركات الواقع فيما بين كل ذلك؛ فيرتبط بنا ونرتبط به، لله وفي الله، وإن بَعُدت الأقطار.

فليست مجلتُنا مجلةَ بحثٍ وإنشاءٍ ومقاولةٍ مجردة، إنها مجلةُ تربيةٍ وتوجيه، وكفاح وتبصير، وتسجيل وتفتح، وتاريخ، إنها مجلة دعوة نظيفة، لا يستطيع القارئ -وقد بدأها قراءة- أن يلقيها حتى يفرغ من آخر ورقة فيها، وهي كذلك مجلة متطورة، مادةً وإخراجًا، مسايرة لعصر السرعة والاستخلاص والحركة.

فإذا أضفنا إلى كل ذلك إخلاص القائمين عليها وتفانيهم، وتضحياتهم، وصدق إخلاصهم، وعلاقتهم بالله، والتفاني في خدمة القارئ.

ثم إذا أضفنا إلى ذلك أنها مجلة لا تتلقى إعانة ، ولا تعتمد على غير الله بعد اشتراك المشتركين ، وهم كثرة بحمد الله ، فقد تبين من ذلك سر نجاحها واستمرارها ، وصمودها في الوقت الذي تهاوت فيه عشرات المجلات الكبرى ، تلك التي تستمد حياتها من تلقي الإعانات ، أو من الإكراه على الاشتراك ، بسيف الحياء أو سيف الحياة ، فكانت تحمل في ذاتها أسباب فنائها .

شيء من النشاط الثقافي والديني :

ونحمد الله على أن مساجدكم عامرة تزيد ولا تنقص ، ومنها تشرق أنوار هذه الدعوة المباركة على الناس ، وهذه احتفالاتكم بذكريات الرجال ، وإحياؤكم أيام الله والمناسبات الكريمة في حدود شرع الله ، فضلاً عن أحفالكم الإخوانية المنوعة .

وهذه حلقات التعبد والدروس الخاصة بالرجال ، والخاصة بالنساء ، والخاصة بالفتيان والفتيات .

وهذه محاضراتكم الليلية والنهارية بالنوادي ، ومراكز الثقافة ، وبيوت الله الكبرى ، وهذه رحلاتكم الروحية ، أو الاجتماعية ، أو الثقافية ، ثم مشاركاتكم الكبرى في المناسبات القومية ، والوطنية ، والدينية ، وهذه قاعاتكم المخصصة للاستذكار ، والمدارسة ، والعلاجات النفسية والتربوية ، وهذه لجنة الفتوى ونشاطها الكبير ، وحلقة الشعراء المحمديين ، وصوتها المرفوع في كل مكان وزمان .

كل أولئك ماضٍ في سبيله قدمًا إلى غايته مؤيدًا بعون الله .

شيء من النشاط الاجتماعي والإنساني :

وقد كررنا ما أنتم أدرى به ، من أن مواردنا ضحلة محدودة ، شأن كل جماعة نظيفة ، تجاهد بحق في الله ، ومع هذا فهي مبارك فيها وعلى مَن فيها .

فلا نزال – على مستوى المحافظة- نرعى المحسوبين على العشيرة من الفقراء أفرادًا أو عائلات ، ونرعى اليتامى ومحتاجي الطلبة والطالبات بمال الله الذي آتانا على قلته ، وإن كان الأمل كبيرًا في بعض أتقياء الأثرياء المسلمين .

ولا نزال نبذل من الشفاعات في سبيل الطلبة المعوقين ، والعمال العاطلين ، وعلاج المرضى ، وصرف الدواء للمعدمين ، وترحيل المغتربين ، والرعاية في طوارئ الولادة والعجز والحجز ، والمفاجآت وتجهيز الموتى ودفنهم بمدافن الصدقة للعشيرة ، والأخذ بيد الناس في مختلف المصالح : نبذل الجهد الجهيد .

ولا نزال نوزع الأكسية ، والأحذية ، والأغطية الجديدة والمستعملة ، ونوزع الدقيق واللبن وغيره ، فضلاً عن المساعدات الأدبية والإنسانية بقدر الإمكان .

بعض المشروعات :

وقد تقدمنا إلى المختصين بعديد من المشروعات ؛ رجاء إنشاء بعض المراكز الثقافية الروحية ، وقاعات الاستذكار ودور الحضانة ، وبعض المشاغل لتأهيل الفتيات فنيًا ومهنيًا ودينيًا ، ولا زال كله رهن البحث في الجهات المختصة .

ولا نزال نواصل نشاطنا مع المسئولين في رجاء الانتفاع بتجميد حصيلة أموال النذور ؛ للانتفاع بها في إنشاء البيت الصوفي الجامع لدار

الضيافة والمكتبة الصوفية، وقاعة المحاضرات، والمعهد الصوفي، والمجمع الصوفي، والمؤتمر الصوفي، ورعاية الأسر الصوفية، والطلبة الصوفيين.

كما لا نزال نواصل الجهد في رجاء استكمال المطلوب لمقبرة العشيرة وزاويتها وضريح الأئمة المحمديين، واستكمال مرافق ومطالب البيت المحمدي.

ولا تزال جهودنا موصولة لدى المسئولين للعمل على رعاية الجمعيات الإسلامية والصحف الإسلامية، وما هو من هذا السبيل.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

كلمة أخيرة:

إنَّ المحمديَّةَ تتلخص في جملة واحدة، هي «**خدمة العقيدة والفضيلة والتسامي بالإنسانية**»، وهي أهداف مفروضة فرضًا عينيًّا على كل مسلم ومسلمة، وهذا ما تمارسه العشيرة المحمدية، باعتبار أن هذه الأهداف الثلاثة جامعة لكافة الخدمات الدينية، والروحية، والاجتماعية، والأخلاقية، والثقافية، والإنسانية وغيرها، سواء كانت مضافة إلى الأفراد أو إلى الجماعات أو إلى الشعوب والأمم.

فاحفظْ ذلك وبلِّغْه سواك، أثابك الله.

أما الجوانب الإدارية أو المالية، والحسابات المختلفة، فهي بقاعة الإدارة رهن الإشارة، تحت تصرف أي أخ، يحب الاطلاع أو يرغب في المعرفة، أو التعاون لله.

وهي بحمد الله حسابات نموذجية، بشهادة المختصين، سواء في تنسيقها أو أسلوب ممارستها، أو دفاترها أو جميع متعلقاتها.

وهي تخضع بحمد الله للتفتيش الإداري والثقافي والاجتماعي الرسمي من عدة وزارات، وعدة جهات حكومية.

وتستطيع أن تدرك صورة إجمالية لبعض ألوان النشاط من الإحصاء البياني الإجمالي المنشور فيما بعد إن شاء الله، وسلام على عباده الذين اصطفى، والحمد لله رب العالمين.

***

محادثاتٌ وفتاوى وإجاباتٌ[١]

موعدي مع أحبائي هذه المرة، أنْ نلتقيَ على محادثة خفيفة منوعة- كأحاديث أمسيات الأربعاء بدار العشيرة- إجابة على شيء مما لدينا من استفتاءات واستفسارات شتى.

وقد تعوَّد الإخوان -رضي الله عنهم- أن يستخلصوا من الإجابة سؤالها؛ فإنَّ ضيق المجال، والحرص على تقديم أكبر قدر من الفائدة، يضطرُّنا اضطرارًا إلى الاكتفاء بنشر الإجابة دون السؤال، وهي تدل بمفهومها على سؤالها، وقد أصبحت هذه قاعدة شبه مقررة عندنا وعندهم، والله المستعان:

النَّبيُّ نورٌ في القرآنِ:

عادت كثرةُ لغط الفئة الحمقى، حول قضية أنَّ النَّبيَّ من نور الله، وحول حديث جابر في أنَّ النَّبيَّ ﷺ أول مخلوق من نور الحقّ تعالى، وقد سبق لنا الكتابةُ في هذا الباب، ولكننا نرجو أن نعود فنخصه ببحث مستقل في وقت قريب بإذن الله؛ لنقطع دابر هذه اللجاجة، ونجفف بقية هذه المحاجة!!

لكن صاحب الاستفهام يتعجلني أنْ أَدُلَّه على ما يشير ولو إجمالًا، إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ نورٌ من نور الله في القرآن، ورغم تكراري شرح هذا المعنى في

(١) مقال: غرة رجب (١٣٨٣هـ)، ١٧ نوفمبر (١٩٦٣م)، العدد الثاني عشر ـ السنة الثالثة عشرة.

كثير من المجالس والدروس ، أقولُ فاسمع هُديت :

١- يقول الله تعالىٰ : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور : ٣٥] .

فهو سبحانه النور الذاتي السرمدي الأقدس، المنزه عن كل وَصْفٍ معروف، أو عُرْفٍ موصوف.

٢- ويقول الله تعالىٰ ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة : ١٥] ، فسمَّىٰ نبيهﷺ نورًا ، ودلَّ علىٰ أنه منه سبحانه بمقتضى العطف الذي يستوجب المغايرة في الآية .

٣- ويقول الله تعالىٰ : ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور :٣٥] فدلَّ علىٰ أن إدراك هذا المعنىٰ والإيمان به إنما يكون من توفيق الله وهدايته ، فهو من مواهب الخواص .

٤- ويقول تعالىٰ : ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور :٣٥] .

وقد اختلفت الآراء هنا ، فلا علينا إذن إنْ قُلنا : إنَّ المشكاةَ هي الصورةُ والمظهر المحمدي ، وإنَّ المصباحَ هو نورُ الله ، وسر الحقيقة في هذا المظهر البشري . ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦] يمد بنوره سواه ، لأنَّ النور فطرةٌ فيه .

وهذا من رأينا الذي لا نجبر أحدًا عليه ، ولا نجادل من يرىٰ غيره ؛ إذ هو محلُّ احتمالٍ ومحطُّ وجوه ، والأخذ بالإشارة هنا لا يتنافىٰ مع المقرر من ظاهر اللفظ ومقتضى السياق ؛ إذ الإشارة معنىٰ زائد يفاض علىٰ مَنْ هم أهلُهُ ، ولا يتعارض مع المعنى القريب .

إنَّ العلم الحديث أثبت بما لا مجال فيه للشك، أنَّ أصل هذا الكون إشعاعٌ أي نور، حقيقة علمية قررها عِلْمُ الذَّرَّةِ في أرقىٰ مراقيه التجريبية.

فأصلُ كل ما تقع عليه العينُ الذَّرَّةُ، والذَّرَّةُ نواة وكهارب، والكهارب إشعاع وذبذبة في الأثير، والأثير نور الله الذي لا يعرف أحد ما هو!!

فمتىٰ ما ثبت هذا كان كل شيء: بشر أو حيوان أو نبات أو ماء أو جماد أصله النور.

والنور من الله ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

ومشهورٌ علىٰ أَلسُنِ المسلمين أنَّ الله خلق من نوره نور نبيه، ومن نور النبي خلق الخلق جميعًا، وهو قريبٌ جدًّا من عين مقررات العلم الحديث، وله وجوه من العرض والربط والتوجيه، مَنْ آمن بها فهو غيرُ آثم ولا ملوم، بل لعله مشكورٌ مأجورٌ مقدور مبرور! ومَنْ لم يؤمن بها فلا حرج عليه، وقد هلك المتنطعون.

حديث: وآدم منجدل:

وهذه قصاصة من أخ بعث إليَّ بها، من إحدىٰ المجلات يقول كاتبها: إنَّ حديث: «**كنتُ نبيًّا وإنَّ آدمَ لمنجدلٌ في طينته**»، لا معنىٰ له، ولم يصدر من فَمِ النبوة، ثم لم يأتِ الكاتب علىٰ هذه الدعوىٰ بأي دليل عقلي ولا علمي.

وعلماء الحديث، وعلماء اللغة، يقررون أنَّ الحديث صحيح ثابت، وأنَّ معناه في أرفع مستوىٰ بياني يعرفه الناس.

فالحديث رواه أحمدُ والبزَّارُ، والطبرانيُّ والبيهقيُّ، وصححه ابنُ حِبَّان

والحاكم، وأقرَّ تصحيحَهما الحافظُ ابن حجر، ونصُّهُ عن العرباض بن سارية، قال رسول الله ﷺ: «**إنِّي عَبْدُ اللَّهِ وخَاتَمُ النَّبِيِّنَ وَإِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبِشَارَةُ عِيسَىٰ بِي وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ وَكَذَلِكَ أُمَّهَاتُ النَّبِيِّينَ تَرَيْنَ، وإنَّ أُمَّ رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نورًا، أضاء له قصور الشام التي رأتها**».

أما من حيث البيان اللغوي، فإنَّ تعبير الانجدال في الطين لا يصغِّر من قدرِ جدِّنا آدم، ولكنه إشارة إلىٰ رفعةِ مقامِ المصطفى ﷺ في الأزل، والتكريمُ في ناحية لا يستوجب التهوين في الناحية الأخرىٰ، ثم إنَّ اللفظ قد يكون مستهجنًا عُرفًا، ولكنه غير مستهجن لغةً وعلمًا، كألفاظ النكاح بمعنى الزواج، والهلك بمعنى الموت، والانجدال بمعنى الانطراح... إلخ، فهي في العُرفِ غيرها في اللغة والبيان.

وكما أنَّ في هذا الحديث ردًّا علىٰ منكره، فيه كذلك ردٌّ على الأستاذ الكاتب، الذي جعل مسألة النور الذي أضاءت له الشام لحظة ولادة الرسول ﷺ تخريفًا تدور له الرءوس، لأنه لا يعرف إلىٰ أيِّ حدٍّ بلغت قوةَ صحة هذا الحديث الشريف، مع الإيمان بالقدرة، عافانا الله من القول الجذاف، والحكم بالهوىٰ، والاستكانة للغرور والتفاهة

قبرُ إسماعيلَ في الحِجر:

في بعض كتاباتنا عن صحة الصلاة في المساجد ذات القبور، ذكرنا أنَّ في حِجر الكعبة المشرفة قبرَ نبي الله إسماعيل بن خليل الله النبي إبراهيم.

ويقول السائل : من أين أخذنا هذا؟

ونحن نقول : رواه الديلميُّ وآخرون عن عائشة مرفوعًا ، وما دام قد صحَّ أنْ نُصليَ في الكعبة ، وفيها هذا القبر ، مع قبور أخرىٰ ، فقد صحَّ أنْ نصلي في كل مسجد فيه قبر ، وأحاديث المنع محمولة علىٰ وجوه ، ومعللة بأسباب ، كلها مردود ، وتفصيل هذا ودليله في أعداد المسلم السوالف ، فليرجع إليه من يشاء .

النَّبيُّ يرى من ورائه :

كان بعض كُتَّابنا الراغبين في مجرد المخالفة ، لسبب أو لآخر ، قد كتب يستكثر أو يستبعد على النبيﷺ أن يكون قد أُعطيَ خصيصة الرؤية من الخلف كما يرىٰ من الأمام ، كأثر هستريا الجهل ببشرية الرسولﷺ ، والتأزم النفسي بحرمته!

وقد أشرنا في مقال إثبات المعجزات المنشور قبلًا ، إلىٰ بعض الأحاديث التي وردت في هذا المعنىٰ للقطع به ، من حيث الخبر ، والنقل ، والتاريخ الإيماني .

ونذكر هنا أنَّ الصحف العامة ، كانت قد نشرت غير مرة أخبارًا عن عدد من البشر ، هم دون المتوسط في المستوىٰ العام ، بل لعل منهم غير المسلم ، وغير المتورع ، وقررت الصحف أنه قد ثبت لهؤلاء جميعًا خصيصة الجلاء القلبي ، فهم يرون ما وراء الجدران ، فضلًا عمن وراء الظهور ، كما أنَّ علماء الروحية الحديثة ، يثبتون لبعض الأشخاص صفة الجلاء البصري ، الذي يرون به ما وراء المادة ، ثم لم نسمع بأي اعتراض مُوَجَّه

إلىٰ هذه الأخبار، رغم عدم توافر أسباب التوثيق في بعضها، بل الْتُمِسَت لها وسائل التبرير العلمي والروحي والنفسي . . . إلخ .

وأذكر أنني قرأت لابن الرومي في همزيته قوله مادحًا صاحبه :

بـل تراهـا وأنـت مـستدبر الظهـر بقلـب مـصور مـن ذكـاء

رب قـوم رأوك ريعـوا فقـالوا هـل تكـون العيـون في الأقفـاء؟

والفواد الذكي للمطرق المعرض عـين يـرىٰ بهـا مـن وراء !!!

فما لم يفلح في الإقناع مذهب الإيمان، ولا العلم، فهل يفلح منطق الشِّعر؟ ربما!!

الأوتاد من رجال الله :

سبق أنْ أشرنا إلىٰ قضية الأقطاب والنجباء والمفردون . . . إلخ، والسؤال هنا عن الأوتاد، مَنْ هُم؟! تكملةً لسابق ما نشرناه قديمًا .

والجواب هو ما رواه الإمام ابن الجوزي بسنده إلى النبيِّ ﷺ قال : «**إنَّ للمساجد أوتادًا جلساؤهم الملائكة، إذا جلسوا لذكر الله، حفَّت بهم الملائكة، إلىٰ عنان السماء، بأيديهم قراطيس الفضة، وأقلام الذهب، يكتبون الصلاة على النبي ﷺ يقولون : أكثروا رحمكم الله . فإذا استفتحوا الذكر فتحت لهم أبواب الجنة، واسْتُجيب لهم الدعاء، وأقبل الله عليهم بوجهه الكريم . إلخ إلخ**» .

وهذا الحديث مما يؤخذ به في هذا الباب، وهو يفيد:

١- أنَّ هناك أوتادًا .

٢- أنهم من عُمَّار المساجد .

٣- أنهم من مكثري الصلاة والتسليم على النبيﷺ بصفة خاصة .

٤- أنهم من أهل الذكر بصفة عامة .

٥- أنهم جلساء الملائكة .

٦- أنَّ دعاءهم مستجاب ، نسأل اللَّه أن يلحقنا بهم على الإيمان الكامل .

الذكر حتى يقولوا مجنون:

حديث : «**أكثروا ذكر اللَّه حتى يقولوا مجنون**» **بألفاظه المختلفة ، حديثٌ ثابتٌ علميًّا وعقليًّا وصوفيًّا ، أما علميًّا فقد رواه الإمام أحمد ، وأبو يعلى ، وابن حبان في صحيحه ، وحسبك بأحمد وابن حبان ، وأنعم بأبي يعلى المحقق الورع**» .

وأما عقليًّا ، فإنَّ اللغة تقول : فلان جُنَّ بالشيء ، أي أنه فَنِيَ فيه ، وأخذ عليه ظاهر أمره وباطنه ، فيكون المرادُ أنْ يستغرق العبد بكليته في ذكر اللَّه حتى يكون ربانيًّا كله ذكر ، سمعًا وبصرًا ولسانًا ، وحركةً وسكونًا .

وأما صوفيًّا ، فإنَّ الوصف بالجنون في اللَّه ، مما اختُص به أهل اللَّه ، وفي صدرهم الأنبياء والمرسلون ؛ لمطلق فنائهم في ذكره قولًا ، وعملًا ، وحالًا ، ودعوةً ، وأمرًا ، ونهيًا ، إذن فالاتهام أو الوصف بالجنون مقامٌ عند أهل اللَّه

لا بد منه في طريق سلوكهم إلى الله ، ويعتبر إدراكه أكبر بُشْرَيَات الوصول .

فالمريد الصادق المجد لا بد له من أن يمر بهذه المرحلة ، ليدرك مقام : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ ﴾ [المؤمنون :٢٥] .

﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر :٦] .

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات :٥٢] .

والمريد في هذا المقام يتولاه الحق ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [الحج :٣٨] .

كما تولى سابقيه في نفس المقام ، فهو مُمَتَّع بدفاع الحق :

﴿ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ [سبأ : ٤٦] ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ [التكوير :٢٢] ، ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر :٩٥] .

وللإمام الشعراني في شرح هذا الحديث رسالة مباركة .

نحن شعب الله المختار:

يزعم اليهود أنهم «**شعب الله المختار**» ، وفي سبيل هذه العقيدة استحلُّوا محارمَ الإنسانيةِ كلها بلا استثناء ، ولكن المسلمين في الواقع هم شعب الله المختار حقًّا ، وفيهم يقول تعالى :

﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨] .

أما خرافة «**أبناء يهوه**» هذه فاكنسها مع القمامة !! تُؤجر وتُشكر !!

الدعاء مع المسح على الرأس:

من الثابت عنه ﷺ أنه كان يدعو فيمدُّ يديه ويرفعهما إلىٰ صدره، وقد جمع بين كفيه، وربما فرَّق بينهما، وربما رفع يديه إلىٰ أعلىٰ من رأسه في النوازل، وكان يمسح وجهه بعد الدعاء بكفيه، وقد نشرنا شيئًا من هذا في مناسبة رمضان الكريم.

أما هذا الرجل الذي رأيته يدعو، وهو يدور بيده حول عمامته ورأسه، فلم يبتدع كما زعم لك الزاعمون، بل إنه ورد عن النبي ﷺ نحو ذلك.

فقد كان ﷺ إذا قضىٰ صلاته، مسح جبهته بيده اليمنىٰ، ثم قال: «**أشهد ألا إله إلا الله الرحمن الرحيم، اللهم أَذْهِب عنِّي الهمَّ والحَزَن**».

أو يمسح بيمينه علىٰ رأسه، أو علىٰ كور عمامته، ويقول: «**بسم الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، اللهم أذهب عني الهم والحزن. ثم يستغفر الله** (ثلاثًا)**، ثم يقول: اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام، اللهم أعنِّي علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك. ثم يقرأ آية الكرسي أو المعوذتين ويسبح ويحمد ويكبر ثلاثًا وثلاثين، ويختم المائة، بلا إله إلا الله وحده... إلخ**».

فهذا الرجل وافق السنة المتروكة، وصدق رسول الله ﷺ يأتي على الناس زمان يظنون فيه البدعة سُنَّةً، ويظنون السُّنَّة بدعة، أو كما قال.

القرافتان بمصر:

يذكر المؤرخون القرافة الصغرىٰ والكبرىٰ بالقاهرة، وأكثر ما يريدون بالقرافة الكبرىٰ، ما كان بظاهر الفسطاط ومصر القديمة، وأما الصغرىٰ ما كان بظاهر القاهرة.

وأما سبب تسمية أرض المقابر بالقرافة، فهم يقولون: لأنَّ أول من نزل بهذه الأرض قبيلة «بني قرافة»، وهم فخذ من عرب المعافر. والله أعلم.

كلمة (أما بعد) سُنة:

قول الخطيب: أما بعد، فهذه سُنَّة ثابتة مؤكدة رواها البخاري، وأكثر الصحاح، وقد روىٰ اثنان وثلاثون صحابيًا أنَّ النبيﷺ كان يلتزم بها في خطبهﷺ، فَتَرْكُهَا تركٌ للسُّنَّةِ، وقد يُغني قولُ الخطيب مثلا: «**وبعد**»، وفيها كلام لغوي ونحوي ليس هذا مقامه، لكنها من الوجهة البيانية، فاصل بين المقدمة والموضوع، وتنبيه السامع علىٰ أهمية الحديث المستقبل، وإعداد نفسي وتشويق تربوي لقبول التوجيه في المقام، فبالإضافة إلىٰ منزلتها البيانية، نجد منزلتها التربوية والنفسية، مما يدل علىٰ سر سبب لزومها، واهتمام النبيﷺ بها.

علم الظاهر والباطن:

عِلمُ الظاهر لا يختلف أبدًا مع علم الباطن، والقولُ بأنَّ هذا مخالف لذاك من أقوال الباطنية والزنادقة، أما الصوفيون فلا يخالفون بين هذين العلمين، ولكنهم يقولون: إنَّ علم الباطن ثمرةٌ لعلم الظاهر، تنقدح في قلوب أهل الاستعدادات والمعرفة، فليس الأمر كالكلأ المباح، بل لكل مجال رجال.

ودليلهم معروف من حديث أبي هريرة عند البخاري: أنه تلقىٰ من النبيﷺ جرابين من علم، يقول: «**أما أحدهما فقد بثثته، وأما الآخر فلو بثثته، قطع مني هذا البلعوم**».

وفي أحاديث الإسراء، يقولﷺ: «**علَّمني ربي علومًا شتَّىٰ، فَعِلْمٌ أَخَذَ عليَّ كتمانه، وعِلْمٌ خيَّرَني فيه، وعلمني القرآن فكان جبريل يذكرني به، ولقد عاجلت جبريل في آية نزلت علي، فعاتبني ربي قائلًا:** ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤] وهناك حديث السلمي: «**إن من العلم كهيئة المكنون إلخ**».

وشرحُ ذلك يطول، وليس هو المقصود بالسؤال، بل المقصود، أنه ليس هناك علم باطني يخالف مقررات العلم الظاهري، سواء في أمور العقائد، أو العبادات، أو المعاملات، أو الآداب والفضائل أو غيرها، فكلاهما حقيقة تكمل الأخرىٰ.

حديث حُجُّوا:

يوشك أنْ يكون هذا الحديث -رغم ما حوله من مقال- من أصدق أعلام النبوة، فقد صوَّر الأمر الواقع اليوم أبلغ تصوير.

وقد رواه أبو نعيم والبيهقي والخطيب، وغيرهم ونصُّه: «**حُجُّوا قبل ألا تَحُجُّوا، يقعدُ أعرابُها علىٰ أذنابِ أوديتها، فلا يصل إلى الحجِّ أحد**».

ولا بأس عليك يا ولدي أن تقول به؛ فقد روىٰ الترمذيُّ وابن ماجه، والحاكم، والطيالسيُّ، والقضاعي، عنه ﷺ قال: «**لا يمنعن رجلًا هيبةُ الناس أن يقول بحق، إذا علمه أو شهده أو سمعه**».

وفي الحديث: «أتراعون أن تذكروا الفاجر ببدعته؟! اذكروا الفاجر ببدعته يحذره الناس» أو كما قال.

ورثة الكتاب المصطفَون:

في قوله تعالىٰ:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر:٣٢].

ولا شك أنَّ في الآية بشارةً كبرىٰ لأهل القبلة جميعًا، إن قلنا على التعميم: إنهم المصطفون لوراثة الكتاب.

وفيها بشارة لخاصتهم، إن قلنا: إنهم وحدهم المقصودون بالآية.

والظالم لنفسه عند أكثر أهل الظاهر: هو مرتكب الصغائر، غير عامد ولا مُصِرّ، والمقتصد: هو المكتفي بأصول الطاعات، والسابق: هو المفرغ طوق جهده في استرضاء الحق تعالىٰ.

وعند أكثر الصوفية: الظالم لنفسه، هو الواقف عند ظاهر الأمر، فلا يحاول أن يتحقق بأسراره، والمقتصد: هو الواقف عند الظاهر مع الانفعال أحيانًا بالحقائق والأسرار، والسابق: هو الجامع بين أمر الظاهر وسر الباطن بكل ما أطاق واحتمل، فالأول المبتدي، والثاني السالك، والثالث المنتهي.

ويقول أئمتنا: الشريعة أن تعبده، والطريقة أن تقصده، والحقيقة أن تشهده!!

فالظالم لنفسه عندهم: من وقف عند حد الشريعة، والمقتصد: من وقف عند حد الطريقة، والسابق: من أدرك مقام الحقيقة.

وذلك أنَّ الشريعة أصلها الأقوال، والطريقة أصلها الأفعال،

والحقيقة أصلها الأحوال ، وكل منها كالأم لما بعدها ، لا تكون إلا منها .

فالشريعة عمل الأجسام ، والطريقة عمل القلوب ، والحقيقة عمل الأرواح ، فهي بالترتيب علم وعمل وحال .

ثم إنَّ الحال عندهم غير المقام ، فالحال عارض زائل ، والمقام وصف دائم ، والحال غير مسبَّبٍ بمجاهدة ، ولكن المقام ثمرة لجد ومجهود ، والأحوال تحول وتتحول ، والمقامات لا تزول ولا تتزلزل ، وهكذا تكون الأحوال مواهب للاهتداء ، والمقامات مكاسب للاقتداء ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

الخالق ومخلوقاته :

الفقهاء يستدلون بالخلق على وجود الخالق ؛ إذ لابد لكل فعل من فاعل ، ولكل أثر من مؤثر ، ولكل صنعة من صانع .

والصوفية يستدلون بالخالق على وجود الخلق ؛ فإنه لا يُستدل على الحق عندهم من طريق الباطل ، ولكن يُعرف الباطل إذا عُرِف الحق .

فرؤية الفعل قبل الفاعل مقام العامة عقلًا وتوثيقًا ، ورؤية الفاعل قبل الفعل مقام الخاصة شهودًا وتحقيقًا ، وليسوا سواء ، فالمستدل به عرفه فجعله دليله ، والمستدل عليه باحث عنه ما له من حيلة ، فإن من لم يعرف الطريق إليه معذور في البحث عما يدل عليه .

أؤلئك عرفوه بالبرهان ، وهؤلاء عرفوه بالعيان ، وشتَّان بين من يستدل به عليه في مقام اليقين والشهود ، ومن يستدل عليه بغيره من مقام الحجب والقعود ، متى غاب حتى يحتاج إلى دليل عليه ، ومتى بعد حتى

نبحث عما يوصل إليه ، وهل في الوجود غيره حتى يقال أين هو ، أو يقام الدليل على ما هو أهله ، غفرانك ربنا وإليك المصير .

بين الشيب والشباب :

أبكاني قول إسحاق الموصلي :

تَـــوَلَّى شـــبابُك إلا قلـــيلًا وحـــلَّ المـــشيبُ فـــصبرًا جمـــيلًا
كَـفَى حُزنًـا بِفــرَاقِ الـصِّبا وقـد أصبحَ الـشيبُ منْه بَـديلًا
سأندبُ عهدًا مَـضَى وانْقَـضَى وأَبْكِـي الـشبابَ بكـاءً طـويلًا

ثم أرضاني قوله :

الشَّيبُ إن يَظهـرْ فـإنَّ وراءَه عمرًا يكونُ خلالـه متـنفس
لم يَنتقص مِنِّي المشيبُ قلامـةً وَلَنَحْنُ حين بَدَا أَلَبُّ وأَكْيَسُ

***

قواعدُ وأصولٌ وبياناتٌ لا بد منها
إجاباتٌ على أسئلةٍ واستفساراتٍ (١)

الفرقُ بين العشيرةِ المحمَّديَّةِ والطريقةِ المحمَّديَّةِ

ما هي العشيرةُ المحمديَّةُ:

إنَّ الانتماء إلى العشيرة معناه، أنك تتمسك بكل قوتك وإيمانك، بمبدئك الخاص وبطريقتك التي اخترتها لنفسك، وبمذهبك المفضل عندك، ثم تزيد على ذلك أن تكون محمديًّا.

والمحمدية عندنا معناها:

أولًا: أنْ تبذل طاقتك كلها في سبيل تخليص مبدئك وطريقتك ومذهبك المختار، من كل ما يخالف الكتاب والسنة قولًا وعملًا وحالًا، ظاهرًا وباطنًا.

ثانيًا: أنْ تحاول أن تجعل سيدنا محمَّدًاﷺ قدوتك الكبرى في كل حقيقة ومظهر، وحركة وسكون، وأنْ تعلق به قلبك، وأن تفنى في حبه باستيعاب سيرته، واتباع ما صح عنهﷺ بكل ما فيك من انفعال أصيل، واندفاع مكين.

ثالثًا: ألا تدع أية فرصة تفوتك، دون أنْ تزداد علمًا وثقافة ومعرفة، على أوسع المعاني بالدين والدنيا معًا، وأنْ تتحقق من كل ذاتك،

(١) مقال شعبان (١٣٨٢هـ)، ١٧ ديسمبر (١٩٦٣م)، العدد الأول - السنة الرابعة عشرة.

وبكل أعماقك بمكارم الأخلاق، ومعالي الأمور، وخصائص الفضائل، وأنْ تجعل من أورادك وعبادتك الأساسية، ممارسةَ الخدمات الإسلامية والإنسانية والاجتماعية، في كل مستوياتها إيمانًا واحتسابا.

رابعًا: أنْ يكون التصوف الإسلامي النقي الإيجابي هو لُحْمَةَ كُلِّ ذلك وسُدَاه، وأنْ يكون هو قانون التعامل فيما بينك وبين الله والناس، وأنْ تكون خدمة التصوف كدعوة إلى السلام والتسامي والربانية- عبادةً إيجابيةً من عباداتك الأصلية.

خامسًا: ألا تشترك في فتنة، ولا تفكر في سوء ولا مضطرب، وأن تترفع عن مظانِّ التُّهم، وأن يكون الخير، والبركة، والتقدم، والتيسير، والبر، والدعوة، والهدى، والتوفيق والتقريب، والنور، والندى، علامةً عليك، وإشارةً إليك؛ فأينما تحل يحل الفيض والبركة، وأينما تكون يكون الرضا والمدد، وأينما تَفِدُ يَفِدُ الخيرُ والإيجابية والتجديد، ويُذكر الله تعالى؛ هذا هو معنى الانتماء للعشيرة.

فكُنْ ما شئتَ على أي مذهب، وعلى أي مشرب، وعلى أي مظهر، وفي أي عمل، وبأي زمان أو مكان، ولكنْ كُنْ محمَّديًّا؛ فبغير المحمدية لن يكمل أو يقبل أمرٌ محسوس ولا معقول؛ فالمحمديُّ إذن هو الرجل الكامل، أو المسلم النموذجي؛ لأنه يحاول أن يكون في حقيقته صورة مصغرة بقدر الإمكان من سيدنا رسول الله ﷺ الذي نَسَبَ نفسه إليه.

ولهذا تجد في مجلس العشيرة إخوانا وأحبابا من كل فريق ومن كل مشرب ، ومن كل طريق ، يجمعهم المثلُ الأعلى ، وينطوي كُلٌّ منهم على ما يراه في ذاته خيرًا وأوفى ؛ لأنَّ دعوتها للتجميع ، ولأنَّ خدماتها للجميع ، ثم يتفرع عن ذلك قواعدُ ومبادئُ وأصولٌ وأهدافٌ كُبرى مقررة بقانون المحمديين ، هذه هي العشيرة المحمدية .

وأما الطريقة المحمدية :

فهي مَشْرَبٌ صوفيٌّ إسلاميٌّ نقي ، له كيانه الذاتي ، وشخصيته المستقلة ، وله أسناده الموصولة بكبار الرجال ، ثم بسيدنا رسول الله ﷺ ، وله آدابه ، وتقاليده ، وأحزابه وأوراده ، وأذكاره وعباداته ، وقواعد تربيته ، وسلوكه وخصائصه ، وبراهينه وأدلته ، وأصوله وقواعده .

هذا المشربُ قاعدته الطريقة الشَّاذليَّةُ ، من سلسلة الإمام العلامة العارف الشيخ ابن ناصر الدرعي ، وله روافدُ من بقية فروع الشاذلية الأصيلة ، ثم من الخلوتية ، والنقشبندية ، والتيجانية ، والدرقاوية ، وطائفة أخرى من خيرة الطرق الصوفية المرضية .

وكذلك يَمُدُّ هذا المشربَ سندٌ مباركٌ عن صالحي الجنِّ ، وسندٌ رُوحيٌّ عن سيدنا الخضر ، وعن الإمام البدوي ، وعن الشيخ الشعراني . . . إلخ .

ولعل مِنْ أهم ميزات الطريقة المحمدية ، أنها تردُّ كل شيءٍ إلى الله ورسوله ، وألا تترخص في شيء جاء به الكتاب والسنة ، وأنها تجعل العقل والشرع ميزان كل ما تأخذ وما تدع ، وأنَّ رجالها رجالٌ عمليون واقعيون ، لا يُخدعون ببهرج ولا مظهر ، ولا يُبهرون بزخرف ولا بِدُنْيا ، وهم

يترفعون عن الريب، ويعتصمون بمعالي الأمور، ويكرمون إنسانيتهم عن الإغراء والغرور، ويجعلون الصبر والتحمل والأمل قاعدةَ جهادهم، وما دام قد رضي اللَّه عنهم، فكُلُّ شيءٍ هينٌ.

وبهذا تكون الطريقةُ المحمدية، طريقةً كاملة، جامعة لبركات وخصائص أكثرية الطرق المفضلة -بحمد اللَّه- ويمتاز مريدُها بحبٍّ جميع الطرق الشرعية، وبحسن الظنِّ في الدعاة بحق إلى اللَّه جميعًا، وبالأدب مع كل شيخ متشرع متمسك، وهكذا يتضح الفرقُ الكبير بين الطريقة المحمدية، والعشيرة المحمدية:

فالطريقةُ خاصةٌ بمريديها ورجالها ومقوماتها الحسية والمعنوية، والعشيرةُ جامعةٌ لكل الطرق وكل الرجال العاملين بالشرع الشريف.

والطريقةُ للسلوك والخدمة والتربية على منهجها المحدد، والعشيرةُ للتصوف جميعًا، والخدمات العامة كلها، وللأمة الإسلامية كافة.

ودارُ الطريقة: البيت المحمدي بقايتباي، ودارُ العشيرة: مجلس أهل الصُّفّة- بباب الخلق.

وللطريقة مجلس من خصوص المريدين المجاهدين المبايعين السالكين، وللعشيرة مجالس من كل مذهب ومشرب ومن كل طريق شرعي.

وإنما يجمعُ العشيرةَ والطريقةَ هدفٌ واحدٌ هو المحمدية، التي تتلخص في خدمة العقيدة والفضيلة والتسامي بالإنسانية، وخدمة جماعة المسلمين من طريق التصوف.

مسألة القِلّةِ والكثرة:

ولقد يَعْجَبُ كثيرٌ من الناس، كيف تهيأ للعشيرة المحمدية أنْ تمتد فروعُهَا إلى كثير من أوطان العروبة والإسلام، وأنْ يصل صوتها الذاتي المتواضع، إلى كُلِّ شبرِ أرضٍ فيه مسلمٌ في شرق الدنيا وغربها.

حتى إنَّ كثيرًا جدًّا من زعماء المسلمين الذين يزورون القاهرة، عندما يشاهدون دار العشيرة، هذه الدار الصغيرة الصوفية المتواضعة كل التواضع، ويشاهدون خادمَ هذه العشيرة ورائدَها، حتى لا يكادون يفرِّقُون في المظهر بين الخادم والرائد، ولا يكادون يصدقون أنَّ هذا البناء الفقير في مصر، هو صاحب كل تلك الثروة الضخمة من حُسن السمعة والإمامة، والذكر الكبير في الخافقين.

ولقد طالما ظنَّ بعضُ الغافلين أو المغفلين أننا قِلَّـةٌ من الناس، وربما عيرونا بهذا، ونحن برغم كثرتنا -بحمد الله- نَعتبرُ أننا قِلَّـةٌ أمام صورة آمالنا في الله، ولهذا نسلم بأننا اليوم قِلَّـةٌ كثيرة، كقِلَّـةِ المسلمين بين الأديان الأخرى، فهي قِلَّـةٌ أقوى وأشرف وأنفع من الكثرة، ومعنا الأدلة الآتية:

إنَّ الدعوة المحمدية دعوةُ جِدٍّ وجهاد ونظافة، وترفع وعلم وثقافة، دعوة عمق ويسر، ووضوح وانكشاف، فلا تغرير ولا تضليل ولا تعقيد، ولا إغراء ولا خُرافة، وهذا لون من المذاهب لم يألفه كثير من الناس، وبخاصة أنَّ معتنق هذا المذهب مفروضٌ فيه التضحية والبذل، والصبر والمصابرة، والثبات والتثبت والتثبيت، والمثالية والعدالة، وليس

له في مقابل كل ذلك عَرَضٌ من دنيا أو من جاه، أو من صيت، أو مال أو غيره، إلا ابتغاء رضوان الله، في تحوط أكيد، وحرص شديد، خيفةَ أن ينال عمَلَهُ معنى هابطٌ، من رياء أو سمعة، أو شرك خفي أو عمل صغير، والمحمديُّ في كل شيء كبير، كبير بحق فهذه واحدة.

أما الثانية، فسُنةُ الله أنَّ الطيبَ قليلٌ؛ قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[سبأ: ١٣] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾[ص: ٢٤]. ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال:٢٦]. ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف: ٢٢].

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾[البقرة: ٨٣]. ﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾[هود: ١١٦]. ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، إلى آخر هذه الآيات. فكانت منزلةُ القلة في كتاب الله، منزلةَ القُرب والسيادة والمدد، والترفع والعزة والمجد، وعلى العكس كانت منزلة الكثرة، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]. والآيةُ تقرر:

١- أنَّ الطيبَ قليلٌ، والخبيثَ كثيرٌ.

٢- أنَّ الكثرةَ من حيث هي، قد تعجبُ وتغري، ولو كانت في الخبيث.

٣- أنَّ الخبيث كثير دائمًا، بعكس الطيب فهو قليلٌ دائمًا، ثم انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ [الأنفال:١٩]، ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: ٢٥]. ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾[النساء:١١٤]. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٦٦].

﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُ﴾[الحج :١٨] . ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾[الحديد :١٦] . ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المائدة : ٦٢] . ﴿كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾[الأنعام : ١١٩] ، ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ [الأعراف : ١٧٩] . ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس :٩٢] . ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾[ص :٢٤] . ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[الأنعام : ١١٦] . ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [النحل : ٣٨] . ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾[غافر :٦١] .

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [هود : ١٧]. ﴿وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الصآفات : ٧١].

﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف : ١٠٣]. ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ [الإسراء :٨٩]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف : ٧٨]، إلى آخر هذه الآيات

وهكذا تتكشفُ عورة الكثرة وسوأتها ، وتسقط منزلتها واعتبارها ، ما لم تكن لله ، وفي الله ، والكثرة في الله قليلة ، والقلة في الله كثيرة ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت : ٤٣] .

ثم في الطبيعة ، ما أكثر «**التبن**»؟ وما أقل «**التبر**»؟ ، ثم ضع جنيهًا واحدًا ذهبًا ، وضع في جواره سبعمائة مليم من النحاس فأيهما أكثر عددًا؟ ثم أيهما أشرف حقيقة ومعدنا؟ ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر : ٢] .

وفي تاريخ الأديان : أليس كان يونس نبيًا مرسلًا يوحى إليه؟ فلماذا لم

يؤمن به أحد، حتى كان من أمره ما كان ؟ فآمن به من آمن .

ولكنْ علام الذهاب بعيدًا، وقد روى الشيخان : في صحيحيهما عن ابن عباس قال : قال رسول اللهﷺ : «**عُرضت عليَّ الأمم، فرأيتُ النبيَّ ومعه الرهط** - أقل من تسعة رجال - **والنَّبيَّ ومعه الرجل والرجلان، والنَّبيَّ وليس معه أحد**» .

فهذا الحديث المتفق عليه ـ أي هو من أعلى مراتب الصحيح ـ يجعل حقيقة الرجل غير مرتبطة بعدد أتباعه، فهؤلاء الأنبياء سيأتون يوم القيامة ومعهم هذه القلة من الناس، وليس ذلك بمنتقص شيئا من الذاتية النبوية فيهم، ولا هو بمؤثر في منزلتهم عند الله . ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم : ٢٥] .

ثم ها هو ذا «**المسيخ الدجال**» سيكون من أكثر الناس أتباعًا، فهل معنى هذا أنه يكون من أفضل الناس مقامًا؟ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق : ٣٧] . وبعد : فتأمل معنى قوله تعالى :

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك : ٢] . إنه لم يقل أكثر عملًا مثلًا ؛ لأنَّ الكثرة لا قيمة لها في ذاتها، ولكنَّ القيمة كلها للجودة والإحسان ؛ فقليل جيد خير من كثير تافه غثيث . ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل : ٩٠]، لا بمجرد الإكثار .

وها هو ذا الإسلام، أقل أتباعًا من غيره من الأديان، فهل معنى هذا أنَّ هذه الأديان بكثرة الأتباع تصبح خيرًا من الإسلام، أو أنَّ الإسلام بقلة الأتباع يصبح شيئًا خبيثًا بجوار هذه الأديان ؟ .

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر: ٢٩]. تأمل قليلا تسترح، وتستروح.

وعلى كُلٍّ فنحنُ قوم جعلنا من أصول مؤاخاتنا، قبولنا على علاتنا، والله يعلم المفسد من المصلح، ومن يرد الله أن يهديه يشرح صدره.

أمر سيدنا المصطفى ﷺ في أصح وأثبت ما ورد عنه، بلزوم الجماعة، وحذر من مفارقتها أشد التحذير فسأل رجل الحسن البصري عما هي هذه الجماعة؟ فقال رضي الله عنه: «**الجماعة من كان على الحق، ولو كنت وحدك**» فتأمل وتعمق وتحقق.

الولاية لا تنقطع ولا تتحدد:

وإنَّ من أحمق الحمق، وأجهل الجهل، ومن التعصب المخزي، أن يزعم رجل أنَّ ولاية الله، أو قطبانية أهل الله، قد انحصرت في إنسان أو زمان أو مكان واحد؛ فَرْدٌ متعين لا تتعداه إلى سواه.

فأولياء الله كثرة دائمة موجودة في كل أرض وفي كل وقت، وبهم يرفع الله البلاء، ويستجيب الدعاء، وينزل الغيث، وينصر المسلمين ويلطف بعباده، فيما جرت به المقادير.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

منهم المشهور، ومنهم المستور، وقد يكون المستور أكرم وأعلى درجة عند الله من المشهور، فأكثر الكنوز مغمورة مطمورة، لا يكاد يعرفها أحد.

ومن قَبل الأقطاب الأربعة، ومن بعدهم، ملايين من رجال الله، كانوا ولا يزالون على أقدامهم، كلما ذهب سيد جاء سيد، وإن لم ينالوا شهرتهم؛ لأن الشهرة رزق، والله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وهو يقبض ويبسط.

وتعصب الحمقى والجهلة، الذين يعتقدون أنه لا ولي في الأرض إلا شيخهم، ولا كرامة لرجل إلا لإمامهم فقط، هؤلاء مخدوعون، مخدرون بحقن الجهل والعمه، وليس معهم دليل من كتاب ولا سنة، ولا من إجماع، ولا من قياس ولا من استنباط، ولا من معقول ولا منقول، إنما هو التعصب الذي يبرأ منه العقل والدين والبشرية السوية.

إنَّ الحديث النبوي بلّغنا أنَّ طائفة واحدة من الأولياء هم (المفرِّدون)، يأتون يوم القيامة في مثل ظلل الغمام لكثرتهم، فكيف ببقية طوائفهم ومستوياتهم «**أفلا يعقلون؟**»، ليس هناك أي دليل على أنَّ عدد أولياء الله محدود، أو أنَّ ولاية الله محصورة، أو أنَّ باب الله مفتوح لجماعة، مغلق أمام آخرين.

إن هؤلاء يحكمون على الله، ويتحكمون في فضل الله ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ وبالجملة هم يهرفون بما لا يعرفون، فيضرون ولا ينفعون، ولا ينتفعون، ويعجبني هنا قول السيد الوالد:

ليس التصوفُ حكرَ قوم وحدهم هل بات فضل الله في نقصان؟
لا زال فضل الله منهمرا على أهل الصفا، والمشهد النوراني
ولسوف يبقى الفضل مُنهلًا إلى يوم القيامة بالسنا الرباني

ولسوف يبقى أولياء الله في كل الأماكن في مدى الأزمان

فيا ولدي : اعرف شيخك ، وأحبه ، ولكن اعرف مع هذا أنَّ أولياء الله كثير ، وربما كان منهم من لا يدرك شيخُك الكبير منزلة تراب أقدامه عند الله ، فاعرف شيخك ، وأحبه ، ثم أحب الكل وأحسن الظن بهم ؛ فالرجال أسرار .

ثم اعلم أنَّ الأولياء على أقدام الأنبياء ، وقد علَّمنا اللهُ الأدب الاعتقادي مع أنبيائه ، قال تعالى : ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة : ٢٨٥] ، يعني في الإيمان والتقدير والمودة ، أما في المحبة والاتباع والقدوة ، فنبينا ﷺ في المقام الأعظم .

وهكذا لا نفرق بين أولياء الله في الإيمان والتقدير والتبرك ، وإن كنا نخص أصحاب الحقوق علينا منهم ، بما هم أهله من مزيد حب وقدوة واستمداد بليغ .

والشأن في ذلك واضح مع فارق القياس ، في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴿١٥٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء : ١٥٠ : ١٥٢] .

فافهم تغنم ، ولا تكونن من الغافلين أو المغفلين وأعرض عن الجاهلين .

الإقطاع البشري الصوفي:

ثم إنَّ الشرع والقانون، كفلا للناس حرية الرأي، وحرية الفكر، وحرية العقيدة والدين، ما لم تتحول هذه الحرية إلى عبث وفوضى وتلف.

وفي حدود حرية القانون: جاز أن ينتقل الإنسان من دين إلى دين، ولا حرج عليه، وحسابه على الله.

وفي حدود حرية الشريعة جاز أن ينتقل المسلم من مذهب إلى مذهب، فأولى أن يجوز له الانتقال من مشرب إلى مشرب، في الحد المقرر عند علماء الصوفية -رضي الله عنهم- فالمذاهب والمشارب كلها من الكتاب والسنة بداية ونهاية.

وقد أجاز ساداتنا الصوفية للمريد المبتدي، أن ينتقل من مشرب إلى مشرب - أعني من طريقة إلى طريقة- في حالات ثلاث:

الأولى: أن يكون شيخه الأول غير صالح للإرشاد بسبب الجهل، أو الانحراف أو الابتداع، أو الفسوق أو التضليل، أو نحوه[(١)].

الثانية: أن يكون شيخه الأول قد توفي قبل أن يستكمل هو سلوكه وتربيته، فهو في حاجة إلى المربي المكمل.

الثالثة: أن يوجهه شيخه الأول إلى شيخ آخر بإذنه، يكون الفتح على يديه -إن شاء الله- فهذه الحالات الثلاث التي يجوز فيها تجديد العهد

---

(١) وعندئذ يجب عليه وجوبًا عينيًا أن يترك هذا الشيخ الضال فرارًا بنفسه وخلقه ودينه «ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار» «ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا» (المسلم).

الصوفي للسالك .

أما المريد المنتهي إلى رتبة الإرشاد ، المجاز بالدعوة ، فله إن شاء تعديد التلقي للبركة والتيمن في سبيل تدعيم خدمة طريقته الأولى ، ومشربه القديم في الحد المحدود .

وفي غير هذه الحالات يكون الانتقال من طريق إلى طريق نوعًا خبيثًا من الذبذبة والعبث بعهد الله المقدس ، فيكون سبيلًا إلى القطيعة والسلب ، وفتنة الدنيا والآخرة .

هذه هي القواعد والأصول المقررة عند الصوفية الشرعيين ، فيكون من أعجب العجب ، أن يلزم رجل باتباع رجل بالإكراه ليس أهلًا للقدوة شرعًا ، وإلا تعرض للمؤاخذة والتشهير المضحك المثير ،كأنه عبد أو كأنه أسير .

كما يكون من أعجب العجب ، أن يغري شيخ مريدي شيخ آخر ليتركوا شيخهم الأول من غير سبب شرعي ، إلا مجرد المتاجرة ، والرغبة في المكاثرة والمفاخرة ، واستنزاف المنفعة ، واستغلال سذاجة السذج بالمظهريات المضللة ، والصور الدنيوية التي تستهوي البسطاء والمغفلين ، وعمي البصائر ، وأشباه بني آدم .

إنَّ الشيخ الداعية الذي يقدر كرامة شخصيته ، وكرامة دعوته والذي يريد بجهاده وجه الله والدار الآخرة ، ليس يهمه أقبل الناس عليه أو أدبروا ، ولا أنهم قلُّوا لديه أو كثروا ؛ فإنَّ رسالته وواجبه هو البلاغ ، أما

الإقبال والإدبار، والقلة والكثرة، فشيء ليس قط في حساب العاملين لوجه الله.

وعندما يتذبذب المريد، ويضل، ويفسد أو (يعفن ويدود) ويفضل شيخًا على شيخ لأمر من أمور الدنيا، أو حاجة من حاجات النفس، وعندما ينتقل المريد من طريق إلى طريق، لؤمًا أو جهلًا، أو تغفيلًا أو تغاليًا أو تعاليًا، أو غير ذلك، فعلى شيخه إن كان داعية حقًّا أن ينصحه، فإن لم ينتصح، تعين عليه أن يهمله ويسقط اعتباره، وأن يدعه وما اختار لنفسه، فإنه يجب أن يكون الشيخ أعلى وأسمى من أن يلتفت إلى من فاته، أو يتعلق بمن تمرد عليه، ولن يكون له بعد هذا في عنق الشيخ إلا الدعاء، وترك أمره لله، يفعل به ما يشاء «**والله شديد العقاب**».

أما التبعية الإلزامية بقوة الوراثة، أو قوة القانون، أو العرف، أو المصطلح، الذي لا تؤيده شريعة متبعة، ولا سنة صحيحة، فهذا نوع من الإقطاع البشري والاستعباد الكهنوتي، الذي يبرأ منه الإسلام، ولا يجوز أن يُتهم به التصوف الإسلامي الصحيح؛ فإنما هو بقية من الاسترقاق، وقتل الإرادة، وإهدار البشرية.

الأدب والعلم:

إننا نقول لمريدينا وأبنائنا، أول ما نقول لهم: «**تخلص من كبريائك ثم أقبل فإنه لكي تتعلم، يجب ألا تتعالم**».

ومن قبل قال ابن المبارك: «**نحن إلى قليل من الأدب، أحوج منًا إلى كثير**

من العلم» . وليس في الخلق أعلم من (إبليس) وقد أضله الله على علم .

وقد وضعنا قاعدة نلتزم بها فيما نحن بصدده من أمر الدعوة هي أنه :

«يجب أن تكون ممارسة الأدب قاعدة لطلب العلم ، وأن تكون ممارسة العلم قاعدة لطلب الله» .

والأدب والعلم كأداتين للتسامي ، يورثان الحب ، حب الله ، ومن حبه ينبثق حبُّ كل شيء خلقه في الحد الذي حدده الله ، وعلى اختلاف مراتب معنويات الأشياء وحقائقها ، تتفاوت مراتب الحب ومستوياته ، والإنسان بغير هذا الحب ، حيوان ناطق ، والدنيا بغير حب جهنم الصغرى .

***

فقهٌ وتصوفٌ وتوجيهٌ
حكمُ الاسبرتو والفوائدِ والمعاشِ
الشيخُ الفقيرُ والمريدُ الفَقيرُ(١)

تنبيه: قد يكون غريبًا ألا نجعل هذه الكلمة في هذه المرة للصيام أو لرمضان خالصة، وكثيرًا ما كنا نفردها لهذا الجانب، ونريد أن نقول: إننا تعمدنا هذا؛ فسوف يجدُ القراءُ هنا وفي بقية المجلات والصحف والنشرات ما يكفي ويشفي مُرَدَّدًا مُكَرَّرًا في باب الصيام، وشهر رمضان الكريم، ولهذا أردنا ترويحهم بإفادة جديدة.

الاسبرتو طاهر:

تلقينا رسالة مباركة من بعض إخواننا السادة علماء المعهد الديني بالدامر بالسودان، يطلبون فيها رأي العشيرة المحمدية في استعمال «**الكحول- الاسبرتو**».

وقد عرضنا هذا الأمر على إخواننا علماء العشيرة المحمدية، فكان رأي فضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو العيون: أن علماء الكيمياء والصيدلة يقولون: إنه ـ أي الكحول الاسبرتو ـ خلاصة الخمر، فهو إذن نجس، ولكن تداوله على ما هو حاصل بالفعل، ينسحب عليه حكم ما عمت به البلوى، فيكون مباحًا، والأحوطُ التورعُ عن استعماله، أو استعمال ما مُزج به كلما كان ذلك ممكنًا.

(١) مقال: رمضان ١٣٨٣هـ.

وكان رأي فضيلة الأستاذ الشيخ محمد الحافظ التيجاني، أنه يعتبر من السموم؛ لأن تعاطيه وحده دون مزجه بشيء غيره قاتلٌ، قبل أن يكون مغيبًا، كما قرره المختصون، والسُّموم في ذاتها طاهرة، وهذا هو منشأ الخلاف على حِلِّ استعماله أو حرمته، وما دام في الأمر خلاف، فمن شاء أخذ بهذا القول، ومن شاء أخذ بذلك، والشريعةُ سمحة، وفي الأمر سعة.

وكان كل قول بقية إخواننا يدور حول هذين الرأيين، ونذكر أن ممن قال به من أهل عصرنا، فضيلة الشيخ علي حلوه مفتي الجمعية الشرعية، وفضيلة الشيخ محمد أبو زهرة أستاذ الشريعة الإسلامية، وبه أفتى فضيلة الأخ الشيخ محمود ربيع بمجلة «**المسلم**» على نحو هذا السؤال، وهو قول جمهور علمائنا، وقد سبقهم بالقول بالحِلِّ الشيخ رشيد رضا رحمه الله.

نقول: وفي باب «**إزالة النجاسة**» من كتاب «**سُبل السلام**» على «**بلوغ المرام**» قال الإمام الصنعاني ما نصه: «**والحقُّ أنَّ الأصلَ في الأعيان الطهارةُ، وأنَّ التحريمَ لا يلازم النجاسة؛ فإنَّ الحشيشة محرمة طاهرة، وكذا المخدرات والسُّموم القاتلة، لا دليل على نجاستها، وأما النجاسةُ، فيلازمها التحريم، فكُلُّ نجس محرم، ولا عكس...**» إلى أن قال: «**فإنه يحرم لبس الحرير والذهب ـ يعني للرجال ـ وهما طاهران، ضرورة شرعية وإجماعًا...**» ثم ختم قائلًا: «**فمن ادَّعى خلافَهُ فالدليل عليه**».

نقول: ومِنْ هذه القاعدة الأصولية الفقهية -التي نكتفي بها عن مثيلاتها في مختلف المذاهب- يمكن الحكم على «**الكحول- الاسبرتو**» بطهارة العين، وما دام أنه طاهر العين، فتحريم استعماله يتكيف بتكيف الاستعمال نفسه، فإن استعمل في الإسكار ونحوه حرم للأثر المترتب

عليه، وإن استعمل في مصالح الناس كالتطبيب والعلاج، وكتطهير الجروح، والآلات، وقتل الجراثيم، أو في تحسين صناعة العطر والطب، كان مباحًا، وبخاصة إذا كان حين يُستعمل في هذه المصالح يتبخر بسرعة ولا يتبقى له أثر.

وبما أنه قد أصبح استعماله ضرورةً صحيةً وطبيةً أصيلةً، مما ينفع الناس ولا يغني عنه غيره، فينسحب عليه كذلك حكم الضرورات والأضرار.

وبما أنه قد دخل إلى كل دار، وفرض نفسه على شتَّى المطالب، فينسحب عليه حكمُ ما عمَّت به البلوى.

وهذا وذاك عند القول بشبهة التحريم لسببٍ أو لآخر، ولا تنسين القاعدة الأصولية الفقهية: إنَّ كل نجس محرم، ولكنْ ليس كل محرم نجسًا.

وهكذا أنت واجد أن استعمال «**السبرتو – الكحول**» مباح على أي وجه قبلته، وهذا هو الأرفق بالناس، والأوفق في دين الله، وعلى هذا وافق الأخ الدكتور عبد الحليم محمود عميد كلية أصول الدين، وعليه وافق بقية إخواننا علماء العشيرة المحمدية، والله أعلم.

حكم تناول المعاش الحكومي:

وهذا سؤال من أخ محتاط متورع، من أساتذة التعليم الثانوي بالفاشر بالسودان أيضًا وهو يتلخص في طلب بيان حكم الله في:

١- تناول المعاش بعد ترك الوظيفة.

٢- توظيف أموال المعاش في الأعمال التجارية.

٣- في توريثه بالتساوي بين المستحقين بعد الوفاة .

فعن الشطر الأول نرىٰ ، أنَّ المعاش هو عبارة عن الجزء الذي كانت تستقطعه الحكومة من راتب العامل أو الموظف ، ثم تضيف إليه حِصةً أخرىٰ من عندها قد تساوي المستقطع أو تزيد عليه ، ثم تستغل هذه القدر جميعًا في التجارات مما يعود بأرباح تغطي المطلوب صرفه لهؤلاء الموظفين وورثتهم كمعاش منظم بقواعد خاصة .

فالمعاش إذن في بعض أجزائه حَقٌّ مُدَّخَرٌ للموظف عند الحكومة وفي البعض الآخر هو فريضة -أو شبه منحة- في مقابل سابق عمل الموظف ، وقد لا يعتبر أجرًا غالبًا من حيث إنه ليس له مقابل من عمل حالي ، إلا إذا اعتبر امتدادًا للأجر على العمل السابق ، وهو المقبول .

ثم إنَّ شِبه المنحة هذه ، تعتبر من وجه آخر حقًّا أصيلًا أو فريضة للموظف ، لا يقل عن حقه في الأجر على العمل من حيث أنه أفنىٰ شبابه وصحته وضحىٰ بجسمه وطاقاته الذهنية والعصبية في سبيل خدمته ، حتىٰ أدىٰ رسالته وأصبح مستوجبًا بعدها للراحة والتقدير ، وربما يكون قد عاد إلى الحكومة أثناء عمله بمنافع معنوية أو حسية لا تقدر بمال ، ولا يجزي في بعضها كل ما تسدده إليه الحكومة شهريًّا في حياته ، ثم علىٰ ورثته بعده باسم المعاش .

وقد جعل الإسلام لغير القادر على الكسب حقًّا شرعيًّا في بيت مال المسلمين ، ولو لم يكن موظفًا حكوميًّا ، حتىٰ لو كان غير القادر ذميًّا غيرَ مسلم ، فليس من العدل أن يؤكل شبابه ، ثم ينكر مشيبه .

وعلى هذا يكون تناول المعاش أمرًا شرعيًا مباحًا بل قد يصبح واجبًا لما فيه من دفع الضرورات، واحترام إنسانية الإنسان وتقدير ماضيه، ودفع غيره إلى العمل.

ثم إنَّ استغلال المستقطع من مال الموظف مع حصة الحكومة في المتجرات وغيرها وعود الربح على رأس المال العام، ليس محل شبهة على الإطلاق، ما دام أننا لا نستطيع الجزم اليقيني بأنه استُغل جميعًا جزئيًا أو كليًا فيما حرم الله.

وحصر جميع الأموال الحكومية في وعاء واحد على اختلاف أصولها وفروعها، يدفع عنها شبهة التحريم، ولو بالنسبة لتعذر التمييز الدقيق - أو استحالته- بينهما.

ثم إن الموظف يتقاضى حقًّا أو أجرًا، في مقابل حسي أو معنوي، فلا يُسأل هو عن مصدر هذا الأجر، إنما المسئول عن هذا المصدر هو مُسدِّدُ الأجر ومحصِّلُهُ، وعليه وحده مسئوليةُ تحصيله من الطريق المشروع أو الممنوع، وبهذا يظهر الحكم على ما جاء بالشطر الثاني من السؤال.

أما حكم تقسيم المعاش بين الورثة بالتساوي، دون النظر إلى قانون التوريث الشرعي، فالحقُّ أنَّ في النفس منه شيئًا، وإنما يتقبله المرء تَقَبُّلَ ما عمَّتْ به البلوى، ويسحب عليه حكم الاضطرار احتياطًا وتورعًا، ما دام لم يفهم عِلَّتَهُ، وقد يكون هناك من يقول بأن المعاش ليس له مقومات الميراث الشرعي من كل أو أكثر الوجوه، فما دام قد فَقَدَ كُلَّ أو أكثر مقومات الميراث الشرعي من كل أو أكثر الوجوه، فينسحب عليه حكم المنحة، والمانحُ حُرٌّ في تقسيم منحته كما يشاء، وهو رأي له اعتباره.

وحتىٰ حين يكون في هذا التقسيم شبهة، فليس الموظف صاحبها، فلا يكون عليه وزرها، وإنما هو أو على التحقيق أسرته من بعده مضطرة إلىٰ قبول هذه المنحة علىٰ صورتها تلك بحكم الأمر الواقع، والضرورة المحيطة الأكيدة. ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٣].

وهكذا يتضح أن تناول المعاش بعد التقاعد، وأن توظيفه الاقتصادي والاشتراك فيه أثناء التوظف، ثم تقسيم هذا المعاش على الورثة بالتساوي، لا إثم فيه على الموظف، ولا علىٰ ورثته، واحتمال الإثم لا يعود عليه ولا على الورثة، وإنما هو موجه إلى القائمين علىٰ أمور الناس - إن وجد- ما لم يكن لهم فيه عذر مشروع.

وعلى العموم فالأمر في مجموعه، ليس ربًا، ولا قرضًا جرَّ منفعة، ولا هو اشتمل علىٰ ظلم صارخ، أو استغلال فاضح، بل فيه رعاية للشيخوخة، ومنفعة للأسرة، وحفاظ لحقوق الإنسانية، وحفز لهمة الموظف، ودفع لعجلة العمل، وطمأنة للعامل ولأسرته من بعده، وهذه كلها من خصائص أصول الإسلام.

وإنما يُحكم على الأمور بمدىٰ غلبة الخير أو الشر فيها، وهنا يغلب الخير لا محالة، وهذه الغلبة تغطي بجوارها بعض ما قد يكون من الهنات: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وأستغفر الله وأتوب إليه.

وقد عرضت هذه الفتوىٰ علىٰ أكثر إخواننا علماء العشيرة فوافقونا بالإجماع.

فوائد التوفير والتأمين والبنوك... إلخ:

وتلقينا كتابًا من أخ من خيرة كبار تجارنا المسلمين يسأل عن حكم الله في المعاملات المالية المستحدثة، ذات الفوائد المحددة، ولما كان يطلب منا إجابة شخصية شأن المستفتين السابقين، فالجواب:

إنَّ هذه المعاملات لم تكن موجودة في العهد النبوي، ولا ما بعده، فليس في الشريعة حُكْمٌ نَصِّيٌّ خاص بها، ولكنَّ الجمهور اقتاسها بقياس الشريعة في عمومات الأحكام، فحكم بحرمتها جميعًا لما فيها من شبهة الربا، ثم ظهر في أيامنا هذه من يقول بأنها حلال كنتيجة للتطور الاجتماعي، ملتمسًا لها مبررات أخرى، وعلى رأس القائلين بإباحتها المرحوم الأستاذ الشيخ شلتوت، كما نسبوا نحو هذا إلى الشيخ محمد عبده.

والمؤمن المحتاط، يجب عليه إذا استطاع البعد عن هذه الخلافات والشُّبه: أن يبتعد ويستمسك بالأحوط، فإذا تعذر الابتعاد لأسباب خارجة عن إرادته، كاضطراره إلى النزول على القواعد العامة في قوانين التجارة المعمول بها، أو نحو ذلك من الأسباب التي لا يطمئن إليها قلبه، ولكنه لا يجد عنها مصرفًا، فإنه يتعاطى هذه المعاملات مستغفرًا منيبًا، حكمُهُ حكم المضطر فيما عمت به البلوى، والمضطرُ يُباح له ما لا يباح لسواه: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وهو بهذا يجمع قدر الإمكان بين ما هو مجبر عليه من المعاملات، وبين احتياطه لدينه فيما لم يرد بِتَحِلَّتِهِ نَصٌّ صريح أو اجتهاد مريح أو إجماع شرعي معتبر في دين الله، وإن استطاع أن يتصدق بالفائدة التي تُعتبر ربًا فهذا رأي الغزالي، والله المستعان.

حكم الله في الشيخ الفقير:

الجهل المطلق بالإسلام، وبتصوف المسلمين، بل الجهل الأصيل المركب المخزي، أن يُقاس الشيخ والمريد بميزان الثروة المالي، وما يكتنزه أحدهما من أموال، وما يظهر به من آثار الترف والغنى، وربما كان أصله السُّحت واستغلال بساطة السذج، والاستنزاف البهلواني الحرام.

الدينُ شيءٌ والغنى المالي شيء آخر: «**إنَّ اللَّه يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدِّينَ إلا لمن يحب**». قاعدة قررها رسول اللهﷺ لا تجعل هناك أية علاقة بين الدنيا والدين إلا بالمقدار، في الحد المحدود.

وقد خيَّر اللَّه رسوله بين أن يكون، عبدًا رسولًا، أو أن يكون مَلِكًا نبيًّا، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا، وصار من ألقابه، بل من مفاخرهﷺ أنه عبداللَّه ورسوله !! أي أنه فقيرٌ إلى اللَّه تعالى !!

وقد كانﷺ يحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويحمل أشياءه، ويخدم الضيف، ويركب الحمار، ويجلس على الثرى ويكون في مهنة أهله في البيت.

وكان من عدل الألوهية المطلق، أنَّ اللَّه تفضل فقسم الأمر بينه تعالى وبين البشرية على أساس الاقتضاء الذاتي؛ تكريمًا وعدلًا، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥] وهكذا قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص:٢٤].

ولهذا جعل أئمةُ الصوفية أولَ مدارج السلوك إلى اللَّه، أن ينسلخ العبد من دنياه، إلا بمقدار، أفلا درست تاريخ أمثال ابن أدهم وبشر الحافي

وأبي الحسن ، ومن قبلهم ، ومن بعدهم ، كيف كانوا وكيف أصبحوا !!

إنه لا يجتمع في قلب عبدٍ أبدًا حُبّان : حبُّ الدنيا وحبُّ الله ، ولا يستطيع عبدٌ أن يجمع أبدًا بين خدمتين متناقضتين : خدمة الغنىٰ وخدمة الدعوة ، إلا حين تكون الدعوةُ نفسها وسيلةً ملتويةً من وسائل الغنىٰ والثراء ، وهذا هو الواقع المحسوس الغالب فيما نرىٰ ، والأسف ملء الجوانح .

إنَّ أئمة الصوفية من أول الجُنيد ، بل من أول حذيفة ﷺ إلىٰ مشاهير الأقطاب الأربعة ، ومن ورثتهم بحق إلىٰ يومنا هذا ليس فيهم مَنْ كان الثراءُ وسيلتَهُ أو غايته ، أو سببَ شهرته أو الإقبال علىٰ دعوته ، وإذن فماذا هو تصوف المسلمين ؟ !

تصوفُ المسلمين : عِلْمٌ وحِلْمٌ ، وتقشفٌ وتعففٌ ، وعبادةٌ وزَهادةٌ ، وقيادةٌ وريادةٌ ، وأملٌ وعملٌ ، وجهادٌ واجتهادٌ ، وانسلاخٌ مطلقٌ عما سوىٰ الله .

والشيخ قدوة وأسوة ، فما لم يتصف هو بأبسط مبادئ التصوف كان دعيًّا دخيلًا مستغلًا إقطاعيًّا ، ليس فيه من اشتراكية الصوفيين شيء ؛ فإنَّ أشهر ما اشتهر به الصوفيون أنهم الفقراء المتواضعون .

وحين يكونون أغنياء فمَالُهُم كُلُّهُ للّه ، وغناهم للّه ، وليس لهم من الثروة إلا حملها إلى الفقراء .

وحين يجمع اللّه لعبد من عباده بين الدين والدنيا فقد حشد له الخير من أطرافه ، غير أنَّ تعييرَ الفقراء بفقرهم ، واستعلاءَ الأثرياء عليهم بثرائهم ، واتخاذَ الغنىٰ سببًا من أسباب المفاضلة بين الدعاة إلى اللّه ، نوعٌ من الجاهلية الأولىٰ !!

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف:٣١، ٣٢].

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[الزخرف:٥٧، ٥٨].

الآية الأولى عن المصطفى ﷺ والآية الثانية عن عيسى عليه السلام، فقياسُ الشيخ الداعية بمقياس الغنى إنما هو بقية من الكفر، وسمة من اليهودية، وميراث من الجاهلية، بل إنها فرعونية وثنية، قال تعالى عن موسى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف:٥١-٥٤].

وقال أتباع فرعون: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون:٤٧].

وإنما يقول الداعية الفقير ما قاله النبي الفقير من قبل، على لسان القرآن: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس:٧١].

فالرسل الثلاثة المشاهير أصحاب أشهر الأديان وبقية أولي العزم ابتلاهم الله بمن عيَّرهم بالفقر، وتولَّى الله تعالى الردَّ لهم والدفعَ عنهم، وحسبهم بذلك شرفًا، ومنقبة خالدة، فيكون التعيير بالفقر عندئذ من مقامات السَّالكين.

وحكم الله في المريد الفقير:

وكذلك تعيير الأتباع والمريدين بالفقر ميراثٌ كفريٌّ هابطٌ: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ [الشعراء:١١١]، ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾[هود:٢٧].

ولقد كان أول من آمن بسيدنا المصطفىﷺ الفقراء والضعفاء، والعبيد الأرقاء، والنساء وأهل الصُّفة، وأولئك هم نواة الإسلام.

روىٰ البخاري أنَّ النبيﷺ قال:«**هل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم**». وروىٰ أبو داود والترمذي والنسائي: أنَّ النبيﷺ قال: «**ابغوني** -يعني اطلبوني- **في ضعفائكم، فإنما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم**»، وروىٰ النسائي أنَّ النبيﷺ قال: «**إنما تنصر هذه الأمة بضعفائها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم**»، وروىٰ الطبراني أنَّ النَّبيَّﷺ كان يستفتح ـ أي يطلب الفتح ـ وفي رواية: «**يستنصر -أي يطلب النصر- بصعاليك المسلمين يعني بضعفائهم وفقرائهم**».

إن هؤلاء الفقراء الضعفاء، هم الكرام الأعزة على الله، أليس حسبك أنَّ الله تعالىٰ أمر بالقتال من أجلهم؟ فقال سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ [النساء:٧٥].

ميزة لم يشترك فيها معهم ذو مال، ولا ذو جاه، ولا ذو سلطان، وإن أنفق من قبل الفتح وقاتل!! ذلك أنَّ اللهَ ربُّ حقائق وقلوب، لا رب بوائق وجيوب!! وهكذا يقولها القرآن علىٰ لسان هذا النبي الكريم: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ

عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:٣١] .

لقد كبر على رءوس الكفر في قريش أن يجلسوا مع فقراء المسلمين في مجلس النبيﷺ ، فأنزل الله تعالى قوله : ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٢] ، وقديما قال نوح : ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء:١١٤] ، ثم مَنْ هو الذي عاتب اللهُ فيه نبيَّهُ مرتين وأنزل فيه سورة «**عبس**» أليس فقيرًا من فقراء المسلمين؟ فبهت الذي كفر!!!

ثم هكذا يقولها رسولُ الله مفسرًا موجهًا : «**رُبَّ رجل أشعث الرأس ، أغبر الوجه ، ذي طمرين ، مدفوع بالأبواب ، لو أقسم على الله لأبره**» كما قرر أن حبيب الله هو : «**كل ضعيف متضعف**» !!

وأخيرًا : من هم الفقراء الضعفاء على الحقيقة؟! الفقراء الضعفاء عندنا ، ليسوا هم الذين لا مال لهم ولا جاه ، وإنما هم عندنا ، من لا يعرفون الله ورسولهﷺ!! كيفما كانوا ، وحيثما كانوا . هل بقي بعد هذا مجال لجدال حول هذا الموضوع؟! .

إنَّ كلام الحمقى والمخدَّرين والبُلَهاء والمغفلين ، ليس له وزن في سوق العقل والعلم والدين!!

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦] .

***

أيُّها النَّاسُ هذه هي العشيرةُ المحمديَّةُ فاعرفوها على ما هي عليه(١)

في عدد شعبان كُنَّا كتبنا ردًّا على بعض الأسئلة، فبيَّنَّا معنى الانتماء إلى العشيرة، أي أننا أوضحنا ما ينبغي أن يكون عليه الرجل؛ حتى يكون محمديًّا مستأهلاً للانتساب إلى العشيرة، وقلنا في أواخر الكلمة: إنَّ من وراء ذلك تفاصيلَ وأهدافًا كُبرى، وكنَّا قد أشرنا إلى بعضها في كلمة التقرير السنوي، ولكنَّا في هذا العدد ـ استجابةً لرغباتٍ هامة وجديدة ـ يطيبُ لنا أن نضع بين [أيدي] القراء صورةً مصغرة لعشيرتهم؛ حتى يكتمل تصورُ مفاهيم الدعوة والمريد في وضوح وإجمال تذكيرًا وتبصيرًا، والذكرى تنفع المؤمنين.

دعوةُ العشيرةِ:

تخدم العشيرةُ حقلاً إسلاميًّا معينًا، على أسلوب عمليٍّ معين، وبتخطيط علمي مدروس، يجعل هذا الحقل مؤثرًا تأثيرًا إيجابيًّا في كُلِّ ما حوله من حقول الحياة، على نظرية فطرية في غاية البساطة.

الحقلُ الذي تخدمه العشيرة، هو الحقلُ الروحيُّ الشَّامل، والأسلوبُ الذي تنتهجه، هو هدايةُ الكتاب والسنة، ولكنْ في طواعيةٍ ويسرٍ وسماحةٍ.

والتخطيطُ الذي تلتزمه، هو فقهُ الدراسات الإسلامية تاريخية واجتماعية وثقافية، على مختلف المراتب والمستويات، ومحاولة التطبيق

(١) مقال غرة شوال (١٣٨٣هـ) - ١٤فبراير (١٩٦٤م)، العدد الثالث - السنة الرابعة عشرة.

المبصر الهادئ المتناسق مع مختلف المفاهيم وتطور الأوضاع .

والنَّظريةُ التي تعتنقها العشيرة ، هي العملُ على إكثار سواد الصالحين المستنيرين ، في مختلف المجالات والمرافق ، حتى يأتي الوقت الذي يسود فيه الإصلاحُ تلقائيًا ، بكثرة الصَّالحين ، فتستقيمُ الأمورُ باستقامة القوَّامين عليها .

فكرةُ العشيرة :

ثُمَّ إنَّ العشيرة ترى أنَّ الجانبَ الروحيَّ في الإسلام ، هو شطرُ الدين ، ومِلاك الإنسانية ، وهو الجانبُ الحسَّاسُ المتفاعل بالطبع والفطرة ، تفاعله بالإيمان والفكرة ، مع كافة تيارات الحياة واتجاهاتها ومقوماتها ، سواء أكانت شخصيةً أو جماعيةً ، وهو بهذا الاعتبار يمثل أخطرَ مناطق التأثير والتوجيه البشري عمومًا ، ومن ثَمَّ يكون استغلاله والتحكم فيه والتحكم به ، أفعلَ وسائل التجديد والإصلاح والتطوير ، والدفع التقدمي ، من أقرب الطرق وأضمنها .

اتجاهُ الدَّعوة :

ومَظهرُ الجانب الروحي في الإسلام هو التصوف -رضي الناس أم سخطوا- ونعني به هنا التَّصوفَ السَّلفيَّ ؛ أي النبوي والصحابي والتابعي ، في خير القرون ، كمدرسة ربانية لتخريج الإنسان الكامل ، كما كان قبل أن يُصابَ التَّصوفُ بتلبيس إبليس ، أقوالاً ، أو أعمالاً ، أو أحوالًا .

فالتَّصوفُ الذي نعنيه ، هو المجالُ الرُّوحيُّ ، في أنقى وأرقى المستويات والأبعاد ، ولا علينا من تصوف غيرنا ، فكلُّ امرئ بما كسب رهين ، والحكمُ على الكُلِّ بحكم الأقل ، ظلمٌ صارخ .

والتَّصوفُ على علاَّته اليوم، هو الحبلُ المحيطُ الذي يربط أهل القبلة، أفرادًا وشعوبًا، في المشارق والمغارب، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأوطانهم، فما من مذهب في الإسلام له مثل انتشاره ولا آثاره، ولا صدقه، ولا عمقه، ومن هنا كان استغلاله كدعوة إصلاحية روحية ناجحة، أمرًا متعينًا، لا يُغني عنه سواه، ولا عذر في إغفاله للعالِمِينَ بقدره وخطره العظيم، محليًّا كان أو عالميًّا.

من هو الصوفيُّ المستنيرُ:

إنَّ الصوفيَّ الذي نعنيه: هو المحمديُّ المثقفُ المتفقهُ الدائبُ العمل لتكملة نفسه حسيًّا ومعنويًّا، والذي يمارسُ عملَ الدُّنيا كما يمارس عمل الآخرة، في إخلاص وتضحية وإيمان، وعمقٍ وتطوير وتقدُّمية، كعبادةٍ أساسية مقصودٌ بها هنا وهنا وجه اللَّه أولاً وقبل كلِّ شيء؛ فوجوده في المصنع والمكتب، كوجودِهِ في المسجد والخلوة، يعاملُ اللَّه ويؤدي رسالة المحمديِّ الإنسان، في خلافة اللَّه على الأرض.

إنَّ الصوفيَّ المستنير هو العشيرُ المحمديُّ، والمحمديُّ هو الذي يحاولُ أن يجعل من نفسه صورةً مصغرةً من سيدنا رسول اللَّه ﷺ.

من التفاصيل والأهداف :

وكان لابدَّ من أجل الانتفاع بالتصوف ، على الوجه الذي قدَّمنا ، من معاناة الخطوات الآتية :

أولًا : تصفيتُهُ ، وتنقيتُهُ ، وترقيتُهُ ، ورجعُهُ إلى نبعه القرآنيِّ والمحمديِّ الأول ، وتبصيرُ الناس بحقائقه الكبرى ، وأصوله المشتركة ، دون الانحياز إلى طريقةٍ بالذَّات ، ودون التعصب لشيخٍ معين ؛ فإنَّ العشيرة للجميع ، ودعوتها للتجميع ، وصوتها للتصوف من حيث هو ، ثم بعد هذا لكلٍّ وجهة هو موليها .

ثانيًا : إدماجُ التصوف في الحياة ؛ فإنَّ من طبعِهِ الاندماجَ والتوجيهَ والقيادة ، وتوسيعَ رقعة الدعوة به وإليه ، والدِّفاعَ عن حَرَمِه بكلِّ ما في الإمكان ، وتيسيرَ أسباب تفاعله وانتشاره ، وتجميعَ قادته من المسلمين في كُلِّ مكان من العالم .

١- وعندئذ يمكنُ الانتفاعُ به كدعوة إصلاحية رُوحية ، تنتظم الأفرادَ والجماعاتِ ، وكمدرسة ربانية لابدَّ منها لتخريج الرجال النموذجيين الجامعين بين محاسن الدنيا والدين ، والذين بهم يكثر سوادُ الصالحين فتنصلح الأمور .

٢- وبالتالي يمكنُ الانتفاعُ به هنا ، فيما لا يغني عنه غيرُهُ فيه ، من تقويم الانحرافات ، والتسامي عن المناكر والصغار ، ومواجهة التيارات الانحلالية ، والبدعية واللادينية ، والشعوبية ، والتبشيرية ، والاستعمارية ، والتقريب بين طوائف المسلمين .

٣- كما يمكن استغلاله في تجميع العالم الإسلامي في وحدة روحية شعبية محيطة، تفتح الطريق أمام الترابط الفكري، والعاطفي، والتمازج الروحي، تمهيدًا للوحدة الإسلامية الجامعة ـ إن شاء الله ـ فلا سبيل إليها إلا من طريق التصوف وتغلغله.

٤- وعندئذ يتهيأُ نوعٌ جديدٌ من الزعامة الروحية للجمهورية العربية المتحدة، يدفع عنها كثيرًا من الدعاوىٰ والدعايات، في وسيلة عاطفية من أقدس وسائل الإعلام والعبادة في وقت معًا.

٥- ومع هذا نكون قد قمنا بإبلاغ فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتثقيف والتبصير، والدعوة والنهضة، في وضع روحي شعبي عالمي ومحلي متطور حبيب، بعيد عن الرسميات، وما يحيط بها من تُهم، وما تلاقيه من جفاء وجفاف معروف.

في سبيل الخدمة :

وفي سبيل هذه الخدمة الفريدة، تقدمت العشيرةُ المحمدية، في كُلِّ مناسبة إلىٰ كُلِّ مسئول، بمذكراتها المفصلة في هذا الموضوع، الذي عُرفتْ به خبرةً وتخصصًا وإيمانًا ودعوة، فضلاً عن جهادها العامِّ الموصول، وجهدها التامِّ المبذول.

وكان من أثر خدماتها، أن تألفت أولُ لجنة لإصلاح التصوف في التاريخ الحديث، في أوائل عهد الثورة وتلتها لجان، كانت العشيرةُ ممثلةً فيها كلها، وإن لم يتهيأ لهذه اللجان الوصولُ إلى الغاية لسبب أو لآخر، ولازال ذلك شأن العشيرة وسيظلُّ حتىٰ يأتي أمر الله، وتتحقق بإذنه هذه الأهداف.

هذا أولا- أمَّا ثانيًا :

فقد نشرت العشيرةُ فروعَهَا في الجمهورية، ثم في العالم الإسلاميِّ، خارجَ حدود الجمهورية، حتىٰ بلغت إلىٰ كُلِّ منطقة فيها جالية مسلمة، فهي -فيما نعتقد- الهيئةُ المصريةُ الشعبيةُ الرُّوحيةُ، التي ترتبطُ مع أهل القبلة في الخارج بفروع ونواب ومندوبين علىٰ منهج روحي منظم، جعلها مرجعَهُم ومحلَّ أملهم الكبير، وجعل دارَهَا المتواضعةَ قبلتَهُم التي يحجُّون إليها كلما زاروا هذا البلد الأمين.

وكان هذا هو دعامة دعوة العشيرة إلىٰ أول **(مؤتمر صوفي عالمي)**، باعتبار العشيرة في واقع أمرها جامعة صوفية عالمية، تملك القيادات الثقافية والوسائل العلمية الشعبية، ومعينات الدعوة التي لم تتهيأ لغيرها، وإنما حالَ دون تحقيق انعقاد المؤتمر أمران :

١- العجز المالي في العشيرة. ٢- والعجز الخلقي في منافسيها.

وأمَّا ثالثًا :

فقد كانت العشيرةُ أولَ من أنشأت في التاريخ **(كُلِّيَّةً صوفية)** تعطلت بسبب العجز المالي أيضًا، كما كانت العشيرةُ المحمديةُ أولَ من كوَّن **(المجمع الصوفي العلمي)**، وأولَ من أصدر مجلة صوفية متطورة متحررة، هي مجلة **(المسلم)**، وأولَ من أنشأ **(لجنة الدراسات الصوفية)** لإحياء التراث الصوفي بإشراف المجمع، وأول من أحدث حركة بعث إيجابية للفكرة الصوفية، نبهت الأذهان، وحررت الأفكار، ودفعت إلى البحث والمقارنة، والدرس والتدليل والتوضيح والتقويم، وكانت أولَ هيئة تتلمذ فيها الشبابُ المثقفُ المتسامي، والرجالُ الخواصُّ، كمدرسة صوفية

سلفية جديدة ذات مبادئ إسلامية أصيلة، وأهدافٍ مثالية عريقة، وتجاوب عمليٍّ مع واقع الحياة الرفيعة.

كما كانت العشيرةُ أولَ من حشد شعراء التصوف الإسلامي في حلقة لا نظير لها في العالم، وأول من جمع الكُتَّاب والعلماء والخطباء الصوفيين في دائرة، تفتي وتكتب وتحاضر، وتخطب وتناظر، في أشهر المساجد، وأكبر النوادي، وأكثر المجلات المسلمة، كما كانت أول من جمع الصوفية الشرعيين في كتلة واحدة، هو : **(مجلس العشيرة المحمدية)**.

ويظاهرُ كلَّ هذا، طاقةٌ نسويةٌ مؤمنةٌ من سيدات وفتيات، وهبنَ أنفسهنَّ لترميم البيت المسلم، والتذكير بعهد أمهات المؤمنين، وسيدات السلف الصالح.

وأمَّا رابعًا :

فتباشرُ العشيرة بجوار ذلك، خدماتٍ مُشَرِّفةً في المجال الاجتماعي والإنساني والثقافي -كأثر من آثار التصوف الإيجابي- وهي تمارسُ هذه الخدماتِ المتشعبة، على الطريقة الإسلامية المتجددة المتطورة، بإشراف رجال من مختلف المذاهب والمشارب، والطرق الشرعية، ليس فيهم محترف، ولا متنطعٌ ولا مستغل، ولا متكهن، ولا متغطرس، ولا نفعي، ولا وصولي، ولا جاهل، ولا مخرف، ولا مشعوذ، ولا دعيٌّ، ولا أُلعبان.

وأما خامسًا :

أمَّا عن العقبات والأشواك ، والمصاعب والمتاعب ، والمفاجآت والفواجع ، فحدِّثْ ولا حرج ، وإنما يعزينا أنَّ هذا هو برهانُ الصدق وشارةُ القبول عند الله ، والبشير بعاقبة المتقين .

بعضُ خدمات العشيرة :

ثُمَّ إنَّ العشيرةَ مثلاً قد استحدثت أسلوبًا اجتماعيًّا إسلاميًّا جديدًا في الرعاية الاجتماعية للمحسوبين عليها من اليتامى والأيامى ، وذوي الشيخوخة ، والطَّلبة المستوجبين للرعاية والطالبات ، بحيث تحفظ عليهم إنسانيتهم ولا تخرجهم من بيئاتهم ، وذلك بخدمتهم العامة المنظمة في مجتمعهم ، ودون حاجة إلى إنشاء دور الإيواء وكثرة مصروفاتها ، وكذلك استحدثت مع المحسوبين عليها من المرضى سبيلَ الكشف عليهم بالمجان عند أطباء العشيرة ، ثم تتولى هي شراءَ الدواء لهم دون حاجة إلى تكاليف إنشاء المستوصفات وغيرها .

وبجوار هذا تبذل جهودها مع العاطلين ، وترحيل المغتربين ، ومدِّ يد العون في طوارئ الولادة والعجز والحجز والوفاة ، والإعانة على نوائب الدهر ، والدفن بمقابر العشيرة ، والقيام بالتوفيق والمُصَالحات ، وتوزيع الأغذية والأكسية والأحذية والأغطية ، ولا تبخل على لاجئ إليها بمعونة أدبية أو حسية .

وللعشيرة بحمد الله مساجدها وزواياها ، وقاعات الاستذكار ، والمكتبات التي تشرف عليها ، فضلاً عن الدروس والمحاضرات الخاصة

بالرجال والنساء، والدروس المخصصة لتقوية الطلبة والطالبات، وذلك بالإضافة إلى خدمات مجلس الفتوى بها، وإحيائها أيام الله ومواسم الإسلام، والمناسبات القومية، بالطريقة الشرعية التقدمية، مما يجعل من أعجب العجب تناسيها أو الغفلة عنها، وهي تؤدي ما لا يؤديه غيرها بأية حال في كل مجال.

لسانُ حالِ الدعوة:

ومنذ أربعة عشرة عامًا تصدر **مجلة المسلم** لسانُ حال هذه الدعوة، قوية ثرية، متجددة، متحررة، متطورة، مكافحة، منافحة، موجِّهة مُبْصِرة، مُبَصِّرة، محققة، متحققة، تزدادُ على الأيام قوة وفتوة، لم تتخلف مرة، ولم تتوقف مرة، ولم يُخط فيها حرف -فضلاً عن كلمة أو عبارة- إلا ومن ورائه حياة، من هدف معين أو فائدة مقصودة مقررة، وهي مجلة مفتوحة متحركة، تشارك في الأحداث وتندمج في الواقع، وتحمل كلمة الله في حكمة ودقة، وبُعدِ نظر، وتستغني بكثرة الخلاصات والأكاسير المُجَمَّعة، عن كثرة الأوراق، وكثرة البحوث المكررة الشاردة في الأغلب عن واقع الجماهير، وعن مواضع إحساسهم وملتقى أنفاسهم، مُحَافِظةً على شخصيتها ومقاصدها المحددة، لا تقلدُ ولا تنماع.

وكان هذا هو سبب حياتها المستقرة، في هذا المُزدَحَمِ الزاخر بالمجلات والصحف الهائلة، المؤيَّدة بالمال والجاه والسلطان، حتى لم يكد يبقى أمام هذه الصحف الكبرى مجلة ولا صحيفة، إلا أصبحت أو كادت أن تصبح في خبر كان.

وإنَّ قُدسية هذه الصحيفة عند قرائها في الداخل والخارج، مما لا يكادُ أن يصفه القلم -بحمد الله- برغم محدودية شأنها، وتجردها من وسائل الإعلان والدعاية.

وأخيرًا – النتيجة:

والنتيجةُ التي نخرج بها من كلِّ هذا الإجمال هي:

١- أنَّنا أمامَ طاقة تاريخية فريدةٍ هائلةٍ ممثلةٍ في جماعة ومجلة، ليست صورةً مكررةً، ولا هي وضعية مرتجلة، وإنما هي قوة مستقلة متميزة بخصائصَ ذاتية، لا تشاركُ غيرَها، ولا يشاركها غيرُها، في خدمة ولا فكرة، ولا هدف، ولا سبب.

٢- وأنَّها حركةٌ -رغم قلة مواردها وعجزها المالي- ذات فعالية إيجابية في محيطها المحليِّ والعالميِّ الفسيح، على تجدد وانطلاق، وتصديق وتقدُّمية، وأصالة وعمق حكيم، تمضي فيه على مخطط عقيدي منظم شريف، بعيد عن الشكوك بحمد الله.

٣- وأنَّها متغلغلةٌ في الضمائر والبصائر، وأنَّها تؤدي على تواضعها وإغفالها، خدماتٍ غاليةً خالدةً للدين والدولة، ليس لها من نظير ولا تطاولها فيه هيئة أخرى.

٤- وأنَّها تعتمدُ في كل هذه الخدمات الجلائل، والتضحيات المواثل على مواردها الضحلة المضغوطة، في عصامية نادرة، وتَرَفُّع فدائيّ لا يعرفه إلا أهل الله، ولولا ذلك لكان لها فيما تهدف إليه شأن أي شأن.

٥- وإنَّ المسئولين عامة، وفي الأوقاف والثقافة والشئون خاصة، ليلمسون الكثير الكبير من هذا المجهود الأثير، ولكنَّهم لأمرٍ ما، يكتفون بالكلام الجميل والإعجاب الأجمل؛ اكتفاءً بأنَّ الكلمة الطيبة صدقة !.

وعلى سبيل المثال : وزارةُ الأوقاف التي تُعينُ الأيامى والأراملَ، لا تعين العشيرة بمليم واحد، وتعين غيرها -أيَّ غير- بالألوف!!.

ووزارةُ الأوقاف التي تشترك حتى في المجلات المنزليَّة، لا تشترك بسحتوت في مجلة **(المسلم)**، على حين أنَّ «**العشيرة**» و«**المسلم**» تكمِّلان صميمَ رسالة الأوقاف، وهكذا ثم قُلْ نحو هذا في غير الأوقاف مع فوارق أخرى.

ولعلَّ من أسباب إهمالنا وإغفالنا، أننا نحترم إنسانيتنا ودعوتنا، وأننا نريد بعملنا وجهَ الله وحده، وهو عيبٌ لا نستطيع التخلِّيَ عنه، ولو تخلَّتْ عنَّا الدُّنيا بمن فيها وما فيها.

وإنما هو بلاغٌ للناس، وإبراءٌ للذمة، وتسجيلٌ للتاريخ.

***

وعصمته ﷺ حقيقة قطعية الثبوت التدرج التاريخي لأسباب وأهداف فكرة تجريد النبي ﷺ من العصمة

أولا: تمهيد وإجمال:

في بعض كلماتي السابقة عن الحضرة النبوية العلية وعدت - تجديدًا لوعد سابق- بالكلام عن البدعة المستنكرة، الناشئة عن هستيريا التمسلف والوهابية، كأثر للإصابة بحمى تعمد مخالفة الجماعة، ابتغاء الحصول على عَرض أو غرض دنيوي باسم الدين ضلالة أو تضليلا.

هذه البدعة الضلالة المستنكرة هي البدعة المعروفة باسم (بشرية الرسول) مرة، وباسم (اجتهاد الرسول) مرة، أو ما هو حول هذا المعنى، سُفْلاً سُفْلاً، فليس فيه نوع علو أبدًا.

ولا أظنُّ أنَّ في دنيا المسلمين جميعًا رجلاً واحدًا وَرِعًا، يستطيع تعليل ظاهرة التخصص في تجريح شخصية الرسول ﷺ باسم العلم، والتوفر على محاولة تأكيد تجريده من كل خصوصية رفيعة ـ سوى صدق تبليغه القرآن ـ باسم الدين، إلا أن يكون من وراء ذلك قلبٌ غير شريف أو عقل غير حصيف، أو جهل مطبق أو حقد مهلك، أو إيمان مزلزل، أو هوى أسود منحط.

ولك أن تسأل: لماذا يكرهون أن يتصف النبيُّ ﷺ بالعصمة، أو أن تنسب إليه معجزة؟ ولن تجد جوابًا يرضي بقدر ما يردي.

ثم تسأل : ما هو الأثر الإيجابي في الملة ، أو ما هو السبب الخطير في الدين الذي من أجله تتوفر هذه الأقلام متسابقة في محاولة تعرية رسول اللهﷺ من قدس المعجزة أو خصيصة العصمة ؟ ولم بذل كل هذا الجهد المتوقح ، في تصيد ما يُظنُّ أنه دليل أو شبه دليل ، على أنهﷺ يخطئ ، أو أنه يتساوى مع أي صعلوك تافه في مقتضيات البشرية الهابطة ، وأنه لا يفضل غيره من أفراد المسلمين واليهود والنصارى والصابئة والمجوس ، إلا بما أُنزل عليه ، ليس إلا ، ولن تجد جوابًا يرضي أبدًا .

إنه لا يجرؤ على ذلك القول امرؤ في قلبه مثقال حبة من تقىً أو أدب ، أو تقدير لمعاني النبوة ، وقداسة الألوهية ، أو سر الاجتباء والرسالة .

ولا أعرف إذا كان هؤلاء الكَتَبة [الذين] يؤمنون بالبعث والجزاء والشفاعة ، كيف يفد أحدهم يوم القيامة على الله ، وفي يده صحيفة بتجريح حبيبه المختار ، يرجو بها تخفيف حسابه ، أم كيف ينتظر من رسول الله الشفاعة ثمنًا لكتاب سوده في تسويته -وهو أشرف خلق الله وذروة سنام البشرية وقمتها- بعامة العامة من أفراد النوع الإنساني على مختلف مستوياته؟ وإنه لمنكر مسف ، ورجس كريه .

ثانيا : صورة الخطأ للتشريع :

لم يقل مسلم أبدًا إنَّ رسول الله إله أو مَلَكٌ ، فيقولون : يخشى أن يعبدوه ، وقد ضمنﷺ أن أمته لن تشرك بالله شيئًا ، إلا أن يكون الرياء ، والمسلمون بعدُ جميعًا على عقيدة واحدة ، هي أنهﷺ بشر ، لكنه يتميز

بخصائص لا يشاركه فيها سابق ولا لاحق، وأنه قمة القمم، التي لا تُسامىٰ ولا تتكرر إلىٰ يوم القيامة.

من هذه الخصائص عصمتهﷺ فيما أمر بتبليغه، وفيما ترك الله له الاختيار فيه من أمور الدنيا والدين معًا، تحت عين مولاه ورعايته.

فإذا ما اختارﷺ شيئًا، ثم نزل القرآنُ بشيء آخر، فإنما هو انتقال من الصواب إلى الأصوب (**فضلا من الله ونعمة**)؛ إذ لا بد أن يكون فضل الألوهية أعم، وحكمتها أتم، والكمال لا يتناهىٰ، واختيار النبيِّ شيئًا لم يسبق به العلم الأزلي لا يسمىٰ خطأ؛ فليس من وظائف النبوة الإحاطةُ من علمه تعالىٰ إلا بما شاء، ولا من شأنها الوقوع في الخطأ كذلك، وإنما هو النقلة من الصواب إلى الأصوب كما قلنا، ولا غير.

ثم هو إذا ما اختارﷺ شيئًا، وكشفت التجربة أنَّ غيره أفضل منه ـ كما حدث في قصة تأبير النخل، والنزول ببدر ـ فإنما هي صورة (**الخطأ المقصود**) للتشريع والتربية، ويفسرها ما حدث في قصة السهو في الصلاة، قالوا: أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله؟ قال: كل ذلك لم يكن.

أي أنهﷺ تعمد هذا ليسن شريعة أو ليشرع سنة، ولتقع الأحكام علىٰ أصول التجربة الواقعية.

وصورة الخطأ المقصود ليست بخطأ قط، حتىٰ يقال إنه أخطأ - ونستغفر الله، والأدب- فإنَّ هذه هي عقيدة المسلم التقي المؤدب، وهي كذلك عقيدة المسلم اليقظ المتعقل، فإنه إذا ثبت الخطأ على النبي ﷺ -

وحاشاه - في جانب ما، فقد ثبت جواز الخطأ عليه بعد هذا في كل جانب، وهكذا يدخل الشك على الدين كله، فمن ذا الذي يضمن عدمَ تسرب الخطأ إلى بقية أجزاء الشريعة؟ ما دام قد ثبت أنَّ مبلغها غير معصوم، يخطئ ويصيب ككل آحاد الناس.

وإذا قيل إنَّ اللَّه يصوب له ما يخطئ فيه، جاز لنا أن نقول: وما يدرينا لعله مع هذا أخطأ مرة أخرى فنسي تصويب اللَّه له أيضًا، وهكذا يكون التسليم بجواز خطئه -وحاشاه- في مرة، أو حادثة، تسليمًا بتدمير بنيان الإسلام جميعًا.

ومن الجهل بالعلم وبالأدب أيضًا أن يقال بأنهﷺ له شخصيتان، أحدهما بشرية يجوز عليها الخطأ، والأخرى نبوية يعصمها اللَّه، فهو عندهم -تأسيسًا على ذلك- يخطئ في أمور الدنيا دون الدين، وقد قرر علم الطب النفسي والعقلي، بأن تعدد الشخصيات في الرجل الواحد، مدخل من مداخل الجنون. وهكذا قال هؤلاء بما قال به الكفار والمشركون من قبل، وهم لا يعلمون، هذا فضلاً عن فساد أصل النظرية كما أسلفنا لك.

ثالثا: تحطيم الإسلام بالإسلام:

ولقد أراد خصوم الإسلام - من قبل ومن بعد- أن يحطموا الإسلام بالإسلام، أو بنحو الإسلام، فليس أيسر ولا أعمق، ولا أمكر ولا أخبث ولا أخفى في إدراك هذه الغاية من تلك الوسيلة، وهو مبدأ مجوسي يهودي قديم وضعه الزنادقة والباطنية، ثم استغله بعد ذلك كل عدو لله ورسوله،

ثم انتقلت العدوى الحمقاء إلى مغفلي المسلمين، فقد درس خصوم الإسلام الطوائف والمذاهب والأفكار التي تُنسب إلى الإسلام، واتجهوا إلى الزندقة والتبطن والقرمطة، حتى إذا انكشف أمرهم اتجهوا إلى التشيع المغرق، المخرج من الملة بالضرورة، وهكذا لم يدعوا مذهبًا إلا دسوا فيه أنوفهم، حتى انتهى المطاف إلى الدعوة البهائية، التي تؤيدها أمريكا، ثم إلى الدعوة القاديانية التي تحتضنها إنجلترا، ثم إلى الدعوة الوهابية التي تؤيدها إنجلترا وأمريكا معًا؛ لأنها أعمق وأدق بوجهها السلفي وملابساتها المغرية، وهي دعوة أخفت وجهها السياسي منذ نشأتها باسم التوحيد، وظلت تحقق أهدافها حتى طعنت الثورة العربية بتأييد الإنجليز واحتلت أرض الحجاز، ثم سلمتها للأمريكان كما هو معروف.

وهكذا تراها كلها دعوات نشأت في أوقات متفاوتة بتأييد خارجي وكلها استغل فيها -ظلما وزورًا- اسم التجديد في الإسلام، والغيرة عليه، والإصلاح الديني، والجهاد من أجله على مختلف المستويات، ومختلف المناسبات، ومختلف الاستعدادات والاتجاهات، ومختلف الأماكن والأزمنة.

ثم لما انكشفت عورة هذه الحيل المفضوحة، رغم ما يسترها من تخطيط دقيق، وإحكام بالغ اتجه خصوم الإسلام إلى استغلال بعض اتجاهات هذه المذاهب المدمرة، وبعض أفكارها ومبادئها بطريقة جريئة جديدة.

فبدأت حركة الطعن في أولياء الله والأئمة والسلف، ثم تطورت حركة الطعن حتى شملت غير العرب، مهما يكن شأنهم من الإسلام، في

شعوبية حمقاء لا صلة لها بدين الله، ثم تطورت الحركة فشملت كل المسلمين من العرب والعجم، ما داموا يخالفون عن هذا المذهب، وإن كان أثرهم في الإسلام من شوامخ الآثار وخوالدها النادرة.

كما بدأ هذا الهوس الأهوج، بالحملة على التصوف جميعًا دون تمييز، ثم على كل من انتسب إليه من السادة في تحامل وتحامق وحقد أزرق، لا عدالة معه ولا علم ولا أدب ولا ضمير.

وامتد ذلك إلى الولاة والحكام، حتى لم يبق في تاريخ الإسلام ولي ولا عالم ولا حاكم إلا وقد نهشته هذه الحيات سوى بضعة نفر، تُركوا لغرض من أخبث الأغراض.

وهكذا قضت هذه الحركة اللئيمة على رجال التاريخ الإسلامي الأصيل المؤثل، في الوقت الذي تخلق فيه الأمم الدعية لنفسها شخصيات خرافية وتاريخًا موهومًا؛ حتى لا تسابقها في عراقة تاريخها المفتعل بقيةُ الأمم.

رابعًا: أبوي النبي ﷺ وأهل البيت والصحابة:

وفي غِمار هذا الهوس تجدد باب الطعن في إيمان أبوي النبيﷺ كوسيلة للوصول إلى الطعن في شخصه الشريف -وأرجو أن أفند هذه الدعوى الوقحة، فيما سأعرض لتفنيده من الدعاوى فيما بعد إن شاء الله .

ولما أحسوا بنفرة الناس من رجس هذا التطاول، وكان من الأمثال المضروبة في تاريخ هذه المحنة (ملا علي القاري) -غفر الله له- فقد امتنع الناسُ عن الأخذ عنه والاحتجاج به، لمجرد أنه مسَّ هذا الجانب، وبقي

علمه في الإسلام عقيمًا لا ينتفع به، وشخصُهُ مثلاً مضروبا لمن تحدثه نفسه بارتكاب مثل موبقته.

قلتُ: إنهم لما أحسوا ذلك نقلوا حملتهم إلى أهل البيت؛ ففي «**منهاج السنة**» لابن تيمية مثلاً، كلامٌ موبق مثير عن فاطمة بنت النبي ﷺ وعليِّ ابن أبي طالب، قُوبل من الأمة بالاستهجان المطلق، ووصم كاتبه بين العلماء بالنفاق والناصبية.

وهكذا لما لمسوا خطرَ البدء من القمة بدءوا مرة أخرى من السفح، حتى وصلوا إلى عامة الصحابة، ثم لما اطمأنوا بعض الشيء، أخذوا بتلابيب خاصتهم، واختاروا لذلك قمة متسامية من هذه القمم الشوامخ كتجربة، إنْ نجحت فقد قُضي مقدمًا على بقية هذه القمم، وقُضي بالتالي على آثارها الهائلة الضخمة، التي قام الإسلام على أصولها ونقولها، ومن بعدها لا يكون إلا قمة القمم ممثلة فيه ﷺ.

هذه القمة هي الإمام العدل الثقة الثبت، بحر الحديث المحيط، سيدنا أبوهريرة رضي الله عنه ولسنا بحاجة إلى الإشارة نحو ما أُلف في تجريحه من المتمسلفة المناكيد، والرافضة المشائيم، وحقدة المستشرقين.

ومِنْ هنا بدأت حركة الطعن في السُّنة؛ للتخلص منها بدعوى انبعاث حركة «**القرأنة**» التي كنا أشرنا إلى بعضها في كلمة سابقة بمجلة «**المسلم**»، وهي التي يدعو أصحابها إلى الاكتفاء بالقرآن، ونبذ السنة، وإليها أشار الرسول ﷺ فيما جاء عنه من أعلام النبوة «راجع المسلم عدد جمادى الأولى ١٣٨٣ هـ».

وحركة القرأنة إحدىٰ الحركات الاستعمارية الحديثة، التي أيدها الإنجليز في الهند وما حواليها، وأيدتها أمريكا في مصر والشرق الأوسط.

ومتىٰ تم لخصوم الإسلام زلزلةُ ثقة المسلمين في السنة المشرفة، وفي حَمَلَتِها الأبرار الأطهار الأخيار، فقد تم لهم بالتالي زلزلةُ الثقة في صاحب السنة، بمثل دعوىٰ عدم العصمة، ومتىٰ تم هذا فقد زُلزلت الثقة في القرآن نفسه، أي في الإسلام جميعًا.

وهكذا يُقضىٰ على الإسلام باسم الإسلام، ومن باطن الإسلام، وبأيدي المسلمين أنفسهم بين مجرمين عامدين، أو مقلدين مغفلين، وخصوم الإسلام يضحكون.

ومن أعجب العجب، أنَّ الطعن في الصحابة والأولياء، والأئمة والعلماء، وأهل البيت وحكام المسلمين، والقول بتجريد النبيﷺ من العصمة، والشك في السنة، بل والشك في القرآن، هو هو ولا غيره، السلاح الأكبر الذي يستخدمه المستشرقون والمبشرون، وغلاة الباطنية والزنادقة والمتمسلفة، فكلهم جبهة واحدة على الإسلام، ولا أدري إذا ما حطم هؤلاء كل ذلك، فماذا بقي بعد من دين الله ؟ ثم أينت هذه العقول المقفلة التي تقول بذلك ظنًّا منها خدمة الإسلام في سذاجة وبلاهة تؤسف وتردي، أو في إجرام ووقاحة ودعوىٰ لا تطاق.

إنَّ مما يسترعي الانتباه بقوة، ومما يثير أعجب العجب أنَّ هستيريا التحامل علىٰ عصمة الرسولﷺ أو تجريح الصحابة، أو تهوين السنة أو التورك علىٰ أعلام الإسلام، لا تثور إلا في فورة عمل عربي أو إسلامي عام

أو خاص ؛ مما يدل على أنَّ مِنْ وراء ذلك أيدٍ معينة ، تعمل على مخطط مقرر ، لتشغل الناس عن كُبريات أمورهم ، بتوافه خلافية كانت وستبقى كذلك إلى يوم الدين .

إنَّ هذه الأيدي التي تحرك هؤلاء الإمعات ، وتستغلهم ضدَّ دينهم ، يهمها ألا ينصرف الناس إلى معالجة الجادِّ من الأمور المتفق على خطورتها ، فمثلاً الإلحاد والانحلال ، والتدهور الخلقي والنفسي ، والاعتقادي والاجتماعي بألوانه ، والانحراف الفكري والوجودية والاستشراق ، والأخطار الاستعمارية التي تنشب في الأقطار الإسلامية ، كل أولئك لا تسمع فيه لهؤلاء ركزًا ، ولا تحس لهم همسًا ، بينما تُرفع العقائر ، وتصطخب الأصوات ، وتبح الحناجر ، وتوقد نار الحروب إذا قال قائل بحق : إنَّ الرسول المصطفىﷺ معصومٌ - وهو كذلك ، عقلاً ونقلاً ، وإنْ كره الكارهون - أو قال بما دون ذلك من جواز التوسل وزيارة الأموات .

خامسًا : أقرب وسائل الثروة والشهرة :

قلنا إنَّ فكرة تجريد النبيِّﷺ من العصمة ، إنما كانت فيما مضى من صناعة الزنادقة والباطنية ، ومن والاهم ، ثم ورثهم في العصر الحديث الاستشراقُ والاستعمارُ والتبشيرُ والتمسلف ، سواء سموه وهابية أو تيمية ، أو سنية أو غير ذلك .

وفكرة تجريد الأنبياء من العصمة ، فكرةٌ يهودية ونصرانية قديمة ، ذهبت بأهلها المذاهب فيما مضى ، حتى دسوا فيما دسوا بالكتب المقدسة عندهم أكاذيب مفضوحة ، تجعل لوطًا زانيًا ، وداودَ زانيًا قاتلاً ، وسليمان مرتدًّا عابدَ وثن . . . إلى آخر هذه الترهات المصنوعة لمثل ما تُصنع من

أجله ترهات سلخ العصمة عن الرسول المصطفىﷺ سواء بسواء، أو سواء دون سواء.

غير أنَّ هذه الفكرة تستعمل اليوم أيضًا، كأقرب وسيلة إلى الشهرة والثراء، فما على طالب الشهرة أو المبتلى بهستيريا جمع المال، إلا أن يسبَّ النبيَّﷺ والسلف، ويخالف عن جمهور الأمة، فلا يلبث أن تتلقفه أيدي بعضهم أو كلهم، فتتخمه بالمال وترفع من حوله ألوية الصيت والشهرة، وتكلل رأسه بغار الإصلاح والتجديد.

روى الدينوري قال: إنَّ قومًا من الزنادقة اجتمعوا فقالوا: نشتم نبيهم؟ قالوا: إذن نقتل، قالوا: ولكنه يقال: إنْ أردت أن تؤذيَ جارَكَ فاضرب كلبه، فلنشتم أولاً أحباء نبيهم، ثم بدءوا فقالوا: كل الصحابة في النار إلا عليا، ثم قالوا: كان عليٌّ هو النبي، فأخطأه جبريل، ثم قالوا: عليٌّ هو الله، خطوة بعد خطوة. وهكذا روى البخاري في «**تاريخه**» عن ابن مسعود قال: بعث الله نوحًا فما أهلك أمته إلا الزنادقة، ثم نبي فنبي، والله لا يهلك هذه الأمة إلا الزنادقة.

نقول: ومن المذهل أنه ما ذُكرت قط خصلتان في إحداهما منقصة، إلا نسبوها سراعًا منفعلين إلى رسول اللهﷺ وتلمسوا لها الأدلة المزورة والبراهين المتوقحة.

أما كيف هذا ولماذا؟ فلا أحد يعرف، ولكنهم يسمونه التوحيد، والتعقل، وما هو إلا التعديد والتغفل في أنذل الصور وأخسها وأوهاها، بل هو تدمير الإسلام بأيدي المسلمين أو المتمسلمين عامدين أو مقلدين.

الخلاف والرد عليه :

والخلاف بيننا وبين هؤلاء كلهم أو بعضهم . . . هو أنهم يقولون ـ ولو في ظاهر أمرهم ، والله يتولى السرائر : إنَّ الرسول ﷺ معصوم فيما أمر بتبليغه فقط -وهو القرآن- ونحن نرىٰ أنَّ العصمة له كذلك في السُّنة ، بكل أقسامها القولية والعملية والإقرارية ، ونرىٰ أنه ﷺ إنما يتعمد «**صورة الاجتهاد**» إذا سلمنا جدلاً بأنه يجتهد ـ أي لا من عند نفسه ، بل نرىٰ أنَّ هذا الاجتهاد إنما هو بالتوجيه الإلهي للتشريع علىٰ أساس التجربة ، وأنه إنما يكون اجتهادًا للمفاضلة بين صوابين ، لا بين صواب وخطأ ، كما يزعم هؤلاء وأولئك ، فإذا عقَّبَ اللهُ على اجتهاده بوحي مخالف لما استقرَّ عليه اجتهادُهُ ﷺ ، فإنما هو توجيهٌ إلى الأصوب بمقتضى العلم الإلهي ، كما أشرنا آنفا إلىٰ كل ذلك .

فليس هناك خطأ وصواب حتىٰ نفرض العصمة في الصواب ، وننزعها في الخطأ ، بل هو كما قررنا وكررنا «**صورة اجتهاد**» بين صوابين ، قد يظهر أحدهما في «**صورة الخطأ**» المقصود لاستكمال حكمة التشريع ، وإلا فكيف نقول في تفصيله ﷺ لإجمال المأمور به من مثل الصلاة والزكاة والصوم والحج ، ونحو صلاة الخوف ، وتحريم الجمع بين المرأة وعمتها ، والمرأة وخالتها ، وتحريم ذبح الحُمر الأهلية ، ونحو ذلك ، فإذا قيل : هو اجتهادٌ من عنده ﷺ ، كان من غير المقبول أن يجتهد في تفصيل إجمال القرآن علىٰ هواه ، وإذا قيل بوحي ، فقد تعين أنه كما يصدق الوحيُ علىٰ بعض السنة أنْ يصدق علىٰ كلها .

قال الإمام السبكي في «**جمع الجوامع**» : والصواب أنَّ اجتهاده لا يخطئ. قال الإمام المحليُّ في شرحه : «**عبر بالصواب إشارة إلى بشاعة القول المقابل**» .

فانظر - علمك الله - إلى هذا النمط من الأدب العالي مع الرسول ﷺ ، حيث يعبر الإمام المحلي بلفظ «**القول المقابل**» ترفعًا عن أن يذكر لفظ «**الخطأ**» منسوبا إلى الرسول ، ثم قارن بين هذا وبين المجازفة التي يتورط فيها أدعياء العلم المبتلون بوباء «**بشرية الرسول ﷺ**» ، وتحري تجميع أدلة نسبة الخطأ إليه ، وإن أخذتهم جهنم ، أما أدب أهل الله مع رسول الله ﷺ فمن فيض قوله تعالى : ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضًا﴾[النور : ٦٣]، ومما هو من هذا الباب من آيات وآثار .

وإني ناقل إليك بالإضافة إلى هذا -فيما يأتي بإذن الله- نصوصًا محكمة هي أُمُّ السنة ، لا تقبل تأويلاً ، ولا تحتمل صرفًا عن وجهها إلى وجه آخر ، ليتم إيمانك بعصمة نبيك ﷺ في أمر دينه ودنياه معا ، فانتظرني مع عدد «**المسلم**» المقبل إن شاء الله .

الفرق بين الكمال الإلهي والعصمة النبوية :

وإنَّ مما يهرف به القائلون بعدم العصمة النبوية ، زعمهم أنَّ إثبات العصمة معناه - عندهم- إشراك بشر مع الله في خصيصة إلهية مقدسة ، وهي دعوى منقوضة ككل دعاواهم من الجذور ، فالكمال صفة ذاتية في الله تعالى ، منها تنبثق كل صفات الألوهية السرمدية ، ولا يكون الكمال إلا لله وحده .

أما العصمة فهي صفة بشرية حادثة ، تُفاض من الله تعالى على طائفة معينة من أحبابه ، جعلهم بها أئمة للقدوة والأسوة والطاعة والهداية إليه قولاً وعملاً وحالًا .

أما أنَّ هذه العصمة تكون قبل النبوة أو بعدها ؟ فمحل الاتفاق أنَّ النبوة إنما تكون ملزمة للناس بالاتباع بعد البعثة ، وهذه المرحلة هي التي تتعين فيها العصمة شرعًا وعقلاً ، حتى تتم نموذجية الدعوة ، واستئهال حاملها للإمامة والإيمان والقدوة .

وفرق بين الأمر الذاتي السرمدي ، وبين الأمر الحادث بمقتضى الفيض الإلهي ، وضرورة الخصوصية المتعينة بالسبب الأصيل .

***

نعم: عصمتُهُ ﷺ حقيقةٌ قطعيةُ الثبوت عودٌ على بدءٍ

تمهيدٌ ووصلٌ:

أجملنا لك في الكلمة السابقة تاريخَ تطور فكرة نزع العصمة عن النبوة، وكشفنا عورتها المغلظة في أصولها وفروعها ومقاصدها وأهدافها الخطيرة.

تلك التي تتستر بدعوى نشر التوحيد تارة، وبدعوى المعقولية الفكرية تارة، وبدعوى تطهير العقيدة من الغلو والشبهات تارة، إلى آخر هذه الترهات المفتعلات، وقد انكشف لك كيف أنَّ هذه الفكرة - جملة وتفصيلًا- من تركات الزنادقة والباطنية، تلقفها الاستعمار والاستشراق والتبشير، فتاجر بها، واستأجر على ترويجها أدعياءَ التسلف، ثم استغلها في مخابث أغراضه، وأرجاسه العملية والفكرية، على مختلف المستويات والاتجاهات، وأثبتنا لك من طريق العقل والنقل، استحالةَ تجريدهﷺ من العصمة في أي جانب من جوانب حياته، لتعين انسحاب عدم العصمة آنئذ تلقائيا على بقية ما يصدر منهﷺ من أمر الدين أو أمر الدنيا، ثم لأنَّ العقل والنقل متضافران على أنهﷺ النموذج الأعلى للإنسان القدوة، والقدوةُ كما تكون في جانب تكون في كل جانب، وإلا كانت القدوة جامعة للنقيضين، فلا تستقيم وظيفتها بحال.

وكذلك بيّنا أدب العلماء في فهم ما قد يُوهم الخطأ في بعض تصرفاتهﷺ وقررنا رأينا في غاية الوضوح والانكشاف، ملخصًا في أنَّ ما جاء في الكتاب والسنة مما قد يُوهم الخطأ أو عدم العصمة، فإنما هو

(صورة للخطأ المقصود، وصورة للاجتهاد المتعمد)؛ حتىٰ يأتي التشريعُ علىٰ أساس من واقع حياة الناس ومقتضيات تجاربهم.

وبيّنا أنَّ اجتهادهﷺ إنما يكون في المفاضلة بين صوابين، فإذا اختار القرآن الأصوب، فلأنَّ علم اللَّه أتم بما هو أهدىٰ، وليس معنى اختيار القرآن شيئًا، أنَّ النبيَّ قد أخطأ في اختيار الشيء المقابل له، ولكنَّ معناه أنَّ المصلحة هنا وهناك موجودة بالفعل، ولكنها فيما اختار اللَّه أشمل وأكمل.

هذا إجمال بعض ما قررناه في الكلمة الأولىٰ، أما هنا فسوف نسوق إليك طائفة أخرىٰ من الأدلة القاطعة علىٰ عصمتهﷺ؛ حتىٰ لا يكون ثمت مجال لأي جدال بعد في هذا الموضوع إن شاء اللَّه.

أولا: ما هي السنة:

سمى اللَّه تعالى السُّنةَ «**حكمةً**»، وهو مذهب السلف ومنهم الحسن وقتادة وابن كثير، وقد قرنها اللَّه بالكتاب، وبيّن أنَّ وظيفة النبي تعليمها للناس مع القرآن، وتزكيتهم بهما معًا؛ فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فإذا جاز في السُّنة الخطأُ لم يجز أن تُقرن بالكتاب الأقدس الذي لا خطأ فيه، ولم يجز أن تُسمَّىٰ حكمة، ولا أن تُعلم للناس، ولم يجز أن يأمر اللَّه بالأخذ بها لمطلق صدورها منهﷺ دون انتظار أمر اللَّه فيها كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

ولا أمر برد المتنازع فيه إليه، ولا علَّق كمال الإيمان على التسليم لحكمه فيما شجر بينهم، دون انتظار تصويب أو تخطيئ من السماء؛ إذ الأمر على الحقيقة كله من الله بدءًا ونهاية.

ولهذا سُميت السنة «**مِثلا**» للقرآن -بكسر الميم- ولم تسم «**نحوا**» له، والمثلُ يجري عليه ما يجري على مثيله ـ على خلاف النحو ـ؛ ففي حديث المقدام بن معدي كرب عنهﷺ: «**ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه**»، وتَرَدَّدَ هذا المعنى بلفظه في نحو سبعة أحاديث لا مطعن لأحد عليها في دراية ولا رواية ولا سند ولا رتبة، وإذا ثبت هذا فقد ثبتت العصمة للسنة كما ثبتت للكتاب، وإلا بطلت الحجية فيهما معًا، بحكم أنهما مثلين؛ فتأمل. وسواء في السنة الثابتة أحاديث التواتر والآحاد.

ثانيا: الشافعي والسنة:

وهنا يجب أن يكون مفهومًا، أنَّ السنة هي قول النَّبيِّ وعمله وإقراره، بل قال بعضهم من أمثال ابن الحاج والشاطبي، بأنَّ هناك سنة تركية في مقابل السنة الفعلية؛ غير أنَّ هذا القسم لنا فيه نظرٌ، وليس هو محل النزاع.

قال البيهقي بعد ذكر أحاديث التبليغ عنه -دون انتظار تصويب أو تخطيئ- قال الشافعيُّ: «**دل ذلك على أنه لا يأمر أن يؤدى عنه إلا ما تقوم به الحجة على من أُدِّي إليه؛ لأنه إنما يؤدى عنه، حلال يؤتى، وحرام يجتنب، وحدٌّ يقام، ومال يؤخذ ويعطى، ونصيحة ـ تأمل ـ في دين ودنيا**» ا.هـ.

قلنا : ومثل هذا لا يكون فيه الخطأ ، وفي إحدىٰ روايات المقدام بن معدي كرب ، عنهﷺ : «**إنَّ ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله**» ويقابله : «**إن ما أحل الرسول مثل ما أحل الله**» ، ولن يكون ذلك لخطَّاء نسَّاء ؛ فإنه إذا ما ثبت عليه الخطأ في جانب ، فقد ثبت الخطأ عنه في كل جانب ، وبهذا يكون قد ضاع الدين جميعًا ، كما قلنا غير مرة .

قال الشَّافعيُّ في «**الرسالة**» يقسم السنة : أحدها : ما أنزل الله فيه نصَّ كتاب ؛ فسنَّ رسولُ الله بمثل نصِّ الكتاب ، والثاني : ما أنزل الله فيه جملةَ كتاب ؛ فبيَّن الرسول عن الله معنىٰ ما أراد ، عامًّا أو خاصًّا ، وكيف يأتي به العباد . والثالث : -وهو من موضوع البحث- : ما سنَّ رسولُ اللهﷺ مما ليس فيه نصُّ كتاب ، فمنهم من قال : جعله الله له ، بما افترض من طاعته ، وسبق علمه من توفيقه لرضاه- تأمل . بل قارن بين الأدبين والاعتقادين - قال الشافعيُّ : ومنهم من قال : لم يسن سنة قط إلا ولها أصل في الكتاب ، ومنهم من قال : بل جاءته به رسالة الله ، فأثبتت سنته بفرض الله ، ومنهم من قال : أُلقي في روعه كل ما سن ، وسنته الحكمة التي ألقيت في روعه عن الله ا .هـ .

هذا كلام الشافعي ، لم يقل فيه باجتهاد الرسول وخطئه ولا نقله عن أحد ، كما قال علماء آخر الزمن ، ومنه يتضح أنَّ القول باجتهاد النبي ﷺ -فضلا عن اتهامه بالخطأ- بدعة مستقبحة ، استحدثت بعد عصر الشافعي ، فهي من زلات الأفهام ، والدسائس على الإسلام .

ثالثا: عمرُ والشَّعبيُّ وغيرهما والسنة:

أخرج البيهقيُّ بسنده عن عمر بن الخطاب أنه قال على المنبر: «**يا أيها الناس: إنَّ الرأي إنما كان من رسول الله مصيبًا؛ لأنَّ الله تعالى يريه - تأمل بعمق- وإنما هو منَّا الظنُّ والتكلف**».

أفيقول هذا عمرُ وهو أعلم بالنبي ودينه، ونقول نحن إنه اجتهد وأخطأ لأنَّ الله ما كان يريه شيئًا، وإنما هو الانفعال العقلي أو البشري المجرد بكل أخطائه وانحرافاته؟!.

قال الشَّعبيُّ: «**إنَّ رسول الله كان يقضي بالقضاء، وينزل القرآنُ بغير ما قضى فيستقبل حكم القرآن، ولا يرد قضاءه الأول -تأمل- نقول: لأنَّ كليهما صواب، ولأنَّ هذا وذاك من عند الله جميعًا، ونسخ السنة بالكتاب لحكمة، هي نفس الحكمة التي نسخ الكتاب من أجلها بالكتاب[1] حتى يقع التشريع على سببه من واقع ماجريات الأمور**».

نعم: السنة كالكتاب من عند الله، وتعالى الله أن يخطئ على لسان نبيه، ثم يعود فيصوب ما أخطأ.

أخرج الدارمي بسنده عن حسان بن عطية: «**كان جبريل ينزل على رسول الله بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن، ويعلمه إياها كما يعلمه القرآن**»، وأخرج بسنده من طريق القاسم بن مخيمرة عن طلحة، قيل لرسول الله ﷺ في عام سنة -أي عام جدب-: سَعِّرْ لنا. قال: «**لا يسألني الله عن سُنَّةٍ**

(١) ومن العلماء من يقول بقسم آخر هو نسخ الكتاب بالسنة. (المسلم).

أحدثتها فيكم لم يأمرني الله بها» ، أي أنه لا يصدر حتىٰ في أمور الدنيا عن اجتهاد ، ولكنه يصدر أبدا عن توجيه إلهي . . فليس هو من يقول بالرأي ، لا في الدين ولا في الدنيا .

أخرج الشيخان : خاصم رجل الزبير في أرض ، فقضى النبي بها للزبير : فقال الرجل للنبي : يا رسول الله : أنْ كان ابن عمتك ؟ فتلون وجه النبي ، قال أبو هريرة ثم قال رسول الله ﷺ : «**من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله**» ذلك لأنه لا يصدر عن نفسه، ولكن عن ربه يصدر ، فهل المستمدُّ من الله يخطئ؟ إذن لكان المخطئ الله - وحاشا له- .

أما الاستشكال بمثل حديث «**إنما أنا بشر مثلكم ، وإن أحدكم يكون ألحن بحجته فأقضي له . . . إلخ**» فقد قررنا أنه للتشريع على الطبيعة ، كما يقولون ، ثم هو معارض بالحديث السابق ، وهو أثبت وأقوىٰ .

وأخرج الشيخان عن ابن مسعود حديث : «**لعن الله الواشمات والمستوشمات . . . إلخ**» .

فبلغ ذلك امرأة يقال لها «**أم يعقوب**» فقالت لابن مسعود : إنه بلغني كيت وكيت ، فقال : مالي لا ألعن من لعن الله ورسوله ؟ وهو في كتاب الله ، فقالت : لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدته ، قال : أما قرأت : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر : ٧] . والمعنىٰ : أنَّ كل ما جاء عن النبيﷺ ، ولو لم يكن منصوصًا بالحرف في الكتاب ، فقد جاء من عند الله بهذه الآية ، ولذا قال الشافعي : «**من قبل عن الرسول ؛ فقد قبل عن الله**» .

رابعًا: مثل القرآن أو أكثر:

وفي حديث المتكئ عند أبي داود: «**ألا إني والله قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء، إنها لمثل القرآن أو أكثر**». تأمل القَسم، وتأمل قوله أو أكثر، وهذه المثلية مقررة مطبقة فيما رواه الشيخان في قصة الزاني، قال النبيﷺ: «**لأقضين بينكم بكتاب الله**»، ثم قضى بالجلد والتغريب، وليس التغريب في القرآن، كما أنها مقررة ومطبقة أيضًا بإلحاق الجمع بين البنت وعمتها أو خالتها، بالمحرمات من النساء دون نص في القرآن، وهي مقررة ومطبقة في غير ذلك من أمثال تحريم الحُمر الأهلية وحل ميتة البحر، وحرمان القاتل من الإرث... إلخ.

ومقررة مطبقة أيضًا فيما رواه الشيخان عن يعلى بن أمية، في قصة المتطيب المعتمر، حين سأل النبي فنزل قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]. ثم قال له النبيُّ ﷺ: «**أما الطيبُ الذي بك فاغسله ثلاثا، وأما الجبة فانزعها، ثم اصنع في عمرتك ما تصنع في حجك**»؛ فذكر الطيب والجبة لم يأت في القرآن.

قال البيهقيُّ في مدخله: «**ثم ما أوحي إليه نوعان: أحدهما وحي يُتلى، والآخر وحيٌ لا يُتلى**». فأنى يتأتى الخطأ؟ وأمرهﷺ متردد بين وحي يتلى ووحي لا يتلى، ولهذا نقل في المدخل عن الأوزاعي: «**ما بلغك عن رسول الله فخذ به؛ فإنَّ رسول الله كان مُبلِّغًا عن الله تعالى**: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

خامسًا : لم أقله ولكن قاله الله :

ثم اسمع – علمك الله – عن عبد الله بن عمر . قال : كنت أكتب كل شيء سمعته من رسول الله وأريد حفظه ، فنهتني قريش ، وقالوا : تكتب كل شيء سمعته من رسول الله ﷺ ورسول الله بشر يتكلم في الرضى والغضب ؟ ـ ولعل من قال هذا قديما كان جَدًّا للقائل به الآن ـ قال : فأمسكت ، فذكرت ذلك لرسول الله ، فقال : « **اكتب ، فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق ، وأشار بيده إلى فمه**» أخرجه الدارميُّ والحاكم .

أرجو أن يتأمل المسلم بعمق في هذا الحديث ، وكيف أنَّ النبي ﷺ يقول : إنَّ فمه لا ينطق إلا بالحق ، وهؤلاء يقولون بل إنه يخطئ!! أي ينطق بالباطل ، فأيهما نصدق أيها المسلم ؟ ثم اسمع أدبك الله : أخرج الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «**غِفَار** – اسم قبيلة – **غَفَر الله لها ، وأَسْلَم** – اسم قبيلة– **سَلَّمَها الله ، أَمَا إني لم أقله ، ولكن قال الله**» .

أسمعت ؟! قاله الله !! حتى دعاؤه ﷺ كان من عند الله ، هذه البسائط – كما يقولون – كانت من الله على لسان نبيه ، أفيقول بعد هذا عاقل بما قال به هؤلاء الخلف التافه المغرور ؟

سادسًا : النسخ وفلسفة العتاب الإلهي :

لك أن تسأل : كيف إذن نفهم بعض ما يشبه الحجج ، من القائلين بخطئه ﷺ وحاشا له ؟ قلت : فاعلم ما سبق تقريره ، من أنَّ الأمر لا يتعدى نسخَ الصواب بالأصوب لحكمة ؛ فقد نُسخ القرآن بالقرآن ، فهل معنى هذا أنَّ الله كان مخطئًا ثم رجع عن خطئه ؟ قطعًا لا ـ ونستغفر الله ـ

وإنما هي الحكمة، وكذلك السنة تُنسخ بالسنة لنفس الحكمة ونفس العلة، أخرج البيهقيُّ عن ابن عمر، قال رسول اللهﷺ: «**إنَّ أحاديثي ينسخ بعضها بعضًا، كنسخ القرآن بعضه بعضًا**» كما حدث في قصة تأبير النخل والنزول ببدر، وما هو من هذا الباب، وأخرج عن الزبير ابن العوام أنَّ النبيﷺ كان يقول القول ثم يلبث حينًا، ثم ينسخه بقول آخر، كما ينسخ القرآن بعضه بعضًا، ا.هـ.

قلنا: والنسخ هنا ـ كما كررنا ـ هو العدول من صواب إلى أصوب منه، لسبب من الأسباب، أي أنه صورة خطأ ظاهري مقصود لغرض التشريع والتربية، كما جاء صريحا في حديث سجود السهو، حين صلى الرسولﷺ ركعتين من أربع، فقالوا: أقصرت الصلاة، أم نسيت يا رسولالله؟ قال: **كل ذلك لم يكن !!**.

فإذا طبقت هذا على كل ما زوبع به القائلون بخطئهﷺ اتضح ألا خطأ عنده، وإنما سببه عندهم مرض نفسي أو انعكاس عقلي أو اعتقادي أو أخلاقي، لسبب من الأسباب أيضًا!!.

ثم خذها حكمة جديدة، فكل عتاب كان من الله لرسوله، مما طرب له المساكين من المتحاملين على نبي المؤمنين، فإنما كان عتابا لا على الخطأ، ولكن كان على الاكتفاء بالأخذ بالصواب دون الأصوب، الذي هو أشبه بمقام النبوة الخاتمة، فكان العتاب مفاضًا من مقام التكريم والتوجيه الأقدس، وكان الأخذ النبوي مستمدًّا من نبع التواضع البشري المطلق!! وقِسْ على هذا كل ما قالوه عن أسرىٰ بدر، والإذن للمنافقين في تبوك، واستغفارهﷺ للمشركين وقصة ابن أم مكتوم إلى آخر هذه القضايا.

ولا تنسَ أنَّ الصواب من باب الكمال لا يتناهى ، فكما أنه ما من كمال إلا وثَمَّ ما هو أكمل منه ، فكذلك ما من صواب إلا وثم ما هو أصوب منه ، والترقي في مدارج الكمال لا يقف عند حد ، فعتابات الله لمصطفاه إنما هي من قبيل الحفز ، والتوجيه ، والإغراء بالتماس مالا يتناهى من مراتب التسامي ؛ لأنَّ هذا هو الأليق بمنزلته عند ربه ، واختيار النبيﷺ بين صوابين إنما هو من قبيل الأدب والقناعة بالواقع من المدد ، والاعتراف بالعجز عن الشكر ، فلا ذنب ولا جزاء ، ولا خطأ ولا تصويب ، وإنما هو طلب الأهدى والأمثل ولله الحمد ، وهذا هو وجه نسخ السُّنة بالكتاب ، كما يفهمه أهل الأدب واليقين وكما يقال : «**حسنات الأبرار سيئات المقربين**» ولا نزكي على الله أحدًا .

سابعًا : دعوى وجهل وسوء أدب :

قالوا - عفا الله عنهم وأفاض عليهم مما أدب به نبيه- : إنَّ غير النبي كان يفهم القرآن صوابا ، وكان فهم النبي له خطأ ، ونعوذ بالله أن نتهم الله بسوء الاختيار ؛ إذ يكون الله قد اختار لرسالته من لا يفهمها ، ولكتابه من لا يحسن إدراك ما فيه ، وكان غيره أولى بذلك منه[١]!! فيكون سوء اختيار من الله نستغفره ونعوذ بالله أن نتهم رسوله بالبلادة أو البلاهة أو العجز عن فهم ما جاء به ، وما استنبئ من أجله ، وهكذا ترى كيف سب صاحب هذه الدعوى ربه ونبيه عالما كان أو جاهلا؟ وكان بذلك على حافة الكفر والخروج من الملة؟!

(١) هذا نوع من أقوال بعض فرق الرافضة قال به مؤلف كتاب «**اجتهاد الرسول**» (المسلم) .

روى الدارمي في مسنده عن سعيد بن جبير، أنه حدث يوما بحديث عن النبيﷺ، فقال رجل: في كتاب الله ما يخالف هذا، فقال سعيد: «**لا أراني أحدثك عن رسول الله، وتعرِّض فيه بكتاب الله، كان رسول الله أعلم بكتاب الله منك**» أ.هـ. ونقل السيوطي في المفتاح: «**إن السنة الثابتة** ليست منافرة للقرآن، بل معاضدة له، وإن لم يكن فيه نص صريح بلفظها، قال: فإن النبي يفهم من القرآن ما لا يفهمه غيره» !!

وقد قالﷺ لما سُئل عن الخمر قبل تحريمها: «**ما أنزل الله عليَّ فيها شيء، إلا هذه الآية الفاذة الجامعة**: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

فانظر من أين أخذ حكمهاﷺ؟ ذلك أنَّ الله أرسله ليبين للناس ما نزل إليهم، فكيف يكون ذلك من رجل لا يفقه ما أوحي إليه به؟!

قال ابن مسعود فيما أخرجه ابن أبي حاتم: «**ما من شيء إلا بُيِّن لنا في القرآن ولكن فهمنا يقصر عن إدراكه**، فلذلك قال تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فانظر كلام ابن مسعود أحد أجلاء الصحابة وأقدمهم إسلامًا، وأعرفهم برسول الله، وقِسْ إن شئت عليه ما يعبث به اللاعبون بالعقيدة، من هرف وخرف وتلف، وقد قرءوا قوله تعالى في تربية نبيهﷺ: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الأحقاف: ٩]، وإخباره تعالى عنه بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣]. بعض الحياء أيها الناس!!

ثامنًا: شك في الدين وتأييد للمبشرين:

وهكذا لن تستوعبنا مجلة ولا كتاب في تفنيد هذه البدعة المفتراة، على

وجه التفصيل، فلعل فيما أوردنا ما يهدم الأساس الأول في هذه الفكرة، وما يكشف كيف أنها كانت عورة مغلظة من لم يرها فقد أسمعناه بها، فإذا لم يكن يرىٰ ولا يسمع، فعليه أن يتحسس!! فلسوف تصيبه أو يصيبها!!!! ولئن سألتهم أذلك من معالي الأمور؟! أتحسبون أنَّ ذلك قربة تواجهون بها الرسولﷺ يوم القيامة، أو فضيلة تشغلون بها الأمة عن مهام الأمور ؟ ألا يساوي النبيُّ فردًا من عامة الأموات، لا ينبغي أن يُقَضَّ مضجعه بهرف وخرف لا يثبت، ولا يُنبت إلا الشر والشك والفتنة؟ ما أَلَّف واحد منكم في مناقص إبليس، ولا في معايب زنديق، ولا فاجر، ولا وجودي، ولا منحل، ولا مبشر، ولا ملحد ممن يعايشونكم ويدمرون بنيانكم، بالمسموع والمنظور، والمنطوق والمفهوم، أفيكون القول بعصمة الرسول خطرًا فوق كل خطر، وجهلًا دون كل جهل؟ إنك لن تجد جوابا، ولكنك تسمع ادعاءً كذَّابًا، وختلا وسبابا، وإفكا يفتعلونه صوابا.

تعالوا - عفا الله عنكم- سنقول معكم -سفها- بخطأ الرسولﷺ، وأنتم تقولون: «**إن الله يصوب له خطأه**» فسيقول قائل: إنه أخطأ، ثم صوَّب الله له، فأخطأ ونسي التصويب بحكم جواز الخطأ عليه!! وهو ليس ببعيد في هذه القضية، فماذا يكون الجواب ؟ إنه إذا وقى الله هؤلاء شر التوقح والمراوغة، فسوف يسلمون بأنَّ الجواب هو الشك في هذا الدين جميعًا؟ وقد كان ما خشينا أن يكون، فليقرءوا بعض كتب المبشرين ومجلاتهم التي تنقل عنهم هذا الإفك الهراء، ثم تمعن في التعليق عليه، ثم ليحكموا -إن كان ثمة بقية من عدالة- إلىٰ أي حدٍّ قدموا لأعداء الدين

من مواد الطعن عليه والتشكيك فيه، والتهكم به مما لم تَجُدْ بمثله أربعة عشر قرنا مرت على الإسلام !! أين أنتم وحديث الإمام الصالح: «**فإذا حدثتم عن رسول الله ﷺ شيئًا فظنوا به الذي هو أهدى، والذي هو أهنا، والذي هو أتقى**» . . . !!

تاسعا: الاقتداء به ﷺ حتى فيما لم تفهم حكمته:

عرفت -زادك الله معرفة به- كيف أنَّ الرسول «**لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى**» وكان هذا الأمر بدهيا في الصدر الأول؛ إذ الفطر لم تتلوث بعد بالأغراض والدعاوى، أليس أرسل الله رسوله للقدوة، فكل سننه القولية والعملية والإقرارية موصولة النسب بالله تعالى.

لذلك كان الصحابة الذين عرفوا النبي حق المعرفة، وعرفوا الدين حق المعرفة، وشهدوا عهد الوحي، ونضارة الرسالة، يقلدون رسول الله ﷺ في كل شيء من خصوصياته وعمومياته وأمور دينه وأمور دنياه؛ فقد كانت دنياه ﷺ لدينه، ومن دينه، وذلك ما حدا بعلماء الأمة إلى تسجيل شمائله، وتجميع كل ما يتعلق بظاهره وباطنه، والتخلق بما جاء عنه ولو لم تعرف حكمته.

أخرج أحمد والبزار عن مجاهد، قال: كنا مع ابن عمر في سفر، فمر بمكان، فحاد عنه فسئل لم فعلت؟ قال رأيت رسول الله فعل هذا ففعلت، أي أنه أرسل ﷺ ليكون قدوة واجبة الاتباع فيما فهمنا ولم نفهم من أمر الدين والدنيا معًا.

وأخرج أحمد عن أنس بن سيرين، قال كنت مع ابن عمر بعرفات، فلما أفاض أفضت معه، حتى انتهى إلى المضيق بين المأزمين فأناخ، فأنخنا، ونحن نحسب أنه يريد أن يصلي فقال غلامه، إنه لا يريد

الصلاة، ولكنه ذكر أن النبيﷺ لما انتهى إلى هذا المكان قضى حاجته منه، فهو يحب أن يقضي حاجته فيه!! -تأمل يرحمك الله- .

وأخرج البزار عن ابن عمر، أنه كان يأتي شجرة بين مكة والمدينة فيقيل تحتها، ويخبر أنَّ النبي كان يفعل ذلك، وأخرج أبو يعلى عن زيد بن أسلم، قال: رأيت ابن عمر محلول الأزرار، وقال رأيت النبيﷺ محلول الأزرار. أرجو أن تتأمل بعمق .

فهذا مثل لبعض أئمة الصحابة الذين أخذنا عنهم ديننا، أدرك أنه لا فارق في حياة النبيﷺ بين شيء وشيء، ولم يأت في كتاب الله مخصصٌ لفضله عليه في جانب دون جانب، بل جاءت السنة واضحة مشرقة بعموم الفيض وشمول المدد، فلا معنى للتحكم، وقصر نوع من الحكم على ناحية من حياتيه دون ناحية .

عاشراً: السنة قاضية على الكتاب:

ولقد أردت أن أعتمد في كلمتي هذه على الأدلة في نبعها الأول، وذلك أنَّ السنة جاءت قاضية على الكتاب، ولم يجئ الكتاب قاضيًا على السنة، كما ورد عن الأوزاعي، وأخرج الدارمي عن يحيى بن كثير مثله، وكذلك أخرجه سعيد ابن منصور، قال البيهقي: ومعنى ذلك أنَّ السنة مع الكتاب أقيمت مقام البيان عن الله، لا أنَّ شيئًا من السنة يخالف الكتاب، قال السيوطي: وذلك لأنها ـ أي السنة ـ شرح له ـ أي للقرآن ـ وشأن الشرح أن يكون أوضح وأبين وأبسط من المشروح -وهو يقتضي بالطبع التبرئة عن الخطأ- .

لهذا اعتمدنا علىٰ صافي الحديث والأثر ، ومقتضى الفهم الطبيعي في ذلك ؛ إذ وجدنا أنَّ التأويل قد انسحب بتعسف من هؤلاء على الكتاب الحكيم ، وقد أخرج الدارمي واللالكائي عن عمر بن الخطاب قال : سيأتي ناس يجادلونكم بشبهات القرآن ، فخذوهم بالسُّنن ، فإنَّ أصحاب السنن أعلم بكتاب اللَّه ، وأخرج اللالكائي مثله عن علي بن أبي طالب .

وأخرج ابن سعد في الطبقات من طريق عكرمة عن ابن عباس ، أنَّ عليَّ بن أبي طالب أرسله إلى الخوارج ، فقال : اذهب فخاصمهم بالسنة ، ولا تحاججهم بالقرآن ؛ فإنه ذو وجوه ، وفي رواية : قال ابن عباس : فأنا أعلم بكتاب اللَّه منهم ، في بيوتنا نزل ، قال : صدقت ، ولكن القرآن حمال ذو وجوه ، نقول ويقولون ، ولكن حاججهم بالسنن !!

لهذا أدرنا أسلوبنا هذه المرة علىٰ ما يديره عليه خُدَّام الحديث والأثر ، بعد أن أدرناه مع العقل والمنطق والتاريخ في الكلمة الأولىٰ ، وتعمدنا تكرار بعض المعاني والألفاظ بغية التثبت ، والتأكد حتىٰ يظهر خبث هذا المذهب ، وبعده عن الأدب وعن الصواب ، بل بعده عن الإسلام نفسه ، وكيف أنه كان ميراث الزنادقة والباطنية ، ورِثَهُ الاستعمارُ والاستشراقُ والتبشير ، تلقيًا عن التمسلف . أهذا تمجيد للنبي أم توقح عليه ؟!

لا يمكن أبدًا أن تُسَمَّىٰ هذه الوقاحة تمجيدًا للرسول ، الذي أمرنا اللَّه أن نعزره ونوقره ، فلا شك إذن في أنها أذىٰ ، وما أشبه هؤلاء بمن ذكر القرآن أنهم كانوا يؤذون النبي ، ويقولون : هو أُذن ، فحق عليهم قوله تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة : ٦١] . أليس يكفي قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم : ٣، ٤] .

والضمير عائد إلى نطقه ﷺ، وهو يشمل كل ما يجري على لسانه ﷺ من أمور الدنيا والدين معًا، فإنَّ ما يجري على لسانه إنما هو من علم الله وتعليمه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُ﴾ [النساء:١١٣]، وتفاعل هذا العلم الإلهي بنوعيه تلقيا وإلهاما، إنما يثمر الاجتهاد الصحيح لأنه صادر عن الإنسانية المتكاملة التي تجعل صاحبها في كافة تصرفاته، تفسيرًا عمليًا لهذه الدعوة المقدسة، ومن هنا كان التوجيه الإلهي إلى القدوة المطلقة به ﷺ في كل ما يصدر عنه: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وكانت طاعته متعينة: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وكانت يده نائبة عن الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، وكان لسانه مبلغًا عن الحقِّ تعالى؛ يقول: إنَّ الله يحب كذا وكذا ويكره كذا وكذا، ثم ختم الله له بخاتم العصمة الأقدس، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

فجعل كل ما يصدر منه ﷺ هداية إلى الصراط المستقيم، وهذا يستوجب أن يكون معصومًا لا يضل به سبيل قول ولا عمل، وإلا كان ذلك معارضا لقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ ومن سجل الله هدايته إياه لا يتطرق إليه خطأ ولا ضلال.

ثم إنَّ الله تعالى يقول:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾[الأنفال: ٢٩]، أي قوة وطاقة تفرقون بها بين المراضي والمساخط، والمضار والمنافع، فأولى بهذه الطاقة الإلهية أن تنفجر ينابيعها في سيد المؤمنين ﷺ فلا يضل ولا يخطئ.

والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١] فهو تعالى

يقدح في قلبه نورًا يهديه إلىٰ دقائق الأسرار والحقائق، فتتكامل بشريته بهذه القوىٰ والملكات والإرادة والطاقات الموصولة النسب بالسماء، فلا يكون مجرد آلة للاستقبال، والإذاعة، ولكنه يكون جوهرًا إنسانيًّا ربانيًّا متكاملًا في مختلف قابلياته واستعداداته وأساليب أدائه التي اختص بها، محفوظًا مطهرًا، يتلقىٰ ويلهم، ويفكر ويخطط، وينفذ، مستندًا إلىٰ نبع واحد، وأصل واحد، هو المدد الإلهي وفيض السماء ليس لغير الله عليه سلطان، فأنىٰ يتأتى الخطأ بعد كل هذا، أو ليس يقرأ الناس قول الله عنه: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، اللهم إن قولهم إفك لا يرضينا ولا يرضيك ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١١٨ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٨، ١١٩].

أيها المتخصصون في أذىٰ رسول الله وأحبابه: علمناكم لوجه الله، فخذوها من غير دعي، ولا محترف، ولا منحرف، ولا فضولي، ولا أجير ولا متعالم: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وصلِّ اللهم علىٰ سيدنا المصطفى المعصوم الأعظم، وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

❊ ❊ ❊

فتنةُ الطَّعنِ في أَبَوَي النَّبِيﷺ أَذَى النَّبي في أَبَوَيهِ باسمِ الدِّين حماقةٌ أو زندقةٌ[1]

اعتذار وتمهيد:

أمَّا قبل: فعذري أكرره لإخواني وأبنائي الذين يبعثون إليَّ بأسئلتِهم واستفتاءاتهم، ثم أجدني مضطرًا إلى تأجيل الإجابة عليها انشغالاً بتسجيل هذا العمل العلمي؛ رجاء قطع دابر نذالة التوقح على سيدنا رسول الله المصطفى باسم الدين، والإصرار على أذاهﷺ في قبره باسم السلفية، والتمكين لأعداء دعوته منهﷺ، ومن دينه باسم السنة المظلومة، والتمتع بغريزة الاستئساد على الموتى باسم التوحيد المفترى عليه.

لكل هذا -وهو خطر عميق عريض- أرجو أن يعذرني أصحاب الأسئلة والاستفتاءات؛ فإن الذي أحاوله الآن هو الحفاظ على الأصل العظيم، ووقايته من عوامل التحطيم بالحمق والغفلة، ومن أسباب التدمير بالوقاحة والتعالم، ومن وسائل التخريب في سبيل شهوة الشهرة، وتحصيل المال الحرام، والمركز الدنيوي الفاني الذليل، وكل ذلك يهم إخواني كما يهمني أو يزيد.

إنَّ جوهر الإيمان والعقيدة لا يقدَّس إلا بقدسية مبلِّغ الإيمان والعقيدة وحاملهما إلى الناس، فإن الطيب لا يحمل إلا الطيب، والخبيث لا يحمل إلا الخبيث، ومحاولة استنقاص النبيﷺ تحت أي ستار، كمحاولة اغتمازهﷺ في شخصه باسم البشرية، أو في أبويه باسم التوحيد، أو في

(١) غرة صفر (١٣٨٤ هـ) - ١١ يونية (١٩٦٤م)، العدد السابع - السنة الرابعة عشرة.

خصائصه ومعجزاته باسم العلم، إنما كل ذلك بقية من حملات الزندقة والتبطن والقرمطة، وميراث من الشعوبية والاستشراق والتبشير، وتلوث بنفايات التعالم والجهل، والقِشرية الفاضحة، ولعبة خطيرة من أقذر ألعاب الاستعمار اللئيم، كما فصَّلنا بعض ذلك فيما أسلفنا من مقال.

وقد قدَّمنا في كلماتنا السابقة الأدلةَ القاطعة - رغم التركيز والإجمال بحكم ضيق الوقت والصحة والمجال- على أنَّ معجزاته ﷺ قطعية الثبوت، وأن عصمته ﷺ قطعية الثبوت، واليوم نقدم بإذن الله مصرع دعوى كُفر أبويه أو أنهما - كما يزعمون - في النار، حتى يكون اعتقادُ نجاتهما بمشيئة الله كذلك قطعيَّ الثبوت، ثم نقدم ذلك كله إلى الله ورسوله شفاعة، نلتمس بها الستر والمغفرة والنجاة من النار، ونقدمه إلى المسلمين مددًا روحيًّا يثبِّت الإيمان، وينمِّي اليقين، ويزيد الله به الذين اهتدوا هدىً ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

أصل هذه الفتنة:

أما أصل هذه الفتنة فهو في الحقيقة ضيق الأفق العلمي، وسوء الأدب الجِبلِّيِّ، وتجميد المفاهيم على مستوى السطحية والسذاجة، والاعتصام بنقيصة التعالم، ومخالفة الجماهير، لسبب لا يرفع الخسيسة، ولا يعذر به صاحبه.

كل هذا عند حسن الظن، وإلا فنعوذ بالله من انحراف البواطن، والتواء الغايات، والزندقة في مظهر الإيمان.

وكل ما يملكه القائلون بكفر أبوي النبي، وأنهما في النار بزعمهم:

هو حديث مسلم عن أبي هريرة : أن النبيﷺ عندما زار قبر أمه قال : استأذنت ربي تعالى على أن أستغفر لها ، فلم يأذن لي ، فاستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي .

وحديث مسلم عن أنس : أن رجلاً قال يا رسول الله : أين أبي؟ فقالﷺ : إن أبي وأباك في النار . أو نحو هذين الحديثين .

وقد كان ممن سقط به الفهم الساذج في هذا الجانب مُلا عليٌّ القاري وآخرون - غفر الله له ولهم - وقد لقي في حياته وبعد مماته ما كان ينبغي أن يكون عبرة لغيره ، رغم ما جاء من توبته ، ورجوعه من سقطته ، فلم تُحترم له ذات ، ولم يُنتفع له بعلم ، ولا ارتفع لأثره ذكر .

وكان يكفينا ويقطع الألسنة من البلاعيم أن نقول : إن الدليل الظني إذا عارضه دليل يقيني تعين أحد أمرين : إما القول بالنسخ ، أو محاولة التوفيق بين الدليلين ، وإلا سقط الدليل الظني وفقد اعتباره بقيام الدليل اليقيني .

والخبران اللذان ذكرناهما من أخبار الآحاد ، التي لا تفيد علميًا إلا الظن ، وهما معارضان بالقرآن ، الذي لا يفيد علميًا إلا اليقين .

فإن أبوي النبيﷺ كانا من أهل الفترة ، لم تبلغهما رسالة ، ولم يبعث في عهدهما رسول ، والله تعالى يقول :

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء:١٥] ، والآية محكمة من أمهات الكتاب ، فهي ناسخة أو مسقِطة لما عارضها من أخبار الآحاد ، وإن صحت نسبة هذه الأخبار من الوجهة الفنية .

وهذا هو رأي القسطلاني ، وقد أطبقت الأئمة الأشاعرة من أهل

الأصول ، والشافعية من الفقهاء على أن من مات ولم تبلغه الدعوة مات ناجيًا ، قال السيوطي : وهذا مذهب لا خلاف عليه بين الأشاعرة والشافعية .

كان يكفينا هذا في إغلاق هذا الباب ، والوقوف مع الإيمان والأدب وقطع دابر البلبلة ، ومنع إهدار أوقات الناس ، فيما لا خير معه ولا فيه على الإطلاق .

وبخاصة أن هذه المسألة ليست من المسائل التي يتعين العلم بها ، ولا هي مما يضر الجهل به ، ولا هي مما يسأل عنه في القبر ، ولا في الحشر ، فحفظ اللسان على الأقل من الكلام فيها أحوط وأسلم .

بعض الأئمة وبعض الأدلة :

وقد سُئل إمام المالكية أبو بكر بن العربي عن رجل قال : إن أبويه ﷺ في النار . فأجاب : بأنه ملعون ؛ لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾[الأحزاب :٥٧]
قال : ولا أذىٰ أعظم من أن يقال إن أباه في النار .

وقال العلامة السحيمي في شرحه على عبد السلام : إنه يجب اعتقاد أن جميع آباء الأنبياء وأمهاتهم مؤمنون ، وأنهم في الجنة مخلدون ، قال : وهذا هو الذي نعتقده ونلقى الله عليه .

نقول : وهو ما أجمعت عليه الجماهير ، وتلقته الأمة بالقبول .

وقال الحلواني في «**المواكب**» : القول بكفر أبويه ﷺ زلة عاقل ، نعوذ بالله من ذلك ، فمن تفوه به فقد تعرض للكفر بإيذائه ﷺ .

وذكر أبو نعيم في الحلية أن عمر بن عبد العزيز غضب على كاتبه، وعزله من جميع دواوينه، لأنه سمع منه ما هو من هذا الباب.

ومن أدلة هؤلاء الأئمة ما رواه الطبراني: من أن عكرمة بن أبي جهل اشتكى إليه ﷺ أن الناس يسبُّون أباه «**أبا جهل**»، فقال ﷺ: «**لا تؤذوا الأحياء بِسَبِّ الأموات**».

وإذا كان الإسلام يوجب الأدب مع عكرمة في أبيه، المتفق على كفره وشركه، فلا شك أن رسول الله أولى بهذا الأدب، وهو ﷺ في قبره حي يرزق عند ربه.

وفي المنهل: جاءت بنت أبي لهب تشكو إليه ﷺ أن بعض الناس ينادونها بابنة «**حمالة الحطب**»، فقام ﷺ وهو مغضب شديد الغضب، فقال: «**ما بال أقوام يؤذونني في نسبي، وذوي رحمي، ألا ومَن آذى نسبي وذوي رحمي فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله عز وجل**».

وفي هذا الحديث مزجر ومقنع لمن أدبه الله، وعليه كان السادة الأحناف يكرهون القراءة في الصلاة بسورة «**اللهب**»؛ تحاشيًا وتحوطًا وأدبًا في حقه ﷺ.

ثم إن أبوي النبي ﷺ قد ماتا، والنهي عن سب الموتى عمومًا ثابت صريح، ولا شك أن اتهامهما بالكفر أو نحوه سب قبيح، فهو في جملته مخالف للنهي القاطع، وفي الحديث الصحيح: «**ما نهيتكم عنه فاجتنبوه**».

المفاهيم العلمية في حديث أم النبي ﷺ:

أما المفاهيم العلمية - فيما نعتقد- في حديث منع الرسول من

الاستغفار لأمه فهي :

١- أن الاستغفار فرع المؤاخذة على الذنب ، ومن لم تبلغْهُ الدعوة لا يؤاخَذ على ذنبه ، فلا حاجة إلى الاستغفار له من ذنب لن يؤاخِذه الله عليه ، فيقع الاستغفار آنئذ لغوًا ، ليس من شأن الأنبياء .

٢- أن هذا الاستغفار وقتئذ كان مما يراد به مشرك أو منافق ، ولم تكن أم الرسولﷺ من أي من هذين الصنفين ، فلو ترك الله رسوله يستغفر لها ، لعدَّها الناس منهم بحكم العرف ، وليس كذلك شأنها .

٣- أن أهل بيتهﷺ ومنهم أمه لا يدخلون النار ، لما أخرجه ابن سعد عنهﷺ : «**سألت ربي ألا يدخل النار أحدًا من أهل بيتي ، فأعطاني ذلك**» ، ولما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس في آية

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥] من رضا محمدﷺ ألا يدخل أحد من أهل بيته النار، وهكذا لا يكون ثمة مقتضى للاستغفار لها، وهي من أهل الجنة بإذن الله.

٤- قولهم إن آية ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [البقرة:١١٩] نزلت في خصوص أبويه ، فخبرٌ أجمع علماء الحديث على ضعف إسناده ، وعدم الاحتجاج به على الأقل ، والمقطوع به إجماعًا أن الآية نزلت في أهل الكتاب ، بدليل السياق الصريح .

٥- روى أبو نعيم في «**دلائل النبوة**» عن أسماء بنت رهم : أنها شهدت آمنة في مرض موتها تنظر إلى ولدها «**محمد**» وهو غلام ، وتنشده

شعرًا كله توحيد وإيمان بالله ، كما جاء عنها نثر كثير يقرر هذا المعنىٰ ويؤكده ، فهي من المؤمنات .

قال الزرقاني في «**شرح المواهب اللدنية**» نقلاً عن الجلال السيوطي، بعد ذكر هذه الأبيات التي أنشدتها آمنة لابنها: وهذا القول منها صريح في أنها موحدة إلى أن قال: وهذا القدر كاف في التبري من الكفر، وثبوت صفة التوحيد.. إلخ.

٦- منع النبي من الاستغفار لأمه لا يستلزم عقلاً ولا علمًا أن تكون كافرة ، فقد منع الله النبي في أول الإسلام من الاستغفار لمن مات وعليه دين ، لم يترك له وفاء ، بل كان قد منعﷺ من الصلاة عليه ، فضلاً عن الاستغفار له ، وهو مسلم لا ريب فيه ، فَمَنْعُهﷺ من الاستغفار لأمه قد يكون لمعنىٰ آخر كالذي ذكرنا ، فهو من أدلة النجاة فيما رأيناه ، إن سلَّمنا بالأخذ بهذا الحديث .

المفاهيم العلمية في حديث والد النبي ﷺ :

١- أما حديث رد النبي علىٰ مَن سأله قائلا : «**إن أبي وأباك في النار**» ، فإنما هو من رواية حماد بن سلمة ، وهو معارَض بحديث معمر بن راشد ، كلاهما أي حماد ومعمر عن ثابت ، وليس في حديث معمر عبارة : «**إن أبي وأباك في النار**» ، بل فيه إن النبيﷺ ردَّ على الرجل قائلًا : «**إذا مررت بقبر كافر فبشره بالنار**» ، وفي رواية «**لفظ مشرك بدلاً من كافر**» .

وعند العلماء أن معمرًا أثبت من حماد، لأن حمادًا في أحاديثه مناكير، وقد تكلم علماء الرجال في حفظه، ولم يُخرج له البخاري ومسلم في الأصول إلا من روايته عن ثابت.

أما معمر فلم يتكلم أحد في حفظه، ولا اتُّهِم بالمناكير، وقد اتفق البخاري ومسلم على التخريج له، فهو أثبت، وحديثه مقدم بالإجماع.

ويؤيد حديث معمر ما رواه الطبراني والبيهقي والبزار من حديث سعد بن أبي وقاص بمثل لفظه، وأخرج ابن ماجه من طريق الزهري عن سالم ونحوه، وهكذا تترجح رواية معمر علميًّا، بقدر ما يرجحها العقل والإيمان والأدب، والفقه بالدين وبالحديث.

ومن ثم قال بعض المحدثين: لعل رواية حماد كانت من تصرف الراوي بالمعنى على حسب فهمه؛ لاستبعاد أن يكون هذا هو المنطوق النبوي، فليس عليه من نور النبوة شيء.

وهكذا يسقط هذا الجزء - على الأقل - من رواية حماد، ويثبت مكانه الجزء المروي عن معمر، بترجيحاته العلمية والعقلية، فتسقط حجية الحديث فيما أقاموه فيه.

٢- نقل ثقات مؤرخي السيرة الشريفة بإسنادهم عن عبد الله والد النبي ﷺ، قصة المرأة التي دعته إلى نفسها فاستعصم، وقال شعرًا يؤكد إيمانه بالله، واستمساكه بالشرائع السماوية السابقة، فلم يثبت من طريق قوي ولا ضعيف أن عبد الله مات كافرًا أو مشركًا، أو أنه عبد وثنًا، أو اتخذ له صنمًا، أو جاء بفعل كُفري من أفعال الجاهلية، فهو مؤمن ناج بإذن الله.

٣- وحتى لو سِرنا إلى آخر الشوط مع الذين يؤذون الرسول في أبيه، وسلَّمنا جدلاً بصحة الحديث - وقد عرفتَ تهافتَه بما فيه - فالحديث

غير محكم، بل هو معلول بالاحتمال، ومتى ثبت الاحتمال فقد بطل الاستدلال، إذ إنه يحتمل أن يكون المراد بأبيهﷺ عمه أبو طالب - إذا قلنا بأنه في النار - فقد كان مشهورًا بأبوته له؛ لسابق تربيته والمنافحة عنه، وقد كان رسول الله يحدث عنه ويناديه بلفظ الأب، وكان من معتاد العرب أن يُنادَىٰ العم باسم الأب، وبخاصة إذا كانت له على الآخر تربية أو نعمة، ومن هنا جاء ما قاله بعض المفسرين، من أن آزر لم يكن والد إبراهيم أبدًا، بل كان عمه ينادَىٰ باسم أبيه على الاعتبار السابق.

٤- وإذا عرفتَ قيام العم مقام الأب، عرفتَ عند التسليم جدلاً بسلامة الحديث، أن النبي ﷺ استعمل التورية والإيهام في الإجابة، تطبيقًا لمقتضى الحال، كما كان شأنهﷺ في استخدام المعاريض في مواضعها، التزامًا بالحق مع مدافعة الفتنة، أو تطييب النفس، أو تأليف الشاذ النافر في وقت جميعًا، وقد سأل السائل هنا: أين أبي؟ فقال: «**إن أبي وأباك في النار**»، يريد أبا طالب الذي يصدق عليه لفظ الأب لغةً وعرفًا، وفي الوقت نفسه يدفع الفتنة، ويجانب مظنة الاستئثار والتفضيل، ثم يطيب نفس السائل بهذا التعبير الصحيح البليغ.

وهكذا نخرج من حديث والد النبي ونحوه، كما خرجنا من حديث أمه ونحوه بحقيقة واحدة، هي تأكيد واقع إيمانهما ونجاتهما من النار بإذن الله.

عود إلى أهل الفترة:

وقد قررنا أن الخبر القرآني اليقيني قد قضىٰ على الخبر النبوي الظني،

وقد قرر القرآن أن الله لا يعذب مَن لم يبعث إليهم رسولاً ، عدلاً منه ، وهو الذي لا يظلم الناس شيئًا ، فقد اعتبر الله حجة القائل ﴿ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ﴾ [المائدة:١٩] ، فقال تعالىٰ ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞ﴾ ، والآيات في هذا الصدد مكررة صريحة اللفظ والمعنىٰ ، وصَرْفُها عن وجهها تكلف مدخول .

وهذا هو مقتضى العقل والعدل ، وعليهما قام دين الله ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء:١٥] .

قال الحافظ في «**الإصابة**» عند ترجمة أبي طالب : ورد من عدة طرق في حق الشيخ الهرم ، ومن مات في الفترة ، ومن ولد أعمىٰ وأصم ، ومن ولد مجنونًا ، أو طرأ عليه الجنون ، قبل أن يبلغ ونحو ذلك ، أن كلاً منهم يُدلي بحجته ، ويقول : لو عقلت أو ذكرت لآمنت ، فترفع لهم نار ، ويقال لهم ادخلوها ، فمن دخلها كانت عليه بردًا وسلامًا ، ومن امتنع أُدخلها كرهًا . اهـ .

ثم قال : هذا معنىٰ ما ورد ، وقد جمعت طرقه في جزء مفرد .

قلنا : وأحاديث اختبار أهل الفترة كثيرة متقاربة المعاني ، روىٰ بعضها أحمد ، وابن راهويه ، والبيهقي ، وأبو يعلىٰ ، والذهلي ، والبزار ، والحاكم – وأقره الذهبي– وكلها تدور حول المعنى الذي أجمله صاحب «**الإصابة**» .

قال الحافظ : «**والظن بآبائه ﷺ كلهم الذين ماتوا في الفترة أن يطيعوا عند الامتحان ، لتقَرَّ بهم عينُه ﷺ ويرضىٰ ، قلنا : ولن يرضىٰ وفي النار أحد من أهل البيت كما سبق بيانه ، على القول بأن الحديث محمول على الحقيقة ، أما على القول بأن الحديث كناية ورمز ، أو هو ساقط بالمعارضة ، فقد انحلَّ الإشكال من كل نواحيه**» .

وفي حديث ابن شاهين والحاكم : يقولﷺ عن أبويه : ما سألتهما ربي فيعطيني فيهما ، وإني لقائم يومئذ المقام المحمود ، فهو نص في أن الله سيكرم أبويه من أجلهﷺ بما يدخلان به الجنة .

هذا وقد ذكر السيوطي أكثر من دليل على نجاة أبويهﷺ ، منها حديث البخاري في أنهﷺ بُعِثَ في خير قرون بني آدم ، ومن معاني القرن : آباء الرجل .

ومنها حديث الترمذي صحيحًا : إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من كنانة قريشًا ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم .

ولا يقبل العقل أن الله يسمي الكفار أو المشركين خير القرون ، ولا أن يصطفي منهم سلالة بعد سلالة ، فدل هذا بالقطع على أن الإيمان الذي هو سبب النجاة من النار ثابت فيهم ولهم .

وعلى ضوء هذا المعنى نفهم حديث ابن عباس في «**السيرة الحلبية**» قال : يبعث جده عبد المطلب في زي الملوك وأبهة الأشراف .

قال السهيلي : إن عبد المطلب لم تبلغه الدعوة ، وجاءت أدلة كثيرة تشهد بأنه كان على الحنيفية والتوحيد . قلنا ويتأكد هذا من قرأ سيرة عبد المطلب ، وعرف فضله ، وكرمه ، وخلقه ، وعقله ، وبلاغته ، ودعوته إلى الخير والإيمان - خصوصًا شعره في حادثة الفيل - وقد ثبت أن كثيرًا من أهل الفترة تحنثوا وتمسكوا بدين إبراهيم .

قال الشيخ خطَّاب في «**شرح أبي داود**» : إذا علمت هذا تعلم أن

آباءهﷺ ناجون، إما لأنهم كانوا على الملة القديمة ملة إبراهيمﷺ، وإما لأنهم من أهل الفترة الذين لم يُغيروا ولم يُبدلوا... إلخ. ونحوه في «**الدين الخالص**» له.

قلنا: وأما ما جاء في تعذيب بعض أهل الفترة كعمرو بن لحي وصاحب المحجن، فذلك لأسباب من نحو الظلم البيِّن، والإضرار الواضح بالناس، مما تنكره الأذواق بالجبلة، والعقول بالفطرة، ولا حاجة معه إلى رسالة رسول.

أما عمهﷺ فإن عذابه سيكون على أنه آمن ولم يعلن إيمانه، فليس عذابه على الكفر والشرك، ولكن العذاب على معصية إضمار الإيمان وعدم إعلانه، وفرق بين عذاب الكفر وعذاب العصيان، وكذلك جاء في البخاري عن ابن عباس قولهﷺ عن عمه: هو في ضحضاح - قليل - من النار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل. فليس هو بخالد فيها، إذ لا خلود في نار المعصية. فافهم.

كلمة خاتمة:

وأما بعد: فأحسب أن الحديث قد طال بي فوق ما كنت أتوقع، ولكنني أردت أن يشهد المؤمنون معي مصرع هذه الدعوى القبيحة المتبجحة، كما أشهدناهم مصارع إخوة لها من قبل، فليس أعجب من أن يقول قائل إن سب رسول الله دين من الدين، وإن أذاهﷺ عِلم من العِلم، أو عبادة من العبادة، لا دفاعًا عن رسول الله وآله، الذين أمرنا الدين أن نصلي عليه وعليهم معه في كل تَشَهُّد من كل صلاة، فإن رسول الله بما خصه به الله في

غير حاجة إلى دفاع ، ولكنه دفاع عن إيماننا نحن ، ودفاع عن ديننا ، وعن أدبنا ، وعن عقولنا ، بل هو دفاع عن كياننا وذاتيتنا المسلمة .

وبقيت جولات في معية النبيﷺ ، ولكنها على أهميتها دون هذه الجولات الثلاث خطرًا ، فلندعها الآن لمناسباتها ، حتى نعود بإذن الله إليها ، بعد أن نكون قد أرضينا بعض إخواننا من أصحاب الأسئلة وأصحاب الاستفتاءات الموصولة المتكاثرة ، ولا عليَّ أن أموت بعد ذلك ، فقد شفيت نفسي وأرحت ضميري - أو كدت - في هذه المسائل الثلاث التي كانت تقلقني ، أعني ثبوت معجزاته وعصمته ونجاة أبويه ، وكنت لا أجد لها فيما سبق ما يشفي تمامًا أو يريح ، وحسبي بذلك سببًا أرجو به المغفرة من الله ، والشفاعة من رسوله الطاهر المطهرﷺ .

وأخيرا هذا رأينا على مبلغ اجتهادنا ، وما نلقى الله ورسوله عليه ، وهو رأي كل مؤمن عالم عامل مهذب ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، والله يعلم المفسد من المصلح ، ونستغفره ونتوب إليه .

***

أنا، وولدي، والأخلاقُ، والنَّاسُ!! صورٌ، وأحاسيسُ، ومشاعرُ، ونظراتٌ، وآمالٌ(١)

تقديمٌ في حديثٍ عائليٍّ:

في هذا الشهر، يتحدثُ النَّاسُ ويكتبون، عن الذّكرىٰ النبوية الشَّريفة، وقد كان لنا في هذا المجال جولاتٌ علمية وتاريخية، ومساجلاتٌ وتصويباتٌ، يَرجعُ إليها مَنْ شاءَ في أعدادِ الربيعين المواضي، وما قبلهما، وما قبلهما، مِنْ «**مجلة المسلم**».

وسوف يتحدثُ النَّاسُ في هذه الذكرىٰ ويكتبون في هذا العام، كما سبق في كل عام، غير أنني في هذه المرة سأفرُّ من جَلال الذكرىٰ، إلى ظلال الذكرىٰ، وآثار الذكرىٰ، في تربية الذات والمجتمع من خلال القصة الآتية:

مضت سنواتٌ طويلة جدًّا، عشرات السنوات، وأنا منصرفٌ عن قرض الشعر؛ انشغالًا بمطالب الدعوة إلى الله، وهيٰ شتَّىٰ متلاحقة متعانقة، لا تفتر ولا تتوقف ولا تلين، ثم انشغالًا بمطالب المعاش، وهي أنماط موصولة وملابسات مضنية عارمة!! وأنا بين هذا وذاك مريضٌ مكافحٌ لا أنصرف!!

ولكنني لم أهجر الشِّعر أصلًا؛ فهو في دمي وطبعي، بل لازمتُ خدمته مطالعةً وتذوقًا، ودراسةً ونقدًا، وفي فترات متباعدة كنتُ أجدني

(١) مقال: السنة الرابعة عشرة ربيع الأول ١٣٨٤.

مدفوعًا بطاقة باطنية طاغية، إلى قول شيءٍ منه لنفسي بمناسبة ما، وبخاصة عندما لا يساعفني النثر الفني على إفراغ ما في نفسي من معان مهتاجة، وأحاسيس عنيفة.

وهذه واحدةٌ من آخر هذه المناسبات، التي وجدتني فيها محمولًا حملًا من أعماقي، بما لا حيلة لي معه، على كتابة شيءٍ من الشِّعر، بعد أن لم أعد منقطعًا لقوله ولا مُجيدًا فيه كما أشتهي، على ما أعتقد على الأقل!!

وذلك أنَّ عدة مناسبات حساسة، تتابعت عليَّ في عدة تجارب إنسانية واجتماعية قاسية، وقد استنامت كلها في باطني، حتى أهاجها ظرفٌ عائليٌّ، كان طريقًا إلى تسجيلها، أو تسجيل بعضها في هذه القصيدة، وأظنها صالحة للتعبير عن واقع كثير من الإخوان في كثير من التجارب وملابسات الحياة، ومن أجل هذا نشرتها لتكون تنفيسًا عني وعنهم، وقبسًا من الحكمة ربما أفاد، أو أراح.

ولي من زينة الحياة الدنيا، ولدان فتيان، وبنتٌ فتاة، لكل منهم خصيصة ذاتية، وشخصية متميزة، أصغرهم ولدي (محمد جمال الدين) بين الثالثة والرابعة عشر من عمره، مِتلافٌ للمال، ليس بينه وبين القرش أيُّ تفاهم!!! والخلافُ الحادُّ قائمٌ بينهما أبدًا، ولا ينتهي إلا بأن يفارق أحدهما الآخر!!! فهو يعيش واثقًا في موعود الله، مفوضًا إليه، على قاعدة: أَنفقْ ما في الجيب، يأتك ما في الغيب!!! وقد آلى على نفسه ألا يملك قرشًا، ولا يملكه قرش!!!

وفي هذا يلومه أفرادُ الأسرة، بيدَ أنَّ هذا المَلام لا يزيده إلا اقتناعًا

بصواب رأيه، واندفاعًا فيه، ومحافظة عليه، وفي مرة جعلتُ أفكر في أمره، وقد أنفق في يوم واحد، ما يكفي مثلَهُ لأسابيع، فإذا بي أجد عذره المفقود، وألمس سره المجهول.

فكان ذلك جميعًا سببًا في تتابع المعاني وكتابة هذه القصيدة، التي جلست لكتابتها على أنها بضعة أبيات، فإذا القلم لا ينتهي إلا وهي فوق مائة بيت، تستغرق أكثر ما كان يهيمن عليَّ من مشاعر وأحاسيس، ومعان وعواطف شتَّى طيلة هذا الوقت، الذي استهلك نحو خمس ساعات من الليل.

وها هي ذي القصيدة على ما هي عليه، بعلاتها دون رقوش ولا تجميل، فما في وقتي لشيءٍ من هذا متسع، والشِّعرُ -بخاصة- عرضةٌ دائمًا للنقد والتقويم، والخطأ والصواب، والاختلاف في مذاق الشعر والحكم له أو عليه قصة قديمة، ولكنها على أي حال، خير ما بين يدي الآن، مما يصلح أن يكون هدية الإخوان من الوجدانيات الصادقة في هذا الربيع الأنور، على صاحبه أشرف الصَّلاة وأبرك السَّلام، ويعلم الله ما عنيت ذاتًا معينة، ولا حادثة خاصة، إنما هي أحكام عامة، وآثار حية لتجارب وظروف ستظل باقية ببقاء الحياة:

الفاصل الأول:

يا مُهدرَ المالِ عفوًا غيرَ مُقْتَصِدِ ... وغيرَ مكترثٍ يومًا بِشَأنِ غَدِ

لُمْنَاكَ، لكنني أدركتُ معذرةً ... فيما فعلتَ، فخذُها واغتبطْ وجُدِ

ورثتُ قبلكَ هذا عَنْ أبي سَلفًا ... فالعذرُ أنَّكَ في هذا وذا: ولدي!!

أتلفتُ قبلكَ مالي راضيًا جذلًا ... كفِّي يقدِّمُهُ والقلبُ في غَرَدِ
فلو أتاني عدوِّي طالبًا مَددًا ... آثرتُهُ - وأنا المحتاجُ - بالمددِ
وكم تداينتُ، حتى لا أردَّ يدًا ... مُدَّتْ إليَّ، وقد مُدَّتْ على كَنَدِ(١)
وكَمْ يخونُ الذي آثرتُه : دَخَلًا ! ... خيانةَ النذلِ، في حقدٍ وفي حَسَدِ(٢)
فما تبلَّد طبعي مِنْ نذالته ... ولا تبدَّلَ إيماني، ولا جَلَدي !!
ولو حفظتُ الذي أُوتيتُ مِنْ عَرَضٍ ... لكنتُ أثرى ثُراة المال في بلدي(٣)
أقرضتُ مالي لربِّ المال، معتقدًا ... أنِّي حفظتُ به مالي ومُعْتَقدي!!
وقالتِ النفسُ : أولادي !! فقلتُ لها ... في الله يا نفسُ تعويضي، ومُفْتقدي(٤)
أبي أضاعَ الذي قَدْ كانَ في يَدِهِ ... لله، فاختصَّني ربِّي بخيرِ يدِ!!(٥)
وعشتُ ما عشتُ محسودًا، على سَعَةٍ ... في الذِّكرِ، والعِلمِ، والإيمانِ، والرَّغَدِ
لو أنَّ أموالَ كلِّ النَّاس لي جُمعتْ ... ما نلتُ بعضَ الذي قَدْ نلتُ من رَشَدِ
فما ملامي لمن أوْرَثْتُهُ خُلُقًا ... مِنْ قبلُ أُورِثْتُهُ في الرُّوحِ والجسدِ ؟!

---

(١) الكند : كفر النعمة وإنكار الفضل .

(٢) الدَّخل : سوء الضمير .

(٣) العَرض : المال والمتاع . الثراة : الأغنياء .

(٤) المفتقد : المطلوب .

(٥) اليد الأولى : الكفُّ ، والثانية بمعنى النعمة .

الفاصل الثاني

(فيا جمالُ) : بلا مَنٍّ ولا صَلَفٍ أَنْفِقْ، ولكنما في غير مُتَّقَدِ[1]
في الله أَنفقْ، كما كانَ الجُدُودُ، ولا تبخلْ، وثِقْ بنوالِ المُخْلِفِ الصَّمَدِ[2]
وخُذْ طريقَ جهادي، إنني رجلٌ بنَيتُ نفسي، ولم أَرْكَنْ إلى أحدِ!
ذلَّلْتُ كُلَّ صِعابي عاملًا بيدي ولمْ أَقُلْ مِنْ عناءِ الجَهْدِ قطُّ : قَدِي[3]
وما اكتفيتُ بأمجادٍ لنا سَلفتْ بل انتهَضْتُ بأمجادٍ لنا جُدَدِ
وقمتُ وحدي على ثَغْرٍ تهيَّبَهُ قَبْلِي رجالٌ، على قَدْرٍ، ذَوُو عددِ
وزِدْتُ، للوطنِ الغالي ضريبتَهُ وزُدتُ عَنْ ديني الأغْلى، ولم أحِدِ
وقَدْ ظُلِمْتُ، وآذاني بنو وطني فما أبِهْتُ بهم أو فُتَّ من عَضُدي
مارستُ شأني جميعًا مؤمنًا، وعلى علمٍ، ممارسةَ الأحرار، لا العُبُدِ!
وقَدْ عتَبْتُ على صَحبي تخلفَهُم عنِّي، وكيف أضاعوني، وهم عَمَدي
وقَدْ ذكرتُ (ابنَ سعدٍ) فأتَسيْتُ به الله لي ولَه في الموقفِ البَدِدِ!![4]

---

(١) الصَّلف : الكبرياء.

(٢) النَّوال : العطاء. الصمد : الذي يرجوه الناس.

(٣) قدِي : كفاني.

(٤) ابن سعدٍ : هو الإمام الجليل المصري (الليث بن سعد)، يقول عنه الشَّافعي : إنه كان أفقه من مالك، لولا أنَّ أصحابه خذلوه فأضاعوه. والتأسي : العزاء. البدد : المبدد الضائع.

وقلتُ جَدِّي (أبو عِلْيانَ) ثُمَّ أبي ... كانا كذاكَ ، فما همِّي ، وما نكدي؟![١]

ومَنْ تكُنْ في سبيلِ الله هجرتُهُ ... أجرىٰ له الله ما لم يُجْرِ في خَلَدِ[٢]

الفاصل الثالث:

ما خِفتُ غَدرَ فريقٍ قطُّ نازَلَني ... سِوىٰ فريقٍ على اسمِ الدِّين محتشِدِ

قَدْ صيَّروا الدِّينَ سِترًا ، تحتَهُ قَبعتْ ... كُلُّ الضَّلالاتِ ، والآثامِ ، والحَرَدِ[٣]

تمصوفوا ضَلَّةً ، واستمرءوا خَرَقًا ... ينزُّ بالعَارِ مِنْ عقليةٍ جَمَدِ[٤]

واستمسكوا العُمْرَ بالتَّضليلِ ثُمَّ نَسُوا ... أنَّ التصوفَ قِدْمًا بالدِّماءِ فُدِي

---

(١) الشيخ محمود أبو عليان الشاذلي المشهور بالكبير، المتوفىٰ فجر الخميس٩ من رجب سنة (١٣٢٦هـ) ، كان قطبَ أقطاب عصره علما وعملا ومعرفة بالله ودعوة إليه وجهادا في سبيله ، وتضحية فيه بكل ما يملك ، ويعتبر مجدد الصوفية في وقته غير منازع ، ولا يزال في عصرنا هذا طائفة من المعمرين الذين لازموه وانتفعوا بطهارة أنفاسه ، يتناقلون عنه العلوم وعجائب الخوارق والكرامات ، وقد شارك في الثورة العرابية مع أستاذيه الشيخ العدوي والشيخ عليش ، ولقي ما لقي ، ولما أراد الخديوي استرضاء الشعب ، وهب لعدد من كبار صوفية العصر إقطاعيات زراعية كبيرة ، فقبلها بعضهم متأولًا ، وردها بعضهم تورعا ، وكان هو ممن رد على الخديوي إقطاعية تزيد علىٰ مائتي فدان ، فأنعم الخديوي عليه بلقب ضخم فرده أيضا ، ولا يزال حتى اليوم يلقب بيت الشيخ في نجوع البصيلية بالصعيد ببيت الباشا ، وهو جدِّي لوالدتي ، وصهر أبي وعمه من طريق غير مباشر ، وكان أتباعه يعدون بمئات الألوف ، ولما مات انصرفوا إلا قليلا منهم ، فأضاعوا تاريخه المجيد وورثه أبي في كل خصائصه ، حتىٰ إذا أنفق جميع أمواله ، انصرف عنه الناس إلا من عصم الله ، فلزم داره للتعبد والدعوة حتىٰ توفي في يوم ضحى الأحد ١٢ من جمادىٰ الأولىٰ سنة (١٣٦٥هـ) ، وليس من أصحابه اليوم من يقوم بحقه إلا القليل ؛ فهذه محنة موروثة في البيت لحكمة عند الله .

(٢) الخَلَدُ : الفكر والبال .

(٣) قبعت : سكنت واختفت . والحرد : الغضب واللؤم .

(٤) التمصوف : هو ادعاء التصوف بالباطل تكسبًا أو نحوه وهو غير التصوف الصحيح .

وآخـــرونَ بـــدينِ اللهِ قَـــدْ عَبثُـــوا باسمِ التَّحرُّرِ والتَّجديـدِ عَـنْ لَـدَدِ(١)
في غفلـةٍ مِـنْ رجـالِ الـدِّينِ عَارمـةً تَفْري الكُبودَ وتُذْكِي وقْدَةَ الكَمَـدِ(٢)
على الخلافاتِ في التفريـعِ قَـدْ عَكَفُـوا وأهملُـوا الخطـرَ الـداني بـلا رَصَـدِ
وقوْقَعـوا في القـديمِ البحـثِ أنفسَهُمْ كـأنما هُـمْ عَـنِ التَّجديـدِ في صَـفَدِ
يـا ليـتَهُم أدركـوا مـاذا يُـرادُ بهـم علىٰ طرائـقَ في تـدميرهم قِـدَدِ(٣)!!
إذنْ أطـاعوا نـدائي ، واتقـوا نُـذُري وأدرَكُوا أمرَهُم ، والـدَّهرُ في حَفَـدِ(٤)
وآثروا الدِّينَ ، بلْ ضـحَّوْا بـما مَلَكُـوا للهِ ، في عَـــدَدٍ مـــنهم ، وفي عُـــدَدِ
ومـا أَرَادُوا نَكـيرًا بي ، ومـا جَهـدوا فلـــمْ يـــصيبوا ، لأنَّ اللهَ لم يُـــرِدِ
مَـــنْ كَـــانَ في اللهِ مَـــسْعَاهُ أذَلَّ لَـــهُ أَطْغَى الطُّغَاةِ ، وأشْقَاهُم بـلا كَبَـدِ(٥)
ومـا علـيَّ الهُـدَىٰ ، لَكِـنْ علـيَّ هنـا صِدْقُ البَلاغِ ، وقَدْ أبلغتُ كلَّ نَدي(٦)

الفاصل الرابع :

يا مَنْ يَراني بحبلِ العفـوِ معتـصمًا في شـأنِ قـومي ، وإنْ هُـمْ مَزَّقُـوا كَبِـدي
العفـوُ عَـنْ قُـدرةٍ دِيـنٌ ، ومنْقَبـةٌ والعفـوُ عَـنْ قُـدرةٍ زادٌ ورِيُّ صَـدِي(٧)

---

(١) اللدد : الخصومة الخبيثة .

(٢) عارمة : مندفعة هائلة . تفري : يعني تفتت . الكبود : الأكباد . وتذكي : تزيد . والوقدة : النار . والتفريع : الأحكام الفرعية التي لا يتعلق بها كفر ولا إيمان . الرصد : الرقيب .

(٣) القدد : المتفرقة الأنواع الكثيرة .

(٤) الحفد : الإسراع وعدم الانتظار .

(٥) الكبد بفتح الباء : الجهد والمشقة .

(٦) الندي هنا : هو المجتمع .

(٧) المنقبة : الشرف والمفخرة . والمراد بالزاد والري : أن العفو أيضا صدقة عظيمة .

أصفيتُهم كلَّ ما يُرْجَىٰ لـذي رَحِـمٍ سِيَّانَ مَنْ ضَـلَّ ، أو مَـنْ للطريـقِ هُـدِي
وهُمْ جَـزَوْني عـلىٰ بِـرِّي أذىً عجبًـا لا ينتهـي مـرَّةً ، إلا تـراهُ بُـدِي !!
أكادُ أُذهلُ :كيفَ استمرءوا لـدَدِي؟ وكَمْ صبرتُ ، فلمْ أجهَلْ ، ولم أَجِدِ[1]
وقلتُ للنفسِ : أيامي ، وقَدْ قَرُبَـتْ والموتُ بالبابِ يجثـو ، غـيرَ مبتعـدِ !!
ألـيسَ حـسبُكِ أنَّ اللهَ يعـصمُني منهمْ جميعًا ، ويهديني إلىٰ سَـدَدي[2]
ففـيمَ أَشـغلُ أوقـاتي بـما مكـرُوا؟ وفيمَ بثِّي وحُـزني بـل وفـيم دَدِي؟[3]
وقـد عزَفـتُ عـن الـدُّنيا وزهرَتِهَـا أقـضي بقيـةَ عمـري شِـبْهَ منفـردِ!!
فـلا أَزُورُ ، ولا أسـعىٰ إلىٰ سُـدَدٍ في النَّاسِ تُرْجىٰ وحسبي أقدسُ السُّدَد[4]
فتحـتُ بـابي لِمَـنْ يرجـو التسامِيَ أمـرِ الحيـاتين ، إنْ يـذهبْ وإنْ يَفِـدِ
ومـا بخلـتُ بعلمـي أو بتجربتـي ولا بـمالي ولا جَـاهي ولا عَـضُدِي
ولُـذْتُ بالبـاب : بـابِ اللهِ مُطَّرِحًـا أبوابَ كُلِّ الورىٰ ، في حُبِّـهِ الأحـدي
فهَـلْ عجيـبٌ؟نعم واللهِ في زمـنٍ ضاعَ الكِرامُ بـه ، في زحمـةِ الـشُّرُدِ[5]

الفاصل الخامس:

ربيـتُ جـيلا جليـلَ الـشَّانِ محتـسبًا أُهدِيه للدِّينِ والدنيا :يفي ويـدي[6]

---

(١) أجد هنا : من الموجدة وهي الغضب .
(٢) السدد بالفتح الاستقامة والصواب .
(٣) البث : الأسف . الدد : اللهو واللعب .
(٤) السُّدد بضم السين : الأعتاب والأبواب .
(٥) الشرد بضم الشين : المشردون الأراذل .
(٦) المحتسب : العامل لوجه الله . ويدي هنا : فعل مضارع من الدية والفداء .

اللهُ في قِلــةٍ في اللهِ، لــيسَ لَهُــمْ ... مِثْلٌ وليسَ بهم ظَلٌّ من الصَّيَدِ[١]

قَدْ باركَ اللهُ مسعاهُمْ، فتمَّ لهم ... ما لم يتمَّ لآلافٍ مِنَ الطُّرُدِ[٢]

كَمْ مِنْ كثيرٍ: غثاءٌ لا غَناءَ بِهِ ... ما بينَ مُعْتَقِدٍ غِرٍّ ومُقْتَعِدِ!!

وكَمْ كثيرٍ كثيرٍ لا يُقَوِّمُ في ... سوقِ الجهادِ بفردٍ مؤمنٍ عَرِدِ[٣]

لو أنَّ كُلَّ جُهودي أثمرتْ رجلًا ... بعدي إمامًا لإخواني، لَثِمْتُ يدي!!

نَعَمْ: تركتُ رجالًا، هم أئمةُ مَنْ ... يَدْعُو بدعوةِ حقٍّ، أو يصدُّ عَدِي[٤]

فأينَ مِنْهُمْ ورِيثِي؟ تلكَ مشكلتي ... وما مؤَرِّقُ أحداثٍ كمتهدِ

يا ربِّ فاخترْ لهم منهم إمامَ هدىً ... يحمي حِمى الدعوةِ الغرَّا، ويستقدِ[٥]

الفاصل السادس:

الأنسُ باللهِ أغناني، فما أسَفي ... على فِئامٍ تُسوّي الكلبَ بالأسدِ؟[٦]

وما غَنائي بآلافٍ مؤلفةٍ ... مِنَ الأخِلاءَ لم يستهدفوا أمدي؟[٧]

وما بلائي بأخلاقٍ مُهَلْهَلَةٍ ... لم يُغنِ ترقيعُ ما فيها، ولم يكَدِ؟

نفعيَّةٌ هي دينُ النَّاس مِنْ عجبٍ ... الحبُّ إن تَبْدُ ثُمَّ البُغْضُ إنْ تَبِدِ[٨]

---

(١) الصيد بفتح الياء: الكبر والتعالم.
(٢) الطرد بضم الراء: جمع طريد؛ تافه.
(٣) العرد بكسر الراء: هو القوي الشديد.
(٤) العدي: المهاجم.
(٥) يستقد: من القود وهو أخذ الحق لأهله.
(٦) الفئام: الجماعات والطوائف.
(٧) الأخلاء: الأصحاب. والأمد: الغاية والهدف.
(٨) تبدُ بسكون الباء: تظهر. تبِد بكسر الباء: تختفي.

فالدِّينُ والعِلمُ، والأخلاقُ مُزْدَلَفٌ ... أَبْئِسْ بِكُفْرٍ، على كُفْرَينِ مُعْتَمِدِ[1]
ضَاعَ الوفاءُ، وضَاعَ الحبُّ واندثرتْ ... معالمُ الفضلِ بينَ الزُّبْدِ والزَّبَدِ[2]
يَئِستُ لولا جلالُ اللهِ في خَلَدي ... مِنْ كُلِّ مشتمسٍ فيها ومُبْتَرِدِ!!
لولا (العشيرةُ) في الدنيا ودعوُتها ... ما عَزَّ من سَبَدٍ عندي ولا لبَدِ[3]
إنِّي أعيشُ لها، عيشَ الفَناءِ بها ... فناء طالبِ خُلْدٍ غيرَ مُتَّئِدِ

الفاصل السابع :

(جمالُ) ياابْني اعتصمْ باللهِ وامضِ على ... هَـذي النَّبِيِّ، وَوِرْدَ الصَّالحين رِدِ
واذكُرْ معَ اليومِ أَمْسِ المنقضي فعسَى ... ألا تبوءَ بِخزْيِ النَّسي والفَنَدِ[4]
وإنْ ذكرتَ عيوبَ النَّاس، منتقدًا ... فاذكرْ عيوبَكَ عندَ النَّاس، وانتقدِ !!
وإنْ ذكرتَ حقوقَ النَّاس مُفْتَقِدا ... فاذكرْ عليكَ حقوقَ النَّاس وافتقدِ[5]
وإنْ ذكرتَ ذنوبَ النَّاس، مُرتعدًا ... فاذكرْ ذنوبك عند اللهِ وارتعدِ!!
فليسَ في النَّاس معصومٌ ومُتَّبَعٌ ... سوى النبيِّ الذي بالوحي قبلُ حُدي
إنَّ الرجولةَ عدلٌ فانتصفْ أبدًا ... مِنْ ذاتِ نفسكَ في قُربٍ، وفي بَعُدِ
ولا تَنكَّرْ لفضلٍ مِنْ أخٍ سَفَهًا ... إنَّ التنكُّرَ طبعُ الخائنِ النكِدِ!!
ولا تنافقْ ولا تَصْغُرْ بفعلٍ ردي ... ولا تمالِئْ، ولا تغدُرْ، ولا تمِدِ[6]

---

(١) المزدلف : الوسيلة والطريق .
(٢) الزُّبد بضم الزاي : الخلاصة . والزبد بالفتح : الحثالة .
(٣) السبد واللبد بفتح الباء فيهما : القليل والكثير . والعشيرة هنا : هي العشيرة المحمدية .
(٤) الفند : الكذب . والنسي : نسيان الفضل .
(٥) الافتقاد : البحث والطلب .
(٦) تمد : تتغير وتضطرب .

(جَبْرُ الخواطرِ في جبرِ الخواطرِ) : إنْ ... صـدَقتَ في اللهِ ، فـاغْنَمْ جَبرَهـا وعُـدِ
ولا تبـذّرْ ؛ فـإنَّ الـدهرَ ذو غِيَـرٍ ... ولا تقتِّرْ ؛ فإنَّ الحرصَ غيرُ جَدِي (١)
يُجلُّكَ النَّاسُ إنْ تَثْرىٰ وإنْ تَرِبَـتْ ... يداكَ عـادوْك ، شأن الراصدِ الجَحِـدِ
كَـمْ مِـنْ كـريمٍ أهـانُوهُ لِمَتْربـةٍ ... وكَـمْ لئـيم أعـزُّوهُ لُمُقْتَـصَدِ !!
ولا تُبَـالِ الـذي يأتيـك مختلِبًـا ... إنْ يُعْـطَ شـادَ وإن لم يُعْـطَ لم يَـشِدِ !!
مُتَـاجِرٌ هـو باسـمِ اللهِ ، محـترفٌ ... لا يعـرفُ اللهَ إلا عنـدَ كُـلِّ ردِي !!
وإنْ فُجِعتَ بخيرٍ قَدْ صنعتَ ، فَقُلْ ... كذاكَ كانَ أبي مِنْ قبلُ !! واستفِدِ !!
وإن غضبتَ ، فلا تُغْفِلْ حسابَ غَـدٍ ... واحفـظْ لـسانك في درعٍ مـن الـزّردِ !
ولازم العلـم واخدمـه الحيـاة لكـي ... تحيـا وتُنـسبَ لي فالـسبق للجَهـدِ
وانظـرْ فأنـتَ حفيـدٌ للنَّبـيِّ ، ومَـنْ ... يكُنْ له مثلُ هـذا المرتقـىَ يَسُدِ!! (٢)

الفاصل الثامن :

جمـالُ : هـذا (عِـصَامٌ) فاسـتَعِزَّ بـه ... شقيقُكَ البَرُّ ، ذو قلـبٍ عليـك نـدي (٣)
وأختُك النعمةُ الكُبرىٰ ، حُبيـتَ بهـا ... أنعم (بهانمَ) من أخْتٍ ، ومن سَنَدِ!
صرّحتُ باسـمك ، لكنّـي قـصدتُّها ... بالذاتِ قـصدًا ، وتنصيـصًا علىٰ صـددِ (٤)
واستودعِ القلبَ حُبَّ الوالـدين ، ففـي ... هـذا المجـالِ مجـالي عِـزِّكَ الأبـدي
وعِـشْ ومُـتْ في سـبيلِ اللهِ مجتهـدًا ... مِـنْ بيـتِ مجتهـدٍ ، في إثْـرِ مجتهـدِ !!

---

(١) الغيَر بفتح الياء : المفاجآت . وغير جدي : غير مفيد .
(٢) الحفيد ابن الابن بخلاف السبط فهو ابن البنت .
(٣) الندي هنا : هو الرطب بمعنى العطوف .
(٤) الصدد : القرب والمواجهة .

واذكرْ لعمِّكَ (وهبي) قدرَهُ، وإذا ذكرتَ غدرَ سواه فاصطبرْ، وذُدِ[(١)]
وصِلْ أقاربنا (في الله) ملتزمًا !! وصِلْ أقاربنا (في النَّاس) واستزدِ
فليس حقُّ ذوي القُربى، وما ولدوا كحقِّ من عزَّ: لم يولد، ولم يلد ؟!
إنَّ (العشيرةَ) أرحامٌ محرَّمةٌ والودُّ في الله إنْ جدَّ الزمانُ وُدي[(٢)]
تلك العشيرة لا يبقى الخبيث بها أمر من الله عن عَهْدٍ وعن عَهِدِ
أمَّا (الطريقةُ) فاحفظها، وخصَّ بها أهلَ التُّقى، في مقامِ الفيضِ والمددِ
وكنْ لأسرارها أهلًا، ولُذْ أبدًا عِنْدَ التجلِّي والاستغراقِ بالأيَدِ[(٣)]
إنَّ الطريقةَ سِرُّ الغيبِ، فامضِ بها أنقى مِنَ الضوءِ، أو أصفى مِنَ البَرَدِ
وثَمَّ إياكَ والدَّعوى، وفتنتَها فتلك آيةُ مخذولِ الضميرِ صدِي[(٤)]
وذي (جماليَّةٌ) فيكم مخلَّدةٌ (زكيَّةٌ) العَرْفِ، من يَزْدَدْ بها يزِدِ[(٥)]
فامضوا جميعًا على الأيامِ واعتصموا باللهِ متحدًا يأوي لمتحدِ
ويا بُنَي: خذوا قولي، وتجربتي هديةَ العُمْرِ نُصْحًا، قبلَ مُلتحدِي[(٦)]
فلستُ أدري، لعلِّي لا أقولُ غدًا شِعْرًا سواه، وما شِعري بمُطَّرِدِ !
وقَدْ يعيشُ كلامي بينكم زَمنًا مِنْ بعدِ عيشي، إذا ما آذَنَتْ مُدَدي[(٧)]

---

(١) ذُد: بضم الذال: ادفع بالحسنى.
(٢) ودي بضم الواو: من الدية يعني فدي.
(٣) الطريقة هنا: هي الطريقة المحمدية. والأيد بفتح الياء: هي القوة والتمكن.
(٤) صدي: من الصدأ الذي يعلو المعادن، غير الصديِّ بمعنى العطشان.
(٥) العَرف: الرائحة.
(٦) المراد بالملتحد هنا: الممات.
(٧) آذنت: قربت وحانت.

إنْ يختمِ اللهُ لي بالخيرِ تِهْتُ على ... كُلِّ البَرايا، وحُلَّتْ عقدةُ العُقَدِ!
أستغفرُ اللهَ ممَّا خطَّهُ قَلَمِي ... ظَلَمْتُ نفسي، فيا ربي: أَقِمْ أَوَدِي[1]

***

(١) الأود: العوج والثقل.

كُلَيْمَاتٌ حولَ الحُسَيْن وَجَدِّه وآلِ بيتِه

في مثل هذه الأيام من العام الماضي، كانت جماهير زوَّار المشهد الحسيني يعانون أزمة روحية بعد أزمة، نتيجة خطبة أُلقيت في مناسبة الاحتفال بذكراهﷺ، وكنا قد تولينا الرد على ما جاء في هذه الخطبة في احتفالنا السنوي الكبير، الذي تعوَّدت العشيرة عقده بهذه المناسبة في المشهد الحسيني.

ولكنَّ إخواننا في هذه الأيام يُصرُّون على أن نسجل لهم بعض ما سمعوه قبلًا من الإجابات؛ لتكون حجة لهم أمام مَن قد يعودون إلى إثارة مثل هذه الهرطقات، تعالمًا وتوقحًا في مثل هذه المناسبة، وكان يتلخص كلام الخطيب في قوله:

١- نحن لا نحتفل بالحسين كَوَلِيٍّ، ولكننا نحتفل به كمجاهد.

٢- نحن لا نرتبط بفرد ولا أسرة، ولكننا نرتبط بالقرآن.

٣- نحن لا نحترم الرسول، إلا لأنه نزل عليه القرآن.

والذي نرجحه أن الخطيب لم يُرد تحقير الحسين ولا آل البيت، وإلا ما اهتم بحضور الحفل ولا تكلم فيه، ولعل العبارات هي التي خانت فسبقت الخطيب إلى غير ما كان يرجو أن يقول، أما رأينا نحن فيتلخص في الآتي:

أولا: جماهير المسلمين سلفًا وخلفًا - فيما عدا النواصب والوهابية ومن انحرف انحرافهم - يعتقدون أن الإمام الحسين مجموعٌ له بين الولاية والجهاد والشهادة، ولا تنافي بينها مجتمعة، وإنما هي

خلال بعضها من بعض، واجتماعها لشخص واحد من أكبر براهين ولاية الله تعالىٰ له، وعندنا أن المجاهدين ما لم يكونوا أولياء لله فإنهم لا يستوجبون التقدير ولا الاحتفال، فإنه لو كان مجرد الجهاد وحده موجبًا للاحتفال، لتعين الاحتفال بالجبارين ومتمردة البشر والسفاحين، فهم من وجهة نظرهم مجاهدون، ولكنه لما لم يكن جهادهم لله فقد اقتضى الدين إغفالهم والسخط عليهم وإنكار ذكرهم.

فيكون أصل الاحتفال هو الولاية لله، وهي شجرة تثمر الجهاد، الذي هو شجرة تثمر الاستشهاد، والفرق بين الولاية والبلاهة معروف.

فاحتفال المسلمين بالحسين كولي هو الأصل، ثم احتفالهم به كمجاهد فرع من ألف فرع على هذا الأصل الخصيب الشريف.

ثانيا: ارتباط المسلمين بآل البيت جميعًا أو فرادىٰ أصل أصيل في الإسلام جاء به القرآن، صريحًا محكمًا، قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورىٰ:٢٣]، وجمهور المفسرين علىٰ أن المراد هم قرابة رسول الله ﷺ، ووردت في ذلك نصوص قاطعة من الأحاديث الصحاح، يُرجع إلىٰ بعضها في رسالة «**التبصير**»، وكتاب «**ذخائر العقبىٰ**»، وغيرهما من كتب السيرة والحديث مما لا مجال معه لصرف الآية عن وجهها ذاك.

وبهذا قال القسطلاني، والبغوي، والرازي، والبيضاوي، والزمخشري، وغيرهم من سادة السادات - راجع العدد الماضي من المسلم- ثم إن سبب نزول الآية نص معهم في الموضوع، وبهذا

يكون ارتباطُ المسلمين بآل البيت وولاؤهم إياهم دينًا من الدين، وإسلامًا من الإسلام بنص القرآن، فضلًا عن أنه خلق من الخلق، ووفاء من الوفاء، وعاطفة من العاطفة، وسنة من السنة.

وأما السنة، فإليك طرفًا منها:

فقد أخرج ابن سعد: قال ﷺ: «**استوصوا بأهل بيتي خيرًا؛ فإني أخاصمُكُم عنهم غدًا، ومَنْ أكُنْ خَصْمَه خَصَمَه الله**».

وأخرج البخاري قال ﷺ: «**ارقبوا محمدًا في أهل بيته**».

وروى مسلم، قال ﷺ: «**أذكركم الله في أهل بيتي ثلاثًا**».

وروى مسلم وأحمد واللفظ له قال ﷺ: «**إني أوشكُ أنْ أُدعى فأجيب، وإني تاركٌ فيكم الثَّقلين، كتابَ الله حبل ممدود من الأرض إلى السَّماء، وعترتي أهل بيتي، وإنَّ اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يَرِدَا عليَّ الحوض يوم القيامة، فانظروا بم تخلفوني فيهما**».

وروى الحاكم والترمذي وصححه على شرط الشيخين قال ﷺ: «**أحبوا أهل بيتي**».

وروى الطبراني، والدارقطني، وصححه الهيثمي والسبكي قال ﷺ: «**ينقطع يوم القيامة كل سبب ونسب إلا سببي ونسبي**».

وروى أحمد والحاكم والبيهقي عن حمزة بن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما بال رجال يقولون إن رحم**

رسول الله لا تنفع يوم القيامة، بلى والله إن رحمي لموصولة في الدنيا والآخرة» . قال عمر بن الخطاب : فتزوجت أم كلثوم بنت علي رضي الله عنها ؛ رجاءَ أن يكون بيني وبينه ﷺ نسب وسبب . أو كما قال .

وأخرج أحمد في المناقب قال ﷺ : «**يا معشرَ بني هاشم ، والذي بعثني بالحقِّ نبيًّا لو أخذت بحِلق الجنة ما بدأت إلا بكم**» .

وأخرج السري والملا في السيرة قال ﷺ : «لو أن رجلا صفَّ قدميه وصلَّى ، ولقي الله وهو مبغض لأهل البيت ، لدخل النار» .

وأخرج الملا أيضًا عن أنس قال ﷺ : «**نحن أهل البيت لا يُقاس بنا أحد**» . تأمل كثيرًا .

ويجب أن يَقِفَ عند هذا الحديث كثيرٌ من المتعالمين الذين لا يعلمون .

وأخرج الإمام الرضا عن علي قال : قال ﷺ : «**إنَّ الله حرَّم الجنة على من ظلم أهل بيتي أو قاتلهم ، أو أغار عليهم أو سبَّهم . فتأمل يرحمك الله**» .

وأخرج الترمذي وأبو حاتم يقول ﷺ لآل بيته : «**أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم**» .

ولهذا قال الحافظ ابن حجر في ترجمته من «**الدرر الكامنة**» : إن العلماء حكموا بنفاق ابن تيمية لما ثبت عليه من بغض علي رضي الله عنه

وانحرافه عنه، وقد قال ﷺ لعليٍّ: لا يبغضك إلا منافق. ا.هـ.

قلنا: وفي أوائل الجزء الثالث من كتاب «**منهاج السنة**» لابن تيمية بصفة خاصة تحامل بغيض كريه على الإمام علي ﷺ، وعلى السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ حتىٰ إنه وصمها بالنفاق - عياذًا بالله- ومع أن لابن تيمية انحرافات شتىٰ، فلعل من أوقحها هذا الانحراف اللئيم، وأنف الوهابية راغم.

ومن مجموع ما قدمناه لك من السنة، بعد ما قدمناه لك من القرآن يتبين أن ارتباط المسلمين بأهل البيت وولاءهم لهم فرادىٰ وجميعًا إنما هو دين من صميم الدين، وإسلام من صلب الإسلام، وأن الارتباط بهم هو عين القرآن، وهو عين السنة، وأن الخطيب انحرف، جهل أو عرف.

أما معنىٰ هذا الارتباط، وصورته وحقيقته، وغايته، فأمر معروف لكل مسلم، يبدأ بالمحبة وينتهي بالقدوة.

ثالثا: فالقول أننا لا نحترم النبي ﷺ إلا لأن القرآن نزل عليه، قول فيه ألف خطأ وخطأ، والرد عليه يحتاج إلىٰ كتاب وكتاب، وهو يعتبر مجانبًا للصواب صورة ومعنىٰ، فهو ﷺ مفضل محترم في الغيب والشهادة منذ يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[الأعراف:١٧٢] إلىٰ يوم ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر:١٦]، بما وهبه الله من الخصائص الكبرىٰ والميزات التي لم تتح ولن تتاح لبشر، وإن حكم ما بين المشرقين، وسوء هذا التعبير مع تفاهة معناه يجعل النفس تشفق أن تجعله محل مساجلة، أو تفتيش علمي، ونسأل الله أن يبصرنا بعيوبنا، وأن

يهبنا الأدب معه ومع رسولهﷺ، وأن يرينا الحق حقًّا ويرزقنا اتباعه، وأن يرينا الباطل باطلًا، ويرزقنا اجتنابه.

فالقول: بأننا لا نحترم النبيﷺ إلا لأن القرآن أنزل عليه، تعبير قبيح أشك كل الشك في أنه جرى عمدًا على لسان الخطيب، فإني لا أظن أبدًا أنه يجري بهذه الصورة العنيفة الساقطة على لسان مسلم عامد.

وعلى فرض صحة نسبته إليه فهو ـ كما قلنا ـ سبق لسان، فيه ألف خطأ، والرد عليه، موزع مفرع، يحتاج إلى كتاب كامل، لو كان مع قائل هذا القول رجل واحد يقول به، فالجرأة على المقام النبوي شذوذ نادر كل الندرة في المسلمين، فعقيدة أهل القبلة أن النبيﷺ محترم احترامًا ربانيًّا ذاتيًّا، مفضل تفضيلًا فطريًّا إلهيًّا، وقد قضى الله تعالى باحترامه وتفضيله الذاتي والشخصي من يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ ليكون محلًا لختم الرسالات، ونهاية النبوات، فلا يُدرِك شأوَه مُدرِكٌ إلى ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾[النبأ:١٨] وما لم يكن المصطفى محترم الذات فمن إذن؟

أليس حسبك أن الله قد أخذ له ميثاق النبيين في عالم الغيب، ثم كان وسيلة آدم، ودعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، ووصية من سبقه من الأنبياء والصديقين، ورجال الله أجمعين، فلو بعث موسى أو عيسى في عهده ما وسعه إلا اتباعه، وإن تواضع حتى قال: لا تفضلوني على يونس ابن متى.

ولذلك كان من خصائصه الكبرى تأديب الله للناس في شأنه، كيف ينادونه وكيف يخاطبونه، وكيف يجالسونه، وكيف يفهمونه، وكيف

يطيعونه ، وكيف لا يؤذونه ، فإن طاعته طاعة لله ، وحبه حب لله ، وبيعته بيعة لله .

فهو بشر ، لا كالبشر ، وإنسان لا كالناس ، ونبي لا كالأنبياء ، ورسول لا كالرسل ، وقمة فوق القمم ، سابقها ولاحقها إلى يوم القيامة .

بكل هذا نطق القرآن ، فضلًا عن السنة ، فاللهم ارزقنا الأدب مع رسولك ، خيرتك من خلقك ، وصفوتك من عبادك ، صاحب الوسيلة والفضيلة ، والدرجة الرفيعة ، والمقام المحمود ، واللواء المعقود ، والحوض المورود ، وشفِّعه فينا بحبنا له ، يوم لا ينفع مال ولا بنون .

***

بعضُ نشاطِ العشيرةِ في عام(١)

مقدمة :

بسم الله وبحمده، وبالصلاة والسلام على النبي وآله وأمته، نستفتح هذا الاجتماع السنوي التقليدي، للجمعية العامة للعشيرة المحمدية؛ للنظر في المواد المعتادة الواردة في جدول أعمالها، وكلها أعمال روتينية مكررة بحكم القانون.

وقد عُرِض عليكم تقرير السيد مراقب الحسابات، وهو تقرير مشرف بحمد الله، وعُرِضت عليكم بقية المواد التي اتخذتم فيها قراراتكم المتطابقة مع مصلحة الدين والدنيا، فإن المسلم إنما يحيا في الدنيا من أجل الدين.

ما نحن ؟

ونحن جماعة يقوم اجتماعنا وإخاؤنا وجهادنا، على أساس العقيدة والحب في الله، فليس للجانب الإداري عندنا المقام الأول، بل المقام الأول عندنا للولاء للدعوة، وسلامة العقيدة، والإيمان بالمبدأ، وخدمة الفكرة، والثقة بالداعية، والثبات على مرارة الجهاد، والصبر على توالي المشقات والمصاعب، وعلى المفاجآت والفواجع، فليس طريق الدعوات المستنيرة مفروشًا بالورد والحرير، ولكنه الطريق المتعب المضني، الطريق المفروش بالأشواك والجمر، المحفوف بالمكاره، بل بالمخاطر المرهقة، والأزمات المتعانقة المتلاحقة.

---

(١) مقال غرة جمادى الأولى ١٣٨٤هـ، ٧من سبتمبر ١٩٦٤م، العدد العاشر السنة الرابعة عشرة.

والولاء للدعوة هو السبب في أننا بحمد الله لم نختلف مرة في حياة العشيرة على الجانب الإداري أبدًا، ولم يرتفع هذا الجانب عندنا إلى رتبةٍ يأخذ فيها من وقتنا وبحثنا، ما نحن أحوج إليه في تربية أنفسنا، وخدمة مذهبنا، وقيامنا بواجبنا مع الله، ومع خلق الله، وهذا الجانب يستقر أو يضطرب بمقدار فضل رجال الجماعة وثقتهم، وبمقدار كرامتهم أو تفاهتهم، وبمقدار سطحيتهم أو عمق نظرتهم، وهكذا أيضًا بمثل هذه الأفكار والقيم والمبادئ تعيشون أغرابًا بكل معنى الغربة في هذا الزمان، وتجدون فيه من الشدائد ما لا يصبر عليه إلا أهل الله.

أصول الدعوة:

وليس من صحتي ما يساعفني على تكرار الكلام عن أصول دعوتنا وأهدافنا، ففي تقارير الأعوام الماضية ما يكفي ويشفي بفضل الله.

إن دعوتنا تتلخص في: خدمة العقيدة والفضيلة، والتسامي بالإنسانية، من طريق التصوف المستنير، المطابق للكتاب والسنة، ونحن بعد ذلك براء من كل تصوف فيه طرف يغضب الله.

وهذا هو السبب في تزعمنا دعوة (الإصلاح الصوفي)، وفي وضعنا فكرة (المؤتمر الصوفي المحلي والعالمي)، الذي هو (الجامعة الصوفية العالمية) التي تمثلها العشيرة الآن أحسن تمثيل، إرساءً لقواعد الجامعة الإسلامية من الجانب الروحي، الذي هو أساس الجانب الفعلي إن شاء الله.

ثم فكرة (**محو الفوارق والعصبيات الصوفية**)، على أساس قاعدة (**الزم شيخك واحترم الجميع**)، ثم فكرة (**التصوف الإيجابي المنهجي**

العلمي والعملي)؛ لتندمج المعاني الروحية السامية بالحياة العامة، في جانبها الفني والإنساني والعملي، فتطهر وتتسامى، وتعف وتجمل، وتذاع وتنتشر.

ثم فكرة تطهير الدعوة الصوفية السليمة من الأدعياء، وحمايتها من الأعداء؛ لتظهر على حقيقتها الأولى، فتقوى وتعز وتثمر.

وفكرة إنشاء أول (**كلية صوفية**)، وأول (**مجمع صوفي**)، وأول (**بيت صوفي**)، وأول (**مكتبة صوفية**)، وأول (**مستشفى صوفي**)، وفكرة العمل على رعاية شيخوخة الصوفية، وضمان كراماتهم، وحفظ إنسانياتهم، وتمتعهم من أوقاف الصوفية وأموال الدولة بما هم أهله من الحقوق . إلى غير هذا من الأفكار والاتجاهات التي ابتكرناها، وأذعناها، ودافعنا عنها، وعلَّمناها غيرنا، فأصبح يدعيها، بكل ما استحدثناه من مفاهيم ومبادئ وتحرر وتحول، وثورة صوفية تقدمية، فرضت نفسها، رغم ما وجدت وتجد من مصاعب وعقبات ومكر تزول منه الجبال.

حركة الدعوة:

وهكذا باسم الله مضى ركبكم بمواكبه الحافلة بالعلماء، والخطباء، والشعراء، والدعاة الهداة، يعلن كلمة الله، ويبلغ رسالاته في كل مكان وزمان، بكل ما في الإمكان، رغم ضيق الحال وضيق المال، فمثلًا قد دعوتم إلى التقارب والتفاهم بين مختلف المذاهب الإسلامية، ووضعتم قاعدة التعاون في المتفق على كفاحه، والتناصح في المختلف على حكمه، ودعوتم إلى التكتل أمام الخطر الداهم الذي يتهدد الجميع، خطر المنكرات

والبدع ، والمجاهرة بمقارفة المحرمات ، واتساع غزو اللادينية ، والإلحاد ، والمادية ، والتوقح ، والتهتك ، والانحلال ، وهيمنة الخلاعة ، وفساد الاتجاه النسوي بكل مظاهره الهابطة ، ومعالمه الجنسية ، وأفكاره الحيوانية المستشرية ، تحت ستار التقدمية والتحرر المظلوم .

ولم يَفُتْكُم التنبيه إلى المذاهب الخبيثة ، التي تحمل الوجه الديني تضليلاً وزيفًا ، أو التي تحمل الوجه المدني التجديدي للهدم والتدمير ، خصوصًا في وسائل الترفيه والإعلام ، وقد كنتم أول من جاهر بمكافحة هذه المبادئ والمذاهب المدخولة ، وبِعْتُم في سبيلها ما عُرِض عليكم من عرض الدنيا ومتاعها الفاني ، وإنْ كَثُرَ ، فإن خدمة الدين شيء غير استغلال الدين ، حتى كنتم ـ بحمد الله ـ محل الثقة العامة من الشعب و من المسئولين .

مجلة الدعوة :

وهذه مجلتكم (المسلم) -بحمد الله- أصدق لسان لأبرك دعوة ، وأرفع صوت في مجال الكفاح لخدمة العقيدة والفضيلة ، والتسامي بالإنسانية - تشقُّ- في الله طريقها متجددة ، عاملة ، تعلن بالحق ، ولا تخشى في الله لومة لائم ، بقدر ما تسمح بها ظروفها ، رغم ما تعانيه مما يسيل معه الدمع والعرق ، بل ما يكاد يتفصد به الدم حزنًا وألمًا ومشقة ، وإنما يعزينا أنه جميعًا في ذات الله العليم الخبير .

تجديد شَهر العشيرة :

ومنذ لحظات وافقت جمعيتكم العامة في انعقادها غير العادي ـ تنفيذًا للقانون الجمهوري (٣٢ لسنة ١٩٦٤) على تجديد شهر العشيرة ،

وتسجيلها بكل شخصيتها الروحية الدينية، التي هي أصل الدعوة وأساسها وروحها، ونسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى تحقيق ما عاهدناه تعالى عليه، فإننا نسد في الدعوة الإسلامية جانبًا لا يسده سوانا، وقد قررنا أنه «**لا معنى لوجودنا إذا كنا نسخةً مكررة من غيرنا**»، سواء كان هذا الغير صوفيًا أو سلفيًا أو غير ذلك.

الخدمات الاجتماعية :

وأنتم تعلمون أننا نمارس الخدمات الاجتماعية والإنسانية وما هو منها، لا بوصفها من أصول الدعوة أو مقاصدها، ولكن بوصفها أثرًا تلقائيًا للخدمة الإلهية، التي تنبثق عنها بواعث الخير من كل المراتب وكل الألوان، وما لم تكن الخدمة الإلهية شاملة لكل هذه المستويات، كانت خدمة معطلة من الثمرات الطبيعية في دين الله.

هذا مذهبنا، وإن من يدرس تاريخ الصوفية القديم ـ خصوصًا تاريخ الفتوة الصوفية ـ يستيقن بأن ممارسة الخدمات الاجتماعية والإنسانية والثقافية والنفسية، كان أمرًا يوشك أن يكون مقصورًا قديمًا عليهم وحدهم، ثم عنهم أخذه الناس.

والمطَّلع على جدول الخدمات البياني -الملحق بهذا التقرير- يدرك سعة المجال الذي تمارسه العشيرة في هذا الجانب، والذي نعتبره عبادة من أفضل العبادات، برغم ما يحوطه من مشكلات وأزمات ومتاعب، لا تفتر ولا تنتهي.

الماليات والإداريات :

وبحمد الله يعتبر نظامنا المالي والإداري نموذجًا يُحتذىٰ بشهادة المفتشين المختصين الذين يوالون زياراتنا ، ويراجعون أعمالنا ، وبهذا الامتياز يشهد السادة رؤساء الوحدات والمديرون المنفذون ، وكبار المسئولين المختصين الذين يتعاملون معنا في هذا المجال ، من مختلف الوزارات .

هذا ، وإن السجلات والدفاتر والأوراق مفتوحة دائمًا علىٰ مكاتبنا ، متروكة لكل من يطلب المراجعة أو المعرفة أو التقليد أو غير ذلك ؛ فإن أبغض ما نبغضه إنما هو التكتم والتزمت ، وكلمتان لا وجود لهما في قاموس العشيرة هما : السرية ، والخصوصية .

معهد تأهيل الفتيات :

وقد نجحت بحمد الله تجربة معهد تأهيل الفتيات ، الذي أنشأته العشيرة نموذجًا جامعًا لكل ما لابد من معرفته للفتاة ، سواء كانت ربة بيت أو عاملة في الخارج ، وجمعت العشيرة في منهجه بين محو الأمية والتفصيل والخياطة والتطريز ، والتدبير المنزلي والتمريض ، وغيره من التربية النسوية ، علىٰ أساس الدين والفضيلة ، والجمع بين محاسن القديم والحديث ؛ رجاء أن يكون معهدًا نموذجيًا يُحتذىٰ .

ونحن نرجو أن نُنشئ في هذا المعهد قسمًا للواعظات ، وقسمًا للمربيات ، ودارًا للحضانة ، ومركزًا ثقافيًا شاملًا للمكتبة ، وقاعة الاستذكار والمحاضرة ، كلما ساعدتنا الظروف إن شاء الله .

ولقد كان نجاح معرض هذه الدار نجاحًا منقطعَ النظير، حضره نواب المنطقة وما حولها، وكبار المسئولين في وزارة الشئون، ومجموعة مباركة من كبار رجال العشيرة وأحبائها، من مختلف أرجاء العاصمة، كما حضره عشرات المئات من أهالي الحي.

ويكفي في تقدير هذا النجاح أن المعرض قد أقيم ليستمر ثلاثة أيام (وهو أول معرض محلي من نوعه في التاريخ بحي قايتباي)، ولكن الإقبال العجيب عليه لم يدع فيه شيئًا يُعرض أو يُباع بعد ثلاث ساعات لا غير.

ولهذه التجربة الناجحة ما بعدها إن شاء اللَّه، حتىٰ يَعرف الناسُ أنَّ المفاهيم الصوفية الإيجابية، من أعظم أسباب الدفع التقدمي والتجديد، بما يناسب حركة العصر في الخدمات العامة لوجه اللَّه.

ما هي المحمدية؟

وأخيرًا نكرر ما يجب أن يذكره كل أخ، وهو أن المحمدية كما نفهمها وندعو إليها: هي (طلب الكمال)، وهو فرض عين علىٰ كل مسلم ومسلمة، والتخلف عنه عمدًا معصية، لا يقبل معها عذر من معتذر، في الدنيا ولا في الآخرة.

والمحمدية لا تكلفك جديدًا، ولا تتحول بك عن مذهبك ولا عن مظهرك، ولا عن طريقتك، ولا عن شيخك، ولا عن اتجاهك الخاص أو العام، بل المحمدية أن تتمسك بما تعتقد أنت أنه حق، وبما تختاره لنفسك من مذهب ومشرب، ثم تكون محمديًّا بمعنىٰ أن ترتفع بمستواك الروحي والحسي معًا، بأن تكون صورة من جدك المصطفىٰ ﷺ، أو على

الأقل صورة من أحد صحابته أو تابعيه بإحسان، لا في الصورة الخارجية، بل في الواقع ونفس الأمر، قولًا وفعلًا وحقيقةً.

فالمحمدية وعاء صوفي سلفي طاهر، تتجمع فيه كل الآراء والمذاهب والأفكار والمشارب، مستقلة في نفوس أصحابها مهذبة متسامية، متكتلة في محيط هذه الدعوة؛ إذ المحمدية أساس التجميع والترميم والصيانة في بناء الإسلام، فافهم هذا وبشر به طلاب الحقيقة، والواقفين على باب الله، والذين يطلبون سيادة الكتاب والسنة، وعزة الإسلام والمسلمين، في غير تعصب ولا تطرف ولا انحراف.

كلمة الختام:

ولابد من الإشارة إلى ما نعانيه من متاعب شتَّى تضيق بها النفس، ويضيق بها الوقت، ويضيق بها الخلق والدين، فالله تعالى هو المسئول أن يفرج كروبنا، ويصرف عنا السوء، ويكشف عنا المتاعب، ويجزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويهدينا إلى محابه ومراضيه، ويتقبل منا بفضله، ويكتب لنا التوفيق والتأييد، وصلى الله على سيدنا المصطفى وآله وأمته إلى القيامة.

***

التَّوسلُ والوَسَاطةُ، والتَّصرِيفُ والمَدَدُ وتحقيقُ حديثِ الضَّريرِ وغيره، وآيةُ الزُّلْفَى وما يتعلق بذلك(١)

بماذا نتوسل ؟

مرة أخيرة نتحدث في هذا الموضوع باختصار، فنقرر أن إجماع أهل الحق من الصوفية على أن التوسل إلى الله بأحد من خلقه حيًّا كان أو ميتًا، ليس توسلًا بالذات البشرية، ذات الطول والعرض، والحجم والجرم، واللون والظل، والحيز المعين .

فليس معقولًا ولا مقبولًا أن يتوسل العبد إلى المعبود بكومة من لحم وعظم وعصب، وإلا فإن الفيلة والأبقار والجمال والدببة أضخم جثة من الإنسان .

ثمَّ إن ذات الذهب والفضة ومختلف المعادن الثمينة والأحجار الكريمة، أغلى قدرًا من ذات اللحم والعظم، فلو كان المتوسِّلُ المسلم يعني أن يتوسل بالذوات، لَذَهَبَ إلى ما هو أضخم، أو ما هو أَغْلَى «**ولا تنس بقرة موسى، وعجل السامري**» .

فتعين أن يكون توسل المسلم بذات الحي والميت إنما هو توسل بشيء آخر، غير الذات المتحيز الذي يشغل قدرًا صغيرًا أو كبيرًا من الفراغ الكوني .

هذا الشيء الآخر الذي يتوسل به المسلم، هو المعنى الخالد المحبوب

(١) غرة جمادى الآخرة (١٣٨٤) ٧ أكتوبر (١٩٦٤م)، العدد الحادي عشر ـ السنة الرابعة عشرة .

للحق تعالى في ذات عبده، من نحو الإيمان، والإخلاص، والمحبة، والصفاء، واليقين، والطاعة، والجهاد، والعلم، والصبر، والبركة، والمعرفة، والعمل الصالح، الذي تكون هذه الذات وعاءَه ومصدرَه.

وهذا المعنى المحبوب لله هو محور التوسل، وبه يكون التوجه إليه جل وعلا، وهذا المعنى خالد ملازم لحقيقة الإنسان في حياته الدنيا، وحياته الآخرة؛ لأن الجزاء في اليوم الآخر إنما يكون على أساسه.

وهذا هو مفهوم جمهور المسلمين، الذي به يعملون جميعًا في توسلهم بالحي والميت، تؤيدهم هذه الأدلة العقلية ثم النقلية معًا، أما تكريمهم لذات المتوسَّل به، فمِن حيث إن هذه الذات كانت ظرفًا ووعاءً، ومصدرًا للمعنى الكريم المحبب إلى الله، وهو الذي به يكون التوسل كما قدمنا.

أنواع التوسل وحديث الأعمى:

إنه لا خلاف بين طوائف المسلمين إجماعًا على ثلاثة أنوع من التوسل:

النوع الأول: توسل الحي بالحي الصالح إلى الله.

النوع الثاني: توسل الحي بالعمل الصالح إلى الله.

النوع الثالث: التوسل إلى الله بذاته تعالى وبأسمائه وصفاته ونحوها.

وبما أن هذه الأنواع متفق عليها، فلا داعي لسرد الأدلة.

وإنما الخلاف هو على التوسل بالميت الصالح، فمَنَعَه الوهابية ومن لفَّ لفَّهُم، أما جمهور المسلمين فأجازه إجماعًا؛ للدليل العقلي الذي أسلفنا، ثم للأدلة النقلية المتعاضدة، التي قد نكتفي هنا منها بحديث الأعمى؛ من

حيث إنه المحور الأكبر في هذا الباب ، وحوله غالبًا يدور النقاش .

روىٰ الترمذي بسنده عن عثمان بن حنيف : أن رجلًا أعمىٰ أتى النبيﷺ فقال : إني أصبت في بصري ، فادع الله لي ، قال : اذهب فتوضأ وصل ركعتين ثم قل : اللهم إني أسألك ، وأتوجه إليك ، بنبييّ محمد ، نبي الرحمة ، يا محمد إني أستشفع بك علىٰ ربي في رد بصري ، ثم قالﷺ : وإن كانت حاجة ، فافعل مثل ذلك . وفي بعض روايات الحديث خلاف يسير في الألفاظ ليس بذي بال .

ومن هذا الحديث أخذ الفقهاء مندوبية صلاة الحاجة ، فمن كانت له إلى الله تعالىٰ حاجة صلَّىٰ هذه الصلاة ، وتوجه إلى الله بهذا الدعاء ، مع ما يناسبه من الدعاء المأثور وغيره مما تمس إليه الحاجة .

ومنطوق الحديث حجة في صحة التوسل بالحي ، ومفهومه حجة علىٰ صحة التوسل بالميت ، على الأساس الذي قدمناه ، من أن التوسل بالحي أو الميت ليس توسلًا بالجسم ، ولا بالحياة ، ولا بالموت ، ولكن بالمعنى الطيب الملازم للإنسان في الموت والحياة ، وما الجسم إلا حقيبة لصيانة هذا المعنىٰ ، فاستوجب بهذا تكريمه حيًّا كان أو ميتًا ، علىٰ أن قوله «**يا محمد**» نداء للغائب الذي يستوي فيه الحي والميت .

حديث الأعمى والتوسل بالموتى :

ومع هذا فقد أخرج الطبراني في معجمه الصغير عن أبي أمامة بن سهل ابن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف : أن رجلًا كان يختلف إلىٰ عثمان بن عفان رضي الله عنه في حاجة له ، فكان عثمان لا يلتفت إليه ، ولا ينظر في حاجته ، فلقي

ابن حنيف ، فشكا إليه ذلك ، فقال له عثمان بن حنيف : إيت الميضأة فتوضأ ، ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ، ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي ، فيقضي حاجتي ، قال : وتذكر حاجتك ، ورُحْ حتى أروح معك . فانطلق الرجل يصنع ما قال له ، ثم أتى باب عثمان بن عفان رضي الله عنه فجاء البواب ، حتى أخذ بيده ، فأدخله على عثمان بن عفان ، فأجلسه معه على الطنفسة ، فقال : ما حاجتك ؟ فذكر حاجته وقضاها له ، ثم قال له : ما ذكرت حاجتك حتى كان الساعة . وقال : ما كانت لك من حاجة فاذكرها . ثم إن الرجل خرج من عنده ، فلقي عثمان بن حنيف فقال له : جزاك الله خيرًا ، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إلي ، حتى كلَّمْتَه - يريد أن ابن حنيف كَلَّمَه وتوسَّط له - فقال عثمان بن حنيف : والله ما كلَّمْتُه ، ولكني شهدتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاه ضرير ، فشكا إليه ذهابَ بصره ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أَو تَصْبِر ؟ فقال : يا رسول الله إنه ليس لي قائد ، وقد شق عليّ . فقال صلى الله عليه وسلم : إيت الميضأة فتوضأ ، ثم صلِّ ركعتين ، ثم ادع بهذه الدعوات . قال ابن حنيف : فو الله ما تفرقنا وطال بنا الحديث ، حتى دخل علينا الرجل كأن لم يكن به ضرٌّ قط . وهذا نص قطعي في صحة التوسل بالموتى .

تحقيق صحة حديث الضرير :

قال الطبراني : إنه حديث صحيح ، وذكر أن عثمان بن عمر تفرد به عن شعبة .

قال الشيخ ابن تيمية : إن الطبراني ذكر تفرده بمبلغ علمه ، ولم يبلغه رواية روح ابن عبادة عن شعبة ، وذلك إسناد صحيح ، يبين أنه لم ينفرد به عثمان بن عمر .اهـ

وحتىٰ لو سلَّمنا بانفراده به عن شعبة، وانفراد أبي جعفر عن عمارة، فهما ثقتان بإجماع علماء الحديث، وبهذا ينتفي تغريب الحديث عند الترمذي، وكم من حديث صحيح ولكنه غريب، كحديث «**إنما الأعمال بالنيات**».

قلنا: وبهذا يتحقق علميًّا أن الحديث صحيح علىٰ شرط الشيخين - البخاري ومسلم - ومع هذا فبعض مَن في صدورهم غرضٌ معين، يُضَعِّف حديث الأعمىٰ هذا من رواية الترمذي بحجة أن في سنده رجلًا غير معروف، والقاعدة عند علماء الحديث: أن المجهول عند واحد، إذا كان معلومًا عند غيره، فالحجة للعالم به، والمُثْبِت مقدم على النافي عند جميع أهل العلم.

وقد قال الترمذي عنه: حديث حسن صحيح غريب، لا يعرف إلا من هذا الوجه، من حديث أبي جعفر، قال: وهو غير الخَطمي - بفتح الخاء - ومعنىٰ هذا أن رواة الحديث مع مجهولية أبي جعفر عند الترمذي مقبولون.

وعلماء الحديث الذين سبقوا الترمذي حققوا أن أبا جعفر هذا المجهول عند الترمذي هو الخطمي بعينه، قال ابن أبي خيثمة: أبو جعفر هذا، الذي حدَّث عنه حماد بن سلمة، اسمه عمير بن يزيد، وهو أبو جعفر الذي يروي عنه شعبة، ثم روىٰ الحديث من طريق عثمان عن شعبة عن أبي جعفر.

قال ابن تيمية بعد أن روىٰ حديث الترمذي: وسائر العلماء قالوا: هو أبو جعفر الخطمي، وهو الصواب.

قلنا: وفي «**تقريب التهذيب**» للحافظ ابن حجر أنه الخطمي، وأنه

صدوق من السادسة، وفي «**الاستيعاب**» لابن عبد البر، أنه الخطمي كذلك، ثم إن الحديث كذلك رواه البيهقي من طريق الحاكم وأقر تصحيحه، وقد رواه الحاكم بسند على شرط الشيخين وأقره الحافظ الذهبي.

ومعنى هذا أن جميع رجال السند معروفون لكبار أئمة الحديث كالذهبي - وهو مَن هو تشددًا -، وابن حجر - وهو من هو ضبطًا وحفظًا وتحقيقًا -، والحاكم، والبيهقي، والطبراني، وابن عبد البر، وابن تيمية... إلخ.

ثم إن هذا الحديث أخرجه البخاري في «**التاريخ الكبير**»، وابن ماجه في «**السنن**»، ونص على صحته، والنسائي في «**عمل اليوم والليلة**»، وأبو نعيم في «**معرفة الصحابة**»، والبيهقي في «**دلائل النبوة**»، والمنذري في «**الترغيب**»، والهيثمي في «**المجمع**»، والطبراني في «**الكبير**».

وقد نص على صحته نحو خمسة عشر حافظًا، وهكذا جاء الحديث كما قدمنا على شرط الصحيحين: البخاري ومسلم، فلم يبقَ بعد هذا مطعن لطاعن، أو مغمز لمغتمز في صحة الحديث، وبالتالي في جواز التوسل بالحي والميت جميعًا، وأنف الكارهين في الرغام.

موضوع توسل الصحابة بالعباس:

وتوسُّل بعض الصحابة بالعباس ـ عم رسول الله ﷺ في الاستسقاء، بعد وفاة النبي ﷺ لا ينفي أبدًا صحة التوسل بالنبي ﷺ في قبره؛ إذ لا تنافي بين الأمرين، بدليل أنه بينما كانت طائفة تتوسل بالعباس لقرابته من النبي ﷺ، ومعنى هذا أنهم يتوسلون بالنبي.

كان بعضهم يتوسل إلى الله مستسقيا بالرسول في قبره، فقد أخرج ابن أبي شيبة عن مالك الدار بسند صحيح كما في «**فتح الباري**»، وأخرجه البخاري في «**التاريخ**»، وابن أبي خيثمة، والبيهقي: أن بلال بن الحارث الصحابي أتى إلى قبر رسول الله ﷺ أيام الرمادة -القحط- في عهد عمر وقال: يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا... إلخ.

وهو نص من فعل الصحابة في صحة التوسل بالميت، لم ينكر عليه أحد.

وقد روى ابن عبد البر في «**الاستيعاب**» سبب توسل الصحابة بالعباس، وهو لا يتنافى مع التوسل بالنبي ﷺ في قبره، بل هو هو، قلنا: لأن علة توسلهم به رضي الله عنه هي قرابته من الرسول ﷺ، فكأنهم توسلوا بالرسول وبعمه في وقت واحد.

وكلام الحافظ في «**الفتح**» يؤيد هذا الجانب، شأن جمهور علماء المسلمين، وهو معتضد بخبر فتح الكوى في سقف الحجرة المشرفة؛ توسلًا إلى الله في اللطف بالعباد.

علماء الأصول والتوسل بالموتى:

وعلماء «**أصول الدين**» هم أهل الاختصاص في هذا المجال، وليس لمنكر مِن بعد مقالهم مقال، فقد أجازوا التوسل بصالحي الموتى، وفي مقدمتهم علامة الدنيا الإمام فخر الدين الرازي في «**المطالب العالية**»، وإمام البيان العلامة سعد الدين التفتازاني في شرح «**المقاصد**»، وإمام الإعجاز العلامة الشريف الجرجاني في حاشية «**المطالع**»، وهم في ذلك

توجيهات وتفاصيل، ونُقُولٌ وفلسفات تؤكد ما يكون بين الزائر والمزور من المدد والإفاضة الروحانية، على نسبةِ منزلةِ كلٍّ منهما في الحياتين.

وفي «**مناسك**» الإمام أحمد - رواية أبي بكر المروزي - التوسل إلى الله تعالى بالنبيﷺ في قبره، وهناك صيغة طويلة للتوسل بهﷺ عند الحنابلة، ذكرها أبو الوفاء ابن عقيل في «**التذكرة**»، فلا خلاف عند كبار الحنابلة على ذلك.

وتوسل الإمام الشافعي بالإمام أبي حنيفة مذكور في أوائل «**تاريخ الخطيب**» بسند صحيح.

والاحتجاج على منع التوسل بالموتى بقصة «**ود وسواع**» احتجاج بما هو غريب عن موطن النزاع، فلا يلتفت إليه، لأن المغالطة شيء غير العلم.

آية الوسيلة:

بعد كل ما تقدم يظهر لك بغاية الوضوح والصراحة المطلقة علميًّا وعاطفيًّا أن قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥] أمر عام يشمل الوسيلة بالأحياء والأموات، بقدر ما يشمل الوسيلة بالمعاني الرفيعة والأعمال الصالحة.

والقول بتخصيص الآية أو تحديدها، إنما هو تحكُّم في دين الله، وشذوذ لم يقبله الجمهور من قبل، ولن يقبله من بعد، على علم وبصيرة وإيمان ومنطق مقنع مسكت ملجم كما رأيت.

الفرق بين الوسيلة والوساطة:

ولا بد من الإشارة هنا، إلى أننا نفرق بين التوسل والوساطة.

فالتوسل : هو الطلب من اللَّه تعالىٰ مباشرة مع الاستشفاع إليه بما يحب أو بمن يحب ، فاللَّه تعالىٰ هو المقصود المتفرد بالعطاء ، وهو المطلوب منه وحده .

وقد ثبت عند أبي داود : أن الصحابي قال لرسول اللَّهﷺ : إنما نستشفع بك على اللَّه ، ونستشفع باللَّه عليك . فأقر النبيﷺ الاستشفاع به إلى اللَّه ، ونهىٰ عن الاستشفاع إلىٰ أحد من الخلق باللَّه تعالىٰ .

فهذا هو التوسل : نقول اللهم إني أسألك ، أو أتوجه إليك ، أو أتوسل إليك بك ، أو بأسمائك ، أو ببركة فلان أو بحبه ، أو إيمانه أو يقينه أو نحو ذلك من عمله وعملك الصالح . . . إلخ .

والقائل اللهم إني أسأل بفلان – مباشرة – إنما هو يريد التوسل إلى اللَّه ببركته ، أو منزلته عند اللَّه ، أو عمله الصالح ، فكلامه ـ كما يقول علماء اللغة والنحو ـ علىٰ حذف مضاف ملحوظ في نفس المتوسل ، بقدر ما يناسب المقام ، وبهذا يُثْبِتُ المتوسِّلُ للَّه تعالى الفعل والترك المطلق ، ويقرر الاستعانة به وحده فيما يبغي ويطلب ، ويعترف له بالتوحيد المطلق الأكيد ، مع اعترافه بالتفريط في جنب اللَّه ، حتىٰ لا يرىٰ نفسه أهلًا للجرأة بالانفراد في الإقبال عليه ، فهو لهذا يطلب الوسيلة إليه .

أما الوساطة فشيء غير ذلك ، ليس من المسلمين رجل واحد يقول بها ، عَلِمَ أو جهل ، فهي طلب من ذات الوسيط ، وإيمان بأنه قادر على الفعل والترك ، دون التفات إلى اللَّه تعالىٰ من قريب أو بعيد ، أو مع التفات هو أدنىٰ إلى الشرك باللَّه ، أو لعله الشرك باللَّه ، وليس في المسلمين إطلاقًا من يعتقد أن لأحد مع اللَّه فعل أو ترك ، أو خلق أو رزق ، أو إحياء أو إماتة ،

وقول بعضهم : جهلًا أو خطأ أو عادة ، أو تقليدًا يا سيدي فلان ، إنما يريد يا رب سيدي فلان ، فكلامه كما قدمنا على حذف مضاف أو منادى ؛ إذ إنه يريد الاستشفاع به إلى الله فيُخطئه التعبير فقط ، ولكن لا يُخطئه التوحيد والإيمان ، وتسمية سوء التعبير شركًا جهل بالعلم والدين ، وإخراج لجمهور المسلمين من حظيرة الإسلام بغير حق .

آية ليقربونا إلى الله :

وقد بين الله تعالى كفر القائلين بالوساطة بطلبهم من وسطائهم مباشرة ، ولرفعهم إياهم إلى رتبة العبادة والفعل مع الله .

قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر:٣] ، فانظر إلى قوله ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ ، وانظر إلى قوله ﴿لِيُقَرِّبُونَآ﴾ وتأمل .

فقد أثبت تعالى في العبارة الأولى أنهم يعبدونهم ، وفرق كبير بين ﴿نَعْبُدُهُمْ﴾ وبين نتوسل بهم ، أو نستشفع بهم ، فالتوسل والاستشفاع غير العبادة لغةً واصطلاحًا ، وعقلًا وشرعًا ، وواقعًا وحقيقةً .

وهكذا ثبت أن الكفر والشرك كان بعبادتهم لوسطائهم ، ولم تتعرض الآية للتوسل ، ولا الاستشفاع بتاتًا ، فثبت أنه غير ممنوع ، ولا معنى لإقحامه فيما ليس منه ، تقليدًا أو تعصبًا ، أو حمقًا أو جهلًا ، أو ضيق أفق .

وفي العبارة الثانية أثبت تعالى أنهم عبدوهم ليقربوهم ، فقولهم ﴿لِيُقَرِّبُونَآ﴾ فيه إثباتهم قدرة الفعل والترك للمخلوقين ، الذين اتخذوهم وسطاء ، فجعلوهم آلهة بيدهم الأمر من دون الله ، ولا كذلك التوسل ،

الذي هو كما قدمنا طلب مباشر من الله انفرادًا، مع مزيد رجاء القبول بالتوسل والاستشفاع، ثم مع التماس الأماكن التي قد يُرجىٰ فيها رفع الدعاء وفيض السماء، مما تقل فيه المعاصي، كالمساجد والأضرحة.

وبهذا تظهر المغالطة الكبرىٰ في استشهاد بعضهم بهذه الآية علىٰ منع التوسل، فإنما هي منع للشرك، وهو شيء غير التوسل، وعلى الناس أن يسمُّوا الأشياء بأسمائها؛ حتىٰ لا يخونوا أمانة العلم والإنصاف والديانة.

ثم إن هذه الآية مما نزل نصًّا في المشركين، فَسَحْبُ حكمها على الموحدين نقل للحكم إلىٰ غير موضعه بلا وجه حق، وقد نص البخاري علىٰ أن هذه الطريقة إنما استحدثها الخوارج في دين الله، حينما عمدوا إلىٰ ما أنزل الله في الكفار، فطبَّقوه على المسلمين تعصبًا ومغالاةً بغير دليل.

من معنى قولهم: أهل التصريف:

والقائلون: بأن فلانًا من «**أهل التصريف**» مثلا: يريدون أنه من أهل الوجاهة عند الله، والقبول لديه، وأنه من أهل استجابة الدعاء، سواء كان نطقًا باللسان، أو توجهًا بالقلب، أو تحركًا للإرادة وكُنْه الهمة، في حدود ما جاء في الحديث القدسي الصحيح: «**ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه**»، وحديث «**أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**»، أو كما قالﷺ: «**رب أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره**»، وهو معنىٰ قول السادة: إن لله عبادًا إذا أرادوا أرادَ. ترجمة لقوله تعالىٰ ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠] فافهم.

فالمراد بالتصريف هنا هو تفضل الله تعالىٰ علىٰ عبده بإيقاعه تعالىٰ للأمر - كما سبق في علمه القديم - علىٰ مراد عبده الظاهري ، كما يجيء في دعائه القولي ، أو توجهه القلبي ، أو تحرك إرادته الروحية ، وذلك تنفيذًا لترتيب الأسباب والمسببات علىٰ مقتضىٰ ما في اللوح وأم الكتاب .

فليس العبد مصرِّفًا شيئًا مع الله ، ولكن الله تعالىٰ يتفضل فيصرِّفُ الأشياء كما هي في علمه ، علىٰ مراد أوليائه وأحبائه ظاهرًا ، تنفيذًا لسبق إرادته ، فأهل التصريف يعنون بهم أهل الفضل الإلهي ، الذين يُكرمهم الله بتحقيق مرادهم فيما يطلبونه من الكونيات ، سواء كان الطلب بالقول أو الفعل أو الهمة ، والهمة يَعْنِي بها كثير من الصوفية تحركَ الإرادة الروحية ، التي يجعلها الله سببًا عاديًّا من أسباب انفعال الأكوان بقدرته تعالىٰ ، ليحقق بها المطلوب لعباده الصالحين .

وبطريقة أخرىٰ : إن الله تعالىٰ يجعل عبده الصالح نفسه أداة من أدوات تنفيذ المراد الإلهي الأزلي ، الذي قد يظهر في صورة مراد العبد البشري .

ومثل ذلك : أن عيسىٰ كان يُبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتىٰ بإذن الله ، وكان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم ، وهو ليس إلا عبد أنعم الله عليه ، وليس له من الأمر شيء ككل عبد ، لكن الله جعل إرادة هذا العبد سببًا عاديًّا في سابق علمه ، وجعل هذا العبد أداة لتنفيذ المراد الإلهي ، الذي انفعلت به إرادة العبد البشرية ، ففاضت به من عالم الغيب إلىٰ عالم الشهود .

وهذا المقام خاص بالربانيين ، الذين هم علىٰ أقدام الأنبياء ، فكل ما يصدر عنهم ليس منهم ، فقد ذابت بشريتهم وفنيت إرادتهم ، وبقيت

روحانيتهم أثرًا لقيامهم في مقام المحبوبية، كما جاء في الحديث القدسي عن الله يقول: «**فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها**»، ومعنى هذا تجرده من كل شيء إلا من مظاهر انعكاس الصفات الإلهية عليه، فتظهر كأنها منه، وما هي إلا من الله.

وهو معنى قول السادة ﷺ على لسان الحق تعالى: عبدي أطعني أجعلك ربانيًا، تقول للشيء كن فيكون.

وقد بين الله طريق الدخول إلى هذا المقام فقال ﴿كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[آل عمران:٧٩]، فافهم ذلك لئلا تخطئ، أو تضل، أو تتجنى، ولم تكن تعلم.

من معنى قولهم: مدد يا سيدي:

والقائل: «**مدد يا سيدي فلان**» فهو إما يطلب المدد من الحي أو من الميت، فطلب المدد من الحي معناه طلب دعائه، وإرشاده، وروحانيته، وتوجيهه، وتربيته، وبركة صلاحه وتقواه، وما هو من هذا السبيل.

وطلب المدد من الميت معناه طلب التوسل به إلى الله، والاستشفاع به إليه تعالى في قضاء الحوائج، ودفع الجوائح، والتماس بركة مقامه عند الله، والاستمداد من مدد الله الذي أعطاه ﴿وَلَلْأَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء:٢١].

وفي أول هذا البحث أثبتنا أن التوسل إلى الله بصالحي الأحياء والموتى، ليس

معناه التوسل بالذات المشخصة من اللحم والدم والعظم والعصب، وإنما هو التوجه إلى الله بالمعنى الطيب في الإنسان الطيب، والمعنى الطيب ملازم للروح سواء تعلقت الروح بالجسم في الحياة، أو تخلصت من الجسم بالموت، واستقرت في برزخها على مقامها هناك و﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٦٣] ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأحقاف:١٩]، ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات:١٦٤]، ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨].

وهذا القدر من العلم البسيط هو الكم المشترك بين الجمهور المسلم، ثم ينفرد الخاصة من أهل الله بما يقرره الدين والعلم القديم والحديث، من إثبات الطاقات والقوى والسيالات والتيارات والأسرار الروحية، التي تنفعل لها الأشياء بقدرة الله، كسبب من الأسباب الطبيعية في سنة الله ونواميس الكون.

ولهذه الطاقات والقوى والسيالات آثار إيجابية مسلَّمٌ بها علمًا ودينًا، وتوجيهها من الإنسان إلى الإنسان، أو منه إلى بعض الأكوان، له ما له من التأثير العجيب عند أهل العلم والمعرفة قديمًا وحديثًا.

ولنضرب مثلا بالحسد أو بالتنويم المغناطيسي، وأثرهما محسوس مكرر، مقرر في العلم والشريعة، ويشهد لذلك مما نرى من قوة الشخصية وهيبتها، وضعف الشخصية وتفاهتها، وانعكاس هذا وذاك على الآخرين، فهذا من بعض معاني المدد عند المحققين، ولا يقولن قائل - عالم أو جاهل - إنَّ في هذا دعاءً لغير الله، أو طلبًا من سواه، فطالب المدد طالب خير من الله، وملتمس منه بوسيلة مشروعة، وهو صاحب استشفاع مستحب، كما أسلفنا ذلك.

وأساليب اللغة من حيث المجاز والاستعارة والكناية، والبلاغة في حذف المضاف، ثم واقع الأمر في ذات طالب المدد، كل ذلك يحمل عنه وزر الجهل والخطأ وحكم العادة، والنبيﷺ يقول: «**كفوا عن أهل لا إله إلا الله، لا تكفروهم بذنب، ولا تخرجوهم من الإسلام بعمل**»، وبهذا ينضم الدين إلى جانب الجاهل والمخطئ في التعبير بغير عمد ولا إصرار.

وقد قررنا أن المتوسل والمستشفع وطالب المدد، كلهم معترفٌ بذنوبه، مقرٌّ بعيوبه، متجردٌ من حوله وقوته، فهو لا يرىٰ نفسه أهلًا للمثول في الحضرة العلية، بما عليه من الأوزار والأوضار، وبخوفه حتىٰ من أن تكون طاعاته مدخولة مردودة، فهو يرجو أن يتقبله الله ويغفر له بتجرده من ظلمة علمه وعمله، ثم ببركة مَن يعتقد الخير فيه من أهل الله، فهو كما يتوجه إلى الله بخوفه من نفسه، يتوجه إليه تعالىٰ برجائه في حبه لغيره.

وهكذا يبدأ المتوسِّل - تذللًا وتواضعًا وانكسارًا - من مقام الخوف من الله والفقر إليه، إلىٰ مقام الرجاء فيه والثقة به، فانيًا عن ذاته وجهده، فيتردد بين فضلين ربانيين، لا يُخطئه أحدهما بإذن الله.

والأعمال أولًا وأخيرًا بالنيات، ولكل امرئ ما نوىٰ، والحديث النبوي يقول: ألا هلك المتنطعون. «**سددوا وقاربوا**»، «**ويسروا ولا تعسروا**»، وقد سُئل رسول اللهﷺ: أين التقوىٰ؟ فأشار إلىٰ صدره ثلاثًا يقول: التقوىٰ هاهنا.

التوسل بالجاه والحق للحي والميت:

يقول الألوسي في الجزء الثاني من تفسيره: أنا لا أرىٰ بأسًا في التوسل إلى الله

تعالى بجاه النبي ﷺ حيًا وميتًا، ويراد من الجاه معنى يرجع إلى صفة من صفاته تعالى، مثل أن يراد به المحبة العامة، المستدعية عدم رده، وقبول شفاعته إلى أن قال: بل لا أرى بأسًا بالإقسام على الله تعالى بجاهه ﷺ بهذا المعنى، والكلام في الحرمة كالكلام في الجاه. ا.هـ

قلنا: وقد جعل الله لخلقه عليه حقًا، فضلًا منه ونعمة، قال ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، وقال ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل:٣٨]، وقال ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[الأنعام:٥٤]، لطفًا وتفضلًا، لا وجوبًا ولا إلزامًا.

ومن هنا جاز الإقسام على الله بحقه وحق أحبائه، استغلالًا للهدية التي أهداها الله من فضله لعباده، وليس من الدين أن نرد هدية الله عليه.

وعليه جاء حديث أبي سعيد عند ابن ماجه الذي يقول فيه ﷺ: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك. وقد رواه ابن خزيمة في صحيحه من طريق فضيل بن مرزوق، وذكره رزيق ورواه أحمد بن منيع في مسنده، ولعلك تلاحظ أن السائلين هنا تشمل الأحياء والموتى.

وعليه جاء حديث عمر رضي الله عنه: لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي. أخرجه الحاكم في المستدرك بسند صحيح، وأخرجه الطبراني في الأوسط والصغير، وهو مما قد قبله مالك رضي الله عنه في مضمون ما روى ابن حميد من قصته مع أبي جعفر، كما أخرجه عياض رضي الله عنه في «**الشفاء**» بسند جيد.

وعليه أيضًا جاء حديث الطبراني في الأوسط والكبير، الذي يدعو فيه النبيﷺ لفاطمة بنت أسد ـ أمّ الإمام عليّ ـ عند قبرها، فيقولﷺ: اللهم ارحم فاطمة بنت أسد بحقّ نبيِّك، والأنبياء من قبلي. قال علماؤنا ورجال هذا الحديث ثقات كلهم، واختلف بعضهم في «**روح بن صلاح**» -أحد رواته- ولكن ابن حبان ذكره في الثقات، وقال عنه الحاكم: ثقة مأمون، وكلا الحافظين صحح الحديث، وهكذا قال الهيثمي في «**مجمع الزوائد**»، ورجاله رجال الصحيح.

وتلاحظ هنا أيضًا أن الأنبياء الذين توسل النبيﷺ بحقهم على الله في هذا الحديث قد ماتوا، فثبت جواز التوسل إلى الله «**بالحق**» وبأهل الحق أحياء وموتى.

وعليه كذلك جاء حديث أبي سعيد «**أسألك بحق السائلين عليك**»، وقد اختلف بعضهم في «**ابن الموفق وابن مرزوق**» من رواته، ولكن ابن الموفق لم ينفرد عن ابن مرزوق، وابن مرزوق من رجال مسلم، وابن الموفق شاركه في الرواية ابن منيع، وابن دكين، وابن فضيل، والحديث أخرجه ابن السني في «**عمل اليوم والليلة**» عن بلال، بسند ليس فيه ابن الموفق ولا ابن مرزوق ولا عطية، وقد حسَّنَه العراقي وابن حجر، وله شواهد ومتابعات شتى، وقولهﷺ هنا بحق السائلين شامل للأحياء والأموات جميعًا.

ولك أن ترجع الحق إلى معنى آخر كالفضل والبركة ونحوه، والباب واسع.

ملحقات هامة بالموضوع

التوسل بالبهائم:

من طرائف ما يُذكر عن فضيلة السيد العالم الصوفي الشيخ «**عبد ربه سليمان**» قوله في هذا الموضوع: إن الله قد شرع التوسل إليه «**بالبهائم**» في صلاة الاستسقاء، كما شرع فيها التوسل إليه بالأطفال، فهل يكون المؤمن الصالح حيًّا كان أو ميتًا، أقل عند الله منزلة من «**المواشي والأطفال**»؟ وهو ملحظ طريف بحق، وقياس منطقي ملجم.

الوسائل والمسائل:

نقول: إن في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]؛ إذ قدم العبادة على الاستعانة، الندبَ إلى تقديم الوسائل بين يدي المسائل، فتكون الوسيلة عملًا تعبديًّا من جانب، وتكون سنة كونية كسبب يترتب عليه المسبب من جانب آخر، ثم تكون الوسيلة أمرًا مطلوبًا، وشريعة مفضلة من قبل ومن بعد.

التزوير العلمي:

قوله تعالى ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، وقوله ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، ونحو هذه الآيات وما في معناها من الحديث الشريف كقوله ﷺ: «**إذا استعنت فاستعن بالله**»، له مفاهيم أساسية لا تقبل الجدل، منها أن الدعاء والاستعانة يجوز أن يكون بوسيلة، وبغير وسيلة؛ لإطلاق الأمر في النص بالدعاء والاستعانة دون قيد معين، لا في الكتاب ولا في السنة.

ومنها أن التحكم في الإلزام بالدعاء والاستعانة من غير وسيلة، نوع من التعصب لم يقم عليه دليل من هذه النصوص، ولا من غيرها؛ إذ الدليل مع غيره.

بل إن من أكبر أسباب الشقاق في هذه المسألة - وما هو منها، أو نحوها بين جمهور المسلمين، والمتمسلفة والوهابية - الإصرار على هذا التزوير العلمي والإطلاقات المبهمة.

ومن ذلك تسمية الأشياء بغير أسمائها، كما يسمون الزيارة: عبادة، ويسمون التوسل: شركا، ويسمون سوء التعبير أو الفهم كفرًا، وهكذا.

ومن ذلك نَقْل الأحكام إلى غير مواضعها، فينقلون أحكام الحلال والحرام تعسفًا ومجازفةً إلى أحكام الكفر والإيمان، في مثل مسائل الزيارة والتوسل ونحوهما.

ومن ذلك مخاطرتهم بالمغالطة في سحبهم الآيات التي نزلت نصًّا في الكافرين والمشركين والمنافقين، وتطبيقها على أهل القبلة، مع الفارق الأكبر من كل الوجوه؛ لِيَصِلُوا بالسفسطة إلى إخراجهم من دين الله بغير شرع ولا منطق، وليس ذلك إليهم ولا إلى أحد أبدًا، مهما كان شأنه، ولو أننا سمَّينا الأشياء بأسمائها، وبحثنا بروح العلم والإنصاف حجج الآخرين، وحقائق أحوالهم، وتَرَفَّعْنَا على المجازفة والمهاترة، لم يخرج موقفنا مع مسلم ـ مهما كانت مخالفته لغيره ـ عن حد النصح أو العذر، ولكان من وراء ذلك جمع الشمل وتوحيد الصف، والتفرغ لمواجهة ما هو أخطر وأنكر.

التوسل بالأدنى:

ولا يشترط أبدًا فيمن تتخذه وسيلة إلى الله، أن يكون أفضل منك أو من غيرك من المسلمين، فقد صح أن النبيﷺ لما استأذنه عمر في العمرة، قالﷺ له: «**لا تَنْسَنَا يا أخي من دعائك**».

وكذلك صح أن النبيﷺ أمر عمر أن يطلب الدعاء من أويس القَرنِي رضي الله عنهما.

وقد طلب النبيﷺ من أمته أن تدعو له بالوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود، وفي هذه المسائل الثلاث: طلب الأعلى ممن هو دونه.

وبهذا يندفع اعتراض بعضهم حين يقول: لعل الذي نتوسل به إلى الله لم يكن شيئًا مذكورًا عند الله، ثم إن الأمر أولًا وأخيرًا بحسب موضعه من النية والقلب، وَهَبْنِي أحسنتُ الظنَّ برجل مستور الحال، أو رجل غير ذي بال، فالله يجزيني على حسن ظني، ويجزيه على سوء فعله، والمسلم غير مأمور بأن ينقب عن قلوب الناس، كما ورد عن رسول اللهﷺ، بل نحاسب على الظواهر، والله يتولى السرائر.

معنى انقطاع عمل الميت:

حديث: إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث... إلخ، لا ينفي أبدًا جواز انتفاع الميت بعمل الغير، بل إن الحديث نفسه يثبت انتفاع الميت بعمل غيره، وهو الابن، فإن الابن غير الأب، وقد ثبت انتفاع الأب به، وقد بوَّب إمام المتمسلفة الشيخ ابن تيمية لانتفاع الميت بعمل غيره، وأثبت ذلك إثباتًا كاملًا، عقلًا ونقلًا، كما أثبته تلميذه ابن

القيم في كتاب «**الروح**» ، ورد سوء فهم قوله تعالىٰ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم:٣٩] فيرجع إليه .

والخلاصة أن انقطاع عمل الميت من الدنيا لا ينفي انتفاعه بعمل الغير فيها ، وأقرب الأدلة المكررة علىٰ ذلك صلاة الجنازة ، والصدقة والحج عنه ، والدعاء له ، وفي القرآن ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَانِ﴾ [الحشر:١٠] ، وهو نص في انتفاع الميت بعمل الحي ، فانقطاع العمل لا يعني انقطاع البركة والمدد ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٦٣] ، ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩] .

قصد المعالم المباركة :

وقصد الأماكن والمعالم المباركة التي يُرجىٰ فيها استجابة الدعاء والتوسل لسبب أو لآخر ، شرع منصوص ، كما حدث في ليلة الإسراء لسيدنا المصطفىٰ ﷺ ، حيث وهو في طريقه إلى المسجد الأقصىٰ ، نزل عن براقه فصلَّىٰ في عدة أمكنة معينة في كتب الحديث والسيرة ، ومنها طور سيناء ، ومولد عيسىٰ ، ثم إن في مشاهد الحج واختيار أماكن معينة فيه للدعاء والتعبد ونحوه ، أكبر دليل علىٰ ذلك .

التبرك بآثار الصالحين :

التبرك بآثار الصالحين جائز ، وقد نقل الحافظ العراقي في «**فتح المتعال**» بسنده أن الإمام أحمد بن حنبل أجاز تقبيل قبر النبي ﷺ وغيره تبركًا ، قال : وعندما رأىٰ ذلك الشيخ ابن تيمية عجب ، قال : وأي عجب في

ذلك ، وقد رُوِّينا أن الإمام أحمد تبرك بالشرب من ماء غسل قميص الإمام الشافعي ، بل قد رَوىٰ ابن تيمية نفسه تبرك أحمد بآثار الشافعي .

وفي «**الحكايات المنثورة**» للإمام الحافظ الضياء المقدسي ، أن الحافظ عبد الغني المقدسي الحنبلي أصيب بِدُمَّل أعجزه علاجه ، فمسح به قبر الإمام أحمد بن حنبل تبركًا ، فبرئ .

وفي تاريخ الخطيب : أن الإمام الشافعي كان يتبرك بزيارة قبر الإمام أبي حنيفة مدة إقامته بالعراق .

ولعل أصل ذلك :

أولًا : تبرك المسلمين بشعر النبي ووضوئه وسؤره وملابسه وإقراره ﷺ لذلك .

وثانيًا : ما جاء من أن فاطمة رضي الله عنها ، عندما زارت قبر أبيها سيدنا الرسول ﷺ قبضت قبضة من التراب ، وقالت الشِّعر المشهور ، ثم قبَّلت هذا التراب .

وثالثًا : ما ثبت من أن بلالًا مرَّغ خديه على عتبات الحجرة النبوية ، باكيًا بين يدي الصحابة ﷺ ، ثم لم يَرِدْ أن أحدًا من الصحابة أنكر عليه ، ولا على فاطمة .

ورابعًا : ما ورد عن ابن عمر من أنه كان يتبرك بوضع يديه مكان يدي رسول الله على منبره ﷺ . . . إلخ .

الحياة البرزخية :

حياةُ الموتىٰ عند اللَّه أتمُّ وأكملُ من حياة الأحياء على الأرض ، ودليل ذلك قوله تعالىٰ ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٠] ، ثم دليله ما ورد في الصحاح من اجتماع أرواح الأنبياء بالنبي ﷺ في ليلة الإسراء ، واحتفاهم المقدس به ، وما تبادلوه معه من خُطَبٍ ، وما حدث بينه وبينهم من أخذٍ وردٍّ في المعراج من سماء إلىٰ سماء ، مما يدل علىٰ أن حياة الأرواح موصولة بأهل الأرض .

ثم دليل آخر في موقفه ﷺ على المشركين الذين قتلوا يوم بدر وسحبوا إلى القليب ، وقد جعل يحدثهم ، فلما سُئل عن ذلك قال : ما أنتم واللَّه بأسمع منهم . وكل هذا ثابت في الصحاح لم يُمَارِ فيه أحد .

فإذا كان المشركون بعد الموت أشد سماعًا من المسلمين في الحياة ، فكيف يكون شأن موتى المسلمين ؟ ذلك مضاف إلىٰ حديث عرض الأعمال ، وقد بلغ رتبة التواتر أو كاد ، ويؤيده قوله تعالىٰ ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم﴾ [آل عمران:١٧٠] الآية .

ودليلٌ آخر في إخبار القرآن عن عذاب آل فرعون بالقبور ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦] ، ومقتضاه أن يكون هناك نعيم قطعي يُعرض الصالحون عليه غدوًّا وعشيًّا ، عدلًا من اللَّه وفضلًا .

ولا يكون العذاب ولا النعيم إلا للمدرِك الحي ، فالإنسان موجود في الدنيا بصورة خاصة ، وهو موجود كذلك بعد الممات ، ولكن بصورة

خاصة أيضًا، وإنما الموت انتقال من حال إلى حال، ومن دار إلى دار، فالإنسان بكل خصائصه ومميزاته موجود، سواء كان حيًّا أو ميتًا، ووجوده بعد الموت أكمل من وجوده الدنيوي، لتخلصه من قيود البشرية، وأغلال الحد والزمن، وتمتعه بالانطلاق الذي لا يعرف القيد ولا الحد، ولا الأوقات.

وقد أَلَّف في الحياة البرزخية غير واحد من علمائنا الأعلام، وفي صدرهم العلامة المحدث الشيخ اللكنوي في «**تذكرة الراشد**»، وقد قرر المرحوم الشيخ الكوثري أنه رأى في مخطوطات دار الكتب المصرية كتابًا عجيبًا، اسمه «**مصباح الظلام**» للشيخ محمد بن موسى التلمساني، حقَّق فيه حياة أهل القبور، وموضوع التوسل بالنبي ﷺ بما لا مزيد عليه.

الفاتحة لكذا أو لفلان:

أولًا: سورة الفاتحة قرآن، والتوسل إلى الله بالقرآن لم يمنعْه أحد، هو مندوب إليه، ولم يقل أحد أنه بدعة.

وثانيًا: قراءة سورة الفاتحة «**نفس حركة القراءة**» عمل صالح، والتوسل إلى الله بالعمل الصالح لم يمنعْه أحد، بل هو مستحب، ولم يستنكره مسلم.

وثالثًا: سورة الفاتحة هي الكم المشترك حفظه من القرآن من جميع المسلمين في مختلف الأوطان، وعلى مختلف المستويات، وما جاء في فضلها لم يجئ في فضل سورة سواها، ويكفي في جلالها أن تكون أساس كل صلاة، ورقية رسول الله ﷺ.

وهذه القضايا الثلاث لم يختلف عليها أحد من الأمة ، وهي أصول هذا الموضوع وملاكه ، فالقائل : «**الفاتحة لكذا وكذا**» متوسل إلى الله تعالى بشيء من كتابه ، ثم هو متوسل إليه بعمل صالح ، هو قراءة هذا الشيء من كتابه ، رجاء أن يقضي الله له كذا وكذا مما يهمه من حاجاته .

والقائل : «**الفاتحة لفلان**» حيًّا كان أو ميتا ، متوسل إلى الله بشيء من كتابه ، ثم هو متوسل إليه بعمل صالح ، هو قراءة هذا الشيء من كتابه ، رجاء أن يكرم الله الحي بما هو أهله ، وأن يكرم الله الميت بما هو أهله ، فيقضي بنعمته حاجة الحي ، ويرحم أو يرفع درجة الميت ، وكما ترى هو أمر من حيث الفقه سائغ مشروع ، ومن حيث المنطق بالغ مرفوع ، ثم هو مؤيَّد بالإجماع العام المجدد من الأمة ، وهي لا تُجمع على ضلالة قط ، «**وما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن**» ، فإنكاره هو المنكر الشنيع ، ونستغفر الله .

***

أمنيةٌ للنَّبِيِّ ﷺ وأمنيةٌ لأمَّتِه هل آنَ الأوانُ لتحقيقِها أيُّها المسلمون؟ (١)

بمناسبة حلول موسم الاعتمار وزيارة قبر سيدنا المصطفى ﷺ، كالمعتاد السنوي في رجب من كل عام، ننشر هذه الكلمة؛ عسى أن يكون لها رجيعها بين المسئولين والمختصين وأولي الأمر من المسلمين.

منذ سنوات قريبة، كتبنا ـ كما لم يكتب الناس عادة ـ نرجو أن ينتهز المسلمون فرصة تجديد أبنية المسجد الحرام، فيحققوا أمنية غالية من أماني سيدنا رسول الله ﷺ، لقي الله تعالى، وهي تجيش في صدره، وأمنية أخرى لأمته، فيها خير كثير، ورجونا أن ينعقد مؤتمر إسلامي عام يقرر تحقيق هذه الأمنية النبوية، والأمنية التي تتمناها الأمة الشاهدة على الناس.

وتتلخص الأمنية الأولى ـ الأمنية النبوية ـ في أن الرسول ﷺ كان يرجو أن يعيدَ بناء الكعبة على قواعد إبراهيم، فيُدخل فيها ما اختصره العرب منها، عند تجديد بنائها حينما قصرت بهم النفقة، قبل بعثته ﷺ بقليل، لولا قرب عهد العرب بالشرك، والتعصب للقديم

كان يرجو ﷺ أن يجعل بابها قريبًا من الأرض، وأن يكون لها باب من الشرق، وباب من الغرب، لدخول الحجيج وخروجهم.

---

(١) غرة رجب (١٣٨٤هـ) ـ ٥ نوفمبر (١٩٦٤م)، العدد الثاني عشر ـ السنة الرابعة عشرة.

وقلنا : إن عبد الله بن الزبير ﷺ كان قد حقق هذه الأمنية فعلاً في خلافته ، لولا أن تدخلت السياسة الملعونة ، فدمرت كل ما فعله ابن الزبير ، ثم ندمت السياسة ، ولات ساعة مندم .

وتتلخص الأمنية الثانية ، في أننا وقد أجزنا من قديم تغطية المسعى[1] ؛ دفعًا للضرر الأكيد الذي كان يصيب الناس من ضربة الشمس من فوق رءوسهم ، ومن التهاب الأرض من تحت أرجلهم ، وفيهم النساء والمرضى والشيوخ والعجزة .

فقد تعين بالقياس ، بل وبالنص ، وجوب تغطية المطاف لنفس العلة ، ثم لأن الطواف أكثر ممارسة من السعي ، فالنظر في تيسيره على الناس أمر لا يشك فيه عالم ولا جاهل ، ولا صوفي ولا وهابي ، ولا شيعي ولا خارجي .

ولقد عرضتُ الفكرة على كثير من إخواننا العلماء ، فأيدوها بالإجماع ، وعرضتُها على بعض إخواننا وأبنائنا المهندسين ، فوضع لها أحدهم تصميمًا رائعًا مهيبًا يناسب جلال الكعبة ، وتتلخص صورته في سقف من الزجاج أو البلاستك ، ينهض على أعمدة حديدية شاهقة ، في وضع فني يمنع حرارة الشمس ولا يمنع الضوء ولا الهواء ولا رؤية البيت الحرام من كل جانب ، ويعمل على مزيد إظهار جلاله وروعته .

ويمكن تقريب صورته بالبهو الكبير الخاص بركاب الوجه البحري في محطة سكة حديد القاهرة .

(١) إن من أهم ما يهم المسلمين أن يخطط المسعى تخطيطًا فنيًّا يجعل العربات التي تسعى بغير القادرين مسارًا خاصًّا ، لا يزعج السعاة ، ولا يذهب بحضورهم مع الله .

وفي كتابتي الأولى عن هذا الأمر ، أشرت إلى أحاديث الصحيحين وغيرهما في هذا الشأن - مجرد إشارة- لعلمي باستفاضة هذا الخبر عند أهل العلم .

غير أن بعضهم راح ينكر علينا ما قررنا ، وقد أعرضنا عنه في وقته ، حتى إذا تهيأت الفرصة اليوم لإعادة الكتابة في هذا الأمر الهام ، الذي أرجو أن يتبناه من هو أهله من المسلمين ، فإني أذكر بعض أدلته بإذن الله .

في الصحيحين «**واللفظ لمسلم**» : من طريق يحيى بن يحيى عن عائشة زوج النبيﷺ أن الرسولﷺ قال : ألم تَرَيْ أن قومك حين بَنَوْا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم ؟ قالت : فقلت : يارسول الله ، أفلا تردها على قواعد إبراهيم ؟ فقال رسول اللهﷺ : لولا حِدْثَانُ ـ أي حداثة ـ قومك بالكفر ، لفعلت .

فقال عبد الله بن عمر : لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول اللهﷺ ما أرى رسول اللهﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر ، إلا أن البيت لم يتمّم على قواعد إبراهيم اهـ .

نقول : وكراهة النبي لتجديد البيت ، مع حداثة عهد القوم بالكفر فيه حِكَم وأحكام :

أحدها : اختيار أخف الضررين ، فلعل القوم إذا رأوه فعل ذلك على جهلهم وعصبيتهم ، أصابتهم فتنة ، لا يعرف مداها .

وثانيها : أورد البخاري هذا الحديث أيضا في باب «**من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه ، فيقعوا في أشد منه**» ، ومعنى هذا أن الإسلام يُطبق علم النفس في منهج الدعوة ، وأنه يختار الأرفق والأوفق ، فيما لا يمس العقيدة ، أو يفسد العبادة .

قال الزرقاني: وفيه تقديم الأهم فالأهم من دفع المفسدة وجلب المصلحة، وأنهما إذا تعارضا بُدِئ بدفع المفسدة، وفيه سد الذرائع، وتلك غاية الحكمة والواقعية.

وثالثها: هذا التعليل الجميل الذي أدركه ابن عمر من أن الرسول ﷺ كان يستلم الركنين اللذين قاما على قواعد إبراهيم -وهما ركن الحَجر الأسود والركن اليماني- ويترك استلام الركنين الآخرين اللذين يقعان في الحِجر، لأنهما قاما على غير قواعد إبراهيم.

وفيه عن عائشة من طريق أبي الطاهر، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية -أو قال بكفر- لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله، ولجعلت بابها بالأرض، ولأدخلت فيها الحِجر**».

وفيه عنها من طريق محمد بن حاتم يقول ﷺ عن الكعبة: «**وجعلت لها بابين: بابا شرقيًا، وبابا غربيًا، وزدت فيها ستة أذرع من الحِجْر**».

وفيه عنها من طريق هناد بن السري، يقول ﷺ: «**ولا أن الناسَ حديثٌ عهدهم بكفر، وليس عندي من النفقة ما يُقَوِّي على بنائه، لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع، ولجعلت لها بابًا يدخل منه الناس، وبابًا يخرجون منه**».

وفيه عنها من طريق محمد بن حاتم أيضًا: أن النبي ﷺ حدَّثها فقال: «**فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه، فَهَلُمِّي لأريك ما تركوا منه، فأراها قريبًا من سبعة أذرع**».

ويؤخذ من هذه الأحاديث، وما في معناها مما هو في أعلى رتب الصحيح، الإذن للأمة بتحقيق أمل النبي ﷺ مفصلًا:

أولًا: في إلصاق باب الكعبة بالأرض، ليتيسر للناس الدخول إليها، ففي حديث الوليد بن عطاء قال ﷺ: «**أنهم رفعوا باب الكعبة تعزُّزًا ـ يعني تشددًا، أو توقيرًا ـ ألا يدخلها إلا من أرادوا**».

وفي حديث سعيد بن منصور قال ﷺ: «**ليدخلوا من شاءوا، ويمنعوا من شاءوا**» ولا مفاضلة في الإسلام.

والذي نراه اليوم من تعذر زيارة داخل الكعبة، واختصاص بعض الناس بذلك، يجعل هذا الحديث الشريف من أعلام النبوة.

ثانيًا: في قوله ﷺ أن يجعل لها بابًا شرقيًا، هو الباب القائم الآن، والباب الغربي يكون في مقابله، فتسهل الزيارة، ولا يحرم أحد بركة الباطن الشريف، وهكذا يكون معنى حديثه ﷺ باب يدخلون منه، وباب منه يخرجون.

ثالثًا: أما القدر الذي تركته قريش في الحجر من الكعبة، فهو خمسة أو ستة أو سبعة أذرع على خلاف في الروايات، أي بالتقريب، فهو تقدير قابل للحركة على مقتضى الواقع.

رابعًا: وهنا محل النظر، وموضع الأمل، وسبب هذه الكتابة، فهو قوله ﷺ: «**فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه، فهلمي لأريك ما تركوا منه**»، فقد كان عند النبي ﷺ أمل في أن يبني المسلمون البيت من بعده على قواعد إبراهيم، ثم قوي هذا الأمل وقرب في نفسه،

حتى اصطحب ﷺ زوجه عائشة ليريها صورة هذا الأمل على الطبيعة ـ كما يقولون ـ فهذا هو ما يحدونا إلى تجديد الذكرى لعلها تنفع المؤمنين .

ولقد حقق اللّٰه أمل النبي ﷺ يومًا قريبًا كما أراه اللّٰه ، ففي سنة ثلاث وستين للهجرة ، وقع الخلاف المعروف بين معاوية وعبد اللّٰه بن الزبير ، وأرسل معاوية رجاله إلى ابن الزبير في مكة ، وعلى رأسهم الحصين بن نمير الكوفي ، فحاصروا ابن الزبير ، وضربوا الكعبة المشرفة بالمنجنيق ، وألقَوا مع أحجار المنجنيق بالنيران ، وهم يرتجزون ويقولون :

خطَّارة مثل الغنيق المزْبِدِ نرمي بها أعواد هـذا المـسجد

فحطم الكعبة ، وأحرق ستورها ، وجعل المكيُّون يقابلون الرجز بالرجز فيقولون :

ابن نُمَير : بئـسما تـولى قد أحرق المقام والمصلى

وفي الصحيحين من حديث هنَّاد بن السَّرِيّ ، أن ابن الزبير قال : «**يا أيها الناس : أشيروا عليَّ في الكعبة ، أنقضها ثم أبني بناءها ، أم أصلح ما وَهَي منها**»؟

قال ابن عباس : فإني قد فُرِقَ لي رأي فيها ، أرى أن تصلح ما وهي منها ، وتدع بيتًا أسلم الناس عليه ، وأحجارًا أسلم الناس عليها ، وبعث عليها النبي ﷺ .

فقال ابن الزبير : لو كان أحدكم احترق بيته ، ما رضي حتى يُجِدَّهُ «**يجدده**» فكيف بيت ربكم؟

إني مستخير ربي ثلاثًا، ثم عازم على أمري.

فلما مضى الثلاث، أجمع رأيه على أن ينقضها، فتحاماه الناس، أن ينزل بأول الناس يصعد فيه ـ أي في البيت ـ أمرٌ من السماء، حتى صعده رجل فألقى منه حجارة، فلما لم يره الناس أصابه شيء، تتابعوا فنقضوه حتى بلغوا به الأرض.

فجعل ابن الزبير أعمدة، فستَّر عليها السُّتور، حتى ارتفع بناؤه (وهنا ساق حديث عائشة ـ خالة ابن الزبير ابن أسماء بنت أبي بكر ـ الذي سبق في نقض الكعبة وتعديل بنائها)، ثم قال ابن الزبير: فأنا اليوم أجد ما أنفق ولست أخاف الناس.

قال: فزاد فيه خمس أذرع من الحجر حتى أبدى أُسًّا ـ أظهر من أرض الحجر أساسًا ـ نظر الناس إليه فبنى عليه البناء.

وكان طول الكعبة ثماني عشرة ذراعًا، فلما زاد فيه استقصره، فزاد في طوله عشر أذرع -ارتفاعًا- وجعل له بابين أحدهما يُدْخَل منه، والآخر يُخْرَج منه.

فلما قُتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان، يخبره بذلك ويخبره بأن ابن الزبير قد وضع البناء على أُسٍّ -أساسٍ قديم- نظر إليه العدول من أهل مكة.

فلم يوافق إلا على الارتفاع فقط فنقضه الحجاج وأعاد بناءه.

لكن عبد الملك عندما تحقق من صحة حديث عائشة برغبة النبيﷺ

فيما كان قد فعل ابن الزبير، بما قرر الحارث بن عبد اللّه بن ربيعة من أنه سمعه كذلك من أم المؤمنين، قال عبد الملك: «**لو كنت سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بَنَى ابن الزبير**».

وبعد: فهذه قصة الأمنية النبوية مجملة ملخصة، وأرى أن الوقت قد حان لأن يتبنَّى تحقيق الأمنية من هو أهل لذلك ممن يوفقه اللّه تعالى، على أن تشترك في ذلك حكومات المسلمين جميعًا ماديًّا وأدبيًّا إن شاء اللّه.

وأن تُنْتَهَزَ هذه الفرصة للعمل على تظليل المطاف بما يناسبه ويحفظ حقوق الكعبة، كما ظلل المسعى من قبل تحقيقًا لأمنية الأمة جميعًا.

أما ما يرجى بعد ذلك من إكثار عدد صنابير زمزم، وتيسير الوصول إليها والحصول على مائها، فأحسبه يأتي من بعد تحقيق أمنية النبي ﷺ في إعادة بناء البيت على قواعد إبراهيم، وبعد تظليل المطاف، وإقامة سور فيه يفرق بين الرجال والنساء أثناء الطواف، رحمة بالنساء، واحتياطًا من الخطأ.

فإن ما يجده النساء في المطاف من المتاعب، بل والمهازل، بل والمآثم ليستوجب النظر المرن السليم العاجل في تخفيف هذه المتاعب العارمة، في جملة ما ينظر فيه من إصلاح للبيت الحرام، إن البيت الحرام ليس ملكًا لحاكم، ولا لدولة، ولكنه ملك للمسلمين جميعًا، وهم أصحاب الحق الأول فيه، واللّه المستعان.

***

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة